الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية

قسنطينة

كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية

قسم : العقيدة و مقارنة الأديان

تخصص : عقيدة

الرقم التسلسلي :......

رقم التسجيل :.........

موضـــوع البـــحث

الفكر الصّوفي
عند محمد بن يوسف السنوسي التلمساني

ت (895هـ/1489م)

دراسة في نظرية الجمع بين التوحيد و التصوف

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في العقيدة الإسلامية

إعداد الطالب :

خليفي الشيخ

إشراف الأستاذ الدكتور :

اسعيد عليوان

أعضاء اللجنة :

الاسم و اللقب :	الصفة :	الرتبة العلمية :	الجامعة الأصلية :
....	رئيسا	....	....
....	مقررا	....	....
....	عضوا	....	....
....	عضوا	....	....

السنة الجامعية : 1429هـ - 1430هـ / 2008 م - 2009 م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمان الرحيم

و الصّلاة و السّلام على رسول الله صلّى الله عليه و سلم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إهـــــــداء

أهدي هذا العمل :

إلى العالم الزّاهد الرّباني قطب التوحيد و شيخ العارفين الوليّ الصالح سيدي " محمد بن يوسف السنوسي التلمساني " رضي الله عنه و قدّس سره .

كما أهدي هذا العمل إلى والديّ الكريمين سبب وجودي سائلا الله تعالى أن يلبسهما لباس السّتر والعافية و أن يطيل الله في عمرهما .

كما أهدي هذا الجهد إلى رفيقة دربي زوجتي على تشجيعها لي و صبرها معي في إنجاز هذا البحث ، كما لا أنسى بنيتي الصغيرة منار الإسلام و ابني محمد بن يحي سائلا الله العلّي القدير أن ينبتهما نباتا حسنا و أن يبارك فيهما ...

آمين.

خليفي الشيخ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر و تقدير

الحمد لله أولا و أخيرا ، و الشكر له و الثّناء عليه بكرة وأصيلا ، على ما يسّر من أسباب النهوض و ما رزق من العزم على الإقدام عليه و القدرة على انجـــــــ ازه ، و التوفيق في تخطي الصعوبات المعترضة فيه .

و بعد حمد الله أتوجه بالشكر و التقدير إلى كل من مد لنا يد المعونة فـــي القيام بهذا العمل من حين كان مشروعا في الذّهن إلى أن استوى مكتملا على هذه الصورة ، سواء بالتوجيه و الإرشاد أو التنبيه إلى المصادر و الوثائق أو بالتـــــفضل بتقديم ما غفلنا عنه و لم نهتدي إليه من مادة البحث ، أو بالمساعدة في إخـــــراج المادي لهذه الرسالة .

و أخصّ بالشكر و التقدير أستاذي الدكتور " اسعيد عليوان " الذي تفضّـل بالإشراف على هذا العمل ، و أبدى من النصح و التوجيه ما كـــــان خير معين على الإنجاز و التنبيه إلى مواطن التقصير و الخطأ و الإرشاد إلى تداركهما و تلافيهما ، كما أتوجه بالثّناء أيضا إلى أخي الأستاذ " علال بوربيق " و أستاذي " جمال الدين بوقلي حسن " و غيرهما الذين تفضلوا بمساعدتي في الحصول على كثير من مـــــادة هذا البحث و وثائقه .

كما أتوجه بالثّناء أيضا إلى عائلة صهري الحاج" سجعي محمد الحبيب و حرمه و أولاده " الذين شملوني بعطفهم و كرمهم و عونهم لي في طبـــاعة و نسخ هذا البحث ...

و أدعو الله أخيرا أن يجزي خيرا كـل من كان منه عون على إتمام هذا العمل بأي وجه من وجوه العون .

و لا حول و لا قوة إلّا بالله العليّ العظيم ...

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

الموضوعـــــــــــات :	الصفحة
المقدّمـــة :...	11-01
الفصل الأول : السنوسي : عصره – حياته	12- 73
المبحث الأول : عصـــــره :..	13
أولا – الحياة السّياسية :...	14
ثانيا – الناحية الاجتماعية :..	17
ثالثا – الناحية الفكرية :...	19
◆ الفكر الشّرعي..	20
◆ الفكر العقدي...	23
الفكر الصوفي :..	27
– عوامل ظهور الحركة الصوفية في المغرب الأوسط :............	27
– التيارات الصوفية في المغرب الأوسط حتى القرن التاسع الهجري	33
– علاقة التصوف بالسلطة السياسية و الفقهاء وعامة الناس :.....	41

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثّاني : حياته 44

أولا: اسمه ونسبه وولادته 45

ثانيا : نشأته العلمية : 46

ثالثا : شخصيته العلمية : 47

رابعا : شيوخه و تلامذته :.......................... 48

خامسا : وفاته وما اتفق له في أيام مرضه :........... 53

سادسا: آثاره العلمية و الجديد الذي وقفنا عليه :........ 55

سابعا : منهج السنوسي في عرض المسائل و خصائصه :........... 60

ثامنا : موقف السنوسي من الفلسفة :....................... 63

تاسعا : هيمنة عقائد السنوسي على سلك التعليم بالغرب الإسلامي 65

عاشرا : مصادر تصوف السنوسي : 68

الفصل الثاني : مفهوم التصوف و مبادئه الأساسية عند السنوسي.. 74- 137

المبحث الأول : مفهوم التصوف 76

المطلب الأول : حقيقة التصوف وحكم الكلام فيه وموقفه من الصوفية 77

المطلب الثاني : التصوف وصلته بالزهد........................ 88

المطلب الثالث : التصوف وصلته بالذكر ومناسبة كل منهما للتوحيد.. 99

المبحث الثاني : المبادئ الأساسية للتصوف عند السنوسي :....... 111

المطلب الأول: تحكيم بالكتاب و السنة: 111

المطلب الثاني : ملازمة ا لتوبة :.............................. 115

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثالث : صحبة شيخ في التربية 124

الفصـــــل الثالــــث منهج السنوسي في التصوف............ 138-204

المبحث الأول : اعتماد العلم و العقل أساسا و منطلقا 140

المطلب الأول : حقيقة العلم وفضله وطرق الحصول عليه 140

المطلب الثاني : مفهوم العقل ومبررات الاعتماد عليه وحاجته للمنطق 149

المبحث الثاني :تأسيس القاعدة العقائدية على مبدأ البرهان......... 162

المطلب الأول : طبيعة مبدأ البرهان........................ 162

المطلب الثاني : البرهان العقلي على قضايا العقيدة 165

المبحث الثالث الدخول في الممارسة الصوفية.............. 187

أولا : مفهوم الممارسة الصوفية : 187

ثانيا : القلب مركز الممارسة الصوفية : 190

ثالثا : منازل السير إلى الله تعالى 194

الفصـــــل الرابع :النفـــس الإنســـانية عيوبها و مجاهداتـــها .. 205- 259

المبـــحث الأوّل : طبيعة النفس الإنسانية عيوبها وآفـــاتها :... 207

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا: حقيقة النفس الإنسانية.......................... 207

ثانيا : عيوب النفس العامة عند السنوسي 209

ثالثا : آفات النفس وعيوبها الخاصة 212

المبــحث الثانــي : بواعث آفــات النــفس الإنســانية 229

أولا : حب الرياسة والدخول في طريقها 229

ثـــانيا : الطـــمع 233

المبــحث الثالث : طرق التخلص من عيوب النفس 237

أولا :المجـــــاهدة :.. 237

ثانيا: المـــراقبة 242

ثالثا: التزم مقام الحزن 245

رابعا: حفظ الجوارح الظاهرة................................ 252

الفصـــل الـــخامس : الولاية و الكرامة و المكاشفة و الرؤى 260- 309

المبحث الأول : مفهوم الولاية و شروط الولي عند السنوسي....... 262

أولا : مفهوم الولاية 262

ثانيا : شـــروط الولي 267

ثالثا:الولاية والوصول إلى درجة النبوة....................... 270

المبحث الثاني:الكرامة و أقسامها وحكم وقوعها.............. 275

أولا:مفهوم الكرامة عند السنوسي.......................... ... 275

ثانيا:أقسام الكرامات 278

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثالثا : الكرامة واطلاع أولياء الله تعالى على بعض الغيب 281

رابعا : التحدث بالكرامات.. 286

المبحث الثالث :المكاشفة والمرائي عند السنوسي.......................... 289

المطلب الأول : المكــــاشفة 289

المطلب الثاني : الولاية و المرائي.............................. 300

المطلب الثالث : شرط الاعتبار بالكشف و الرؤيا.................. 303

الفـــصل السادس :تــــجربة السنــوسي الذوقيــــــة :........... 310- 351

المبـــحث الأول : مفهوم الذوق وعلامة صحته 312

أولا : مفهوم الذوق 312

ثانيا : علامة صحة الذوق 317

المبـــحث الثاني : شروط ومراحل الممارسة الذوقية و فوائدها 321

المطلب الأول : شروط الممارسة الذوقية ومراحلها 321

المطلب الثاني : الفوائد المترتبة على الممارسة الذوقية 332

المبحث الثالث : خصائص الممارسة الذوقية و بعض أورادها 336

المطلب الأول : خصائص الممارسة الذوقية : 336

المطلب الثاني : بعض أوراد و أذكار التجربة الذوقية عند السنوسي.. 343

المطلب الثالث : التجربة الذوقية السنوسية ماذا بقي منها ؟ و هــل يمكن الاستفادة منها اليوم ؟ 349

الخاتمة :.. 352

الفهارس :.. 356

فهرس الآيات : 357
فهرس الأحاديث :.. 362
فهرس الأعلام :.. 365
فهرس المصادر والمراجع 370
فهرست الموضوعات :.. 387

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدّمـــــــــــــــة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لقد كان الشيخ محمد بن يوسف السنوسي التلمساني (ت 895 هـــ/ 1489م) حريصا على تأسيس القاعدة العقائدية قبل خوض غمار التّجربة الصوفية الذّوقية في زمن اختلط فيه المصلح بالمضلل ، والمتعلّم بالدّجال و انتشرت فيه ألوان من الطرق الصوفية ، فقد كثرت في عصر الإمام الفتن و اشتدّ الصّراع بين السّلاطين كما أنّه في زمنه قد راجت سوق المتظـــاهرين بالعلم بصفة عامة ، و قد ساعد على ذلك انتشار التعصّب و الخرافات و الاشـــتغال بظـــواهر الشّرع و المنازعات الدّينية المختلفة ، ومعاداة العلماء بعضهم لبعض ، و غلبة الظّـــواهر الجافـــة واستخدام العلم و المعرفة لغرض المحاولات الدنيئة .

و من هنا كان السنوسي يأسى لما يدور حوله في المجتمع الزّياني من لهـــو في اللّـــذات وانشغال بالشهوات ، و لذلك حارب هذه الظّواهر و أدرك مبدأ أنّ الإنسان لا يـــستطيع إدراك الحقيقة إلاّ إذ جرّد عقله من الهوى ، و هو يركّز هنا على أمرين ، العقل و الهوى ، فالهوى يضرّ بالإنسان روحا و جسدا ، و لا يقمعه إلاّ العقل و هذا أشرف الأصول الأخلاقية عنده ، لـــذا نجده دائم الاشتغال على أن تكون سلوكات المؤمن السالك في الطريق إلى الله مـــضبوطة علـــى مقتضى المعارف العلمية و العملية لأنّه كما يذكر بعد بيان العلم الشريف ، التحريض في آخـــره على حسن العمل و ذكر ما يبعث العاقل على الجدّ فيما يحصل رضى الله المولى جلّا و علا .

فإذا أدرك الإنسان ، و المتعلم بالأساس هذه الحقيقة ثبت إيمانه بربّ العالمين وتحصّن من الجهل ، و أدرك بالعقل السديد ، و الفكر الباحث ، الغاية من الحياة ، فيدفعه ذلك إلى الطمـــع والطموح إلى الفوز بالتقوى ، لأنّ حقيقة السعادة ليست في العلم وحده ، بل و في العمل به .

و حتى يتحقق هذا الأمر عنده ينبغي شحن الأدلّة العقائدية بمعاني ذوقيـــة لأنّ تقريـــر الأدلة البرهانية للعقائد على التمام ثمّ وشحها بخطابات تصوفية ، تهزّ النّفوس النّائمة لتعظيم جناب الحق ، و يدخل بها الضّعيف مع القوي في سلك الانتظام ، سنّة الله تعـــالى في تقريـــر الأدلـــة ، لتضمّنها الهداية العامة ، و إنالة البغية لكل موفق يروم الحق ، أي إنّ سلوك ســـبيل المقـــدّمات المنطقية و العلمية إلى معرفة الله و الإيمان به ، سبيل قويم و صحيح ، و لكن يجب على المتعلّم أن لا يقف عند حدود ما دلّت عليه تلك البراهين و المقدّمات ، بل يتجاوزها إلى أن تصطبغ حياته

كلّها بصبغته ، لأنّ الإيمان بالله لئن كان مطلوبا لذاته باعتباره الحقيقة العليا ، فإنّه يطلب أيضا بما يحدث في الحياة العملية للإنسان من آثار تنعكس عليها بالتوفيق و الصّلاح .

و الإنسان لا تحصل له هذه الفائدة أبدا ما لم يكن إيمانه متأسّسا على القناعة العقلية ، فالإيمان عند الإمام لا يكون صحيحا ما لم ينظر صاحبه في أدلّته ، بمعنى أنّ ترقية الإيمان بالعقيدة الإسلامية من درجة الوراثة و التّقليد إلى درجة الإقناع و الإيقان ، و الوقوف على الأدلّة المثبتة للعقيدة من شأنه أن ينقل صاحبه إلى تزكية العمل السلوكي الذي هو ثمرة التّصور النظّري .

و من هنا يمكن القول من خلال هذا أنّ السنوسي لم يقدم على سلوك طريق التصوف و التزكية الأخلاقية إلاّ بعد إحكام العقائد و التوحيد بالأدلّة العقلية و البرهانية ،و للعقل دور أساسي في الوصول بالإنسان إلى هذه الغاية ،و هذا الجمع يكاد يشمل أغلب ما ألّفه الإمام، فالشيخ الإمام يرجع إلى العقل في السّلوك الأخلاقي ، فما يقضي به يجب عمله و إتباعه و ما لا يقضي به يجب الاحتراز منه و الابتعاد عنه و على الرّاغب في السّلوك أن يؤسّس نفسه على العلوم العقلية أوّلا ، ولا بأس عليه في أن يسلك طرق الصوفية إذا شاء بعد ذلك .

كما أنّ الحديث عن التجربة الصوفية عند السنوسي تدعونا إلى التأمل ، و خلاصته التعبير عن الحياة الذوقية بمصطلح "الذّكر" دون كبير اهتمام لكلمة التصوف ، مع ما يعرف عنه من دقّة في اللفظ ، وشغف باختيار مصطلحاته و تحديدها ، هذا لأنّ المعلوم عنده أنّ أركان الإيمان إنّما تغرس يقينا في تربة العقل ، في حين أنّ أركان الإسلام سلوك يصطبغ به الكلام والأعضاء ، كثيرون هم الذين آمنت عقولهم بالله ، و لكن سلوكهم ناقض مقتضيات هذا الإيمان وخاصمه و من هؤلاء جمع كبير كانوا على عهد السنوسي ، اتخذوا إيمانهم و علمهم سلّما للتّقرّب للحكام و العامّة ، كما استخدموا علمهم ومعرفتهم لأغراض دنيوية بحتة ؟ يتهارشون عليها تمارش الجهال بل أشدّ ، وزادوا على العامة بالجدال في الباطل ، و التكبّر على الإنصاف للحقّ ، و عدد أكثر من هؤلاء أنفسهم يملئون اليوم رحب الأرض .

إنّ السّبب العلمي في ذلك أنّ العقل ليس هو الدّافع الوحيد في كيـان الإنـسان إلى السّلوك بل يزاحم العقل و ينافسه في ذلك العصبيات و الأهواء و الأغراض و العواطف بأنواعها ، فإذا لم تتّصل و تمتدّ بين العقل وكيان الإنسان حلقة أساسية ، فإنّ العقل لابدّ أن يـصبح هـو المغلوب و المهزوم في هذا العراك ، و عندئذ تصبح قيادة السّلوك بيد هذه العوامل الأخرى المتمثّلة في العصبية و الأغراض و الأهواء و رياح العواطف المضادّة ، و هذه الحلقة المفقودة هي الإكثار من ذكر الله وربط النعم بالمنعم والدخول في الممارسة الصوفية الذوقية .

و تظهر تجربة السنوسي الذوقية أشدّ و أوضح في الفصول الأخيرة من كتابه "شرح أم البراهين" فقد أفرد في نهاية هذا الكتاب شرح لكلمة التوحيد و هي: "لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلّم" لأنّها بحسبه كلمة جامعة لكل معاني العقائد و لأنّها تنطوي تحتها مـن المحاسن ما يتشعشع القلب عند ذكرها بأنوار اليقين ، و هي ممّا يجب على كل مؤمن أن يعـتني بشأنها ، إذ هي ثمن الجنة و المنقذة من المهالك دنيا و أخرى ،كما تظهر بجلاء في القسم الثاني من كتابه : " المنهج السديد في شرح كفاية المريد " ، وغيرهما ، و من هنا يعتبر الكلام عن التجربـة الصوفية الذوقية عند الشيخ أمرا شرعيا ، لأنّها نتيجة عملية لمقدمات عقلية كان لابد للشيخ من يبلغها في مساره .

1- أهمـية الدّراســة :

- يعدّ السنوسي من العلماء الذين تصوفوا و أخذوا الطريقة ، و لكنّهم لم يتقيدوا بهـا بل تقيدوا بالقرآن والسنّة ، و قد أثّر كثيرا في العلماء الذين أتوا بعده بواسطة تلامذته و مؤلفاته ، وهذه خاصية تكاد تكون فريدة سوى عند بعض العلماء الكبار كـ " أبي حامـد الغـزالي " ، و أستاذ السنوسي " الإمام الثعالبي " ، و من هنا تظهر أهمية دراسة منهج الـسنوسي الـصوفي ودوره الفعال في إصلاح المجتمع ، و إدراك حقيقة ما وجد من صراع عبر تاريخ الجزائر بين طرق التصوف ، ولتلافي ذلك في الواقع الجزائري الحالي بغية تمتين الوحدة الوطنية .

- التلاحم القائم بين العقل و الذّوق عند السنوسي يدعو إلى الدراسة لفهمه ، و كيفية إنشائه لاستعانة به في الواقع ، كمسلك من مسالك التربية و الإصلاح .

2- الإشكــــال :

يعدّ التصوف مفهوما و سلوكا استحوذ على عقول المسلمين و لاسيما في عهــود الانحطاط فكثر أدعياؤه و أتباعه و لكنّه كان بين الفينة و الأخرى يظهر مفكر يــشذّ عــن القاعدة و يعمل على إرجاع الأمور إلى نطاقها رغم صعوبة ذلك ، حيث إنّ العصر يؤثر على معاصريه فيربطهم إلى سياقه ، و السنوسي عاش في عصر كثر فيه أدعياء التصوف و أتباعهم، كثر فيه المخدّرون للعقول المفقدين للأمة وعيها بذاتها ، و لما كان السنوسي عالما متــصوفا ومصلحا فهل يمكنه أن يتحرر من قيد مجتمعه الفكري - التصوف السلبي — و يشذّ عن ما كان في زمنه ، فيعيد للتصوف مفهومه الصحيح ، يربطه بالكتاب و السنة ، أم يسير في نطاق متصوفة عصره المنحرفين كثيرهم ؟ و يمكن أن نبلور هذا الإشكال في التساؤلات الآتية :

ما هو مفهوم التصوف عند السنوسي ؟ و ما هي أهم مبادئه عنده ؟ و كيف عبّر عن تجربته الذوقية ؟ و ما هو منهجه فيها ؟ و كيف مارسها ؟ و على ماذا تبنى ؟ و ما هي خصائصها ؟ و ماذا بقي منها ؟ و هل يمكن الاستفادة منها اليوم ؟

3- أسباب اختيار الموضوع :

إنّ من أهمّ الأسباب و الدّوافع التي حملتني على تفضيل هذا الموضوع على سواه تتمثّل فيما يأتـــــي :

- عدم و جود أبحاث و دراسات – فيمـــا أعلم – تناولت موضوع التصوف عند السنوسي بشكل مستقل ، و هذا برغم ما يوصف به أنّه رجل التصوف الأول في العهد الزياني ، فاجتهدنا للبحث في هذا الجانب عند الشّيخ الإمام .

- محاولة تفسير ظاهرة أساسية في المنظومة الفكرية الأخلاقية الإسلامية و هي نظرية الجمع بين التوحيد و الزهد و التصوف ، و ربط كل ذلك بالقرآن والسنة ، و ذلك من خلال ما كتبه علم من أعلام الجزائر في القرن التاسع الهجري .

- عودة ظاهرة التصوف إلى المجتمع الجزائري في العقدين الأخيرين من القرن الماضي بقوة ممّا يحتّم الاتجاه إلى دراسة التصوف من جديد من خلال علماء الجزائر و مفكريها لربط الحاضر بالماضي محاولة لفهم الحاضر الذي يصعب فهمه دون معرفة جذوره .

- إماطة اللثام عن بعض علماء الجزائر الكبار الذين كان لهم تأثير كبير تجاوز حدود الوطن ولكنّهم لم يأخذوا حظهم من العناية و الدراسة .

- و أمر آخر حبّب إليّ دراسة تراث هذا العالم يتمثّل في أنه عاش في فترة متـــأخّرة نـــسبيا "القرن التاسع الهجري" و الآراء قد اكتملت ، و المذاهب قد استقرّت ، و الرّحل منقطع للقراءة و التأليف و التّدريس فلا بدّ –كما بدا لي – أنّه سيمدّني من علمه و معارفه بالكثير .

- أخيرا.. استكمالا لبحث كنت قد قدمته لنيل درجة الماجستير تحت عنوان : - النظر العقلي عند محمد بن يوسف السنوسي – الذي اكتشفنا من خلاله على التلاحم القـــائم بـــين العقـــل والذّوق، فوجدت أنّ الدّراسة لا تكتمل إلا من خلال البحث في جانب الذّوق و التصوف عند الإمام .

4 – أهداف الدراسة : تهدف الدراسة إلى ما يلي :

- دراسة ظاهرة التصوف عند الشيخ السنوسي لكونه من العلماء العاملين الذين كان لهم الأثر البالغ في حفظ تراث هذه الأمة ، لأنّ من أبرز الجوانب التي ساهم هذا الإمام في إثراء مادتهـــا و تحقيق ما كتب فيها هو جانب التصوف و التربية و الأخلاق ، و لكونه أيضا يتميّز بطريقـــة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خاصة في عرض أدلّته ، و مؤلّفاته في هذا الجانب تعتبر موسوعة فريدة و مبسّطة لأدلّتها ، إذ كان من أكثر العلماء اهتماما بجمعها و شرحها .

- كشف مدى صحة القول بأنّ التّغلغل الذي شهده الفكر الصوفي بين أغلب طبقـات المجتمع في القرن التاسع الهجري ، - و لم يستثن من ذلك حتى العلماء - نجده أنّه قد خلّـف في جانب كبير الدّراسات الكلامية و المنطقية لكونها تقوم على العقل .

- تصنيف السنوسي من قبل كثير من النّاس على أنّه من المتصوفة الدّراويش الـذين عطّلـوا مسيرة الأمة و تقدمها فكريا و سياسيا بما أنتجوه من كتب و بما وجهوا الأمة إليه من علـم ، لا لشيء سوى أنّه عاش في القرن التاسع الهجري عصر التصوف السلبي و الكرامـات المزعومـة ، فأردنا أن نكشف إبطال هذا الزعم بدليله .

5 – الدراسات السابقة :

الدراسات التي تناولت فكر السنوسي قليلة و من أهمها : دراسة لأستاذنا جمال الدين بوكلي حسن – " الإمام ابن يوسف السنوسي و علم التوحيد "، و بحث أخر له بعنوان : " ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية و الواقع" ، و دراسة و تحقيق لأستاذنا : اسعيد عليوان – "محمد بن يوسف السنوسي و شرحه لمختصره في المنطق (دراسة و تحقيـق)" ودراسة بعنوان : " الإمام محمد بن يوسف السنوسي و منهجه في الاستدلال على العقيدة " لأحمد المصري ، و دراسة لصاحب البحث : خليفي الشيخ – " النظر العقلي عند محمد بن يوسف السنوسي "– إضافة إلى مجموعة من المقالات لأستاذنا : الربيع ميمون ..غير أنّ هذه الدراسات على رغم قيمتها العلمية إلاّ أنّها لم تفرد للتصوف عند السنوسي دراسـة مستقلة خاصة ، و من هنا جاء اختيارنا و تركيزنا على هذا الموضوع .

6 – منهج الدّراســة :

أمّا المنهج الذي اخترناه لبحثنا فكان منهجا تحليليا بالأساس مدعّما بالمقارنة و التعليل في بعض جوانبه الأخرى .

فقد فضلّنا الاستعانة بالمنهج التحليلي الذي شمل أغلب فصول هذا البحث ، و ذلــك لمناسبته لهذا النوع من الدّراسات ، كما نهجنا منهجا يقوم على التعليل في بعــض الفــصول ، بالإضافة إلى المقارنة من البحث المركّز على الفكر الصوفي ، و يأتي عملنا هذا نتيجة إيماننا بمــا للتّحليل و الموازنة بين الآراء و الأفكار من أهمّية ، شأنهما في ذلك شأن الملاحظة و التجربــة في حقل العلوم الطّبيعية .

ولعلّ خير دليل على ما ذهبنا إليه هو ما نجده من منهج عند السنوسي نفسه ، إذ كثيرا ما كان يعمد إلى استعراض الآراء العديدة و المتنوّعة و المختلفة ثمّ يردّ عليها .

7– المصادر و المراجــع :

لقد حاولت قدر المستطاع أن تكون المصادر و المراجع متعدّدة ومتنوّعة ، و هي تنقسم إلى مؤلّفات السنوسي ودراسات تناولت فكره .

أ – مؤلّفات السنوسي : لا أزعم أنّني رجعت إلى كلّ مؤلّفات السنوسي و إنّما رجعت إلى كتبه التي يتمحور حولها فكره و التي هي بمثابة ركائز لكتبه الأخرى ، فمن هذه المؤلّفــات "عمدة أهل التوفيق والتسديد" ، و " المنهج السديد في شرح كفاية المريد " ، و"شرح العقيــدة الوسطى"، و "شرح أم البراهين "...

ب – المؤلّفات التي كتبت عنه : الدّراسات و المؤلفات التي تناولت فكر السنوسي قليلة جدًا ، وبرغم قلّتها إلاّ أنّها أفادتني إفادة كبيرة في نضج هذا البحث – فبالإضافة إلى الدّراســات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

التي أشرت إليها سابقا - فقد اعتمدنا كثيرا على مخطوط " المواهب القدسية في المناقب السنوسية" للملّالي - تلميذ السنوسي - الذي أفادني إفادة عظيمة في هذا البحث ، كما اعتمدنا على شروح لبعض مؤلفات السنوسي على أم البراهين .

8 - الصعوبات : من أهم صعوبات هذا البحث :

- كثير من كتب الشيخ السنوسي لازالت مخطوطة يصعب الحصول عليها و الحاضر منها يصعب قراءة نصوصه لرداءة الخط و قدم الطبع .

- عدم دراسة الموضوع مما يجعله يكاد يكون في حدود علمنا جديدا .

9 - تخريج الآيات و الأحاديث :

أ - تخريج الآيات : اعتمدت في تخريج الآيات على رواية "حفص" وذلك لوجود أغلب التّفاسير بهذه الرّواية .

ب - تخريج الأحاديث : التزمت في تخريج الأحاديث بإحالتها إلى مضانها مرّتبة على حسب أهمية الكتاب بادئا بالبخاري فمسلم ... الخ

10 - تراجم الأعلام :

حاولت قدر المستطاع في هذا البحث أن أترجم لكلّ الأعلام الذين ورد ذكرهم في المتن، وكانت الطّريقة التي أتبعها في التّرجمة هي محاولة تقريب العلم من المصادر التي تكون أقرب إليه من غيره ، و قد كان معتمدي في ذلك على مصادرة أساسية ؛ فإذا كان العلم من الملوك و السّلاطين فالمعتمد هو كتاب : "الدّر و العقيان في بيان شرف بني زيان " للتنسي ، و إذا كان من العلماء فالمعتمد هو كتاب " البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان " لابن مريم ، إضافة إلى " نيل الابتهاج " للتنبكتي ، دون إغفال كتب التراجم الأخرى سواء القديمة منها أو الحديثة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

11 – الفهـــارس :

جعلت فهرسا للآيــات ، و ثانيــا للأحاديث ، و ثالثا للأعلام المترجم لهم ، و رابعا للمصادر و المراجع ، و خامسا للموضوعات و المحتويات .

12 – محاور البحث الرّئيسية :

اقتضت طبيعة الموضوع في تصورنا تقسيـــم هذا البحث إلى ستة فصـــول و خـــاتمة .

الفصل الأول : وقد عنونته بـــ : " السنوسي : عصره – حياته" ، و قد ضمّنته مبحثين اثنين ، حاولت في الأول دراسة الحياة السّياسية و الاجتماعية و الفكرية التي أحاطت به ، بمـــا يكشف عن المؤثّرات التي كان لها دور بارز في تكوين فكره ، و تناولت في الثاني دراسة شخصيته و تاريخ حياته من النّشأة إلى الوفاة ، و ما تميّزت به من خصال علمية و أخلاقية .

الفصل الثاني : و عنوانه " مفهوم التصوف و مبادئه الأساسية عند السنوسي" ، و قـــد ضمنّته مبحثين اثنين تحدّثت في الأول عن مفهوم التصوف و حقيقته عنده و حكم الكـــلام فيه وموقفه من الصوفية ، و عن التصوف و صلته بالذكر و مناسبة كل منهما للتوحيد ، و كيف أنّ التصوف عنده ثمرة و نتيجة من نتائج الإيمان ، و في الثاني عن المبادئ و المقومـــات الأســـاسية اللازمة لدخول ميدان التصوف .

الفصل الثالث : و عنوانه "منهج السنوسي في التصوف " ، و قد قـــسمته إلى ثـــلاث مباحث . تناولت في الأول اعتماد السنوسي العلم و العقل أساسا و منطلقـــا في التـــصوف ، وكيف أنّ العلم عنده أساس التصوف و إمام الأعمال و مصححها ، فكما أنّه لا فائدة للعلم بلا عمل ، كذلك لا ينفع علم بلا عمل . و عن العقل ومبررات الاعتماد عليه و حاجته للمنطق في ذلك ، و في الثاني عن ضرورة تأسيس القاعدة العقائدية على مبدأ البرهان ، و دور ذلك في إثبات وجود الغيبيات ، و تناولت في الثالث ضرورة الدخول في الممارسة الصوفية كنتيجة لما ســـبق ،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

على اعتبار أنّ المؤمن الحقيقي في نظر السنوسي ، هو من يسعى إلى طلب الحقيقة بعقله و قلبه ، و يتخذ لأحواله سيرة خاصة تليق به .

الفصل الرابع : و عنوانه " النفس الإنسانية عيوبها ومجاهداتها " ، و قد قسمته إلى ثلاث مباحث . تناولت في الأول طبيعة النفس الإنسانية وعيوبها عند االسنوسي ، و في الثاني بواعث آفات النفس الإنسانية حتى يسهل عليه علاجها وتطهيرها من أرجاسها ، و تناولت في الثالث مجاهدات النفس و طرق التخلص من عيوبها وآفاتها .

الفصل الخامس : و عنوانه " الولاية و الكرامة و المكاشفة و الرؤى " عند السنوسي و قد ضمّنته ثلاث مباحث ، تحدثت في الأول عن الولاية و شروط الولي عند الإمام ، و تطرّقت في الثاني إلى مفهوم الكرامة وحكم وقوعها و أقسامها عنده ، و في الثالث تحدثت عن المكاشفة و الرؤى باعتبارهما ثمرة للممارسة الصوفية و عن شروطهما في إثبات الأحكام الشرعية و قد تناولت فيها جميعا الأدلّة التي ساقها السنوسي وارتضها في ذلك .

الفصل السادس : و عنوانه " تجربة السنوسي الذوقية " و قد ضمّنته ثلاث مباحث ، تحدثت في الأول عن مفهوم الذوق عند السنوسي و علامة صحته ، و تطرّقت في الثاني لشروط و مراحل التجربة الذوقية والفوائد المترتبة عليها ، و في الثالث تحدثت عن خصائص التجربة الذوقية السنوسية .

الخاتمة : و تضمنت أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذا البحث .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول :

السنوسي : عصره – حياته

المبحث الأول : عصره .

المبحث الثاني : حياته .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأوّل :

عصـــــــــــره

تمهيـــــد :

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحديث عن عصر السنوسي يعني الحديث عن القرن التاسع الهجري ، فقد عاش الإمام في هذا العصر ، و الأهم هنا الحديث عن الناحية السّياسية و الاجتماعية و الفكرية ، إذ أنّــه لا يمكن أن يستقيم لنا فهم هذه الشخصية إلاّ إذا وقفنا على السّمات التي انطبع بها العصر الذي نشأ فيه و ترعرع ، لذلك ينبغي على كلّ باحث يتصدّى لدراسة شخصية علمية أن يقــدّم لــذلك بدراسة ذلك العصر ، فقد يكتشف في جوانب الحياة العامّة في تلك الفترة ما يعلّل بــه عوامــل النبوغ الفكري ، و التفوّق العلمي لتلك الشّخصية . و هذا دون توسع في سرد حوادث هــذا العصر لأنّ مجاله كتب التاريخ ، و إنّما القصد التمهيد لهذا الفصل عن حياة السنوسي بما يصوّر حالة العصر بوجه عام .

ليس هناك أصدق تعبيرا – فيما نعلم – و أجمع وصفا لحال المسلمين في المغرب الأوسط عموما و في تلمسان خصوصا في هذا العصر من وصف السنوسي لزمانه حيــث قــال فيــه : " فكيف لو رأى هؤلاء الأئمّة – يقصد أئمّة السلف السابقين – رضي الله عنهم زماننا الــذي أدركناه و الله المستعان و إليه المشتكى و لا حول و لا قوّة إلاّ بالله ، و هو آخر القرن التاســع الذي آن فيه خروج الدّجال و طلوع الشّمس من مغربها و نحو ذلك من الأشراط الكبرى فــإنّ زمانهم و إن كان على ما كان عليه فلم يخل من ظهور علماء عاملين و لا من وجود أوليــاء في معاملتهم صادقين ، بحيث يجد المسكين الطالب للآخرة من يصحّ الإقتداء به في أقواله و أفعاله ، ويجد من يعينه على عزمه و الزيادة في أحواله ، و أمّا زماننا هذا الصعب النّكد فلم يظهر فيه إلاّ قطاع طريق الله إن خالطهم أحد لأخذ علم أو دين ضلّ – إن لم يأخذ الله بيده – و اتخذ إلهــه هواه ، و إن أمسك بدأ عن المخالطة ليسلم لــه دينه و عقله إحتوشته حينئذ الشّياطين ، و أعانهم على ما قصدوا منه جهله فأنّ له السّلامة في كلتا الحالتين ، و كيف لــه بالنّجــاة في تعــاطي الخصلتين ، و كيف لا يبكي ، الذي في زماننا و غاية ما يتّصف به أكابر العلماء الــذين إلــيهم

المرجع في أمر الدّين و إقامته- لو وفّق الله – و أشرف أحوالهم أن يصيروا من أكابر أعوان الظّلمة على ظلمهم ، و المشاركة لهم في ذلك قولا و فعلا ، من غير مبالاة في ذلك ، كأنّهم سلبوا حقيقة دينهم و علمهم ، و أمّا من يظهر من أولياء زماننا ، فأكملهم من له حسن نيّة ، و قصد خير للمسلمين ، لكن تجد شياطين الجنّ و الإنس تحتوشه حتى يفسدوا عليه ذلك ، ويردوه – إن لم يعصمه الله – إلى أقبح حال ، و يغرونه بإظهار القبيح في قالب الحسن حتى يشاركهم ، فيما هم عليه من فاسد الخلال ، و إنّا إليه راجعون " [1].

و قد رأينا نعالج ذلك العصر بنظرة عجلى من خلال ثلاث نواح هي :
أولا – النّاحية السّياسية ، ثانيا – النّاحية الاجتماعية ، ثالثا – النّاحية الفكرية .

أولا – الحياة السّياسية :

أهمّ ما ميّز الأوضاع السّياسية بالمغرب الأوسط في القرن التّاسع الهجري ، هو استمرار تدخلات الدولتين المجاورتين ، من مرينيين وحفصيين للحدّ من شوكة الدولة التي عاش فيها السنوسي ، و هي الدولة الزيانية ، و تنصيب من يرتضونه من أمرائها على العرش و الإطاحة بكل من علا شأنه ، و قوي نفوذه ، وأصبح خطرا عليهم ، وقد كانت هذه التدخلات التعسفية تشكل الشغل الشاغل لملوك بني زيان منذ عهد "يغمراسن" [2] مؤسّس دولتهم ، فكانوا يبذلون معظم الجهود لردّ عدوان جيرانهم و الدّفاع عن حوزة بلادهم . و لعلّ موقع هذه الدّولة كان من أهمّ الأسباب التي جرّت عليها الويلات و الدّمار ، نتيجة للصّراع على تركة الموحّدين ، إذ كان

---

[1]- السنوسي – مكمل إكمال المعلم على شرح صحيح مسلم ، دط ، مكتبة طبرية ، الرياض ، السعودية ، دت : ج1ص 288- 289

[2]- هو يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد العبد الوادي أبو يحي (603 – 681 هـ) – (1206 – 1273م) ، أول من استقلّ بتلمسان من سلاطين "بني عبد الواد" بويع بالخلافة يوم مقتل أخيه زيدان بن زيان سنة 633هـ . انظر ، محمد بن عبد الله التنسي – نظم الدّر و العقيان في بيان شرف بني زيان ، تحقيق محمود بوعياد ، دط ، المؤسّسة الوطنية للكتاب،الجزائر، 1985م : ص 115 . و خير الدين الزركلي– الأعلام ، ط 5 ، دار العلم للملايين ، لبنان ، 1980م : ج 8 ص 206 – 207

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ولاّة هذه الدّول يتسابقون إلى وراثة الدّولة الكبرى- الأم – المنّهارة ، و يدّعي كلّ منـهم أنّـه الأحق بذلك الميراث[1] .

هذا و قد قضت الدّولة الزّيانية دهرا طويلا في مقاومة الخطر المريني الذي هدّد كيانها في فترات عديدة ، أبرزها فترة الحصار الطّويل لتلمسان سنة (698 – 706 هـ) [2] ، و عهد الاستيلاء المريني للمغرب الأوسط من (735 هـ إلى 749 هـ) ، و (753 هـ إلى 759هـ) [3] . غير أنّ ضعف الملوك المرينيين بعد وفاة " أبي عنان " [4] ، مكّن أمراء بني زيان من إحياء دولتهم على يد السلطان " أبي حمّو موسى الثاني " (760 – 791هـ) [5] ، و لكنّ بني مرين لم يتركوا فرصة لغزو المملكة الزّيانية ، طيلة عهد أبي حمّو الثاني ، قصد نهب خيراتها و تخريب عمرانها ، و إيقاد نار الفتنة بين أمراءها ، و إذا فشلت أثناء محاولتهم للقضاء على الدّولة الزّيانية ، و محو آثارها ، فقد كانت لتدخّلاتهم العديدة في المنافسات القائمة بين الأمراء الزّيانيين أثر سيئ في المجال السّياسي ، حيث أدّت أخيرا إلى مقتل السّلطان أبي حمّو الثاني [6] .

و بعد ذلك عرفت الدّولة الزّيانية فترة تمتاز بكثرة التّقلّبات السّياسية و الفتن القائمة بين الأمراء الزّيانيين المتنافسين على الحكم ، وكانت هذه الحوادث تنشأ ، في أغلب الأحيان ، بسبب ما كان يجده بعض أولئك الأمراء من تشجيع و مساعدة لدى ملوك بني مرين ، و ظلّ هـؤلاء

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] – أحمد بن سحنون الرّاشدي – الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ، تحقيق المهدي البوعبدلي ، دط ، وزارة الشؤون الدّينية و التعليم الأصلي، الجزائر ، 1973 م : ص 13

[2] – التنسي – نظم الدّر و العقيان : ص 130

[3] – عبد الحميد حاجيات – تاريخ دولة الأدارسة ، دط ، المؤسّسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 : ص 8

[4] – تولى السلطان المريني أبو عنان الحكم من سنة 749 هـ إلى سنة 759هـ و قد عيّنه أبو السّلطان أبو الحسن عند تحركه إلى إفريقيا واليا على تلمسان و المغرب الأوسط . التنسي- نظم الدّر العقيان : ص 149 - 150

[5] – هو أبو موسى الثاني تولّى الحكم من سنة 760هـ إلى سنة 791 هـ تحالف مع بعض القبائل المجاورة لتلمسان وكـان محمد بن السلطان أبي عنان ملكا عليها فحاصره مدّة من الزّمن تمكّن على خلالها من الاستلاء على تلمسان . المصدر نفسـه : ص 159 . و عبد الحميد حاجيات – أبو حمو موسى الثاني حياته آثاره ، دط ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائـر ، 1982م : ص 155

[6] – التنسي- نظم الدّر والعقيان : ص181. و أبوالقاسم سعد الله – تاريخ الجزائر الثّقافي ، دط ، الشركة الوطنية للنّشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981م : ج1ص29

يتحكّمون في مصير المملكة الزّيانية إلى سنة (813 هـ) حيث وضع السّلطان " أبو مالك عبد الواحد الزّياني "[1] حدّا لسيطرتهم و تدخّلاتهم و تمكّن من استرجاع عزّ الدّولة الزّيانية و قوّتها ، و بسط سلطته على سائر مناطق المغرب الأوسط و نبذ سيّاسة الذل و الاستسلام و تعويضها بسيّاسة الحزم و الهجوم على أراضي الدوّلتين المجاورتين للمملكة الزّيانية ، و عندئذ ظهر الخطر من الجهة الشّرقية ، حيث أنّ الحفصيين لم يهدأ لهم بال أمام هذه النّهضة السّياسية و الحيوية الجديدة ، حتى بسطوا نفوذهم على المملكة الزيانية ، و حلوا محلّ المرنيين في إيقاف كلّ مسيرة للزيانيين نحو تدعيم كيانهم ، و بسط سيطرتهم في سائر نواحي المغرب الأوسط ، و التّطلع إلى المناطق المجاورة لحدود بلدهم[2] .

هذا و ذلك أنّ الحفصيين لم يطمئنوا لما حدث من تخلّص "أبي مالك عبد الواحد" الزّياني من سيطرة المرنيين ، و من استرجاعه للمنطقة الشّرقية من المغرب الأوسط ، التي كان قد استولى عليها الحفصيون ، قبل ذلك ، فجمع الحفصيون الجيوش و نهضوا إلى تلمسان و استولوا على المدن الرّئيسية ، إلى أن دخلوا العاصمة الزّيانية بعد أن غادرها الأمير "أبو مالك عبد الواحد" فارّا إلى المغرب الأقصى سنة (827 هـ) ، ثمّ عاد الحفصيون إلى تونس بعد أن نصّبوا على عرش تلمسان أحد الأمراء الزيانيين ، يدعى " محمد بن الحمراء "[3] . و قد تكرّر مثل هذا التّدخل مرارا عديدة ، أثناء القرن التّاسع الهجري – أي في القرن الذي عاش فيه الإمام السنوسي – كلّما ارتأى بنو زيان نقض الدّعوة للحفصيين ، كما حدث ذلك في آخر إمارة محمد بن الحمراء (827 هـ إلى سنة 831 هـ)[4] .

---

[1] – هو أبو مالك عبد الواحد تولى الملك بتلمسان سنة 814 هـ إلى 827هـ في عهده تمكّن من الوصول إلى فاس و قاتل سلطانها محمد بن أبي طريق بعد أن أعطاه الأمان . التنسي – نظم الدّر و العقيان : ص 241

[2] – عبد الحميد حاجيات – تاريخ دولة الأدارسة : ص 09

[3] – أبو عبد الله محمد المدعو بابن الحمراء ، تولى الحكم مرتين ، المرّة الأولى من سنة 827هـ إلى سنة 831 هـ ، ثمّ أخرجه من تلمسان أبو مالك عبد الواحد ليتولى الملك بها سنة 831 هـ إلى سنة833 هـ ، ثمّ مات مقتولا بعد تحالف عليه ابن الحمراء مع عرب تلمسان ، و قد استقرّ السّلطان محمد بحضرة ملكه للمرّة الثانية في شهر ذي القعدة سنة 833 هـ ، ودام ملكه (84) يوما . التنسي – نظم الدر و العقيان : ص 241- 246

[4] – المصدر نفسه : ص 241

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذا و لم تكن البيعة بالخلافة للحفصيين- و ما ينجم عن نقضها من غزو و تخريب ودمار- السّبب الوحيد في الحدّ من شوكة الملوك الزّيانيين ، أثناء هذا الفترة ، بل كان تعرّض هؤلاء إلى ثورات اخوتهم و أبناء عمّهم من الأمراء المنافسين لهم على العرش الزّياني ، و ما يتبع ذلك من انضمام و تحوّل بعض قبائل العرب إلى الأمراء الثّوار ، و استيلاء هؤلاء على مدن النّاحية الشّرقية و غيرها ، على أنّ هذا الضّعف الذي أصاب الدّولة الزّيانية ، قد عمّ في أواخر القرن التّاسع الهجري سائر بلاد المغرب الإسلامي ، فكانت الكارثة الكبرى في الأندلس ، حيث استولى الأسبان على مملكة غرناطة (897 هـ / 1492م) [1] .

و هكذا نجد أنّ الدّولة الزّيانية تعاقب عليها الكثير من الأمراء و تداول على حكمها أيدي مختلفة ، فسادها الاضطراب السّياسي ، ممّا أدّى إلى تدهور الأوضاع ، في أغلب الأحيان .

ثانيا – الحياة الاجتماعية :

إنّ الأوضاع السّياسية المتردّية التي عاشتها الدّولة الزّيانية انعكست سلبا على الصّعيد الاجتماعي ، فقد أدّت كثرة الحروب و الغارات و ما أفرزه من فتن و تنازع الأمراء الزّيانيين فيما بينهم ، إلى انعدام الأمن و انتشار الرّعب و اللصوصية و الفزع في قلوب النّاس ، كما أدّت تلك الحروب المدمّرة إلى الانهيار الاقتصادي ، فقد نقصت الجبايات بالنّسبة للسّلطان الزّياني و زادت النّفقات لمحاربة الخصوم ، ممّا أدّى إلى تدهور الأوضاع فسادت الفوضى بالبلاد ، الأمر الذي نجم عنه سوء في المعيشة ، و انتشار الفقر ، وكثر اللصوص و قطّاع الطّرق ، و اشتدّ الغلاء ، فعمد النّاس إلى الغشّ و الاحتكار و تطفيف المكيال ، و قد وصف " التنسي" [2]– و هو من المعاصرين

[1]- عبد الحميد حاجيات – تاريخ دولة الأدارسة : ص 9 – 10. و أبو القاسم سعد الله – تاريخ الجزائر الثّقافي : ج 1 ص 29

[2] – هو محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي الفقيه الحافظ تتلمذ لابن مرزوق الحفيد و قاسم العقباني له عدّة مصنّفات منها : نظم الدّر و العقيان في دولة بني زيان ، وجواب مطوّل عن مسألة يهود توات ، أثنى عليه معاصره السنوسي كثيرا توفي سنة 899 هـ . أحمد بابا التنبكتي – نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، ط1 ، مطبعة السعادة ، مصر ، 1329 هـ : ص229 –230 . و ابن مريم – البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، دط ، 1986 :

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

للسّنوسي – هذا الوضع فقال :" وكان على أهل تلمسان بلاء عظيم من غلاء الأسعار ، و موت الرّجال ، و تثقيف من يخاف منه الفرار ، بلغ فيها الرّطل من الملح دينارين ، وكذلك من الزّيت والسّمن و العسل و اللحم ، و ذكر بعضهم أنّ الدّجاجة بلغت ثمانية دنانير ذهبا ، و كانوا يوقدون خشب دورهم ينقضونها لذلك " [1].

و علاوة على ذلك فقد أدّت تلك الحروب إلى تعدّد العناصر و امتزاج شعوب مختلفة الأجناس و الأديان عن طريق الهجرات المتتالية ، كما أنّ الطّوائف اليهودية و المسيحية عادت في هذا الوضع إلى الظّهور ، بل إنّ ملوك تلمسان خصّصوا لليهود أماكن للسكنى خاصّة ، قريبة من قصورهم ، كما حدث في القرن الثامن للهجري ، وكذلك خصصّوا أحياء لسكنى جنود النّصارى و المستوطنين منهم و تمتعّ هؤلاء و أولئك بالحماية التي منحتها الشّريعة الإسلامية لأهل الذّمة [2] .

كما التقى في هذا العصر إلى جانب السّكان الأصليين السودانيين و الصّحراويين والتّجار و الإيطاليين و الفرنسيين و الأتراك و الأندلسيين ، و هذا التّباين في الجنس أفرز اختلاف في العادات و الأعراف و الأخلاق ، فتكوّن منهم مجتمع تتخلّله الفوضى و يسوده الاضطراب و اللصوصية في كلّ شيء حتى في تزييف العملة ، و قد وصف " العقباني" [3] هذا الحال فقال : " إنّ فساد سكّة المسلمين و غشّ دارهم قد عمّ وقوعه بهذه البلاد العربية بأسرها ، و لم يقطع مادة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ص 248 . و محمد الحفناوي – تعريف الخلف برجال السّلف ، ط5 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، و المكتبة العتيقة ، تونس ، 1402هـ / 1982 م : ج 1 ص 164

1 – التنسي– نظم الدّر و العقيان : ص 132

2 – الفرد بل– الفرق الإسلامية في الشّمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، ط3 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1987م : ص 327

3 – هو محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني التلمساني أحد معاصري الشيخ السنوسي كان فقيها يترع إلى التصوف ولّي قضاء الجماعة بتلمسان إلى جانب أنّه من الرّحالة تتلمذ عن جدّه الإمام قاسم ، و أخذ عنه الونشريسي له عدّة مصنّفات منها : "تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشّعائر وتغيير المناكر" ، توفيّ سنة 871 هـ . انظر ، ابن مريم – البستان : ص224 . ومحمد بن عمرو الطمار – تلمسان عبر العصور ، دط ، المؤسّسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 : ص 224

ذلك جسيم ، حتى كادت رؤوس أموال الناس تنقرض من أيديهم الأسعار ، في كلّ شيء لطسيّ العدّ في المبيعات بالزّيوف حتى الأكرية فإنّا لله و إنّا إليه راجعون " [1] .

و الظّاهر أنّ هذا الوضع المتردّي في الحياة الاجتماعية هو الذي دفع به إلى تأليف كتاب "تحفة النّاظر و غنية الذّاكر في حفظ الشّعائر و تغيير المناكر " ألّفه استجابة لرغبة أبداها أحد المهتمّين بإصلاح المجتمع و تغيير المناكر ، و بيان موقف الشّريعة من البدع التي شاعت ، و طرق معالجتها [2].

و مهما يكن في ذلك العصر ، فإنّ سلطة العلماء كان لها أثر في المجتمع ، و لم يمنعهم ذلك الوضع المتردّي من أن يصدعوا بالحقّ ، بل وحتّى في مخالفة السّلطان الظالم فيمل يهواه ،كما حصل مع " السّنوسي حينما عزم على ختمّ التفسير ، و لمّا وصل في ذلك إلى سورة الإخلاص فعزم على قراءتها يوما و قراءة المعوّذتين يوما ، فمخافة أن يطّلع إليه السّلطان ، و يقرأ ختمّ التفسير بحضرته ، على عادة المفسّرين ، عزم على التّعجيل في قراءة السّور الثّلاث في يوم واحد ، حتى يتخلّف عن السّلطان و يفوته الحضور ، فكتب إليه معتذرا بغلبة الحياء ، و أنّه لا يقدر على التّكلّم هناك [3]. و ذلك دليل منه على عدم رضاه على سياستهم في إدارة شؤون المسلمين .

ثالثا – النّاحية الفكرية :

إنّ الضّعف و الوهن الذي أصاب النّاحية السّياسية في الدولة الزيانية ، انعكس سلبا على الحياة الاجتماعية ، و أسفر في النهاية عن شلّ للحركة الفكرية ، و تقليل لنشاطها ، و لكي نتبيّن صورة ذلك الوضع بقدر من الوضوح رأينا أن نتناوله بالتّحليل من الجوانب التالية : الفكر الشّرعي ، و الفكر العقدي ، و الفكر الصوفي ، مع التركيز على هذا الأخير بشيء من التفصيل و ذلك لصلته بموضوع بحثنا

1 - المرجع السابق : ص 224

2 - المرجع السابق : ص224

3 - ابن مريم – البستان : ص 16

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 / الفكر الشّـرعي :

أهمّ ما تميّز به الفكر الشرعي في هذه الفترة هو اتّجاه الشيوخ إلى تدوين ما كانوا يلقونه من دروس و مناقشات و تلخيصها و الجمود على الآراء الفقهية المالكية المأثورة ، يقول " المقرّي "[1] في وصف هذا الوضع عموما و استيائه من هذه الطّريقة : "و لقد استباح النّاس النّقل من المختصرات الغريبة أربابها ، و نسبوا ظواهر ما فيها إلى أمّهاتها...و انقطعت سلسلة الاتّصال ، فصارت الفتوى تنقل من كتب من لا يدري ما زيد فيها ، ممّا نقص منها لعدم تصحيحها وقلّة الكشف عنها... فاقتصروا على حفظ ما قلّ لفظه و نزر خطّه ؛ و أفنوا أعمارهم في حلّ لغوزه وفهم رموزه ، و لم يصلوا إلى ردّ ما فيه إلى أصوله بالتّصحيح فضلا عن معرفة الضّعيف من ذلك و الصّحيح ، بل هو حلّ مقفل ، و فهم مجمل و مطالعة تقييدات ، زعموا أنّها تستنهض النّفوس "[2].

هذا و قد غلب على فقهاء العهد الزّياني التعصّب لمذهب مالك ، لا تحيد عنه و لا تترك بل الأغرب من هذا أنّ مؤلّفات مالك الأصلية أهملت كأن لم تكن ، و عكف النّاس على مختصر "خليل "[3] و توضيحه و قراءته شرقا و غربا حتى لقد آل الحال في هذه الأزمنة كما يذكر " ابن مريم "[4] : " أن يقتصروا على المختصر في هذه البلاد المغربية... فقلّ أن ترى أحدا يعتني بـ

---

[1]- هو محمّد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر أبو عبد الله القرشي التلمساني الشّهير بالمقرّي . فقيه و أديب و متصوّف تولى القضاء بفاس توفّي في (758هـ أو 795هـ) ، دفن بتلمسان ، وهو جدّ صاحب نفح الطّيب . انظر : ابن مريم – البستان : ص 154 . و الزركلي – الأعلام : ج7 ص37 .

[2]- ابن مريم – البستان : ص 217

[3]- هو خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب المعروف بالجندي ضياء الدّين أبو المودّة ، مجمعا على فضله و رياسته نسبة مشاركة في فنون الفقه والحديث و العربية ، تفقّه على المنوفي وسمع من ابن عبد الهادي ، لـه عدّة مصنّفات منها : "شرح ابن الحاجب" في ست مجلّدات و"مختصر في فقه المذهب المالكي" ، والذي اشتهر به شرح على المدوّنة لم يكمله توفي بمصر سنة 769 هـ أو 776 هـ . المصدر نفسه : 96 – 100

[4] – هو محمد بن أحمد الملقّب بابن مريم الشّريف المليّتي المديوني، صاحب كتاب "البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان" احترف التعليم و قد ذكر أنّه واحد من المورّخين ولكن لم يترجموا له التّرجمة اللاّئقة بمقامه، فقد ذكره الحفناوي في كتابه "تعريف الخلف برجال السّلف"واكتفى بسرد أسماء رجال البستان . من مقدّمة كتاب ابن مريم " البستان" ،تقديم أحمد طالب، ديوان المطبوعات الجامعية : ص 2

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

"ابن الحاجب "[1] فضلا عن المدوّنة بل قصارهم الرسالة و المختصر فذلك ، من علامـــات درس العلم و ذهابه " [2].

و لعلّ من أهمّ الأسباب التي دفعت الفقهاء إلى الإكثار من الشّروح و المختصرات في المذهب المالكي و التّنافس فيها ، أنّه لم يكن يقرّب من أمير المسلمين و يحظى عنده إلاّ من علم "علم الفروع" فروع مذهب مالك ، و لقدّ عبّر " المرّاكشي " [3] على هذه الحال في كتابه : "المعجب" بقوله : " و لقد بلغ من أمور الفقهاء أنّ الخلفاء و الأمراء كانوا لا يقطعون أمرا في صغير من الأمور ولا كبير إلاّ بمحضر الفقهاء ، فبلغوا في أيّامهم مبلغا عظيما ، و لم يزل الفقهاء على ذلك ؛ وأمور المسلمين راجعة إليهم ، وأحكامها صغيرها و كبيرها موقوفة عليهم ؛ فعظم أمر الفقهاء ، وانصرفت وجوه النّاس إليهم ، فكثرت لذلك أموالهم ، و اتسّعت مكاسبهم – حتّى قيل فيهم :

أهل الرّياء لبستمونا موسكم كالذّئب أدلج في الظّلام العاتم
ملكتم الدّنيا بمذهب مالـــك وقسّمتم الأموال بابن القاسم" [4]

و النّاظر في كتب التراجم ، في هذه الفترة ، يجد أشياء كـثيرة في هـــذا الموضـــوع ، و نماذج عديدة من مظاهر الفكر الشرعي الغالب ، فنجد أنّ الذين كانوا يسمون علماء في هذه الفترة كانوا – في الغالب الأعم – ممن يعتنون ليس فقط بالفروع ، بل بما تفـــرّع عنـــها مـــن

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]– هو أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الدوني ثم المصري ، الفقيه المالكي المعروف بابن الحاجب الملقّب جمال الدّين ، كان والده حاجبا للأمير عز الدين موسك الصلاحي ، اشتغل بالقاهرة في صغره بالقرآن الكريم ، ثمّ بالفقه على مذهب مالك ، ثمّ بالعربية و القراءات ، صنّف في علوم العربية وفي أصول الفقه توفي سنة 640هـــ . ابن خلكان – وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، دط ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، دت : ج 3 ص 248 – 250

[2]– ابن مريم – البستان : ص 99

[3]– هو عبد الواحد بن على المراكشي (581 – 647 هـــ) ، (1185 –1250 م) من مؤلفاته "نبوغ المغرب في الأدب العربي " و " المعجب" ، و قد أملى هذا الكتاب الأخير إجابة لطلب وزير من خاصة النّاصر العبّاسي سنة 621 هـــ . الزركلي – الأعلام : ج 4 ص 176

[4] – عبد الواحد المراكشي – المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تقديم محمد سعيد العريان ، ومحمد العربي العلمي ، ط1 ، مطبعة الاستقامة ، القاهر ، 1949م : ص171

جزئيات تصل إلى التّوافه ؛ كأن يسألهم أحد النّاس : هل يجوز أخذ المقص من إنسان آخر ، أم يجب وضعه على الأرض و حينئذ يأخذه ؟ و هل يجوز وضع الكتب في الأرض ؟!.[1]

و الأمر لا يقتصر فقط على الفقه وحده ، بل إنّنا قدمناه كنموذج للفكر الشّرعي فقط، ومن الواضح أنّ هذا الوضع هو الذي جعل السّنوسي يرى أنّ هذا النّوع من العلماء قد حجّر الفقه الإسلامي ، و من هنا كان انتقاده موجّها على أشدّ ما يكون إلى علماء عصره ، يقول في شأن هؤلاء : "و تجد أذهان أكثر أهل هذا الزّمان جامدة صعبة الانقياد للفهم ، مائلة أبدا إلى ما لا يعني ، إن نُصحت لم تقبل ، و إن عُلّمت لم تتعلّم ، و إن فُهّمت لم تفهم ، و إن فهمت تفلّت منها فهمها عن قرب ، و إن بقي شيء منه بطرت ، و جعلته سلّما للدّنيا ، و لصحبة الظّلمة و التّقرّب إليه ، إلاّ من عصمه الله بفضله ، و ما أندر وجوده اليوم ، و لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم" [2] .

و قد ترتّب على هذا الحال أن نسّي النّظر في كتاب الله ، و حديث رسول الله فلم يكن أحد من أهل ذلك الزّمان – إلاّ قلّة قليلة – يعتني بهما كلّ الاعتناء و من أمثال ذلك : محمد بن سعيد العقباني ، و محمد بن عبد الله التنسي ، و الإمام محمد بن يوسف السنوسي ، الذين كانوا الأساس في الحفاظ على المدرسة الفقهية [3] المالكية بالمغرب الأوسط .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 - ابن مريم – البستان : ص 139 – 140

2- السنوسي – عمدة أهل التوفيق والتسديد – تحقيق عبد الفتاح بركة ، ط1 ، دار القلم ، الكويت ، 1982م . : ص 43

3- يقصد بالمدرسة الفقهية ، الطريقة التي ينتهجها الفقيه في استنباط الأحكام ، و تقرير الأدلة ، فيأخذها عنه و يتابعه عليها ، و بذلك تصبح تيارا و مسلكا يعرف به فريقا من العلماء دون غيرهم . توفيق الغلبزوري – مدرسة الفقه الظاهري بالأندلس قبل ابن حزم ، أعمال ندوة " ابن حزم الأندلسي – المنهج والمعرفة – منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالمحمدية ، سلسلة الندوات رقم (18)، ط1 ، جامعة الحسن الثاني ، المحمدية ، المغرب 1426هـ/2005م : ص 43

2 / الفكر العقدي :

استقرّ الإسلام في المغرب على صفاء مذهبي قوامه في الاعتقاد وحدة سنّية مبنية على منهج السلف المؤصل على النقل فهما و استدلالا ثم متطورة بعد القرن الخامس الهجري إلى منهج الأشاعرة الذي دعّم النقل بالعقل في تقريره للعقيدة و تحرير مسائلها ، و قوامه في الفقه – كما سبق بيانه – وحدة مذهبية على منهج مالك في تقرير الشريعة [1] .

إلاّ أنّه مع هذه الحالة فإنّ الفكر العقدي بالمغرب الإسلامي ، لم يعرف ذلك الازدهار الذي عرفه بالمشرق ؛ ذلك لأنّ العوامل التي أدّت إلى نضجه و ذيوعه هناك لم تتوفّر أمثالها في الدّيار المغربية ، ذلك أنّ هذه المنطقة لم تكن على غرار أختها في العالم الإسلامي ، و لعلّ من أهمّ الأسباب في ذلك ، أنّ هذه الجهة لم تشهد من الفرق الكثيرة المتعارضة التي يؤدّي احتكاكها ببعضها إلى حركة من الجدل ، و الصّراع الفكري الذي يمتدّ إلى مواضع العقيدة ، كما أنّ هذه المنطقة لم تشهد التحدّيات الفكرية الموجّهة إلى العقيدة كتلك التي شهدتها المشرق ، و لهذا السبب فإنّ الفكر العقدي ، بهذه المنطقة ظل دوما في موقع التبعية و التقليد لما ينشأ في المشرق من الاتجاهات و المذاهب ، و ما يحدث فيها من القضايا و التطورات [2] .

كما أنّ العلم الذي كان يهتم بالعقيدة ، إيرادا للاستدلالات ، وردّا للشّبه و تناولا للمتشابه ، و تأويلا لظواهر بعض الآيات ، كان يلقى معارضة من بعض أهل المغرب ؛ و هو ما يبدو في النكير الذي كان يواجهه من يتعاطى هذا العلم من قبل عموم العلماء مع تحريض أمير المسلمين عليه ، و من ذلك ما ذكره " المراكشي" بدقة بقوله : " و دان أهل ذلك الزّمان بتكفير كلّ من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام ؛ و قرّر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام ، وكراهة السّلف له ، و هجرهم من ظهر عليه شيء منه ، و أنّه بدعة في الدّين ، و ربّما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد ، في أشباه لهذه الأقوال ، حتى استحكم في نفسه بغض علم

[1] – عبد المجيد عمر النجار – فقه الإصلاح بين التربية والسياسة (ابن العربي و ابن تومرت نموذجا) ، ط1 ، مطبعة التوفيق ، المغرب ، 1997م : ص 09

[2] – عبد المجيد عمر النجار – فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1992م : ص 41

الكلام و أهله ، فكان يكتب عنه في كلّ وقت إلى البلاد بالتّشديد في نبذ الخوض في شيء منسه وتوعّد من وجد عنده شيء من كتبه " [1] .

و في نطاق هذا الوضع العام يمكن تمييز في حياة الفكر العقدي في المغرب الإسلامي إلى قرن السنوسي ، ثلاثة أطوار متميّزة [2] ، هي التالية :

أ – طور الفكر السّلفي : و هو ذلك الطّور الذي كان فيه أهل المغرب الإسلامي على طريقة السّلف في التّصور العقدي ، تلك الطّريقة التي تقوم على الإيمان بظاهر النّصوص و اجتناب الخوض في المتشابه ، و قد ظلّت هذه الطّريقة السّلفية متّبعة عند أهل المغرب على سبيل الغلبة إلى أواخر القرن الرّابع .

ب – طور الأشعرية المتقدّمة : فمنذ أواخر القرن الرّابع بدأ الأثر الأشـعري يظهـر بالمغرب و ينتشر شيئا فشيئا على يد تلاميذ " الباقلاّني " [3] ، و لمّا بسطت الدّولة الموحدية سلطانها على المغرب في منتصف القرن السّادس أصبح بها المذهب الأشعري هو السّائد ، و قد ظلّ هـذا بالمغرب إلى منتصف القرن السّابع ، جاريا على ما عرف بطريقة المتقدّمين [4] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] – المراكشي – المعجب في تلخيص أخبار المغرب : ص 172 - 173

[2] – عبد المجيد النجار – فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب : ص 41 - 45

[3] – هو أبوبكر محمد بن الطّيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني المالكي الأصولي المتكلّم ، اختلف في مولده ينسب إلى البصرة سكن بغداد . ولد بعد النصف الثني من القرن الرابع سمع الحديث من أبي بكر بن مالك القطيعي و علم النّظر عـن أبي عبد الله بن مجاهد الطّائي صاحب الأشعري توفي سنة 372 هـ . انظر ، عبد الحي بن العماد – شذرات الذّهب في أخبـار من ذهب ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، د ط ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، دت : ج3 ص 169 .

[4] – وهي الطّريقة التي جرى عليها الباقلاّني في كتابه "الإنصاف" ومن بعده الإمام الجويني في كتابيه "الـشّامل" و "الإرشـاد" و التي تقوم على الاستدلال بالنص المؤزر بالاستدلال العقلي، في غير خلط بالمسائل الفلسفية و المنطقيّة، إذ الرّد لم يكن موجّها إلى الفلاسفة بل كان موجّها في الأكثر إلى أهل الأديان و إلى الفرق الإسلامية الأخرى . انظر ، عبد المجيد النّجار – فـصول في الفكر الإسلامي بالمغرب : ص 44 . و حسن محمد الشافعي – المدخل إلى دراسة علم الكـلام ، ط2 ، مكتبـة وهبـة ، القاهرة، مصر ، 1991م : ص 86 - 89

ج — طور الأشعرية المتأخرة [1] : و قد بدأ تأثيرها يظهر منذ أواسط القـرن الـسابع الهجري ، إلاّ أنّنا بعد ذلك نلمح انحدارا واضحا و جمودا بيّنا لحق بالفكر العقدي ؛ يقول " عبد المجيد النّجار في هذا : " بعد الازدهار و النجاعة و الحيوية التي شهدها علم الكـلام في الطّـور السابق يبدأ في الهبوط شيئا فشيئا إلى حالة من الجمود والجدب ، فإنّنا ابتداء من مؤلّفات " محمد بن يوسف السنوسي "[صاحب] (العقيدة الكبرى ، و أم البراهين ، و العقيدة الوسـطى) ، نصادف شروحا لما في كتب الأقدمين من القضايا خالية من الجدة و من روح المواجهة الحقيقية ، و متّصفة بالاجترار "[2] ، وقد علّل هذه الحالة ، بكون القرون الوسطى خفت فيها غلواء الـشبه والتحدّيات المواجهة للعقيدة الإسلامية عمّا كانت عليه في القرون الأولى [3] .

و الواقع أنّه سبق " النّجار " في هذا الحكم القاسي على السنوسي كل مـن " لـويس غادريه" و" قنواتي " في كتابهما " فلسفة الفكر الدّيني بين الإسلام و المسيحية " حينما وسماه بكل علامات الجفاف و الاستقرار على التحجر عند حديثهم عن الأشعرية في فترة جمودها ، و أنّـه أقرب إلى التّقليد منه إلى النّظر بحكم نشأته في عهد " الجمود على التقليد "حيث لم يبق أثر على الخصوم [4].

غير أن الملاحظة السّطحية تكشف أنّ الذين تناولوا أعمال الـسنوسي لم يتخطـوا في دراستهم المقتضبة ، كتابه الواحد أو ما يزيد عنه قليلا ، و لهذا ، فما قالوه في هذا البـاب ، لا

[1] – تطلق الأشعرية المتأخرة على تلك المرحلة التي أصبح فيها علماء الأشاعرة يخاطبون في ردودهم من بين من يخاطبون طائفة الفلاسفة مستعملين في خطابهم المنطق الأرسطي والمقدمات الفلسفية ، ولقد وجدت هذه الطّريقة سبيلها إلى المغرب. عبد المجيد النجار - فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب : ص 45 ومابعدها .

[2] – عبد المجيد النّجار – مباحث في منهجية الفكر الإسلامي ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1992م : ص 177

[3] – المرجع نفسه : ص 119

[4] – لويس غارديه و ج . قنواتي– فلسفة الفكر الدّيني بين الإسلام والمسيحية ، ط2 ، دار العلم للملايين ، بيروت ،لبنان ، 1978م : ج1 ص 140

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يفي بالمطلوب ويدعو إلى الحذر ، ولقد شعر بهذا التّصور قبلنا بعض المستشرقين الذين ترجموا له أو نقلوا له شيئا من مؤلفاته إلى لغاتهم أمثال : " بروسلار " و " لوسياني " [1] .

و الواقع أنّ الفكر العقدي خلال القرن التاسع و العاشر قد شهد بعض الفتور و غلب عليه التقليد و الاكتفاء بإعادة العرض و اجترار الماضي ، فكان جلّ إنتاج هذه المرحلة شرحا أو تلخيصا أو نقدا لمؤلفات السابقين في غالب الأمر و يذكر أنّ هذا الحكم إنّما هو سائغ في حدود ما تكشف عنه المعلومات المتاحة ، و ذلك لوجود بعض المناطق المجهولة من تراثنا العقلي و منها هذه الفترة ، و لعل أبرز سمات هذه المرحلة [2] :

1 - سيادة أسلوب الحواشي و التقارير الملحقة بالمتون القديمة و شروحها على المؤلفات الكلامية .

2 - استقرار الأشعرية في أغلب مناطق العالم الإسلامي و منها المغرب الأوسط حيث الدولة الزيانية .

3 - زيادة التقارب بين علم الكلام والتصوف ، حتى صار متكلموا هذه الفترة لا يجدون بأسا - أحيانا - في أن يلحقوا لمؤلفاتهم في الكلام فصولا صوفية .

و الخلاصة أنّ ما آل إليه الفكر العقدي خلال هذه الفترة ، من الجنوح إلى الشروح والتلخيصات قد كان في بعض جوانبه استجابة لضرورات واقعية ملحة تمثلت في شيوع التقليد والاكتفاء به ، و الإعراض عن النظر ، و قد تنبه السنوسي إلى هذه الحال فقال في تحليل هذه الطريقة "ولقد ألف علماء السنة ..تأليف مختصرة ، اقتصروا فيها على سرد العقائد مجردة عن الأدلة ، لتحفظها العامة و من قصر عقله عن النظر ، ليرتقوا من معرفتها تقليدا إلى البحث عن أدلتها ، وما ذاك إلا أنّهم رأوا أكثر العامة لا يحسن العقائد و لو بالتقليد ، فأرادوا من نصيحتهم

[1] - جمال الدين بوقلي حسن - الإمام ابن يوسف السنوسي و علم التوحيد ، دط ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985م : ص 07

[2] - حسين الشافعي - المدخل إلى دراسة علم الكلام : ص 122

أن ينقلوها من مرتبة يخشى عليهم فيها أن يكونوا على اعتقاد مجمع فيه على الكفر إلى مرتبة مختلف فيها ، ولعلّها تكون سلما إلى المعرفة "[1] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

3 / الفكر الصّوفي :

لقد شهد الفكر الصوفي حيوية نشطة في سائر الأنحاء ، و قطع أشواطا بعيدة ، لاسيّما في القرن التاسع الهجري ، و هذا بخلاف الفكر الشرعي و الفكر العقدي ، و قد انتبه إلى هذا الأمر الكثير من الباحثين و الدارسين - بما فيهم حتى المستشرقين [2]- مما يستدعي منا تفسير هذه الظاهرة و تحليلها و ذلك من خلال ما يلي :

أ / عوامل ظهور الحركة الصوفية في المغرب الأوسط : لقد ساهمت مجموعة من العوامل في ظهور التصوف و المتصوفة في المغرب الأوسط و كان من أبرزها :

1 - العوامل الدينية :

فمثلما مهد للتصوف في المشرق بحركة زهدية قبل القرن الثاني للهجرة ، شهد المغرب الأوسط أيضا بداية من القرن الثاني إلى القرن الخامس للهجرة ، حركة زهدية ظهرت ملامحها الأولى في سياق الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب ، حيث استقر بتلمسان الزاهد "وهب بن منية" أحد كبار التابعين و الصلحاء و لما توفي أصبح قبره محل زيارة التلمسانيين [3]. و انطلاقا من القرن

---

[1] - السنوسي- عمدة أهل التوفيق و التسديد : ص59

[2] - ومن جملة ملاحظاتهم و تقريراتهم : أنه " عندما نتكلم عن التصوف أو مذهب الصوفية ندخل في ناحية من أروع نواحي الفكر الإسلامي .." . انظر ، شاخت وبوزورث — تراث الإسلام ، ترجمة حسين مؤنس و إحسان صدقي العمد ،مراجعة فؤاد زكرياء ، دط ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، نوفمبر 1978م : ج2 ص 226

[3] - يحي بن خلدون — بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، دط ، المكتبة الوطنية،الجزائر 1980م :ج1ص117

الثالث الهجري ـ 09 الميلادي – برزت حركة الزهد بشكل واضح ، مثلها" سيدي هيدور"[1] الذي اتّخذ من جبل وهران مكانا يتعبد فيه نسب إليه بعد ذلك [2] .

و خلال القرن الرابع للهجرة / 10 م أخذت حركة الزهد تتوسع ، إذ نقل عن " أبي القاسم عبد الرحمان الهمذاني المعروف بالخراز أو الوهراني " (ت411 هـ/1018 م) ، ملازمته بالقيروان للزاهد المتقشف " أبي العباس تميم بن محمد التميمي " مدة أربعة أعوام تأثر خلالها بالعلم و طريقته في الزهد القائمة على الورع و السّخاء و المروءة ، كما قام أبو القاسم الوهراني برحلة طويلة استمرت عشرين سنة ، زار خلالها أشهر بيئات الزهد و التصوف كالبصرة و بغداد و الحجاز و مصر و خراسان و نيسابور ، ثم الأندلس و أقام فيها مدرسا فتخرج على يديه كثيرا من الطلبة [3].

و في القرن الخامس الهجري/ 11م انتشرت مظاهر الزهد [4]، و اكتنفت أشهر مدن الدولة الحمادية ، إذ نزل ببونة أوائل هذه القرن الفقيه الزاهد " أبو عبد الملك مروان بن محمد الأندلسي " (ت 404 هـ/ 1048م) و أسس فيها رباطه ، و برع في الفقه و الحديث وشرح موطأ الإمام مالك ، و تخرّج على يديه العديد من الفقهاء و الزهاد . كما ساهمت دور الرباط هي الأخرى و مهدت لظهور حركة التصوف بالمغرب الأوسط و خاصة مع بداية القرن الخامس الهجري ، و ذلك درءا لخطر النصارى المتزايد من جهة الشمال ، و رغبة المؤمنين في نيل فضل الرباط الذي حث عليه القرآن الكريم و السنّة النبوية ، من ذلك ما قام به أبو عبد الملك مروان في أوائل القرن الخامس للهجرة/11 م بتأسيس رباط ببونة و مكث فيه يعلم و يصنف ،

[1] – لم نقف له على ترجمة في المصادر المتوفرة لدينا .

[2] – الطاهر بونابي – التصوف في الجزائر خلال القرن 6و7هـ / 12و13م (نشأته، تياراته ، دوره الإجتماعي و الثقافي و الفكر و السياسي) ، د ط ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، دت : ص 47 و ما بعدها.

[3] – المرجع نفسه : ص 50

[4] – يذكر بعض الدارسين أن الصوفية أصبحت ظاهرة اجتماعية بعد أن كانت مذهبا دينيا و ميتافزيقيا وذلك ابتداء من القرن الخامس الهجري ، وهذا بعد أن اصبح الصوفية يعيشون في زوايا (الخانقاه) و بأعداد متزايدة وبشكل مستمر مع جمع المريدين وقد بدأ شكل جديد من الصوفية يتكون . انظر ، **-djamchid (mortazavi) – le soufisme , poule balta , islame – civilisation et socitès ,edt . du rocher , paris , 1991, p 86**

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فأقبل عليه طلبة العلم من كل جانب فذاع صيته و كراماته التي أطبقت الآفاق ، و إلى يومنا هذا لا يزال موضع رباطه و مسجده محتفظا بتسمية سيدي بومروان بمدينة عنابة [1].

و لما دخل " عبد السلام التونسي "[2] إلى تلمسان قادما إليها من أغمات سنة 486هـ/1093م و أسّس بها رابطة مكث فيها يلقن طلبته التصوف إلى غاية وفاته 512هـ/1118م . و كما كانت تقام الربط على سواحل البحر كانت تقام أيضا على ضفاف الأودية و في قمم الجبال العالية لتؤدي الوظيفة التي أنشأت من أجلها و هي وظيفة الحراسة و انتظار العدوّ . و مع بداية النصف الأول من القرن السادس للهجرة ، و نتيجة لإحكام الموحدين سيطرتهم على البحر المتوسط و تأمين سواحل المغرب الأوسط تلاشت وظيفة الربط في الحراسة و انتظار العدوّ فاتجه أهلها إلى ممارسة العبادة و الذّكر و كل ما تصلهم من فنون المعرفة بالله سبحانه وتعالى [3].

و الرباطات هي بناء صغير يعتكف فيه الشيخ الصوفي وحوله تلامذته المريدين ينهلون من علمه و طريقته في التصوف ، و بدورهم كان المريدون الذين ينتهون من الأخذ عن كبار مشايخ التصوف في كل من بجاية و تلمسان [4] ، و غيرها من حواظر المغرب الأوسط يعودون إلى أماكن إقامتهم في البوادي و الأرياف ، و يقيمون رابطات تقليدا لرابطات مشائخهم ، و بهذه الكيفية ساهمت الربطات في نشأة التصوف و انتشاره بالمغرب الأوسط .

[1] - الطاهر بونابي - التصوف في الجزائر خلال القرن 6و7هـ / 12و13م : ص 59

[2] - سيدي عبد السلام التونسي دفين تلمسان دفن سيدي أبو مدين بجواره في روضته قرأ على عمه" عبد العزيز " نزل تلمسان في الرهبان كان عالما زاهدا من أكابر أولياء الله تعالى لا تأخذه في الله لومة لائم يلبس الصوف ، و يأكل الشعير من حرث يده و السلاحف البرية إلى أن مات رحمة الله عليه و قبره بالعباد . انظر ، ابن مريم – البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان : ص122

[3] - الطاهر بونابي - التصوف في الجزائر خلال القرن 6و7هـ / 12و13م : ص 60- 62

[4] - عبد العزيز فيلالي – تلمسان في العهد الزياني ، دط ، موفم للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2002م : ج2 ص 387

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2- المصنفات الصوفية :

من العوامل الأخرى التي ساهمت في انتشار التصوف بالمغرب الأوسط المؤلفات الصوفية التي دخلت إلى هذه المنطقة من العالم الإسلامي ، إذ أنّه عن طريق رحلات الحج و الـرّحلات العلمية ، دخلت مجموعة كبيرة من المصنّفات الصوفية المشرقية إلى المغرب و الأندلس و أبرزهـا و أكثرها تأثيرا و رواجا في الحياة الصوفية ، كتاب الرعاية " للحارث بن أسـد المحاسـبي "[1] ، و قوت القلوب " لأبي طالب محمد بن علي المكي " [2] ، و الرسـالة القـشرية " لأبي القاسـم القشري [3] ، و إحياء علوم الدين " لأبي حامد الغزالي " [4] ، فانتصب العلماء و الصوفية لتدريسها بعد أن كانوا تلقوها من مؤلفيها ، أو سمعوها في مجالس الدرس عن المشايخ و الصوفية .

و ممّا تجدر الإشارة إليه أنّ هذه المصنّفات هي من أكثر المصادر الصوفية التي نجـدها تتكرر باستمرار مع الشيخ محمد بن يوسف السنوسي و لا سيما في المسائل الصوفية التي يوردها

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 – الحارث بن أسد المحاسبي من مشايخ القوم عالم بعلم المعاملات و الإشارات له كتاب الرعاية ، و هو أستاذ أكثر البغداديين توفي سنة 243هـ . انظر ، أبو عبد الرحمان السلمي – طبقات الصوفية ، تحقيق نور الدين شريبة ، ط3 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، 1986م : ص 56

2 – هو أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي الواعظ ، رجل صالح مجتهد في العبادة و الرياضة له مصنفات ، أهم كتبـه قوت القلوب ، توفي سنة 386هـ . انظر ، ابن خلكان -- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، دط ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، دت : ج4 ص303 .

3 – الإمام الزاهد أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري الخرساني الصوفي المفسر صاحب الرسالة في علم التصوف ولد سنة 375هـ . كان عديم النظر في السلوك و التذكير في زمانه من أهم كتبه "نحو القلوب " توفي سنة465هـ . انظر : المصدر نفسه : ج 3ص 205- 207 . و مقدمة كتاب : الرسالة في علم التصوف للقشيري ، تحقيق هاني الحاج ، دط ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، دت : ص16- 17

4 – هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي أبو حامد ، حجة الإسلام (450 هـ – 505 هـ) فيلسوف ، متصوف له مائتي مصنف مولده ووفاته في الطابران له عدّة مصنّفات منها : "إحياء علوم الدين" و "الاقتصاد في الاعتقاد" . انظر ، ابن العماد – شذرات الذّهب في أخبار من ذهب ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، دط ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، دت : ج4 ص 10 – 11 . و الزركلي – الأعلام :ج 3ص 22 - 23

في كتبه و منها على سبيل المثال :كتابه " المنهج السديد في شرح كفاية المريد " في الفصل الخاص بالتصوف ، كما سنعرفه بالتفصيل في الفصول الآتية من هذه الرسالة .

3- العوامل السياسية و الأمنية :

لقد تجلى البعد السّياسي في نشأة التصوف و انتشاره من خلال حالة التدهور و التمزّق الذي عرفته بلاد المغرب الأوسط خلال القرن التاسع الهجري و قبله . لقد أدى تفكك الدولة الموحدية – و التي تمكنت من بسط سلطتها على بلاد المغرب الإسلامي و جزءا من الأندلس ، و التي عمرت مائة و أربعة و أربعين سنة (524-668 هـ) – إلى ظهور ثلاث وحدات سياسية و هي : الدولة الزيانية (بالمغرب الأوسط) ، و الدولة المرينية (بالمغرب الأقصى) ، و الدولة الحفصية (بالمغرب الأدنى) ، و قد حاولت كل دولة أن تضمّ بقية الدول الأخرى إليها إما بادعاء أنّها تمثل استمرارية للدولة الموحدية ، كما هو الأمر بالنسبة للدولة الحفصية ، أو رغبة في التسلط و الزعامة على الملك و عرش زناتة ، كما هو الحال بالنسبة للدولتين المرينية و الزيانية [1] .

و قد ساهمت الحملات التي كان يقوم بها الحفصيون و المرينيون على دولة الزيانيين في المغرب الأوسط إلى أعمال تخريب تركت آثارا ، عميقة في نفوس سكان هذه الدولة ، كما عاش سكان تلمسان تحت طائلة الحصار من هذه الدولة أو تلك لسنوات طوالا ، و ممّا زاد من معاناة هؤلاء أيضا أنّه خلال القرن التاسع شاعت داخل الأسرة الحاكمة للزيانيين صراعات بين العائلة الواحدة على الحكم ساهم في إذكائها تدخل العرشين الحفصي و المريني لصالح طرف على حساب طرف آخر ، ناهيك عن الحملات المسيحية على الشواطئ المغاربية التي ضلت تتزايد باستمرار للفتك بالمسلمين ، كل هذه العوامل و غيرها دفعت سكان هذه المنطقة إلى الالتفاف

[1]- انظر ، المبحث الخاص بالحياة السياسية ص 14.

حول الصالحين و الأولياء أحياء و أمواتا ، و إلى التضرّع إلى الله و الإنابة إليه ، و انتظارا للفرج بعد الشدة [1].

4- العوامل الاقتصادية و الاجتماعية :

لقد تجلّى البعد الاقتصادي و الاجتماعي في نشأة التصوف ، و انتشاره في القرن التاسع الهجري ، من خلال أمور كثيرة تعبّر كلها عن حال التذمر الذي كان عامة الشعب ، و الفئة المتديّنة يحسّونه نحو فئات المستفيدين و المستغلّين للوضع ، لاسيما من طبقات فقهاء الدولة الذين اصطفّوا إلى جانب السلطة الزيانية المتصارعة على الحكم ، و صاروا يحظون بامتيازات خاصة ، شكلت منهم طبقة مترفة متنعمة على حساب الشعب ، الذي كان يحترق بلظى الجبايات و الضرائب المفروضة عليه و خصوصا في عصر محمد بن يوسف السنوسي الذي كان غير راضيا على حكام زمانه [2].

و قد تناهى هذا الجانب الاقتصادي و الاجتماعي في تعزيز حياة الزهد و التصوف و التقشّف و قوّى من صور السخط الشعبي على الحكام و الفقهاء ، لاسيما بعد انتشار انحرافات اجتماعية متنوعة ، كشرب الخمر و تقديم النساء و إسناد الأمور إلى الفاسدين ، و تفريط أغلب الفقهاء في تغيير المنكر . هذا و قد دفعت هذه الظروف عامة الشعب إلى اللجوء إلى العلماء ، الزهاد للاحتماء بهم و التعوز بهم ضدا على فقهاء الدولة و الحكام المتسلطين ، و كان المتصوفة يغتنمون الفرصة لاستقطاب الكثير من الفقراء و المظلومين كما دفعت هذه الظروف الكثير منهم إلى الارتماء في أحضان التصوف و الزهد ، إذ لا نبالغ إذا قلنا بأن جلّ المتصوفة كانوا من الفئات الضعيفة و المعوزة .

---

[1] – بو داوود عبيد – ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط (ما بين القرن السابع و التاسع الهجريين (ق 13 ، 15 م) دراسة في التاريخ السياسي الثقافي ، دار الغرب للنشر و التوزيع ، وهران ، الجزائر ، دط ، دت : ص 156 - 160

[2] – انظر ، المبحث الخاص بالحياة الفكرية – الفكر الشرعي – ص 20

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ب / التيارات الصوفية في المغرب الأوسط حتى القرن التاسع الهجري :

امتازت الحياة الثقافية و الفكرية في المغرب الأوسط خلال القرن التّاسع الهجري و قبله بقليل ، بتعدد التيارات الصوفية و تنافسها ، منها ما هو نابع من السلوكات اليومية للمتصوفة كل حسب زهده و قناعته في التصوف ، و منها ما هو عبارة عن تيارات فكرية صوفية اشتقت أفكارها من نظريات صوفية فلسفية مشرقية و أندلسية [1]، و هذه التيارات تنقسم إلى : تيار الزهد، و تيار التصوف السنيّ ، و تيار التصوف الفلسفي ، و كل تيار يضم عددا من الاتجاهات نلخصها كالآتي :

- تيارات الزهد وتيارات الصوفية السنّية :

1- تيار الزهد : تميّز هذا التّيار بالتزامه بالقرآن و السنّة و عدم مخالفتهما ، و اتباع سيرة السلف الصالح ، و الابتعاد عن الخوض في القضايا الفلسفية كالحلول و الاتحاد و الوحدة و الإشراق [2] و يصنف إلى اتجاهات هي :

أ- اتجاه الوعظ و التذكير : و يمثله مجموعة من الزهاد تشبثوا بالسنّة ، و اعتمدوا الوعظ و التذكير طريقة إلى الزهد في الدنيا ، و الدعوة إلى حب الله و التفكير في الآخرة ، و التشدّد على أهل البدع وتزعم هذا الاتجاه في بجاية " أبو محمد عبد الحق الإشبيلي" (ت 581هـ/1158م) الذي أقام فيها واحدا و ثلاثين سنة خطيبا و إماما و مدرسا بجامعها الأعظم[3] ، و من بين الذين أخذوا عنه آراءه و زهده " أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان التيجيبي" (504-610هـ/1145-1214م) الذي دخل تلمسان سنة 574هـ/1179م و استقرّ فيها مؤلفا لمجموعة من المصنفات في الوعظ ، و قد نجحت دعوته و التي جعلت من

[1]- الطاهر بونابي - التصوف في الجزائر خلال القرنين 6و 7 هـ :ص 103.

[2] - يعتبر المذهب الإشراقي في جملته مذهبا أفلاطونيا حمل في جوانبه ما اشتملت عليه التيارات الفلسفية السابقة عليه من يونانية وغيرها . علي أبو ريان – تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ،دط،دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1986م : ص544

[3]- الغبريني – عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، ط1، دار البصائر للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2007م : ص 18

تلمسان قبلة للمريدين من أهل الزّهد و التصوف ، كما ساهم الزاهد " أبو زيد عبد الرحمان الفازازي " (627هـ/1130م)[1] في نشر هذا الاتجاه و تثبيته لمدة من الزمن[2].

ب- اتجاه التخويف والترهيب : و هذا الاتجاه يقوم على أسلوب المجاهدات و الانقطاع الدوري و الزّهد في الدنيا مع الاطلاع على النظريات الصوفية السنّية و الفلسفية و الإلمام بالعلوم النقلية و اللسانية إلّا أنّهم اعتمدوا منهجا متشددا يعتمد الترهيب و التخويف في الدعوة إلى ترك الدنيا ، و الإقبال على الآخرة ، و عمّموا هذا المنهج المتشدد في مخاطبة العامة[3]. و فرضوا نظاما خاصا على الطلبة و المريدين في مجالسهم سواء في بجاية أو تلمسان ، و قد مثّل هذا التيار في تلمسان الزيانية الصوفي الشاعر صاحب المجاهدات" أبو عبد الله محمد اللخمي المعروف بابن الحجام " (ت 614هـ/ 1217 م)[4]. و أتباعه الذين كانوا يحضرون مجلسه المشحون بازدواجية الخطاب الصوفي المتأرجح بين التخويف و التحذير ، و الوعظ و التذكير ، و الذي أصبح بعد وفاته محل اهتمام التلمسانيين[5].

ج – اتجاه المجاهدة النفسية : و هو اتجاه يقوم و يعتمد في الممارسة الصوفية على القيام و الصّيام و التهجد في العبادات و المأكل و المشرب ، و التقيّد بأخلاق السلف الصّالح في المعاملات بغية تجريد النّفس و تطهيرها من حب الدّنيا و ملذاتها ، ملتزمين الربط و الزّوايا و الجبال و المساجد و الخلاء ، أماكن يتعبدون و يشرفون فيها على مراقبة المجاهدات الشاقة لمريديهم ، و قد ظهر هذا الاتجاه منذ أوائل القرن السادس الهجري (12 م) في تلمسان ، يمثله مجموعة من الصوفية أبرزهم قطب صوفية المجاهدات بالمغرب الإسلامي" أبو عمرو عثمان بن علي

[1]– قرطبي النشأة سلح في بلاد المغرب و الأندلس و استقر زمنا في تلمسان ، له مشاركات في فنون عديدة كالأدب والفقه و الكلام ، رحل إلى مراكش وتوفي بها . انظر ، التنبكتي – نيل الإبتهاج : ص 163

[2]– الطاهر بونابي – التصوف في الجزائر خلال القرنين 6و 7 هـ : ص 104- 105

[3] – الغبريني – عنوان الدراية : ص 131

[4] – أبو عبد الله محمد اللخمي المعروف بابن الحجام ، تلمساني المولد و النشأة أخذ القراءات عن أبي العباس الأعرج و العلم بفاس عن أبي الحجاج بن عبد الصمد و أبي القاسم بن يوسف ، وكان كثير التردد بين المغرب الأقصى و الأندلس و توفي بمراكش . انظر ، يحي بن خلدون – بغية الرواد : ج 1ص 102- 103

[5] – الطاهر بونابي – التصوف في الجزائر خلال القرنين 6و 7 هـ :ص 105-106

التلمساني " (ت 542 هـ/1144 م) و الذي اشتهر بالتمكن في العلم و المجاهدات حيث كان يختم قراءة القرآن كل ليلة [1].

د- اتجاه التصوف التلقائي : و هو تصوف يقوم على التّوبة من الذنوب و الخطايا أولا ، و أصحاب هذا الاتجاه هم الصوفية الذين كانوا منغمسين في ملذات الدنيا و زينتها ، و ليست لديهم خلفية مسبقة عن التصوف وخباياه ، فوقع لهو عارض أو عبرة جعلتهم يتحولون إلى حياة الزّهد و التقشف و الترحال . ظهر هذا التيار خلال النصف الثاني من القرن السادس الهجري يمثله في تلمسان " أبو عبد الله محمد التاونتي المعروف بابن الميلي "[2] ، و " أبو علي عمر بن العباس المعروف بالحباك " [3] ، كان غنيا فلما شاهد موكب جنازة " أبي مدين " أدرك يومها عزة الصوفية و مكانتهم ، فأعطى ثيابه لفقير ، و لبس مرقعته و شكّل فيما بعد مجلسا كان يحضره أتباعه من المريدين .

هـ – اتجاه الخلوة و الانقطاع : هم الذين اعتزلوا النّاس في الجبال و المقابر و المساجد و البيوت مؤثرين الخمول على الكدّ و السعي غير مشاركين في الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و الفكرية رغم إلمامهم بالفقه و الحديث و العقائد[4] . ظهر هذا الاتجاه خلال القرن السادس الهجري /12م ممثلا في جماعات صوفية كانت منقطعة للعبادة و قد مثّل هذا التيار في تلمسان خلال هذا القرن " أبو الحسن علي بن خلف الكومي " (ت 599هـ/ 1202م) [5].

[1] – المرجع السابق : ص 109- 110

[2] – أبو عبد الله محمد بن حسان التاونتي المعروف بابن الميلي أصله من تاونت من عمل تلمسان وكان من الأفراد و استقر أخيرا بجبل لبنان و به مات في سنة 590هـ . انظر ، ابن الزيات التادلي – التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي ، تحقيق أحمد التوفيق ، ط2 ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1997م : ص368- 369

[3]– أبو علي عمر بن العباس المعروف بالحباك من أهل تلمسان ، قدم مراكش ثم توجه إلى مكة المكرمة فغرق في بحر المشرق في حدود سنة 613هـ ، صاحب مجاهدة و تجرد في الدنيا ، لما توفي أبا مدين شعيب حضر جنازته متأثرا خارج تلمسان . انظر، المصدر نفسه : ص 437 . و عبد العزيز فيلالي – تلمسان في العهد الزياني : ج2 ص387

[4]– الغبريني – عنوان الدراية : ص 118- 121

[5] – الطاهر بونابي – التصوف في الجزائر خلال القرنين 6و 7 هـ :ص 114- 115

2- تيار التصوف السني :

و هو تيار التزم صوفيته تعاليم القرآن و السنة ، و نزعوا إلى كشف حجاب الحسّ لإدراك الحقائق الإلهية ، و اكتساب العلوم اللدنية [1] ، و يتفرّع إلى أربعة اتجاهات : اتجاه الغزاليين، و اتجاه المدينين ، و اتجاه المجاريين ، و اتجاه الشاذليين ، و اتجاه الباطنين .

أ – الغزاليون : هم أصحاب التصوف الذين تبنّوا أفكار و تعاليم " أبي حامد الغزالي" الصوفية ، القائمة على الالتزام بالقرآن و السنّة ، و التركيز على تصفية النّفس و تجريدها من علائق البدن بواسطة أنواع من المجاهدات و الرياضات ، كالقيام و الصّلاة و الصّيام و الخلوة و الذّكر ، الذي تقود القلب إلى كشف حجاب الحس و إدراك الحقائق الإلهية و اكتساب العلوم الدينية [2]. ارتبط ظهور هذا الاتجاه في حواضر المغرب الأوسط بدخول كتاب "إحياء علوم الدين" إلى كل من تلمسان و جزائر بني مزغنة و قلعة بني حماد و من أنصاره في تلمسان خلال القرن السادس الهجري "عبد السلام التونسي" [3]،و تلميذه " أبي عبد الله محمد محيو الهواري"[4] وغيرهما .

ب – المدينيون : و هم أتباع طريقة " أبي مدين شعيب"[5] دفين تلمسان ، و التي تشترط على كل من يريد الولوج إلى رحاب التصوف أن تتوفر فيه أربعة شروط هي : الزّهد ، و العلم و التوكل ، و اليقين ، و على كل شيخ مرب أن يكون عالما بالفقه و التصوف ، حتى لا ينحرف

[1] – ابن خلدون عبد الرحمان – المقدمة ، اشراف مصطفى شيخ مصطفى مؤسسة الرسالة ناشرون ، دمشق ، سوريا ، ط1 ، 1426هـ/2005م : ص502 .

[2]- المصدر نفسه : ص502 – 503 .

[3] – ابن مريم – البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان : ص122

[4]- أبو عبد الله محمد محيو الهواري من أهل تونس كبير الشأن من أهل العلم متأثر بالغزالي وكتابه الإحياء ت ق 6هـ . انظر : ابن الزيات التادلي – التشوف إلى رجال التصوف : ص 179

[5] – يرى المستشرق " لويس رين " أن أبا مدين شعيب هو أول من استقدم المبادئ الصافية و الخالصة للتصوف إلى بلاد المغرب العربي ، و يمكن اعتباره تاريخيا أول "زعيم " للطرق الصوفية في الجزائر ، و الذي قام بنشر مبادئ الجنيد ، وسيدي عبد القادر الجيلاني ، وليس اعتباره مريدا فقط وإنما باعتباره موسس لمدرسة . انظر ، louis (rinn) – marabouts et -khouan , ètude sur l,islam en algèrie , libraire de l,acadèmie , alger , 1884 , p 211

إلى البدع ، و أن يكلف تلاميذه فقط بالأوراد التي يعرفها ، و أن يتجافى عن أخطائهم و يسامحهم في ذلك[1] ، و من الذين ساهموا في نشر طريقة " أبا مدين شعيب " بصورة عملية في تلمسان كثير من أبرزهم : "عبد الله بن أبي بكر بن مرزوق" [2] الذي كان له نفس أسلوب أبي مدين شعيب في تربية المريدين .

ج- المحاريون : نسبة لشيخهم "أبي محمد صالح بن ينصارن الماجري" (ت 631هـ/ 1234م) من أهل فاس ، أخذ التصوف عن" أبي مدين شعيب" [3] و الذي كان يربي الصوفية على خط " الغزالي " و تعاليم "أبي مدين " ، حيث قام بسنّ نظام تربوي صوفي ألزم به تلامذته ، إذ كان كلّما أتاه مريد يريد الدخول في رحاب التصوف السنيّ يقوم بتعريفه بعيوب نفسه ، ثم التزام الوحدة ، ثم يدرجه في أوراده حتى يصبح من أهل المجاهدات ، و قد تخرّج على يديه عدد من صوفية المغرب الأوسط .

د- الشاذليون : و ينسب هذا الاتجاه لأبي الحسن الشاذلي (ت 656هـ/ 1266م) [4] و يقوم هذا الاتجاه على التقيّد بالقرآن و السنّة و المحافظة على الفرائض ، و المداومة على القيام حتى يفرغ القلب عما سوى الله ، و شجب سلوكات التقشف في المأكل و الملبس . و التصوف عند هذه الطريقة ليس بالرهبانية و أكل الشعير و النخالة ، و ارتداء الثياب الخشن ، و إنّما بالعلم و اليقين و الصبر و الهداية ، و قد مثلها بتلمسان "عبد الله بن أبي بكر بن مرزوق (ت681هـ/ 1228م) الذي كان شديد التقليد لأبي الحسن الشاذلي في جلساته الخاصة.

[1] – الطاهر بونابي – التصوف في الجزائر خلال القرنين 6و 7 هـ : ص 118

[2] – محمد بن أبي بكر بن مرزوق بن الحاج التلمساني القيرواني الأصل مولده في حدود تسع وعشرين و ستمائة ومرزوق جده هو الذي استوطن تلمسان و نشأ بنوه بها وهم أهل صلاح وعلم ودين ووجاهة . انظر ، ابن مريم – البستان : ص 226

[3] – الغبريني – عنوان الدراية : ص133

[4] – شيخ الطريق الشاذلية ، شيخ المشايخ و اسمه علي بن عبد الله بن عبد الجبار ، أبو الحسن ، وكنيته التي اشتهر بها الشاذلي وميلاده سنة 593هـ / 1195م ، أصله من إقليم جبالة بالمغرب انتقل إلى تونس ثم هاجر إلى مكة ثم العراق ، و استقر بالأسكندرية و فيها تزوج و اقتنى الضياع ، مات سنة 656هـ/ 1258م ، تلقى علوم الطريقة على الشيخ عبد السلام بن مشيش ومقامه بالمغرب كمقام الشافعي بمصر . عبد المنعم الحفني – الموسوعة الصوفية ، ط5 ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، مصر، 2006م : ص391

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هـ- الاتجاه الباطني : تبنى أنصاره أفكار الغزالي الصوفية القائمة على المجاهدات للوصول إلى الكشف و الميل إلى العلوم الباطنية ، و نزعوا إلى معرفة الله بكل ما في النفس من قوة و عاطفة و خيال ، و يسمون هذا بالوصول ، و هو في رأيهم المثل الأعلى للمعرفة الإلهية مع زهدهم الشديد في المواهب و الكرامات الصوفية ، و قد كان هذا الاتجاه حاضرا في تلمسان منذ أوائل القرن السادس الهجري و يشار إلى واحد منهم و هو الصوفي "أبو عبد الله محمد بن عيسى" الذي اعتبر من أهل الفرقان القدماء في مدينة تلمسان[1].

3- تيار التصوف الفلسفي :

هم قوم من متأخري الصوفية انصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب و الكلام في المدارك التي وراءه ، يقوم أصحاب هذه الفرقة بمجاهدة النّفس بالصّيام ، و القيام ، و التهجد ، و الذّكر ، و الخلوة ، و العمل على كشف حجاب الحس لمعرفة الله و اكتساب علومه ، و الوقوف على حكمته و أسراره ، فإذا حصل لهم الكشف تمكّنوا من الإدراك ، وكشفوا حقائق الموجودات ، و حقائق الملك و الرّوح و العرش و الكرسي[2] ، غير أنّ صوفية هذه الفرقة اختلفوا في طرق مجاهدتهم ، و في كيفية تغذية روح العاقل بالذّكر كي يحصل الإدراك ، و قد جعلهم هذا ينقسمون إلى عدد من الاتجاهات ظهرت في المغرب الأوسط و هي اتجاه الحراليون ، و اتجاه الوحدة المطلقة ، و اتجاه وحدة الوجود[3].

أ / الحراليون :

وهي جماعة تنسب لأبي الحسن علي الحرالي التيجيبي (ت 638هـ / 1239م)[4] الذي تبنى أفكار التصوف الإشراقي و تأثر بكبار صوفيتها كشهاب الدين بن حبش السهروردي

[1]- يحي بن خلدون – بغية الرواد : ج 1 ص 113- 117

[2]- عبد الرحمان بن خلدون – المقدمة : ص503

[3]- الطاهر بونابي – التصوف في الجزائر : ص143

[4] – أبو الحسن علي بن أحمد الحسن بن إبراهيم الحرالي التيجيبي كان بدء أمره بمراكش ثم تخلى عن الدنيا و رحل إلى المشرق أخذ عن القرطبي و عن أبي الحسن بن خروف و أبي الحجاج بن هوى من مؤلفاته : مفتاح الباب المقفل على فهم القرآن المنزل توفي سنة 638هـ . انظر ، الغبريني – عنوان الدراية : ص68-77

(ت580هـ/ 1183م)[1] و الذي يعتبر أنّ الموجودات المادية و الروحية في العالم ، بما فيها العقول المختلفة ، أصلها نور الله الذي هو الإشراق ، و أنّ مرتبة مشاهدة الله ، و الاطّلاع على أسراره لا يتم بواسطة العقل ، و إنّما بالمجاهدات و أنواع الرياضة الشاقة [2]. و قد تركزت هذه الفرقة بالأساس في بجاية و ذلك لاستقرار " الحرالي " بها و تدريس العلم بجامعها الأعظم .

ب / اتجاه الوحدة المطلقة :

يذهب أصحاب هذا الاتجاه ، إلى أنّ الله هو مجموع ما ظهر و ما بطن و لا شيء سوى ذلك ، و كل ما تراه في الوجود ما هو إلا أوهام يعتقدها الضمير [3]، و الإنسان مؤلف من حق و باطل ، فإذا سقط الباطل المتسبب الوحيد في هذه الأوهام بأنواع المجاهدات ، ولم يبق سوى الحق الذي يحل في ذات الإنسان . و قد ظهر هذا الاتجاه في المغرب الأوسط متمثلا في طريقتين هي الشوذية في تلمسان و السبعينية في بجاية ، فأما الشوذية فنسبة لمؤسسها "أبي عبد الله الشوذي الحلوي" [4] الذي نزل إلى تلمسان في نهاية القرن السادس الهجري و استقرّ فيها يمارس مذهبه و يدعو إليه ، أمّا السبعينية فنسبة إلى " محمد أبي عبد الحق بن إبراهيم المعروف بابن سبعين" (ت 669هـ/ 1270م) [5] الذي دخل بجاية و روّج فيها مذهبه قبل أن يسافر إلى المشرق .

1 – أبو الفتوح يحي بن حبش بن أميرك من الفلاسفة المتألهين أي المتصوفين ينسب علمه للتراث الأفلوطيني اتهم بالكفر و الخروج عن السنّة تباينت الأخبار في وفاته قيل أنه مات قتلا بالسيف ، له نحو 49 كتابا معظمها في التصوف منها : " كلمة التصوف " و " لوامع الأنوار " . انظر ، عبد المنعم الحنفي – الموسوعة الصوفية : ص 376- 377

2 – الغبريني – عنوان الدراية : ص145-157

3 – ابن خلدون – المقدمة : ص505 .

4 – أبو عبد الله الشوذي الاشبيلي المعروف بالحلوي نزيل تلمسان وهو من أكابر العباد العارفين بالله كان قاضيا باشبيلية آخر دولة بني عبد المومن ثم فرّ بنفسه من القضاء وأوى إلى تلمسان في زي المجانين مات بتلمسان وقبره خارج باب علي . انظر ، ابن مريم – البستان : 69- 70

5 – **هو عبد الحق بن إبراهيم ولد بمرسية بالأندلس سنة 614هـ ، اشتغل بالعلم و الفلسفة ، يؤثر عليه القول باكتساب النبوة، و القول بالفيض توفي سنة 669هـ . انظر ، ابن كثير – البداية والنهاية ، ط3 ، مكتبة المعارف ، بيروت ، لبنان ، 1985م : ج 13 ص 261 . و عبد المنعم الحنفي – الموسوعة الصوفية : ص 329**

ج / اتجاه وحدة الوجود :

تتمحور الفكرة الأساسية لهذا الطريقة في أنّ الوصول إلى مرتبة الإنسان الذي حصر الله فيه صفاته و أسرار كونه ، تكون عن طريق التوصل بواسطة العقل إلى التفصيل في حقائق الموجودات و في أسباب وجودها ، و يسمونها مرتبة الكمال الأسمائي ، ثم الاقتناع بأنّ الموجودات حصلت دفعة واحدة في شهود الحق ، و هي مرتبة الكمال الوجداني[1] ، و حتى يحدث حلول الله في ذات الإنسان ، و اكتساب العلوم اللّدنية ، يجب تجريد النّفس بواسطة المجاهدات ، حتى تصبح حواس الإنسان و ملكاته مسيرة من طرف الله بواسطة نور يقذفه في عقل الإنسان ، فتصير له ملكة قوية في إدراك الحقائق الإلهية و العلوم الدينية .

و قد ظهر هذا الاتجاه في تلمسان ممثلا في الصوفي " أبي العيش محمد بن أبي زيد عبد الرحيم " الذي كان في إشبيلية غزالي الوجهة الصوفية[2] ، و لما نزل بتلمسان و استقرّ فيها خلال النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر ميلادي ، اعتمد أولا أسلوب الوعظ في دعواته إلى الزهد في الدنيا ، ثم انتقل إلى القول بوحدة الوجود التي فصّل نظريتها في أشعاره . و في نفس المدينة ظهر خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري / 13م " أبو الربيع عفيف الدين بن سليمان التلمساني " [3] الذي سلك طريقة "ابن عربي" [4] في القول بوحدة الوجود و تأثر به في أقواله و أفعاله [5].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]- ابن خلدون – المقدمة : ص503 وما بعدها – بتصرف-

[2]- أخذ أبو العيش النظرية الغزالية في إشبيلية عن أبي بكر محمد بن يوسف بن سعادة و أبي عبد الله بن عبد الرحمان التجيبي ، وأبي محمد بن حوط الله . انظر ، يحي بن خلدون – بغية الرواد : ج1 ص 104

[3] – هو سليمان بن علي بن عبد الله العفيف التلمساني ، متقن لعلوم النحو و الأدب و الفقه و الأصول ، له شرح الأسماء الحسنى ، اتهم بالحلول توفي سنة 690هـ . انظر ، ابن كثير – البداية والنهاية : ج 13ص 326 . و عبد المنعم الحنفي – الموسوعة الصوفية : ص128- 129

[4] – هو أبو بكر محمد بن علي ، وتنعته الصوفية بأنه " الشيخ الأكبر" و " الكبريت الأحمر " أصوله عربية من قبيلة حاتم الطائي ولد بمرسية بالأندلس سنة 560هـ له أزيد من أربعين كتابا أشهرها موسوعته الكبرى في التصوف " الفتوحات المكية" استقرّ في دمشق وبها توفي سنة 638هـ/ 1240م . المرجع نفسه : ص445-447

[5] – الطاهر بونابي – التصوف في الجزائر : ص 154- 159.

ج / علاقة المتصوفة بالسلطة السّياسية و الفقهاء وعامة الناس :

أمّا عن علاقة المتصوفة بالسلطة السّياسية و الفقهاء و عامة النّاس في المغرب الأوسط ، فلقد تعددت مواقف رجال التصوف و تنوّعت في علاقتهم مع السلطة السّياسية و الفقهاء و ذلك بحسب ظروف و قناعة كل صوفي ، وهذا ممّا يصعّب الحكم على الظاهرة ، و لكن مع ذلك فإنّ تشخيص علاقة المتصوفة مع رجال السلطة السّياسية و الفقهاء ، و عامة النّاس ، و تحديد مواقفهم من مختلف قضايا عصرهم ، و الأعباء التي اضطلعوا عليها كفيلة بتحديد موقع أولئك المتصوفة مع مجتمع المغرب الأوسط خلال عصر السنوسي ، و إنّ تحديد هذا الموقع يمكننا من تقويم دور المتصوفة ضمن الضرورة التاريخية لذلك المجتمع إيجابا و سلبا [1] .

1– علاقة المتصوفة بالسلطة السّياسية :

لقد تباينت مواقف و سياسات السلطة السّياسية التي حكمت المغرب الأوسط إزاء شريحة الصوفية بناء على أوضاعها السّياسية و الاقتصادية و اعتباراتها المذهبية و العقدية ، فبداية بالحمادين الذين سلكوا سياسة الانفتاح اتجاه الصوفية خلت من كل إكراه أو متابعة ، و يعود هذا إلى الصوفية أنفسهم الذين كانوا يسالمون الدولة ، و لم يتعرضوا لها ، بل ابتعدوا عنها و تحاشوا القرب منها . بينما حصل العكس في القسم الغربي من المغرب الأوسط لحكم المرابطين الذين شهدت دولتهم في الأربعين سنة الأخيرة من عمرها ، أي من بداية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي إلى سقوطها سنة (ت 541هـ/ 1146م) اضمحلالا اقتصاديا و تقهقرا سياسيا ، و إداريا جعل الفقهاء ينبهون أمراء الدولة و ولاّتها إلى خطورة أشكال السلوكات التي يستخدمها الصوفية لتعرية الواقع المتأزم ، و نظرا لشعبية الصوفية ، كبرت مخاوف المرابطين الذين اتخذوا نوعين من السّياسة لدرء خطرهم ، و هي سياسة الاحتواء و سياسة المواجهة [2] .

[1]– بو داوود عبيد – ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط : ص225

[2]– الطاهر بوناني – التصوف في الجزائر : ص 196-196

أمّا الموحدين ، فقد وصفت مرحلة حكمهم للمغرب الأوسط بعصر الاعتراف الرسمي بالصوفية ، لكون أخلاق الخلفاء الموحدين و صفاهم كانت مشوبة بالزّهد و التصوف ، و على رأسهم الخليفة " عبد المؤمن بن علي "(ت 558هـ/ 1183م) ، و قد أعجب الكثير منهم بالصوفية الذين راحوا يكاتبوهم و يسألوهم الدعاء ، و يحسنون إليهم كما فعل الخليفة " أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن " سنة (558هـ- 580هـ/1163م-1184م) الذي كان زاهدا متقشفا ، و لهذا كثر في عهده المتدينون و العلماء و انتشروا في كافة أنحاء المغرب[1].

أما علاقة الزيانيين بالصوفية فتعكسها مرحلة حكم يغمراسن[2] و ابنه أبي سعيد عثمان (681هـ-703هـ/1282م-1305م) و التي تعدّ من أبرز مراحل التاريخ ، احتفاء و تقديرا بالصوفية ، ليس بدافع التخوف من نفوذهم ، أو لأجل استثماره في خدمة دولتهم و لكن من باب التبرك و تقديس الأولياء الصوفية و الاعتقاد فيهم .

2- علاقة المتصوفة بالفقهاء :

أدى تعدد التيارات الصوفية و اختلاف مساراتها الفكرية و الفلسفية في المغرب الأوسط إلى تنوع العلاقات بين المتصوفة و الفقهاء ، غير أنّها في العموم تنحصر في نوعين من العلاقات و هي :

أولا – المعارضة السلمية ، و هي التي تتمثل في علاقة متصوفة التيارات السنّية بالفقهاء ، و تميزت بالتعايش السلمي بين الفريقين .

ثانيا – وهي التي تميزت بالصراع الطويل بين متصوفة التيارات الفلسفية و الصوفية المبتدعة و الفقهاء السلفيين[3] . و قد فسر هذا الصراع الذي كان قائما بين الفقهاء و الصوفية ، على أنّه كان لاكتساب المزيد من التأييد الشعبي و الظفر بالمكانة الرفيعة لدى مختلف شرائح

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] – المراكشي – المعجب : ص 276 – 278 . و الطاهر بونابي – التصوف في الجزائر : ص 198

[2] – التنسي – نظم الدّر و العقيان في بيان شرف بني زيان : ص 115

[3] – الطاهر بونابي – التصوف في الجزائر : ص 209

المجتمع حكاما و محكومين ، و لقد تصاعدت الانتقادات الموجهة لسلوكات المتصوفة خاصة منها ما يتعلق بأعمال " الحضرة " خلال القرن التاسع الهجري من بعض الفقهاء مثل "أبي عبد الله محمد بن مرزوق (ت 842هـ) و أبي القاسم العبدوسي (ت 837هـ) الذين رموا أصحابهم بأمور كالرافضية و السحر [1].

3- علاقة المتصوفة بعامة الناس :

في ظل الاضطرابات السّياسية التي عرفها المغرب الأوسط و الصراع على الملك و الخلافة ، و التدهور الاقتصادي و الانحلال الأخلاقي ، ازدادت منزلة الصوفية بين العامة بإطراء، و أخذت شعبيتهم تتقوى يوما بعد آخر ، فقد كان النّاس يلجأون إلى الصوفية في خلال هذا الوضع للتخلص من حاكم ظالم ، و كذلك لاستجلاب دعائهم و شفاعتهم ، أو وضع حد لموقف بائس ، أو للشفا من المرض و التفريج من الكروب ، و لهذا كان القوم يتباهون بزيارة الصوفية لهم و كانوا يرحبون بالصوفي و كأنّه ولي مبجل و شخصية عظيمة [2]. و قد كوّن الصوفية من خلال هذا الاهتمام المتزايد لهم أتباعا كثيرين ، و إذا كانت هذه المنزلة قد بدأت خلال القرن السابع الهجري في شكل احترام لما كان يتمتع به الصوفية من علوم و ديانة ، وبشكل فردي ، فإنّها مع القرن التاسع الهجري ، و مع بداية تشكل الطرق الصوفية " الزوايا " و نزول التصوف عند مستوى العامة ، هنا سيتقوى التيار الصوفي بانضمام العوام إليه في شكل نظام الولاية و المريدين[3] .

تلك هي أهم مميزات الحياة الفكرية أثناء القرن التاسع الهجري ، وهي تعكس ، لا محالة الأوضاع السّياسية والاجتماعية ، الّتي كانت تحمل طابع الضعف والاضطرابات ، وعدم الاستقرار ، و في هذا المناخ العام الّذي ساد هذا القرن ، ولد العالم المتكلّم الصوفي محمّد بن يوسف السنوسي التلمساني ، وهذا أوان التّعريف به .

[1] – بو داوود عبيد – ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط : ص246- 247

[2]– الفرد بل – الفرق الإسلامية في الشّمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم : ص 391

[3]– بو داوود عبيد – ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط : ص247

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثّانـــي :

حيــــــــــــاتــــــه

تمهـــــــيد :

الذين ترجموا للإمام محمد بن يوسف السنوسي كثير [1]، إلا أنّ القليل من هؤلاء المترجمين من اعتمد في ذلك على مصادر مباشرة تعرّف بالرجل[2] ، ولعلّ أهمّ هذه المصادر وأوحدها – فيما نعلم – هو كتاب : (المواهب القدسية في المناقب السنوسية) ألّفه أحد تلامذة الشيخ و مقربيه ، و هو أبو عبد الله الملالي [3] ، وقد ألّفه بعد سنتين من وفاة الشيخ السنوسي ، استجابة لما كان يكنّه المؤلف لأستاذه من تقدير وتبجيل ، وشهادة للمترلة التي كان يحتلها الإمام في مجال

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1]– من المصادر القديمة التي تناولت أخبار الشيخ :
المواهب القدسية في المناقب السنوسية للملالي 2- نيل الابتاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي 3 – البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان لابن مريم ، دوحة الناشر لابن عسكر ، و تداولتها أيضا ،كتب المتأخرين ، و هي عديدة و متنوعة نذكر منها مايلي : تعريف الخلف برجال السلف لأبي القاسم محمد الحفناوي ، – وكشف الظنون لحاجي خليفة – و إيضاح المكنون لإسماعيا باشا ، ومن المعاجم المعروفة التي يتداولها الناس ، يمكن تسجيل ما يلي : دائرة المعارف الإسلامية –و الأعلام لخير الدين الزركلي – ومعجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاظر لعادل نويهض – ومعجم المؤلفين لعمر كحالة، إضافة إلى أخبار المحشين و الشراح لبعض مؤلفات السنوسي . ومن الدراسات العلمية الجامعية نذكر دراستين لجمال الدين بوكلي حسن – الأولى : الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد –والثانية : ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية والواقع، و خليفي الشيخ – النظر العقلي عند محمد بن يوسف السنوسي ، وأحمد المصري – الإمام محمد بن يوسف السنوسي ومنهجه في الإستدلال على العقيدة

[2]– من القدماء : التنبكتي – وابن مريم ، وابن عسكر ، ومن المعاصرين : اسعيد عليوان – محمد بن يوسف السنوسي وشرحه لمختصره في المنطق (دراسة و تحقيق) ، رسالة مقدمة لنيل الدكتوراه الحلقة الثالثة في الفلسفة ، جامعة الجزائر ، معهد الفلسفة ، 1986م/1987م ،و قد اعتمد هؤلاء على المصدر المباشر في التعريف بالسنوسي وهو كتاب الملالي .

[3]– هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن إبراهيم بن علي الملالي التلمساني ، نسبته إلى إحدى قرى الشرق الجزائري ، و هي قريـــة " مَلاَّلَة." الواقعة قرب مدينة بجاية ، وعنها يقول صاحب تاج العروس: " مَلاَّلَة كجبانة: ، قرب بجاية على ســـاحل البحـــر ، ومنها العلامة محمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر بن علي الملالي ممن أخذ على الشيخ سيدي محمد بن يوسف بن عمر السنوسي. انظر ، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي – تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق مصطفى حجازي ، من إصدارات المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب ، الكويت ، دط ،1419هـ–1998م :ج 3 ص425

العلم و المعرفة و التقوى و الصلاح ، ولولا هذا الكتاب ما كان الشيخ ليذكر و لتتناوله أمهات التراجم بالقدر الذي وصلنا منه وعرفناه عنه .

ونظرا إلى كون هذا الكتاب مايزال مخطوطا ، فقد حرصنا على الحصول عليه وقد يسّر الله السبيل و أفلحنا في الحصول على نسختين منه [1] ستكون هي معتمدنا الأول في التعريف بالشيخ الإمام .

أوّلا– اسمه ونسبه وولادته :

لا يختلف المترجمون للشيخ السنوسي كثيرا فيما أوردوه حول كنيته و اسمه و نسبه ، فيذكرون لنا اسمه و نسبه و وفاته ، دون كبير خلاف في ذلك . أمّا كنيته و اسمه و نسبه ، فهو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي ، فكنيته أبو عبد الله ، و اسمه محمد ، و لقبه و شهرته السنوسي [2] ، اشتهر بهذا اللقب نسبة إلى القبيلة المعروفة بالمغرب من قبل أبيه ، أمّا الحسني فنسبة إلى الحسن بن علي بن أبي طالب من جهة أمّ أبيه [3].

أمّا عن ولادته ، فيجمع المترجمون على أنّ السنوسي ولد بتلمسان ونشأ بها ، غير أنّ تاريخ ميلاده كان محل اختلاف كبير بينهم [4] ، الراجح منها ما ذكره الملالي قال : "و أخبرني

---

[1] – النسخة الأولى من خزانة بشير محمودي بولاية معسكر ، و الثانية من المكتبة الوطنية بتونس . تحت رقم : 22668 . و هذه الأخيرة هي معتمدنا في هذه الترجمة لأنها كاملة بخلاف الأولى فهي ناقصة .

[2] – يشارك محمّد بن يوسف السنوسي في الانتساب و الاسم محمد بن علي السنوسي المستغانمي صاحب الطّريقة السّنوسية المتوفى سنة 1276هـ / 1859م فبرّغم ما كتب عن السنوسي التلمساني المتكلّم فإنّه يبقى مجهولا لدى الكثير، بل إنّ من الباحثين من يخلط بينه و بين السنوسي صاحب الطّريقة في التّصوف من ذلك الدّكتور عبد المجيد عابدين في كتابه " تاريخ الثّقافة العربية في السّودان ـــ انظر مقدّمة محقق شرح أمّ البراهين للسنوسي ـــ مصطفى الغماري ، دط ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1989م : ص9

[3] – الملاّلي – المواهب القدسية في المناقب السنوسية ، مخطوط ، المكتبة الوطنية بتونس . تحت رقم : 22668 ، لوحة 30ص60- و ابن مريم – البستان : ص237 – و الحفناوي – تعريف الخلف برجال السّلف : ص 179

[4] – تستلزم محاولة تحديد ميلاد الشيخ السنوسي المقارنة بين روايات مختلفة وآراء متضاربة ، ولكي يكون ذلك التحديد أقرب ما يمكن إلى الحقيقة ، لابد أن يكون آخذا بالاعتبار جملة من العناصر :

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قبل موته — حكاية عن شيخه السنوسي — بنحو عامين أنّ سنه خمسة وخمسون سنة"[1] ، ممّا يرجح على أنّ الفترة المحتملة لمولد السنوسي هي الفترة الممتدّة من سنة 838هـ إلى 839هـ.

ثانيا – نشأته العلمية :

لقد نشأ السنوسي منذ صغره على مائدة العلم و الدّين و الأخلاق ، و تربّى في بيت زهد و أدب ، فقد كان أبوه يعقوب يوسف السنوسي شيخا صالحا و زاهدا معروفا بعلمه وخشوعه[2]، فقد حفظ القرآن على يده و هو ما يزال يافعا ، ثمّ اتّجه إلى تحصيل علم الحديث والفقه و الأصول و الكلام و التّصوف و اللغة و الأدب ، و لم تكن دراسته مقصورة على هذه العلوم فحسب ، و إنّما تعدّاها ليدرس أيضا العلوم الكونية و الفلكية و الرّياضية إلى غير ذلك ،

العنصر الأول : ما ذكره بعض المترجمين من تحديد لعمر السنوسي عند وفاته فقد ذكر التنبكتي و ابن مريم : "...رأيت مقيّدا عن بعض العلماء ، أنّه سأل الملالي عن السنوسي فقال له : مات عن ثلاث و ستين سنة و الله أعلم" . وتابعهما في نقل نفس الرّواية الحفناوي . و قالوا أنّه مات سنة 895هـ . انظر ، التنبكتي - نيل الإبتهاج : ص 328 – و ابن مريم – البستان: ص 247 – و الحفناوي – تعريف الخلف : ج1ص187

العنصر الثاني : ماذكره الملاّلي قال : "و أخبرني قبل موته – حكاية عن شيخه السنوسي – بنحو عامين أنّ سنه خمسة وخمسون سنة" . انظر ، الملالي – المواهب القدسية : لوحة 290ص580 . و انطلاقا من هذه المعطيات حاولت المراجع الحديثة استنتاج تاريخ ميلاد الرجل ؛ فرأت أنّه ولد سنة 832 هـ/ 1428م . – الزركلي – الأعلام : ج 7 ص 154. و عادل نويهض– معجم المؤلفين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر ، ط2 ، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف و الترجمة و النشر ، بيروت ، لبنان ، 1980م : ص180-181

إنّ هذه العناصر مجتمعة بما تحمل من تضارب بين أجزائها ، تسفر على أنّ الفترة المحتملة لمولد السنوسي هي الفترة الممتدّة من سنة 838هـ إلى 839هـ - اسعيد عليوان– محمد بن يوسف السنوسي وشرحه لمختصره في المنطق (دراسة و تحقيق) : ص 20 . و هو أمر يدعو إلى مزيد من الموازنة و مزيد من الترجيح للوصول إلى تاريخ أكثر ضبطا و دقّة .

إذا تصفّحنا العناصر الآنفة الذكر ، و قارنّا بينها تبيّن لنا أنّ العنصر الأول غير جدير بالاعتبار في تحديد تاريخ ميلاد الرجل، و ذلك لأنّه يتعلّق برواية عن مجهول حيث لم يذكر اسم العالم و لا الكتاب الذي رأى فيه ذلك ، كما أنّ الملالي لم يذكر هذه الرّواية في كتابه ، و أمّا العنصر الثاني فهو كبير الأهمية ، و ذلك باعتبار التّقارب الذي كان حاصلا بين الملالي وأستاذه و هي رواية واضحة تتعلّق بإخبار ، و بناء على ذلك الأساس فالمعتمد في هذا هي رواية الملالي لأنها كما يظهر أقرب إلى الصّواب و الحقيقة .

[1]– الملالي – المواهب القدسية ، مخطوط :لوحة290 ص 580

[2]– انظر ، المصدر نفسه : لوحة 08، ص15 – و التنبكتي- نيل الابتهاج : 325 . و ابن مريم – البستان :ص238 . والحفناوي – تعريف الخلف برجال السّلف : ص179

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و قد تفوّق فيها تفوّقا ملحوظا ، لا يتحدث في علم إلاّ ظنّ سامعه أنّه لا يحسن غيره ، لاسيما علم التّوحيد و المعقول ، كما يذكر أنّه شرع في التأليف و التّصنيف و لّما يتجاوز عمره التاسعة عشرة.[1]

ثالثا – شخصيته العلمية :

لقد تحقّقت للسنوسي شخصية علمية مستكملة لمقوماتها ، جامعة لشّرائط تكوينها ، وتتّفق المصادر التي ترجمت للسّنوسي على أنّ حظّه من الصّفات و الأخلاق كان وافرا ، و تصف هذه المصادر بأنّه كان صادق الإيمان ، صاحب رياضة روحية و أوراد زاهدة ، وكان له باع طويل في الوعظ ، ينفعل بما يعظ ، و يحصل له وجد فيبكي .

و أمّا كلامه فهداية لكلّ مريد ، كثير الخوف طويل الحزن لصدره أزيز من شدّة خوفه فلقد ورد عن الشّيخ " أحمد بن داود الأندلسي "[2] أنّه سئل حينما خرج من تلمسان عن علمائها فقال :" العلم مع التنسي و الصّلاح مع السنوسي"[3] ، وكان رحيما مبتسما في وجه من لقيه مع إقبال و حسن الكلام ، تتزاحم الأطفال على تقبيل أطرافه ليّنا هيّنا في مشيه[4] .

أمّا عن ملامح شخصيته الاجتماعية فإنّ غزارة علمه ، و عزّة نفسه ، و قوّة شخصيته ، جعلت منه معظّما من قبل السّلاطين و الملوك و الأمراء ، فقد طلب السّلطان أن يطّلع إليه و يقرأ التفسير بحضرته على عادة المفسّرين فامتنع ، فألحّوا عليه فكتب إليه معتذرا و أنّه لا يقدر على التّكلّم هناك[5]. و أمّا شخصيته العلمية فتتميّز بالتّحدّي و العمق ، و قد لاقى السّنوسي في سبيل ذلك متاعب كثيرة ممن يدّعي أنّه أعلم أهل الأرض ، ولمّا ألّف بعض عقائده أنكر عليه كثير من

---

[1] – الملالي – المواهب القدسية ، مخطوط : لوحة 71 ، ص 142

[2] – لم أقف له على ترجمة في المصادر المتوفرة بين أيدينا .

[3] – ابن مريم – البستان : ص 248

[4] – الحفناوي – تعريف الخلف برجال السّلف : ج 1 ص 180

[5] – ابن مريم – البستان : ص 241

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

علماء وقته ، و تكلّموا بما لا يليق ، فتغيّر لذلك ثمّ أصبح و قد زال حزنه و عفا على المنكسرين فخرست حينئذ ألسنتهم فرجعوا مقرين بفضله [1] .

و لم يكن السنوسي شديد الكلف بخصومه فقط ، و إنّما كان يجادل و يناظر أصحاب الملل الأخرى من أهل الكتاب ، و ذلك راجع إلى سعة إطّلاعه و فائق درايته ، فقد استطاع أن يثبت لأحد اليهود نبوة محمد عليه السّلام بنص التوراة ، كما كان له موقف مشرف من يهود توات و تأييده للمغيلي [2] ، في هدم بيعهم بعدما تجاوزوا الحدود الشرعية و تمردوا على الأحكام الدينية .

رابعا – شيوخـــه و تلامـــذته :

1 – شيوخـــه و رأيه فيهم [3] :

لقد كان قدر السّنوسي واسعا إذ توفر لـــه من الشّيوخ ما يندر أن يتوفر لغيره و فيما يلي نشير إلى بعض منهم بشيء من الإيجاز و رأيه في بعضهم :

فمنهم والده " أبو يعقوب يوسف السنوسي" . ومنهم العالم ، الزاهد الشيخ " نصر الزّوَاوِي "[4] قرأ الشيخ عنه كثيرا من فَنّ العربية ، و لازمه كثيرا ، و قد كان كثيرا ما ينهاه عن إعطاء العلم لغير أهله .

[1]– المصدر السابق : ص 242

[2] – هو محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني التواتي متمكن المحبة في السنة وبغض أعدائها ، وقع له بسبب ذلك أمور مع فقهاء عصره حين قام على يهود توات و ألزمهم الذل و هدم كنائسهم و نازعه في ذلك الفقيه "عبد الله العصنوني " قاضي توات و راسل في ذلك علماء وقته ، فكتب إليه "التنسي" ووافقه على ذلك الإمام"السنوسي" و كتب في ذلك رسالة طويلة قيدها التنبكتي عند ترجمته للمغيلي توفي سنة 909هـ . انظر ، التنبكتي – نيل الابتهاج : ص330-331

[3] – الملالي – المواهب القدسية ، مخطوط : لوحة09 ، ص 18و مابعدها

[4]– الشيخ العالم المحقق ، الزاهد نصر الزّوَاوِي . قرأ السنوسي عنه كثيرا من فَنّ العربية ، و لازمه كثيرا حدّث السنوسي قال : « كان سيدي نصر ، كثيرا ما ينهانا عن اعطاء العلم لغير أهله ، و يقول : كثيرمن الناس يجيء إلى العالم فيسأله عن مسألة على

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومنهم " أبو عبد الله محمد بن قاسم بن تونزت [1] الصنهاجي " ، قرأ عليه في زمن صغره جملةً من الحساب و الفرائض . حدّث السنوسي عنه قال :" محمد بن تونزت رحمة الله عليه شيخا صالحا عالما بالمعقول و المنقول ، و النحو و الحساب ، و الفرائض و الأوقاف ، و الخط و الهندسة ، و في كل علم [2].

ومنهم العالم الأجل ، " أبو الحسن علي بن محمد الشهير" بالقَلَصَادي الأندلسي"[3] قرأ عليه الشيخ جملة من الحساب و الفرائض ، و أجازه في جميع ما يَروِي .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وجه أنه يرى من نفسه أنه عارف بها . و إنّه يلقيها بزعمه على العالم، و يقصد بذلك سرقة الجواب من العالم . حتى إذا أجابه العالِم ، و أُوضِحَتْ لَهُ المسألة أنكر عليه جوابه ، و ربما يقول له: جوابك ليس بجواب ، و ليس بصحيح ، و أدنى من ذلك أن يقول له : هذا الجواب ضعيف، أو ما في معناه ، ثم إذا سئل هذا السائل المعين في عين تلك المسألة، أجاب بغير الجواب الذي أنكره على العالم . قال: فَيَحْرُمُ على المسؤول إذا علم أن سائله مُعَنِّتٌ أن يجيبه؛ لأنه قد أعطى الحكمة لغير أهله وكان نصر من أكابر تلامذة الشيخ محمد بن مرزوق و دفن خارج باب الجياد ، وقبره معروف هنالك . انظر ، ابن مريم–البستان : ص295

[1]– تصحف اسم هذا العالم ففي نيل الابتهاج أن اسمه محمد بن توزت و في البستان لابن مريم ص 237 ورد :" تومرت."

[2] – يقول السنوسي عنه : "و ما رأيته قط نظر في كتاب إلاّ مرةً واحدةً ، أُشْكَلَتْ عليه مسألة من الهندسة فنظر فيها كتبا كثيرة ، و نظر فيها أياما ، فلم يَجِدْهَا فقال : هكذا أبقى أتعب نفسي في مطالعة الكتب ، فترك النظر ، و جعل يتدبر تلك المسألة بعقله حتى استخرجها لنفسه " قال الشيخ السنوسي عنه : " كنت في زمن صغري أحضر مجلس سيدي محمد بن تونزت في زاوية ابن البناء و عنده شبان صغار يقرؤون عليه الفرائض ، وكان لهم فهم ثاقب فبنفس ما يشير الشيخ عليهم بشيء فهموه وحملوه ، و أنا لا أفهم شيئا من ذلك . فتخلفت عن مجلسه أياما ، ثم جئته يوما ووجدته وحده . فقال لي : أراك تغيب عنا ؟ قال فقلت له: يا سيدي ، أنا لا أَعْرِفُ شَيْئاً ، فقال لي إذا أردتَ القراءة عليَّ فأتني وحدك بعد العشاء ، ولا تحضر مع أحد من الذين يقرؤون عَلَيّ . قال : له نعم . قال الشيخ : فكنت إذا صليت المغرب رفعت عشائي إلى الشيخ ، وكان ساكنا في زاوية ابن البناء ، فيأكل منه حتى يكتفي فإذا صليت معه صلاة العشاء ، يقول لي: اقرأ . فقرأت عليه جملة من الحسابِ و الفرائضِ. قال: و هكذا كانت عادتي في كل ليلة فنقرأ عليه جُلَّ الليل، ولا أراه يرقد إلا في بعض الليالي ينام و هو مستند . انظر ، الملالي – المواهب القدسية : لوحة 09 ، ص 18

[3]– أبو الحسن القلصادي (815-891هـ/1412-1486م) علي بن محمد بن محمد بن القرشي البسطي ،الأندلسي، المالكي ، الشهير بالقلصـادي (نورالدين ،أبو الحسن)رياضي فرضي ، منطقي ، عروضي ، فقيه صوفي محدث نحوي تتمركز أهمية القلصادي في أنه أبدع في نظرية الأعداد ، و له فيهـا ابتكارات توفي بباجة من بلاد افريقية ، له مصنفات عديدة منها:"كشف الأسرار عن علم الغبار" و "شرح الحكم العطائية في التصوف" و غيرها . انظر ، ابن مريم – البستان : ص141، و الزركلي – الأعلام : ج5 ص10

ومنهم الشيخ الفقيه ، المقريء : " أبو الحجاج يوسف بن الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد الشريف الحسني "[1] قرأ عنه و عليه القرآن الكريم بالمقارئ السبعة المشهورة من أول القرآن إلى آخره ختمتين وزاد من الختمة الثالثة قدرا صالحا .

و منهم الشيخ الفقيه ، العالم ، " أبو عبد الله محمد بن أحمد بنِ عيسى المَغيلِي الشهير بـــ"الجَلاَّب" [2] كان السنوسيُ يحدث عنه و يقول: " هو حافظٌ لمسائلِ الفقه " .

ومنهم الشيخ العالم الأجل ، الصالح : " أبو عبد الله محمد بن أحمد الحَبَّاك " [3] – قرأ عليه الشيخ كثيرا من علم الإسطرلاب ، و قد ذكر شيخنا في " شرحه للأرجوزة " التي ألّفها شيخه المذكور ، صرّح فيه بأنّ شيخه وسم قصيدته بـــ"بغية الطلاب في علم الاسطرلاب " ، ونقل أشياء من فوائد هذا العلم .

ومنهم الشيخ الإمام الحافظ ، " أبو عبد الله محمد بنُ العباس بنِ محمد بنِ عيسى العبادي الشهيربـــ"ابن العباس "[4]، قرأ عليه السنوسي شيئا من علم الأصول ، و قرأ عليه من كتب المنطق " الجمل للإمام الخونجي " من أوله إلى آخره .

---

[1] – الشيخ الفقيه العالم أبو الحجاج يوسف بن الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد الشريف الحسني قرأ السنوسي عليه القرآن الكريم بالمقارئ السبعة المشهورة من أول القرآن إلى آخره ختمتين وزاد من الختمة الثالثة قدرا صالحا . قال السنوسي : و لم أتحقق منتهاها ، و أجازني في المقارئ السبعة، و في غيرها من سائر مروياته إجازةً مطلقةً عامةً، وقد ذكر الشيخ في تفسيره الذي بدأه على القرآن، و ذكر في سنده في هذه القراءات السبع متصلا فيها إلى النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا . ودفن رحمه الله خارج باب الجياد من تلمسان ، وقبره معروف. انظر ، الملالي – المواهب القدسية : لوحة 10، ص 19

[2]- الفقيه العالم أحد شيوخ أبي العباس الونشريسي والسنوسي كان حافظا لمسائل الفقه ونقل عنه المازوني و الونشريسي بعض فتاويه في نوازلهما وقال الونشريسي توفي شيخنا الفقيه المحصل الحافظ الجلاب في سنة 875 هـــ . انظر ، ابن مريم – البستان :ص 236

[3]- هومحمد بن أحمد بن أبي يحي التلمساني ، الشهير بالحباك(867 هـــ). فقيه ، فرضي ، حاسب فلكي ، ناظم . من تصانيفه : بغية الطلاب في علم الإسطرلاب ، ثم شرحها ، شرح تلخيص ابن البناء ، نظم رسالة الصفار في الإسطرلاب، وشرح على التلمسانية في الفرائض . و نيل المطلوب في العمل بربع الجيوب . انظر ، ابن مريم- البستان : ص219 ، و التنبكتي – نيل الابتهاج : ص 543

[4]- هو محمد بن العباس التلمساني كان إماما فقيها أخذ عنه السّنوسي و التنسي من مؤلّفاته "شرح جمل الخونجي"توفي سنة 871هـــ . ابن مريم – البستان : ص223-224

جمعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومنهم الفقيه ، الحافظ المتقن ، " أبو الحسن علي بن محمد التالوتي الأنصاري " ، وهو أخو السنوسي لأمه [1] ، كان عالما محققا ، متقنا حافظا صالحا ، وكان حافظا لكتاب " ابن الحاجب الفرعي" مستحضرا له وكأنّه بين عينيه ، كان يُقْرِئ أخاه محمد السنوسي في زمن صغره "رسالة الشيخ ابن أبي زيد" .

ومنهم الولي الصالح العالم " الحسن بن مخلوف الشهير بأبركان "[2] و إن لم يأخذ عنه كان يحبه و يؤثره .

ومنهم الشيخ العالم ، الورع " أبو القاسم الكنابشي " [3]. قرأ عليه و أخوه علي التالوتي كتاب " الإرشاد " لأبي المعالي الجويني في التوحيد ، وأجازهما في جميع مروياته [4].

ومنهم الشيخ الإمام ، حجة الإسلام ، " أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الثعالبي " [5]. قرأ عليه "صحيحي البخاري ومسلم" وغيرهما من كتب الحديث ، قال الملالي " رأيت إجازة من

---

[1] – الفقيه الحافظ علي بن محمد التالوتي الانصاري أخو الإمام محمد بن يوسف السنوسي لأمه وأحد شيوخه ، كان من أبر تلاميذ الحسن أبركان توفي سنة 895هـ . انظر ، الملالي – المواهب القدسية : لوحة 11 ، ص20 ، و ابن مريم – البستان، : ص 139.

[2] – الشيخ الإمام العالم محمد بن الحسن بن مخلوف الراشدي الشهير بابركان أبو عبد الله المعروف بالولاية والعلم والزهد له تقييد يسمى بالثاقب في لغة ابن الحاجب . قال الونشريسي توفي سنة 898 هـ . انظر ، المصدر نفسه :ص220

[3] – الشيخ الإمام العالم الورع الصالح أبوالقاسم الكنباشي التلمساني أخذ عنه الإمام سيدي محمد السنوسي وأخوه العالم أبو الحسن علي التالوتي ؛ أخذ عنه الأول علم التوحيد، وأخذ عنه الثاني كتاب الإرشاد لأبي المعالي." انظر ، ابن مريم– البستان:ص 152 . و التنبكتي – نيل الابتهاج :ص 371.

[4] – قال الملالي : أخبرتني السيدة الفاضلة الخيرة عائشة زوجة الشيخ السنوسي قالت لي : « أقام سيدي أبو القاسم الكنابشي عندنا في الدار شهرا كاملا، و هو يقرئ الشيخ تعني زوجها كتابا في التوحيد بدأه عليه من أول الشهر، وختمه في آخر يوم من الشهر رحمهما الله تعالى ورضي عن جميعهم . انظر ، الملالي – المواهب القدسية : لوحة 15 ، ص30

[5] – الولي الصالح ، و القطب الفالح دفين العاصمة الجزائرية ، انظر ، ترجمته في نيل الابتهاج : ص 538 ، و – الزركلي الأعلام : ج 3ص 331 .

خط سيدي عبد الرحمن أجاز بها سيدي محمد السنوسي و أخاه لأمه شيخنا سيدي علي التالوتي قال : " أجزتهما رواية فهرستنا ، و جميع ما تضمنه من مروياتي ، وجميع ما تجوز روايته[1] ".[2]

و منهم الإمام ، الورع الزاهد إبراهيم التازي ، نزيل مدينة وهران [3]. أخذ عنه التصوف ألبسه الخرقة و بصق في فيه[4] . و توفي إبراهيم التازي سنة (866هـ) .

و للشيخ محمد بن يوسف السنوسي مشايخ آخرين تركهم الملالي لعدم تحققه بهم ، و لأنه لم يسمع من الشيخ عنهم شيئا بخلاف هؤلاء المذكورين فإنه قد سمع الشيخ يحكي عنهم ، و يذكر مجالسهم ، و يكثر من الثناء عليهم .

[1]- و لما قرأ عليه شيخنا في الجزائر ارتحل منها ، وجاء هو و أخوه علي التالوتي إلى وهران بنية زيارة الشيخ إبـراهيم التـازي رحمه. انظر ، الملالي – المواهب القدسية : لوحة 15 ص 30

[2] – انظر ، المصدر نفسه : لوحة 16 ص 31 وما بعدها .

[3]- ابراهيم بن محمد بن علي اللنتي التازي نزيل وهران ورع و زاهد صاحب الكرامات و القصائد الرائقة ، كان كلامه في طريق التصوف و مقام العرفان ، له قصائد في نصيحة المسلمين ، توفي سنة 866هـ . انظر ، ابن مريم ، البستان : ص 58 و التنبكتي – نيل الابتهاج : ص 59 .

[4]- لما قدم السنوسي من الجزائر وفرغ من زيارة الثعالبي ، دخل مدينة وهران ، وجلس عند إبراهيم التازي نحو من 25 يوما ، و في هذه الأيام ألبس الشيخ إبراهيم الخرقة لمحمد السنوسي و أضافه تمرا و ماء ، كما صافح إبراهيم التازي محمد السنوسي . وشدّ على يده ، و قال له : المراد بهذه الشدة ؛ الاشتداد في تأكيد الصحبة.. كما شابكه ، و أعطاه السبحة . و أيضا لقن الشيخ إبراهيم التازي الشيخ محمد بن يوسف السنوسي الذكر ، و أوصاه بتقوى الله العظيم ، و لزوم طاعته ، وأن يعرف حق الخرقة ، وينزهها عن الامتهان ، و أن يواظب على ذكر الله تعالى في كل حين و أوان . و أفضل ذكر الله : « لا إله إلا الله » فإنها تجلو عن القلب ما غشاه من الرّان و أوصاه باحترام المشايخ ، و خدمة الإخوان ، و التواضع للفقراء ، و الرأفة بالمؤمنين ، والشفقة على خلق الله أجمعين ، و أن يذكر صبيحة كل يوم « سبحان الله ، وبحمده سبحان الله العظيم » « استغفر الله » مئة مرة . و « لا إله إلا الله الملك الحق المبين » مائة مرة . و قال : فإن ذلك غناء فقرنا ، و أن يقرأ كل يوم وكل ليلة أربع سور من القرآن : سورة العلق و سورة القدر ، و سورة الزلزلة . و سورة قريش . فإن قراءتهن تدفع شر الظاهر و الباطن . و قال شيخه إبراهيم التازي : « اقطعوا اليأس مما في أيدي الناس تعيشوا أعزاء ، و الله سبحانه وليي و وليكم ، و هو حسبنا ، و نعم الوكيل » ومنها: حديث الرحمة : فقد حدّث الشيخ إبراهيم التازي محمد بن يوسف السنوسي ، و قرأ عليه حديث الرحمة بلفظه عليه .و أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » و ذكر بعض أصحاب إبراهيم التازي أن محمد السنوسي أخبره أن إبراهيم التازي بصق في فيه . يعني : في فم محمد السنوسي و الله تعالى أعلم . انظر ، الملالي – المواهب القدسية : لوحة 20 ص 39 بتصرف

2- تلاميــذه :

كما تهيّأ للسنوسي عدد من التّلاميذ و الطّلبة ، و يصل عددهم إلى ستة و عشرين تلميذا ، منهم من اشتهر بالتدريس ، و منهم من عرف بالإضافة إلى ذلك ، بنشر التوحيد ، ويرجع السبب في ذلك إلى كثرة الدروس و المحاضرات التي كان يبثّها في مجالس العلم ، إضافة إلى البيّئة التي وجد فيها ، فقد كانت تعجّ بالكثير من طلاب العلم ، و فيما يلي نعرض لبعض منهم ممن كانت لهم شهرة واسعة :

فمنهم أبو عبد الله الملالي الذي قام بتسجيل حياته في كتابه " المواهب القدسية في المناقب السنوسية "، و منهم الحوضي [1] ، وحفيد الحفيد محمد بن مرزوق[2] ، و" أحمد زروق البرنسي" [3] و غيرهم كثير[4] .

خامسا – في وفـــاته وما اتفق له في أيام مرضه :

وصف " الملالي " وفاة أستاذه السنوسي بنوع من التفصيل في كتابه " المواهب القدسية في المناقب السنوسية " و الظروف التي أحاطت به . ومما جاء فيه أنّه كان رضي الله عنه في أواخر عمره كثير الانقباض عن الخلق ، لا يكاد ينبسط مع أحد كما كانت عادته قبل ذلك ، وكان يشقّ عليه الخروج إلى المسجد للإقراء و الصلاة ، و لا يخرج إليه في بعض الأيام إلا حياء من

[1] – هو محمد بن عبد الرحمن الحوضي الفقيه التلمساني العالم الأصولي الشاعر المكثر له نظم في العقائد شرحه الإمام السنوسي توفي سنة 910هـ . انظر ، ابن مريم – البستان : ص 252

[2] – هو أحمد بن محمد بن محمد ولد العالم الكفيف ابن مرزوق ، ابن الإمام الشّهير ابن مرزوق كان نجيبا صالحا من أهل تلمسان أخذ عن السنوسي و التنسي و لم يعمر طويلا ومات . انظر ، الحفناوي – تعريف الخلف برجال السّلف : ج 1 ص 149

[3]– أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق الإمام العالم الفقيه المحدث الصوفي ولد سنة 846هـ أخذ على علي السقطي و عبد الله الفخار و الزرهوني ، و العقائد عن السنوسي من مؤلفاته : قواعد التصوف ، و عدة الصادق المريد توفي سنة 899هـ . انظر ، ابن مريم – البستان : ص45 -50

[4]– للتوسع ، انظر ، اسعيد عليوان – محمد بن يوسف السنوسي وشرحه لمختصره في المنطق : ص 22 . وجمال الدّين بوقلي حسن– الإمام ابن يوسف السنوسي و علم التوحيد : ص 67

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

النّاس الذين ينتظرونه في المسجد للصلاة ، و لمّا أحسّ بألم مرضه الذي توفي منه ، انقطع عن المسجد ، فسمع النّاس بمرضه ، فصاروا يأتون إلى المسجد فلا يجدونه ، فتتغير قلوبهم من فقدان الشيخ و عدم رؤيتهم له ، فأخبر الشيخ بذلك ، فصار يتكلّف الخروج إلى المسجد للصلاة لأجل النّاس ، فإذا رأوه فرحوا و سرّوا بخروجه و رؤيته ، فخرج يوما ، و أتى باب المسجد ، و أراد الصعود إليه فلم يقدر ، فقال : " كيف أطلع إلى المسجد يا رب ! " ، فهمّ بالرجوع إلى داره فبدا له خوفا من أن يدخل على النّاس حزنا برجوعه ، فتكلّف الصعود إلى المسجد و صلّى بالناس صلاة عصر يوم الجمعة ، و لم يكمل الصلاة إلا بشقّ النّفس ، و هذه آخر صلاة صلاها ، فرجع إلى داره ، فبقي إلى صبيحة يوم السبت من الغد فقربت إليه زوجته طعاما فقال لها : لا أقدر على شيء . فقالت لـــه : و أي شيء بك ؟ فقال لها : أنا تخلفت ، ثم غاب عن حسّه ، فبقي على تلك الحالة النّهار كله ، ثم كلّمته زوجته و قالت له : ما الّذي غيّبك عن حسّك ؟ . فقال لها : " إنّ الملائكة قد صعدت بي إلى السّماء الدنيا ، فسمعت قائلا يقول لي : اترك ما أنت عليه فقد قرب أجلك . ثمّ قال : " لا أستطيع أن أفسر لك بقية ما رأيت " . فقالت له زوجته : " و ما الذي أمرت بتركه ؟ قال لها : قد تركت حبس ذلك المسجد لا آخذ منه شيئا أبدا " ، ثمّ إنّه لازم الفراش من حينئذ إلى أن توفي ، و مدة مرضه عشرة أيام..وكانت وفاته يوم الأحد بعد العصر وقد كان ابن أخيه يلقنه الشهادة مرة بعد مرة فالتفت الشيخ لـــه ، و قال بكلام ضعيف جدا : " و هل ثمّ غيرها . يعني : أنّه ليس بغافل عنها بقلبه في هذا الوقت ، و إن كان لم ينطق بها لسانه، وكانت ابنته تقول له حينئذ : تمشي ، و تتركني ؟ فقال لها: " الجنة تجمعنا عن قريب إن شاء الله تعالى " وكانت في يده سبحة ، فلما اشتد مرضه سقطت السبحة من يده ، فبقي كذلك ما شاء الله ، ثم التفت إلى السبحة ، فلم يجدها في يده فقال : " مشت العبادة يا محمد ، يعني نفسه " وكان يقول عند موته : " نسأله سبحانه أن يجعلنا ، و أحبتنا عند الموت ناطقين بكلمة الشهادة عالمين بها " و توفي رحمه الله تعالى ، و رضي عنه يوم الأحد بعد العصر الثامن عشر من جمادى الآخرة من عام (895هـــ) خمسة و تسعين بعد ثمان مائة . و أخبرتني والدتي رحمها الله تعالى عن بنت الشيخ أنها شمت رائحة المسك في البيت بنفس موت أبيها ، و شمته أيضا في جسده، و الله تعالى أعلم" [1].

[1] – الملالي – المواهب القدسية : لوحة 290ص580 بتصرف

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سادسا – آثـــــــاره العلمية و الجديد الذي وقفنا عليه :

لقد كان الإمام السنوسي مشاركا ، استطاع أن يؤلف في كل الفنون تقريبا و قد بدأ التأليف منذ ريعان شبابه . إننا لا نقصد في هذا العنصر حصر كل مصنفات السنوسي وترصيفها، و إنّما نريد الإشارة إلى أهمها و أبرزها ، وقد قام كل من "جمال الدين بوقلي حسن" و " اسعيد عليوان " بوصف إحصائي لمؤلفات السنوسي و أثاره العلمية المطبوع منها و المخطوط ، مع تعيين الكثير من النسخ المخطوطة و أماكن وجودها سواء بالمكتبات الجزائرية و الزّوايا ، أو المكتبات العربية و الإشارة إلى الأرقام التي تحملها ، كما نهدف في هذا العنصر إلى ذكر كتب ورسائل جديدة للسنوسي وقفنا عليها ، و أغلبها مخطوط مع الإشارة إلى مكان وجودها و أرقامها ، وفيما يلي تصنيف لأهم آثار الإمام و مصنّفاته حسب العلوم نختصر بعضها هنا :

1 – أهم مصنـــــفــاته :

أ – أصول الدين :

كانت أكثر مؤلفات السنوسي في هذا العلم و ذلك لأن جلّ جهده قام على أساس عقدي ، فوجّه همّه إلى تركيز هذا الأساس و تدعيمه فكانت أكثر مؤلفاته فيه ، و من هذه المؤلفات ما يلـــي :

1. العقيدة الكبرى : و تسمّى : عقيدة أهل التوحيد و التسديد المخرجة (بعـــون الله) من ظلمات الجهل و ربقة التقليد المرغمة (بفضل الله) أنف كلّ مبتدع و عنيد.
2. شرح العقيدة الكبرى : و تسمى : " عمدة أهل التوفيق و التسديد في شرح عقيدة التوحيد" .
3. العقيدة الوسطى .
4. شرح العقيد الوسطى .
5. **العقيدة الصّغرى ، و تسمى " أمّ البراهين " و قد اشتهرت بالسنوسية .**

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

6. شرح العقيدة الصّغرى ، و تسمى " شرح أم البراهين " .
7. صغرى الصغرى ، و سميت بهذا لأنها أصغر من أم البراهين .
8. شرح صغرى الصغرى .
9. المقدمات ، و قد وضعها مبيّنة لعقيدته الصغرى .
10. شرح المقدّمات ، و تسمى بالمقدّمات السنوسية .
11. شرح أسماء الله الحسنى .
12. الدّهرية ، و هي قصيدة له في العقيدة نقد فيها مذاهب الدّهرية و الزّنادقة .
13. المنهج السّديد في شرح كفاية المريد ، و هو شرح لمتن أبي العباس الجزائري تـوفي 884هـ
14. شرح المرشدة ، وهي شرح لرسالة وجيزة في العقيدة لابن تومرت تـ (524هـ)

ب – التفسير و الحديث و علومهما :

تذكر بعض المصادر أنّ السنوسي فسّر القرآن الكريم كله في مسجده درسا و تعليما[1] ، أما ما سجله من تفسيره للقرآن و علومه و شرحه للحديث فهو ما يأتي :

1. تفسير مختصر لسورة الفاتحة .
2. تفسير بداية سورة البقرة .
3. تفسير سورة (ص) .
4. اختصار حواشي التفتازاني على كشاف الزمخشري .
5. اختصار لكتاب في القراءات السبع ، و لا يعرف اسم هذا الكتاب و لا صاحبه .
6. شرحه على الشاطبية الكبرى .
7. مكمل إكمال الإكمال ، و هو مختصر إكمال الإكمال لأبي عبد الله الأبّـي علـى صحيح مسلم .
8. شرح صحيح البخاري و لكنه لم يكمله .

1 - ابن مريم – البستان : ص 16

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ج – الفقه والفرائض :

1. تعليقه على فرعي ابن الحاجب .
2. شرح الوغليسية في الفقه .
3. شرح المدوّنة للإمام مالك ، و قد شرح منها نصيبا لا بأس به .
4. المقرب المستوفي في شرح فرائض الحوفي .

د – التصوف :

1. اختصار رعاية المحاسبي .
2. نصرة الفقيّر في الرد على أبي الحسن الصغيّر .
3. كتاب مناقب الأربعة المتأخرين .
4. مختصر بغية السالك إلى أشرف المسالك[1] للساحلي .
5. بعض أوراد حظ عليها تلاميذته .
6. شرح حديث التسبيح .
7. شرح أبيات في التصوف تنسب للألبيري .
8. شرح قول الغزالي – ليس في الإمكان أبدع مما كان[2] – .
9. شرح لبيت شعري في التصوف – إنّ شمس النهار تغيب بليل –.
10. شرح أبيات في التصوف – تطهر بماء الغيب –.

هـــ – المنطق :

1. شرح جمل الخونجي في المنطق .

[1] – عثرنا على نسخة نادرة من هذا الكتاب بين رفوف مكتبة مسجد دار الحديث (العتيق) بتلمسان ، بدون ترقيم .

[2] – هذه مقالة وقع بشأنها خلاف بين العلماء المغاربة فمنهم من أنكر نسبتها للغزالي أصلا ، و منهم من نسبها إليه و أوّلها تأويلا حسنا – [منهم شيخنا السنوسي] ومنهم من اعتبرها مقالة زلّ بها قلم الغزالي . انظر ، الطاهر المعموري ، الغزالي وعلماء المغرب ، دط ، الدار التونسي للنشر ، تونس ، و المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1990م : ص 19- 20

2. شرح مختصر ابن عرفة [1]..
3. مختصر في علم المنطق .
4. شرح لمختصره في المنطق [2]...

2 – الكتب والرسائل الجديدة للسنوسي التي وقفنا عليها :

المعلوم أنّ " الملاّلي "لم يحصر جميع ما كتبه السنوسي و إنّما أورد فقط ما علم من تآليفه ، قال في هذا الشأن بعد أن ذكر ما كتبه الشيخ الإمام من كتب : " فهذا ما علمت من تآليفه رضي الله عنه ،[3] و زِد مع ذلك ما كتب من "الأجوبة على المسائل " التي ترِد عليه في جل الأوقات ، و بعض الأجوبة يحسن أن نعدّها من تآليفه رضي الله عنه ؛ لكبرها و استقلالها بنفسها وما كتب من " المواعظ " و " الوصايا " و " الرسائل" و " الحجب " التي يطلب بها ، وما نسخ

جمعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] – شرح على مختصر ابن عرفة في المنطق ، ميكروفيلم ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ، الرقم الطلبي 307.

[2] – انظر ، عبد القادر أحمد عبد القادر ، السنوسي التلمساني الجامع بين علوم الباطن والظاهر ، مصنفاته المخطوطة وأماكن وجودها ، مجلة أفاق الثقافة والتراث ، العددان: 22-23 ، السنة 06،جمادى الثانية 1419هـ/ أكتوبر 1998م: ص137

[3] – هناك مؤلفا أخرى للإمام السنوسي لم يذكرها الإمام الملالي منها :

أولا : "تعليق على المختصر الفرعي لابن الحاجب."، ذكره ابن مريم في البستان، ص: 247

ثانيا : "تأليف في الأدعية." منه نسخة في مكتبة الخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع: 1531/1184د، و نسخة في المكتبة الوطنية بتونس: 282 ، و نسخة في الخزانة الناصرية بتمكروت: 2746، بعنوان:" الاستغفار و الدعوات."

ثالثا: "تفسير ما تضمنته كلمات خير البرية من غامض أسرار الصناعة الطبية." ذكره ابن مريم في البستان، ص: 247 ، منه خمس نسخ في الخزانة العامة بالرباط، تحت رقم: 23-474 ك-3716-797/2678د-1257/2679د، ونسختان بالمكتبة الوطنية بتونس، تحت رقم: 4255-7147، و له نسخ أخرى في مكتبات العالم يطول ذكرها .

رابعا : "تقاييد و أجوبة عن مسائل علمية" منه نسخة في مكتبة علال الفاسي، تحت رقم: 181/1363.

خامسا : "جواب في مسألة من البدع " منه نسخة في مكتبة الخزانة الناصرية بتمكروت، تحت رقم: 2088.

سادسا : "رسالة إلى إبراهيم بن هلال السلجماسي " منه نسخة في مكتبة علال الفاسي، تحت رقم: 129/1451.

سابعا : "رسالة تعزية " منه نسخة في المكتبة الوطنية بتونس، تحت رقم: 1499.

ثامنا : " فائدة ، أو فصل في السفر" منه نسخة في المكتبة الوطنية بباريس، تحت رقم: 4/1206.

تاسعا : مجربات في الطب ، نسخة في مكتبة علال الفاسي ، تحت رقم : 149/2084ع .

عاشرا : " نظم في الزكاة " ، منه نسخة في دار الكتب المصرية ، تحت رقم : 5366 .

بيده من تصانيف العلماء ، و دواوين القدماء ، و قد رأيت عنده كثيرا من كتب العلماء بخطه رضي الله عنه و نفعنا به ، و جمعنا به في جنته "[1].

و من الرسائل و الوصايا الأخرى التي وقفنا عليها – و التي نملك منه نسخا – ما يلي :

1- وصية لهبة الله بن علي الحوتي ، المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة ، ضمن مجموع تحت رقم :2396/20 .

2- رسالة في نفي تأثير الأسباب ، المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة ، ضمن مجموع تحت رقم :3277/03 .

3- أجوبة على مسائل مشكلة ، مكتبة الحرم النبوي ، فيلم 31 ، رقم التصنيف 80/21 لدينا نسخة مصورة منها .

4- فتوى في تدريس الأولاد ، المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة ، ضمن مجموع تحت رقم :3277/01

5- فتوى في معلمي الأولاد ، المكتبة الوطنية ، ضمن مجموع تحت رقم :3277/02

6- فتوى في قراءة القرآن في الصلاة ، المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة ، ضمن مجموع تحت رقم :613/15

6- نظم في أصحاب الفروض ، المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة ، ضمن مجموع تحت رقم :2855/02

7- حفيظة (01) ، المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة ، ضمن مجموع تحت رقم : 773/04

8- حفيظة (02) ، المكتبة الوطنية بالجزائر ، ضمن مجموع تحت رقم : 3231/13

9- عقيدة صغرى صغرى الصغرى ، تحقيق : يوسف احنانة ، ملحق ، بكتاب تطور المذهب الأشعري[2] .

[1] – الملالي – المواهب القدسية : لوحة 97 ، ص 194

[2] – يوسف احنانة – تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي ، ط2 ، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب ، 2007 م : ص315

سابعا : منهج السنوسي في عرض المسائل و خصائصه : يتميز السنوسي بمنهج في عرض و ترتيب مسائل العقيدة و العلمية على النحو التالي :

أولا – اعتماد أسلوب الجمع و العرض :

أول ما يعترض سبيلنا في ترتيب مسائل العقيدة و العلمية عموما عند الشّيخ أنّنا نجده يتميز بمنهج في العرض يقوم على ضرورة احترام المخاطبين و تفاوت أفهامهم ، لكن أهمّ ما يغلب على القضايا العقدية التي يتناولها السنوسي و هي أنّه يبادر إلى جمع عدد كبير من الآراء و الأقوال التي تتناول القضية ، فيذكّر آراء أهل السّنة منسوبة إلى أصحابها خاصّة من أعلام الأشاعرة ، كما يذكر بعض آراء الخوارج و المعتزلة ، و قد يضيف في بعض الأحيان مع ذلك آراء الفلاسفة ، ويتطرّق بين الحين و الآخر إلى آراء متصوّفة و النّصارى و اليهود و الملاحدة حتى لا ينتهي من المسألة إلاّ و جلّه معروض بين يدي القارئ على نحو ما جاء في مسألة حد العقل ، يقول في ذلك: " و أما العقل فيطلق في اصطلاح الفلاسفة على معان ، و يطلق في اصطلاح أهل العرف على صحة الفطرة وكثرة التجربة و على الهيئة المستحسنة للإنسان في حركاته وسكناته ، واختلف المتكلّمون في العقل الذي هو مناط التّكليف ما هو ؟ فقال بعض المعتزلة : العقل ما يعرف به قبح القبيح و حسن الحسن ، و قال الخوارج : العقل ما عقل به عن الله تعالى أمره ونهيه، و أمّا أهل السّنة فمنهم من قال : العقل هو العلم ، ومنهم من قال أنّه غريزة يتوصّل بها إلى المعرفة [1] .

ففي هذا النّص القصير ، نجد أكثر من وجهة نظر في مسألة واحدة ، كما نجد إلى جانب ذلك أنّه غالبا ما يسند هذه الآراء بتعيين أصحابها ، أو يذكر المؤلّف دون تعيين الكتاب أو هما معا ، إلاّ أنّ المصادر التي تطغى على كتبه ، نجد أنّ المصادر السّنية الأشعرية تستأثر بالقسط

[1] – السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد ، تحقيق مصطفى مرزوقي ، دط ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، دت : ص38 – 39

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الأوفر في النّقل ، و من الكتب التي يكثر منها النّقل : كتب "الجويني" خاصة الإرشاد ، و أبكار الأفكار للآمدي[1] ، وطوالع البيضاوي [2]، و المحصّل لابن عرفة[3] ...

ثانيا – اعتماد أسلوب المقابلة بين الآراء :

إنّ الآراء الكثيرة التي يوردها السنوسي في عرضه لقضايا العقيدة ، لا يعرضها بأسلوب الترصيف الذي تكون فيه متجاورة متتالية في حالة من السّكون و عدم الحركة ، بل إنّه يعمد في الكثير من الأحيان إلى عرضها بأسلوب تكون فيه متقابلة تقابل اختلاف أو تناقض ، ثمّ يستغل ذلك التقابل ليجري بينها حوارا يكون هو مشرفا عليه موجها له ، فيحدث بينها حركة على نحو ما يبدو في الفقرة المتعلّقة بالأقوال في أول واجب ، حيث يقول السنوسي : " أنّ أوّل واجب النّظر ، هو مذهب جماعة ، منهم الشيخ " الأشعري" [4] ، و ذهب الأستاذ و إمام الحرمين إلى أول واجب القصد إلى النّظر ، و قال القاضي [الباقلاّني]: أول واجب أول جزء من النّظر ، و قيل

[1] – هو علي بن أبي علي محمد بن سالم التغلبي ، سيف الدّين الآمدي نسبة إلى آمد من ديار بكر ، حيث ولد بها سنة 551 هـ ، و أخذ بأطراف العلوم ، و أتقن الفنون و حذقها ، نشأ حنبليا ثمّ انتقل إلى مذهب الشافعي ، كان حسن الخلق ، بكّاء كثير الخشوع ، توفي بدمشق 631 هـ ، له عدّة مصنّفات منها : الأحكام في أصول الأحكام. انظر ، ابن العماد – شذرات الذّهب : ج5 ص 144 - 155

[2] – هو عبد الله بن عمر بن محمد علي الشيرازي ، أبو سعيد أو أبو الخير ، ناصر الدّين البيضاوي ، قاضي مفسّر ، علاّمة ولد في المدينة البيضاء بفارس قرب شيراز ، و ولّي قضاء شيراز و رحل إلى تبريز فتوفي فيها سنة 685 هـ – 1286م ، له عدّة مصنّفات منها : أنوار التتريل و أسرار التأويل، (المعروف بتفسير البيضاوي) ، و منهاج الوصول إلى علم الأصول . انظر الزركلي – الأعلام : ج4 ص 248 .

[3] – محمد بن محمد بن عرفة الورغمي من القصبات التونسي إمامها و عالمها وخطيبها العالم المبعوث على رأس المائة الثامنة كان أبوه صاحب حب و ولاية في الله قال تلميذه " البسيلي " و غيره مولد شيخنا ابن عرفة ليلة السابع و العشرين من رجب عام ستة عشر و سبعمائة 716 هـ، و توفي عام ثلاثة و ثمانمائة 803هـ ، من مؤلفاته : مختصر في المنطق . انظر ، ابن مريم – البستان : ص190- 201

[4] – هو على بن إسماعيل بن شبر و اسمه إسحاق بن سالم ينتهي نسبه إلى الصّحابي أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – ولد سنة 260 هـ ، و تشاغل بالكلام ، و كان على مذهب المعتزلة زمانا طويلا ثمّ خالفهم بعد أربعين سنة و عاد إلى مذهب أهل السّنة توفي سنة 331 هـ . انظر ، عبد الرحمن بن الجوزي – المنتظم في تاريخ الملوك و الأمم ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، و مصطفى عبد القادر عطا ، مراجعة نعيم زرزور ، دط دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، دت : ص102

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أول واجب المعرفة ، و يعزي للشّيخ أيضا.. و قالت المعتزلة : أول واجب ، الشّك ، و قيل : إنّ أوّل واجب الإقرار بالله وبرسله عن عقد مطابق و إن لم يكن علما "[1] .

و من فائدة هذا الأسلوب في العرض و المقابلة هو طرح الرأي إلى جانب الرأي الآخر المخالف ، لكي يساعد القارئ على حسن الإدراك و التّتبّع .

ثالثا – اعتماد أسلوب التعليق و التعقيب على الآراء :

لا يظهر منهج السنوسي في عرضه للآراء و إجراء الحوار بينها فحسب ، بل يظهر منهجه بصفة واضحة في تدخله المباشر في معرض الآراء و الأقوال في تعقيبات متتالية تكاد لا تخلو منها مسألة بل جزئية من مسألة سواء كانت منطقية أو كلامية ، و يمكن تبيّن ذلك من خلال :

– الشرح : و ذلك حينما يكون بالرأي المنقول عموما أو إجمالا أو ما شأنه أن يكون مظنّة لفهم خاطئ و ذلك كما في شرحه لقول بعض السلف أنّه قال : عليكم بدين العجائز . و قول عمر بن عبد العزيز – رضي اللّه عنه- لرجل سأله عن الأهواء ، فقال : " عليك بدين الصبي الذي في الكتاب ، ودين الأعرابي ، و دع ما سواهما "[2] . ثم يعقب عليه : " قلت : سبب ذلك – و الله أعلم- أنّ تلك المقالات ، صدرت منه في زمان هيجان البدع ، و يدلّ على ذلك سؤال الرجل عمر بن عبد العزيز عن الأهواء ، و كان الزمان إذ ذاك لم يخل عن بقية السّلف الصالح ، المعتنين بالدّين و تعليمه للأهل ، و الولد و الآمة و العبد ، حتى كان الجميع يعرفون ما يخّصهم في دينهم أكمل معرفة "[3] .

– النقد و التصحيح : إذ كثيرا ما يعقب السنوسي على الآراء و الأدلة بنقدها و بيان ضعفها أو خطئها إذا ما رآه خاطئا مهما يكن صاحبه ، و مثاله فيما يتعلق بتصحيح الآراء قوله

[1]– السنوسي – المنهج السديد : ص 19 -20

[2] – المصدر نفسه : ص 39

[3]– المصدر نفسه : ص 33

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

في التقليد : "نقل على " لسان الفخر الرازي " [1] أنّه قال الصحيح عندنا أنّ المقلد من أهل النجاة، و إلاّ يلزمنا تكفير أكثر الصحابة و التّابعين إذ نعلم بالضرورة أنّ أكثرهم لم يكن عالما "[قال بعدها] . فانظر هذه المقالة ما أشنعها ، وكأنّ مقالته هذه مقالة من توهم أنّ العقائد إنّما تعرف بالتمشدق باصطلاحات أحدثها المتأخرون ، و صور تركيبات للأدلة على نهج أصول المنطق لم يعتن بها المتقدمون ، لأنّ المقصود إنّما هو معرفة الحق بما يستلزمه قطعا فكيفما حصل ، بلفظ أو بغير لفظ ، بتركيب مخصوص أو غيره ، حصل المقصود و لا حاجة إلى زيادة " [2].

يتبين ممّا سبق أنّه كان للسنوسي منهج واضح في عرض المسائل و التعليق عليها ، و هي نزعة يظهر أنّها كانت من آثار مهنة التدريس التي كرّس حياته فيها و التي تستهدف شحذ الأذهان و تربيتها بجمع الآراء و المقارنة بينها و التعليق عليها .

ثامنا : موقف السنوسي من الفلسفة :

يستطيع من يقف على بعض مصنّفات السنوسي أن يدرك بوضوح أنّه يأخذ بالطّرق الكلامية ، و مقولات علم الكلام ، فهو يعتبره :" العلم بأحكام الألوهية ، و إرسال الرّسل ، وصدقها في كلّ أخبارها ، و ما يتوقّف شيء من ذلك عليه خاصا به ، و تقرير أدلّتها بقوّة هي مظنّة لردّ الشّبهات ، وحل الشّكوك ، ومن ثمّة فهو فرض كفاية على أهل كلّ قطر" [3] .

و أمّا الفلسفة ، فإنّه تدلّ كثير من الشّواهد في مؤلّفات السنوسي من أنّه كان على اطّلاع واسع بأفكار و آراء الفلاسفة و الفلسفة إلاّ أنّه كره أن يتعلّمها النّاس وخاصة منهم المبتدئين ، بل أحيانا يصل إلى حدّ تحريمها ، يقول في ذلك : "وقلّ أن يفلح من أولع بعجمة كلام

[1] – هو أبو عبد الله بن عمر بن الحسين الرازي المولد ، الملقّب فخر الدّين المعروف بابن الخطيب الفقيه الشافعي ، من آثاره : "تفسير القرآن الكريم"، و في علم الكلام " نهاية العقول" و في أصول الفقه " المحصول " و غيرها ، كان يعظ بالعربية والأعجمية توفي سنة 606 هـ . انظر ، ابن خلكان – وفيات الأعيان : ج4 ص248 .

[2] – السنوسي – عمدة أهل التوفيق و التسديد : ص 47

[3] – المصدر نفسه : ص67

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفلاسفة ، أو يكون له نور إيمان في قلبه أو لسانه ، وكيف يفلح من والى من حادّ الله تعالى ورسله "[1] .

و رغم كراهية السنوسي لتعلّم الفلسفة إلاّ أنة اختطّ منهجا مغايرا لرأيه في تعلّمها ، حيث وضع المقدّمات العقلية التي تتوقّف عليها الأدّلة ، كالحديث عن الجوهر ، و العرض ، والجسم لإثبات حدوث العالم ومن ثمّة إثبات وجود الله ، فأدرج مسائل من الفلسفة الطبيعية في العقائد الإيمانية ، و جعل المسائل الفلسفية مختلطة بمسائل علم الكلام ، بحيث يعسر التمييز بينها في بعض الأحيان ، و قد أشار " ابن خلدون " إلى هذه الطّريقة ووصفها بأنّها طريقة المتأخّرين ، التبست فيها مسائل الفلسفة ، بمسائل الكلام بحيث لا يتميز أحد الفنيين عن الآخر[2] .

و هذا المنهج ليس مستحدثا فقد اختطّه من قبل " الباقلاني " و تابعه في ذلك "الجويني" فاستخدمت المصطلحات الفلسفية إلى حد اختلطت فيه موضوعات علم الكلام بموضوعات الفلسفة [3] .

و أمّا أهمّ المعالم التي تدلّ على أنّ السنوسي تبنّى طريقة المتأخّرين في الإفادة من الفلسفة هي :

التوسع في المصطلحات المقتبسة من كلام الفلاسفة في الإلهيات و الطّبيعيات ، كالإشارة إلى تعريف الواجب و الممكن ، و استعمال مصطلحات الفلاسفة في أسماء الله الحسنى كالصانع وواجب الوجود ، و الاستدلال على وجود الله تعالى بدليل إسناد الممكن إلى الواجب ، وإنّ كان السنوسي قد أفاد من الفلسفة التي أكسبته مقدرة على الجدل و قوة الاستدلال إلاّ أنّه لم يشتغل

[1] ـ السنوسي ـ شرح أم البراهين : ص 28

[2] ـ ابن خلدون ـ المقدّمة : ص485

[3] ـ المصدر نفسه : ص485-486 . و علي سامي النشار ـ مناهج البحث عند مفكري الإسلام ، ط3 ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، 1984م : ص93

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بها كما فعل فلاسفة الإسلام ، و اقتصر الأمر على الإفادة منها منهجيا ، إذ نجد التّحديد الدّقيق للمصطلحات الكلامية و الفلسفية و التقدير للنّظريات و الآراء الكلامية بأبحاث في المعرفة .

إنّ الاقتباس من مصطلحات الفلاسفة لا يحول دون نقدهم فيما خالفوا فيه العقائد الدّينية ، فقد نقدهم في عدّة مسائل منها مسألة علم الله تعالى بالكلّيات دون الجزئيات ، كما تعرّض لتفسيرهم الفلسفي لبعث الأجساد وإنكارهم له ورد عليهم بأنّ الصحيح إعادة الأجسام الدنيوية بأعيانها وأعراضها [1] .

و لا يعنى هذا الأمر أنّ السنوسي متناقض مع نفسه ، من جانب يحرم الاشتغال بالفلسفة ومن جانب آخر يستخدم بعض من مصطلحاتها في كتبه ، و إنّما الذي يعيب عليه الإمام و هو أن يشتغل المتعلّم بالفلسفة قبل إتقان التّوحيد على شيخ عارف مخافة الزّلل و الشّطط في فهمها [2] .

تاسعا : هيمنة عقائد السنوسي على سلك التعليم بالغرب الإسلامي .

من المعلوم لدينا أنّ السنوسي يعدّ من الأشاعرة الخلّص في تفكيره العقدي ، و قد كان في عرضه لكتبه و أفكاره العقائدية على الطريقة الأشعرية ، خاصة في حمل الآيات و الأحاديث التي يوهم ظاهرها التشبيه و التمثيل ، هذا و لقد لعبت كتبه دورا بارزا في نشر و تثبيت الأشعرية ببلاد المغرب .

لئن لقيت مؤلفات السنوسي عموما القبول و الرواج لدى المغاربة لما كان لتلاميذته بها من عناية في تدريسها و نشرها بين النّاس ، فإن واحدا من تلك المؤلفات هو الذي كان لــه الدور الأكبر في إشاعة و نشر الأشعرية بين أهل المغرب ، و نعني بهذا المؤلف" أم البراهين " أو

[1] – السنوسي – عمدة أهل التوفيق و التسديد : ص 398

[2]– السنوسي – شرح أم البراهين : ص 28

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

العقيدة الصغرى للسنوسي ، فقد شاع ذكرها بين النّاس عامتهم و علمائهم ، و جرت بها الألسنة حفظا و شرحا ، و صارت على مرّ الأيام الخلاصة للتصور العقدي الذي تجري به الأذهان ويلقّن للنّاس ، و لذلك فإنّنا نعتبر انتشار هذه العقيدة و تأثيرها المظهر المهم من مظاهر القوة فيها ، و أم البراهين أو العقيدة الصغرى ، هي رسالة وجيزة لا تتجاوز الصفحتين أو الثلاث ، و سميت كذلك لجمعها كل البراهين التي يحتاجها المسلم – في نظر السنوسي – في البرهنة على وجود الله وحجية الإسلام ، و قد اقتصر فيها على سرد العقائد بأدلتها ، لتحفضها العامة و من قصر عقله عن النظر ، وما ذاك إلاّ لأنّ السنوسي رأى أن أكثر العامة لا تحسن العقائد ولو بالتقليد ، كما رأى أن يختم هذا الكتاب بشرح كلمتي التوحيد " لا إله إلا الله محمد رسول الله " ، و ما انطوت تحتها من الأسرار والمحاسن .

كما كان يعتقد السنوسي أنّ من اقتصر عليها فإنّها تكفيه عن سائر العقائد و الدواوين الكبار ومن هنا جاء اهتمام الدّارسين و العلماء بها بعد ذلك شرحا و تدريسا ، يرون في تعليمها المسلمين قربى إلى الله ، لأنّها تحفظ العقيدة من أن يدركها شوب أو نقص .

و قد حرّرت هذه العقيدة تحريرا بليغا ، كما أنّ وجازة أم البراهين و بلاغتها ، وسلامتها من مخالفة ظاهرة للآراء الأشعرية ، ضمن لها الذيوع ، و الانتشار ، و جلب لها العناية المتزايدة فأقبل الناس عليها يتعلمونها و يحفظونها ، و يدرّسونها ، و يشرحونها و يعلقون ، و يحشون ، و يقرّرون ، و تهيأت الجوامع و المدارس العتيقة لتدريسها ، فأخذت إجازات العلماء تعطى على قراءتها ، و انّصب اهتمام المفكرين عليها اهتماما لم نعرف لـــه– فيما نعلم – مثيلا في كل تاريخ الفكر الإسلامي . و استمر ذلك إلى أيامنا هذه حيث ماتزال بعض الجوامع في مداشر المغرب العربي تقبل على تدريسها [1].

كما أنّ من أهمّ ما ساعد على هيمنة عقائد السنوسي على سلك التعليم بالغرب الإسلامي جملة ما تمتاز به هذه الكتب منها :

[1]- **يوسف احنانة – تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي : ص211**

البساطة و الوضوح ، فهذه الكتب واضحة مشرقة في عمومها ، و لعلّ السّبب في ذلك يرجع إلى إحساس السنوسي بضرورة تبسيط المعلومات الشّرعية و العقائدية منها على وجه الخصوص ، و جعلها في متناول طلاّب العلم ، بعد أن كلّت العزائم ، و خمدت النّفوس ، و ندر من يجشم نفسه عناء مدارسة المصادر ، و من هنا جاءت أعمال السنوسي الفذّة ، في تبسيط الثقافة الدّينية مع النّفور الشّديد من التعقيد .

و تمتاز كتاباته أيضا بالإيجاز و التّركيز ، فيما عرف بالمتن ، ليسهل حفظه ، واستظهاره، ثمّ العودة إلى المتن بالشّرح الذي يقرّب إلى الذّهن غوامض المعاني ، و يحّل رموز المتون ، و يفكّ معضلات الأساليب ، بعيدا عن الإطناب المملّ و الاستطراد المخلّ ، الذي لا تحصل من وراءه الغاية التّربوية و الدّينية المنشودة .

كما تغلب على كتب السنوسي ظاهرة التّكرار ، فنجد الموضوع الواحد في بعض الأحيان يتكرّر أكثر من مرّة فمثلا في شرح العقيدة الكبرى نجد آراءه في الوحدانية و الصّفات تتكرّر في كتابه شرح العقيدة الوسطى ثم تتكرر في كتابه شرح العقيدة الصّغرى و غير ذلك . و للتّكرار عند السنوسي مصلحة تربوية ، فالتكرار عنده يوضّح الفهم و يوجب للنّفس الطّمأنينة و عدم قبولها التشكيك في الحقّ بوجه من الوجوه .

كما أنّ من أهم ما ساعد على هيمنة عقائد السنوسي على سلك التعليم بالغرب الإسلامي بالأساس أنّه لم يكن يهدف من هذه الآراء التي تناولها في كتاباته العقدية ، أن يقرّرها للنّاس في مؤلّفات يتداولونها كما تتداول سائر كتب العلم ، بل كان هدفه أن يتحوّل محتواها العقائدي إلى واقع في حياة الناس ، تصورا و سلوكا ، و لهذا الغرض اضطلع بالدعوة إليها والعمل على إنفاذها في حياة أهل عصره . كما ساهم تلاميذته من بعده على تدريسها و نشرها بين الناس .

عاشرا : مصادر تصوف السنوسي .

يمكن التأكيد على أنّ السنوسي – في مذهبه الكلامي – ظهر من خلال مؤلّفاته أشعريا خالصا إذ لم يكن له حياد و لا خلاف على أية مقولة من مقـولات الأشـعرية ، و أشـعرية السنوسي هي أشعرية منتقاة و مختارة من آراء الأئمة الأشاعرة المتقدّمين منهم و المتأخرين ، فهو يفضّل في مسألة رأيا " للأشعري "، و في مسألة أخرى رأيـا " للآمـدي " و في ثالثـة رأيـا "للجويني"، و لكنّه بصفة عامة ينتمي إلى الطّور الذي تبنت فيه الأشعرية التأويل .

و لا تبدو الأشعرية الخالصة للسنوسي في تبنّيه للآراء الأشعرية فحسب ، بـل تبـدوا واضحة أيضا في منافحته عن المذهب و أئمته و تفضيله على غيره من المذاهب ، و في نقد سائر الفرق الأخرى و تهجين آرائها و بيان فساد مسلكها ، و إنّه في ذلك و إن كان واسع الأفق فهو غير مفحش في القول و غير لاذع في النّقد في أغلب الأحيان . وأهم الكتب الذي يكثر النقـل منها لتعزيز فكره العقدي : الإرشاد " للجويني " و الأبكار " للآمدي "، و الطّوالع "للبيضاوي" . و أما مصادر تصوف السنوسي فهي الأخرى لا تبعد كثيرا عن المدرسة الأشـعرية لمتـصوفيها ويمكن تصنيف مصادر تصوف السنوسي إلى ما يلي :

1- مصادر شرعية (القرآن والسنة) :

أ/ القرآن الكريم : من البديهي أن يشكل القرآن الكريم منطلقا أساسـيا بـنى عليـه السنوسي مجمل مكوناته الفكرية و الإعتقادية و الصوفية و لذلك رجع إليه الإمام باسـتمرار ، لإعطاء المصداقية المرجعية المقدسة لما يورده من أراء و أفكار وكان الرجوع إليه يتخـذ عـدة أشكال : منها الاستشهاد بالآية بذكر نصها مثال : { **مَّن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً ، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً** } [1] "[1] . ، أو تضمين الآية أو معناها في ثنايا الكلام .

[1] - الإسراء الآية 18-19

ب/ الحديث الشريف : كان توظيفه للحديث الشريف يتخذ شكلين : إما أن يستشهد بنصه مثلما هو الحال في معظم الأحاديث التي أوردها كشرحه مثلا لحديث التسبيح [2]. الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال : "من سبح الله دبر كل صلاة ثلاثا و ثلاثين و حمد الله ثلاثا و ثلاثين ، وكبر ثلاثا وثلاثين ، فتلك تسع وتسعين ، ثم قال تمام المائة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك و له الحمد ، و هو على كل شيء قدير ، غفرت خطاياه ، و لو كانت مثل زبد البحر " [3]. أو يشير إليه بجزء من لفظه أو معناه كقوله :" الذوق إنما هو مبدأ الفعل" [4] في إشارة إلى الحديث : " " ذاق طعم الإيمان .. "[5].

و ينتمي معظم هذه الأحاديث إلى صنف الحديث الصحيح و الحسن رواها كبار المحدثين : كالبخاري ومسلم و غيرهما ، و يوجد إلى جانبها عدد من الأحاديث الضعيفة و الغريبة التي اعتاد بعض الصوفية على الاستشهاد بها في سياقات متعددة مثل حديث " من عرف نفسه فقد عرف ربه " و إن كان هذا الأمر نادرا عنده لكونه على اطلاع واسع بعلم الحديث فقد ألّف في هذا الشأن مجموعة من الكتب منها شرح على صحيح البخاري و تعليق على كتاب إكمال إكمال المعلم على شرح صحيح مسلم .

2- مصادر كتب المتصوفة :

الواقع أنّه من الصعوبة بمكان الكشف عن جميع المصادر التي اعتمدها السنوسي في تشكيل البناء المعرفي الصوفي له ، خصوصا أنّه ينتمي إلى مرحلة متأخرة نسبيا ، يضاف إلى ذلك أنّ مرحلة القرن التاسع الهجري بالمغرب الإسلامي عرفت حركة نشيطة في مجال التصوف على

[1]- السنوسي – المنهج السديد : ص 549

[2]- السنوسي- شرح حديث التسبيح ، مخطوط ، المكتبة الوطنية بتونس . تحت رقم : 22668 لوحة 129ص 258

[3]- رواه مسلم في صحيحه ، كتاب : المساجد و مواضع الصلاة . باب : استحباب الذكر بعد الصلاة ، وبيان صفته ، انظر ، صحيح مسلم ، دط ، دار إحياء التراث العربي ، 1982م: ص 301

[4]- السنوسي – مكمل إكمال إكمال المعلم على شرح صحيح مسلم : ج 01ص 129

[5]- حديث "ذاق طعم الإيمان " رواه مسلم في صحيحه .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مختلف المستويات ، نتج عنها تداول عدد كبير يصعب ضبطه من مصنفاته حسب ما تدل عليه كتب التراجم و السير .

و ممّا يزيد المسألة تعقيدا بالنسبة للتصوف السنوسي ، الأسلوب الذي نهجه في التعامل مع الكتابات السابقة و هو أنّه أحيانا يقتبس دون تحديد المصدر ، خصوصا أنّ بعض النصوص ترد في أكثر من كتاب و أكثر من سياق يرويها الواحد عن الآخر ، فلا يتبيّن بالذات من أين نقلها السنوسي إلا بعد البحث و التتبع و المقارنة .

و من جهة أخرى فإنّ السنوسي لم يسكت عن ذكر مصادر أخرى أكثر الاقتباس منها إلا أنّه مع ذلك يمكن تكوين صورة واضحة عن أهم هذه المصادر مرتبة حسب أهميتها بالنسبة للسنوسي و من أهمها :

أ/ الرسالة القشيرية لأبي القاسم عبد الكريم القشيري : و هي رسالة كتبها لأصحابه في الآفاق جمع فيها جملة هامة من مبادئ الطريق و أخبار الصوفية الأوائل ، وشرح أهم اصطلاحات القوم في كلامهم و غير ذلك . و لذلك اعتبرت مرجعا أساسيا لطلاب التصوف ، لا يمكن الاستغناء عنه على اختلاف مدارسهم .

و قد استطاعت الرسالة أن تحضى بتقدير كبير و احترام لدى أهل المغرب و قد اعترف السنوسي في عدد من المواضع بالأخذ عن الرسالة و نقل عنها قدرا غير يسير من الأقوال و الحكم المأثورة[1] ، إلى جانب القسم الأكبر من أخبار و كرامات صوفية القرن الثالث التي تعتبر الرسالة مدونة أساسية مرجعية لها ، على أن تأثر السنوسي بالقشيري لم يقف عند مستوى الاقتباس النصي ، بل نجد تأثرا كبيرا به على المستوى التنظيري أيضا . يتجلى ذلك في المنطلقات التي بنى عليها كل منهما منهجه الصوفي و هي :

– الجمع بين الشريعة و الحقيقة و الطريق على النمط الجنيدي .

[1]– السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : من ص 482 – إلى آخر فصل التصوف .

- تجنب أسباب الخلاف مع التيارات المغايرة فكريا .

- شن حملة تصحيحية على الصوفية المبتدعة ، في ما يمكن أن نسميه بعملية نقد ذاتي .

- السكوت عن التوجهات الصوفية الفلسفية العرفانية .

ب/ منهاج العابدين و إحياء علوم الدين[1] : لأبي حامد الغزالي : تحتل كتب الغزالي المرتبة الثانية من حيث استفادة السنوسي منها و الرجوع إليها والتأثر بها ، وتحديدا كتابيه: " منهاج العابدين " ، و " إحياء علوم الدين " ، إلاّ أنّ الملاحظ في هذا أنّ اعتماد السنوسي على منهاج العابدين أكثر من الإحياء ، و تفسير ذلك – في رأينا – يعود أساسا إلى بعض المآخذ التي أخذها بعض المغاربة على الإحياء وخاصة كتاب المهلكات من ذلك ما ذكره " أحمد زروق البرنسي " تلميذ السنوسي بقوله : " حذر الناصحون [من كتب منها :] مواضع من الإحياء للغزالي ، جلها في المهلكات منه "[2]. كما أنّ التصوف الذي تضمنه كتاب الإحياء هو تصوف النساك بخلاف كتاب منهاج العابدين الذي تضمن تصوف العباد[3]، وهو مناسب لما قرّره السنوسي في تصوفه .

ج/ تاج العروس ، و الحكم العطائية : لابن عطاء الله السكندري[4] : تتجلى استفادة السنوسي منهما على الخصوص في استشهاده ببعض الأقوال و الحكم لابن عطاء الله[5]، و الناظر

1- السنوسي – المنهج السديد : من ص 485 – 491 و غيرها .

2- أحمد زروق البرنسي – قواعد التصوف ، تحقيق عبد المجيد خيالي ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1424هـ /2003م : ص 130

3- يقول زروق في هذا الأمر " لكل فريق طريق فللعامي تصوف حوته كتب المحاسبي ، ومن نحا نحوه ، ..و للعباد تصوف ، دار عليه الغزالي في منهاجه ، و للمتريض تصوف نبّه عليه القشيري في رسالته ، و للناسك تصوف ، حواه القوت ، و الإحياء. المصدر نفسه : ص 51

4- أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله ، وكنيته تاج الدين و ينسب على الإسكندرية صحب أبا العباس المرسي وأخذ عنه الطريقة الشاذلية ، يعدّ من أبرز ممثلي التصوف المصري في القرن السابع الهجري ، من مصنفاته " الحكم العطائية" و "التنوير في إسقاط التدبير" ، و " تاج العروس " ، و " لطائف المنن " توفي بالقاهرة سنة 709هـ . انظر ، عبد المنعم الحنفي – الموسوعة الصوفية : ص501- 504

5- انظر ، السنوسي – شرح أبيات التطهر بماء الغيب ، المكتبة الوطنية ، تونس ، رقم : 22668: لوحة 197ص295 . و المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 516 . وغيرهما من المواضع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

في ما يقتبسه السنوسي عن ابن عطاء الله يجده أنّه كان مرضيّا عنده و عند كثير من علماء زمانه و طلبة العلم في وقت السنوسي ، من ذلك أنّ " الملالي " تلميذ السنوسي عرض حياة شيخه وأخلاقه و شمائله و زهده معضدا أغلب ذلك بحكمة من حكم "ابن عطاء الله" حتى كأنّها قيلت في مناقب إمامه [1]. كما نلمس من جهة ثانية ميل السنوسي و تلاميذته للطريقة الشاذلية [2] كشأن شيخه " الثعالبي " وحبهم لها و لمنهجها في تزكية النفس ، ولشيوخها [3]، و الذي يعدّ " ابن عطاء الله " أحد ممثليها و شيوخها الكبار ، نجد ذلك واضحا في ما صرّح به " أحمد زروق البرنسي" بقوله : " أقرب الطرق للجادة و أبعدها عن الدعوى ، و أيسرها للسلوك ، و أمسها بالسنّة طريق الشاذلية ..فعليكم بها فإنّها طريق الحق بلا غلط و مسلك التحقيق بلا مخالطة " [4].

د/ بغية السالك إلى أشرف المسالك : للساحلي[5] : و هو يعتبر في واقع الأمر مرجعا أساسيا لمعظم الكتابات الصوفية التي تناولها السنوسي ، و قد قام الإمام باختصار هذا الكتاب اختصارا جيدا مستخدما في ذلك الطريقة المنهجية التعليمية ، كي تحصل من ورائها الغاية التّربوية والدّينية المنشودة . كما يظهر تأثير هذا الكتاب بشكل واضح و جلي فيما تناوله الإمام في كتابه شرح أم البراهين و خاصة عند تعرضه لشرح كلمة الإخلاص " لا اله إلا الله محمد رسول الله " و كيفية ممارسة الذكر[6] ، فإنّ ما نجده من تشابه بين بعض محتوياته و محتويات البغية في عدة مواضع يمكن اعتباره من قبيل الاستفادة المباشرة و الاقتباس الحرفي ، غير أنّ ما يلاحظ في هذا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]- الملالي – المواهب القدسية : لوحة60ص120وغيرها .

[2]- و عموما إذا أردنا أن نقوم بعملية التحقيب للطرق الصوفية بالمغرب فإننا نجدها ترجع إلى أصول محلية فقد كانت جميعها – أو أغلبها – تنبع مما خطّ لها أول مؤسس لطريقة صوفية و هو الإمام الشاذلي . إدريس بووانو – ملامح الفكر المقاصدي في الخطاب الصوفي عند الشيخ أحمد زروق ، مجلة إسلامية المعرفة (عدد خاص بقضايا التصوف) ، العدد 36، السنة 09، ربيع 1425هـ/ 2004م : 93

[3]- عبد اللطيف عبادة – التفسير الصوفي للشيخ عبد الرحمان الثعالبي ، ط1 ، مؤسسة عالم الأفكار ، الجزائر ، دت : ص 20

[4]- أحمد زروق البرنسي – قواعد التصوف : ص 58- 59

[5]- أبو عبد الله الساحلي المالقي الأندلسي ولد سنة 678هـ أحد علماء الأندلس ينتمي إلى الطريق الساحلية ورث مشيختها عن والده مجتهد في العبادة و العلم من مؤلفاته الشهيرة : " بغية السالك " توفي سنة 754هـ . انظر ، مقدمة محقق كتاب بغية السالك في أشرف المسالك للساحلي ، عبد الرحيم العلمي ، دط ، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، 1424هـ / 2003م : ص 17 و ما بعدها .

[6]- السنوسي – شرح أم البراهين : ص87

الاقتباس أنّ الإمام السنوسي لم يشر إلى المصدر الذي أخذ منه هذا الشرح ، و البيان في ممارسة الذكر ، و نرى أنّ مبرر ذلك يرجع في أن " شرح أم البراهين " كتاب مختصر في العقيدة موجه للعامة من النّاس كان يعتقد السنوسي أن من اقتصر عليها فإنّها تكفيه عن سائر العقائد والدواوين الكبار ولهذا جرّده الإمام عن كثير من الأدلة الشرعية و نصوص العلماء السابقين .

هـ/ مقاصد الرعاية للمحاسبي : أخذ عنه السنوسي كذلك في نطاق عام و قد سكت عنه سكوتا كليا في الكثير من كتبه الخاصة بالتصوف . و قد اختصره الإمام ورتبه وجمع فوائده .

و فضلا عن هذه الأمهات فقد استفاد و تأثر السنوسي صوفيا من مصادر أخرى بشكل محدود أهمها : قوت القلوب لأبي طالب المكي ، و غيرها .

3 / الرواية الشفوية و أخذ الطريقة : من أهم المصادر التي استفاد منها السنوسي مادته النظرية و مروياته الإخبارية و العملية ، الشيخ الإمام ، الورع الزاهد " إبراهيم التازي" . الذي أخذ عنه التصوف العملي و ألبسه الخرقة و لقّنه الشعائر الصوفية [1]. إضافة إلى المشاهدة و المعاينة، و هي كذلك من المصادر التي أثرّت في الفكر الصوفي السنوسي و الدليل على ذلك أنه روى عدد من الوقائع شاهدها بنفسه أو كان طرفا فيها [2].

و بعد هذا نجد أنفسنا مدعوين إلى التنبيه على مسألة لها أهميتها من النّاحية المنهجية ، و هي أنّ ما ذكرناه يمثل في واقع الأمر المصادر الرئيسية التي استند عليها السنوسي في تفكيره الصوفي و ممارسته الذوقية و قد اعترف على الكثير منها ، إلاّ أن هذا لا يمنع من أن يكون السنوسي قد تأثر بمصادر أخرى غيرها في نطاق محدود ، فمعلوم أن الساحة الفكرية في المغرب الأوسط و تحديدا في تلمسان الزيانية كانت تعجّ بكثير من العلماء المتصوفة كما كانت هذه الساحة تتداول عشرات من المصنفات في باب التصوف .

1- . انظر ، الملالي – المواهب القدسية : لوحة 20 ص 39

2- المصدر نفسه : لوحة 20 ص 39و ما بعدها

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصـــــــــل الثـــاني :

مفهوم التصوف و مبادئه الأساسية عند السنوسي

المبـــحث الأول : مفهـــــوم التصـــــــوف .

المبـــحث الثاني : مبـــــادئه الأســـــاســـــية .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيـــــد :

لم يحظ مصطلح بتعريفات كما حظي اسم التصوف ، حيث لم يخل صوفي – خاصة كبار الشأن و أرباب الطّريق – كلامه من التعرّض لتعريف التصوف ، كلّ بما يملي عليه ذوقه و الحال التي هو فيها[1] ، حتى إنّ أصحاب التراجم و السّير الخاصة بعلماء التصوف و طبقات الصوفية ، قلّما أن يتركوا ترجمة لعالم في كتبهم إلاّ و صدّروها بتعريف للتصوف يليق بحال المترجم له ، فضلا عن ذكر مناقبه ، حيث ذكروا تعاريف متعددة للتصوف ، أوردوها على ألسنة القوم الذين ترجموا لهم .

و من هنا فإنّنا لا نجد غرابة في تعدد المفاهيم التي أعطيت للتصوف ، مادام الاتفاق حاصلا بين صوفية الإسلام على أنّه وسيلة لتنقية الظاهر و الباطن من المخالفات الشرعية ، و تعمير القلب بذكر الله تعالى ، و مراقبته و خشيته و رجائه ، و السّير في العبادات و الأعمال على النّهج الشرعي طبق السنة الشريفة ، و خلافا للبدعة السيّئة التي يحظر الإسلام التلبس بها .

و السنوسي واحد من أبرز علماء الإسلام بالمغرب الأوسط الذين اهتموا بتزكية النفس و دراسة التصوف ، فهو يخصّه ببحوث مطولة متفرقة في كتبه و وصاياه و رسائله . غير أنّ السؤال الذي يفرض نفسه علينا هنا هو :

ما هو مفهوم التصوف عند السنوسي ؟ و ما هي أهم مبادئه الأساسية لممارسته ؟

و فيما يلي سنفرد هذه التساؤلات كلا في مبحث مستقل ، محاولين تسليط الضّوء عليها بالقدر الذي ينتهي إلى رسم الصورة العامة للمفهوم الصوفي السنوسي .

[1] – يذكر "رفيق العجم " أنّ اصطلاحات المتصوفة بدأت مع بواكير حركة الزهد و التصوف الإسلامية و قد تشكلت تباعا مصطلحات تتناسب مع كل عصر و مرحلة منها مصطلح التصوف . انظر ، رفيق العجم – موسوعة مصطلحات التصوف ، ط1 ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، لبنان ، 1999م : مقدمة ص xvi

المبحث الأول :

مفهوم التصوف عند السنوسي

امتازت الحياة الثقافية و الفكرية في المغرب الأوسط خلال القرن التّاسع الهجري و قبله بقليل ، بتعدد التّيارات الصوفية و تنافسها ، منها ما هو نابع من السلوكات اليومية للمتصوفة كل حسب زهده و قناعته في التصوف ، و منها ما هو عبارة عن تيارات فكرية صوفية اشّتقت أفكارها من نظريات صوفية مشرقية ، و أندلسية ، تولّدت عنها تيارات و اتجاهات جعلت من تلمسان قبلة للمريدين من أهل الزهد و التصوف ، و لعلّ من أهم الأسباب التي ساهمت في هذا التعدّد و التنوّع إضافة للأسباب التي رأيناها سابقا ، اختلاف الصوفية في الجانب النّظري التصوري لمفهوم التصوف و اشتقاقه [1] و من جملتهم الإمام السنوسي موضوع بحثنا .

[1] – قال " الكلابذي " : " قَوْلُهم في الصُّوْفِيَّة لِمَ سُمّيت الصُّوْفِيَّةُ صُوْفِيَّة ؟ قالت طائفة : " إنّما سميت الصوفية صوفية : لصفاء أسرارها ، و نقاء آثارها . و قال "بشر بن الحارث" : " الصوفي من صفا قلبه لله " . و قال بعضهم : " الصوفي من صفت لله معاملته فصفت له من الله كرامته " . و قال قوم :" إنّما سموا صوفية لأنّهم في الصف الأول بين يدي الله ؛ بارتفاع هممهم إليه، و إقبالهم بقلوبهم عليه ، و وقوفهم بسرائرهم بين يديه " . و قال قوم : " إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصُّفّة ، الذين كانوا على عهد رسول الله " . و قال قوم : " إنما سموا صوفية للبسهم الصوف ".

و أمّا من نسبهم إلى الصُّفّة و الصوف : فإنّه عبّر عن ظاهر أحوالهم ؛ و ذلك أنّهم قوم قد تركوا الدنيا فخرجوا عن الأوطان ، و هجروا الأخدان ، و ساحوا في البلاد ، وأجاعوا الأكباد، وأعروا الأجساد .. " .فلخروجهم عن الأوطان سموا : " غرباء ". و لكثرة أسفارهم سموا : " سياحين ". ومن سياحتهم في البراري و إيوائهم إلى الكهوف عند الضرورات سماهم بعض أهل الديار :" شكفتية " .. و قال " السرى السقطي "ـ و وصفهم فقال : " أكلهم أكل المرضى ؛ و نومهم نوم الغرقى وكلامهم كلام الخرقى". و من تخليهم عن الأملاك سموا فقراء " ..ومن لبسهم وزيهم سموا :" صوفية " ؛ لأنهم لم يلبسوا لحظوظ النفس ما لان مسه ، و حسن منظره ، و إنما لبسوا لستر العورة ، فتجزوا بالخشن من الشعر ، والغليظ من الصوف ثم هذه كلها : أحوال أهل الصُّفّة ، الذين كانوا على عهد رسول الله ؛ فإنهم كانوا غرباء فقراء مهاجرين ، أخرجوا من ديارهم و أموالهم ، و وصفهم أبو هريرة و "فضالة بن عبيد " فقالا : " يخرون من الجوع حتى تحسبهم الأعراب مجانين ، وكان لباسهم الصوف .." ثم الصوف : لباس الأنبياء ، وزي الأولياء . و قال الحسن البصري : " كان عيسى يلبس الشَّعر ، و يأكل من الشجرة ، و يبيت حيث أمسى ". و قال أبو موسى : " كان النبي يلبس الصوف ، و يركب الحمار، و يأتي مدعاة الضعيف ". وقال الحسن البصري : " لقد أدركت سبعين بدريا ، ما كان لباسهم إلا الصوف ". فلما كانت هذه الطائفة بصفة " أهل الصفة " فيما ذكرنا ، و لبسهم وزيهم زي أهلها ، سموا " صُفّيّة "، و " صوفية ". و من نسبهم إلى الصُّفّة والصف الأول: فإنّه عبّر عن أسرارهم و بواطنهم ؛ وذلك أن من ترك الدنيا وزهد فيها وأعرض عنها، صفّى الله سره، ونور قلبه " . انظر ، الكلاباذي – التعرف لمذهب أهل التصوف ، ط، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ،1413هـ/1993م :ص09 – 12

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول : حقيقة التصوف و حكم الكلام فيه و موقفه من الصوفية .

أولا – حقيقة التصوف عند السنوسي :

لا نكاد نعثر من قريب أو من بعيد في الكتب المتوفرة لدينا للإمام السنوسي على تعريف مباشر[1] لمعنى التصوف عنده ، و لكنّه بيّن حقيقته من خلال توضيح مقوماته و بنيانه ، و قد عبّر عن تلك المعاني بقوله : " مبنى طريق التصوف كلها على التسليم و التصديق كما أنّ مبنى الفقه على البحث و التحقيق ، فالأصل عندي حسن الظّن حتى يتحقق الصّادق ، و مبنى الأمر عند أهل الظاهر على عكسه حتى يتحقق الصادق "[2].

و يلفت انتباهنا في هذا المفهوم أمور منها :

الأوّل : أنّ الممارسة الصوفية تقوم عند الإمام على التسليم ، و ذلك بأن يستسلم المريد لشيخه و أن يطيعه في جميع أوامره و نصائحه ، و ليس هذا من باب الانقياد الأعمى الذي يهمل فيه المرء عقله ، و يتخلى عن شخصيته ، و لكنّه من باب التسليم لذي الاختصاص و الخبرة ، بعد الإيمان الجازم بمقدمات فكرية أساسية ، منها التصديق الراسخ بإذنه ، و أهليته و اختصاصه وحكمته و رحمته ، و أنّه جمع بين الشريعة و الحقيقة و هذا يشبه تماما استسلام المريض لطبيبه استسلاما كليا في جميع معالجته وتوصياته ، و لا يعدّ المريض في هذا الحال مهملا لعقله متخليا

---

[1] – من التعاريف المباشرة للتصوف أنّه : علم يعرف به أحوال النفس ، و صفاتها الذميمة و الحميدة ، و أمّا موضوعه : فهو النّفس من حيث ما يعرض لها من الأحوال و الصفات ، و أمّا ثمرته : فهي التوصل به إلى تخلية القلب عن الأغيار ، و تحليته بمشاهدة الملك الغفور . و أمّا حكمه : فهو الوجوب العيني على كل مكلف ، و ذلك لأنّه كما يجب تعلم ما يصلح الظاهر كذلك يجب تعلم ما يصلح الباطن ، و أما فضله : فهو فوقانه على سائر العلوم من جهة أنّه يوصل إلى ما ذكر ، و أمّا بالنسبة للعلوم فهو أنّه أصل كل علم و ما سواه متفرع و نسبته للباطن كنسبة الفقه إلى الظاهر ، و أمّا واضعوه فهم الأئمة الأعيان العارفون بربهم المنان ، و أمّا استمداده : فهو من كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم سيد ولد عدنان، وذوي اليقين و العرفان ، و أما مسائله : فهي قضاياه التي يبحث فيها عن عوارضه الذاتية كالفناء و البقاء و المراقبة و غير ذلك ". انظر ، دحلان الكديري – سراج الطالبين شرح على منهاج العابدين للغزالي ،دط،دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع،دت :ص 04

[2] – السنوسي – نصرة الفقيّر في الرد على أبي الحسن الصغيّر ، تحقيق جمال الدين بوكلي حسن (ملحق بدراسته : الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد ، دط ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985م : ص 437

عن كيانه و شخصيته و وجوده ، بل يعتبر منصفا عاقلا لأنّه سلّم لذي الاختصاص ، وكان صادقا في طلب الشفاء [1].

الثاني : عدم اعتراض المريد على شيخه في طريقة تربيته له لأنّه مجتهد في هذا الباب عن علم و اختصاص و دراية ، كما لا ينبغي أن يفتح المريد على نفسه باب النقد لكل تصرف من تصرفات شيخه ، فهذا من شأنه أن يضعف ثقته فيه ، و يحجب عنه خيرا كثيرا ، و يقطع الصلة القلبية ، و المدد الروحي بينه و بين شيخه [2] .

إنّ اعتقاد النّفع في الشيخ أصل في كل خير عند السنوسي ، و الانتقاد أصل في كل شرّ ، و الشيخ السنوسي متأثرا في هذا بمتصوفة بلده السابقين الذين أثر عنهم في الممارسة الصوفية : " اعتقد و لا تنتقد و لا تطمئن لأحد " لأبي مدين شعيب التلمساني " [3] ، و قول الفقيه : أبو عبد الله المقرّي " : " الاعتقاد ولاية و الانتقاد جناية ؛ فإن عرفت فاتّبع ،و إن جهلت فسلّم " [4]. و من المعاصرين له " أحمد زروق" الذي يقول : "الاعتقاد خير كله ، و الانتقاد شرّ كله ، و الاغترار أصل كل غواية ، و الحذر أصل كل هداية ..غير أنّ مذهب الفقهاء تقديم سوء الظن للحذر ، حتى يتحقق الرافع ، و مذهب الصوفية تقديم حسن الظن عملا بسلامة الصدر " [5] . فإذا تحقق المريد مع شيخه بهذه الآداب كانت دليل صدق منه على الرغبة في الممارسة الصوفية و على أن يكون من أهل الباطن ، بخلاف أهل الظاهر ، فالعلاقة بين المتعلم و الشيخ قائمة على البحث و السؤال والتحقيق و التدقيق .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]- عبد القادر عيسى الحلبي - حقائق عن التصوف ، ط11 ، دار العرفان ، سوريا ، 1993م : ص 83-84 . و سيد نور الدين سيد علي - التصوف الشرعي الذي يجهله كثير من مدعيه و منتقديه، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان 1421هـ/2000م : ص83

[2]- عبد القادر عيسى الحلبي - حقائق عن التصوف : ص 83- 84

[3]- هو أبو مدين التلمساني شعيب بن الحسن الأندلسي ؛ صوفي من مشاهيرهم . أقام بفاس وسكن بجاية . وكثر أتباعه حتى خافه السلطان يقوب المنصور . توفي بتلمسان وقد قارب الثمانين أو التسعين (594هـ / 1198م) . انظر ، ابن مريم - البستان :ص 108 . و الزركلي - الأعلام : ج 3 ، ش .

[4]- السنوسي - نصرة الفقيّر في الرد على أبي الحسن الصغيّر : ص 436- 437

[5]- أحمد زروق البرنسي - عدة المريد الصادق ، تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي ، ط 1، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1428هـ / 2007م : ص 99

إنّ السنوسي يفرق بين شيخ التعليم و شيخ التربية ، فشيوخ التعليم هم أهل الظاهر الذين يأخذ منهم علوم الشّرع حيث يمكن للسالك تلقي علوم و فنون الشّريعة منهم ، و هؤلاء تكفي عنهم الكتب لمن كان يملك العقل و الذّكاء ، أمّا شيوخ التربية فهم أهل الباطن الذين لا يمكن أن يستغنِ عنهم المريد في سيره إلى الله و بلوغ طاعته و مرضاته [1] . هذا و قد كان سلوك الإمام السنوسي ترجمة لهذا المعنى ، فبرغم أنّه تلقى فروع العلم ممن لا حصر لهم من علماء الظاهر، و كانوا شيوخه في الفروع إلاّ أنّه أحيانا كان يستغني عنهم بمطالعته الخاصة و قراءته المستمرة للكتب ، و حين سلك طريق القوم و التصوف ، لم يصحب إلاّ من كان عارفا بالله جامعا بين علوم الظاهر و الباطن .

الثالث : أنّ هذا المفهوم للتصوّف كان شائعا في زمن السنوسي و قد شاركه فيه غيره من متصوفة زمانه منهم تلميذه " أحمد زروق " [2] ، متأثرين في ذلك بحكم " ابن عطاء الله السكندري " التي كان لها رواج واسع في المغرب الإسلامي و قبول عند الكثير من متصوفيه والتي يقول في بعضها : " إذا رأيت عبدا أقامه الله تعالى بوجود الأوراد ، و أدامه عليها مع طول الإمداد ، فلا تستحقرنّ ما منحه مولاه لأنّك لم ترى عليه سيما العارفين ، و لا بهجة المحبّين فلولا وارد ما كان ورد "[3] .

---

[1]- ذكر " أحمد زروق " أنّ هذه المسألة – الاكتفاء بالكتب في سلوك الطريق و عدمه ، و كذا المشيخة – أنّه قد وقعت في آخر المائة الثامنة بين فقراء الأندلس فيها مشاجرة حتى تضاربوا بالنعال ، ثم كتبوا إلى البلاد ، و اشتهرت مسألتهم فأجاب فيها كل أحد على قدر نظره . فكان جواب سيدي " أبي عبد الله بن عباد " رحمه الله ، أنّ ذلك باعتبار الأشخاص و الأحوال ، فشيخ التعليم تكفي عنه الكتب لمن له ذكاء و عقل ، و شيخ التربية يكون واجبا في حق الغبي متأكدا في غيره ، لأنّه إن وصل بلا شيخ لم تفارقه رعونته و إن بلغ ما بلغ . و عند" الإمام الغزالي " : قد يكون ذلك بلا شيخ ، و لكن الشيخ فاتح . و أجاب " ابن خلدون " بأنّ ذلك يختلف باختلاف المجاهدات ، فمجاهدة التقوى لا يحتاج فيها إلى شيخ ، و وجوده أحسن ، و مجاهدة الاستقامة يكون فيها ذلك ، و مجاهدة الكشف ، أعني تجريد الحقيقة النفسانية لتمكين الحقيقة الإيمانية هو فيه واجب لعدم العلم بهما ، و لما يطرأ فيها من شبه ووقائع ". انظر ، المصدر السابق :ص 116

[2]- قال "زروق" في القواعد " مبنى العلم [أي الفقه] على البحث و التحقيق و مبنى الحال [أي التصوف] على التسليم و التصديق ، فإذا تكلم العارف من حيث العلم نظر في قوله بأصله من الكتاب و السنة و آثار السلف . لأن العلم معتبر بأصله، و إذا تكلم من حيث الحال ، سلم له ذوقه ، إذ لا يوصل إليه إلا بمثله ، فهو معتبر بوجدانه ، فالعلم به مستند لأمانة صاحبه، ثمّ لا يقتدي به لعدم عموم حكمه ، إلاّ في حق مثله " . انظر ، أحمد زروق البرنسي – قواعد التصوف : ص 39

[3]- ابن عطاء الله السكندري – حكمة رقم (67) الحكم العطائية الكبرى والصغرى ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1427هـ / 2006م : ص 18

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقد أخذت عند السنوسي مبدأ التسليم بها بينما ناقش معناها "زروق "[1] .

ثانيا – حكم الكلام في التصوف :

أمّا عن حكم الكلام في التصوف فيبيّن السنوسي أنّه سلّم و طريق إلى ثمرات الإيمان لأنّه تنبيه على بعض ما تثمره معرفة الله تعالى ، و معرفة صدق رسله عليهم الصلاة و السّلام لمن تأمّل و استبصر ، و من ثمّ وجب أن يحمد ما يذكر فيه ، فالمسلم إذا لم يكن قد تشرّب حقيقة التصوف ، فقد حبس نفسه في معاني الإسلام ، و لم يرق صعدا إلى حقيقة الإيمان .

فالكلام في هذا الباب تنصيص على روح ثمرات عقائد الإيمان الذي ينتظم به المؤمن في سلك المتقين ذوي اليقظة و العرفان ، و هو التطهر من عيوب النّفس المانعة من كل خير ، و على تقدير أن يقع معها خير ، فهو مكسوف الأنوار ، مملوء بالظلمات التي تمنعه من الصعود إلى منازل الأبرار ، فهذا النوع من أنواع الفقه المتعلق بأهواء النفوس يجتني المؤمن من خلاله ثمرات عقائد الإيمان ، و يرتقي بفضل الله تعالى إلى ذروة درجات أولياء الله تعالى الفائزين بأعلى مقامات الإسلام ، و الإيمان ، والإحسان [2].

كما يعتبر السنوسي أنّ هذا النوع من الفقه لا يعدّ أبدا من البدع المحرمة التي نهانا عنها النّبي صلى الله عليه و سلم و قصارى الأمر أنّ المتصوفة إنّما أحدثوا اصطلاحات تليق بمقام العلم و أهله [3] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]– قال زروق : قلت : بل لولا وارد ما كان انتساب ، ولو كان صاحبه كاذبا لأن وجود انتسابه شاهد بتعظيمه للجناب الذي انتسب إليه في نظره ، و لذلك ما تعرض أحد قط لمنتسب لله -- أي الصوفي – بهوى إلا أصابه منه ضرر لأنه الحق سبحانه يغار لهتك جنابه إلا بأمر منه ، فإذا وقع المنتسب في أمر فيه حق من حقوق الله أقيم عليه الحد" . أحمد زروق البرنسي – قواعد التصوف : ص 98

[2] – السنوسي – المنهج السديد شرح كفاية المريد : ص462

[3] – السنوسي – نصرة الفقيّر في الردّ على أبي الحسن الصغيّر : ص 412

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يذهب السنوسي إلى أنّ رئيس المعارف و سلطانها هو معرفة الله تعالى ذلك أنّ " العلم يشرّف بشرف المعلوم ، و العلم بالله تعالى و صفاته أشرف ، لأنّ معلومه أشرف المعلومات ، وثمراته أفضل الثّمرات فمن عرف سعة رحمة الله أثمرت معرفته سعة الرّجاء ، و من عرف شدّة النقمة أثمرت معرفته شدّة الخوف و أثمر خوفه الكفّ عن الفسوق و العصيان مع البكاء والأحزان و الورع و الإذعان ، و من عرف أنّ جميع النّعم منه أحبه و أثمرت المحبّة آثارها ، و من عرف تفرّده بالنفع و الضرّ لم يعتمد إلاّ عليه ، و من عرف عظمته عامله بالتعظيم " [1] . و التصوف ما هو في النهاية عند السنوسي إلاّ تحقيق لهذا الغرض ، و لهذا كان رضي الله تعالى عنه لا يقرئ في علم من العلوم الظاهرة إلاّ خرج منها إلى علوم الآخرة ، لا سيّما إذا كان يقرئ علم التفسير و الحديث و العقيدة ، و ما ذاك إلاّ لما احتوى عليه باطنه من خوف الله تعالى ، و مراقبته له في كل لحظة ، و عدم التفاته إلى شيء من زخارف الدنيا حتى كأنّه يشاهد الآخرة بين يديه ، فصارت قراءته للعلوم الظاهرة راجعة كلها في الحقيقة علوما باطنة .

ثالثا : دفاع السنوسي عن الصوفية

لم يكّف الإمام السنوسي أن يكون صوفيا و أن يكتب في قضايا التصوف ، بل إنّه نصب نفسه مدافعا و منافحا عن الصوفية ، و خاصة ضد أولئك الذين اكتفوا بعلم الظاهر[2] ، و لم يتقنوا علم الباطن و راحوا ينكرون على المتصوفة و يسمون من انتسب إليهم مبتدعة و مخالفين للسنّة المطهرة ، كون التصوف و الممارسات الصوفية في اعتقادهم شيء طارئ على الإسلام فهو من البدع التي حذرنا منها الرسول صلى الله عليه وسلم إذ قال :" إياكم ومحدثات الأمور ، فإن

---

[1]- السنوسي – شرح العقيدة الوسطى ، ط1 ، مطبعة التقدم الوطنية ، تونس ، 1327هـ : ص 47 - 48

[2]- لقد حكى " أحمد زروق البرنسي" فتاوى الفقهاء في المتصوفة [في القرن التاسع الهجري قرن السنوسي]و رأى أنّهم افترقوا فيهم إلى ثلاثة مذاهب ، فكان الشيخ " أبو عبد الله محمد بن قاسم القوري " يجنح إلى التسليم و يرى أنّ ما هم عليه ليس من البدع ، و كان من أشد المعارضين لهم " أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني" الذي كان من أشدّ المنكرين لهم في الأصل والفرع ، و " أبو القاسم العبدوسي " ، و كان الشيخ " أبو مهدي عيسى بن أحمد الماوسي " مفتي وقته بالبلد مقتصد في القضية و أفتى بأمورهم ينظر فيها ، و أنّها تقبل التصحيح و الإبطال ، و هو كلام حق و إنصاف " . انظر ، أحمد زروق البرنسي – عدة المريد الصادق : ص 44 - 45

كل بدعة ضلالة " [1]، و هذه الأفعال التي يقوم الصوفية بها لم تثبت عنه عليه الصلاة و السلام وإنّما أحدثها القوم في الإسلام ! [2].

و قد جاء ردّ السنوسي على هذه المزاعم بأنّ المحدثات بهذا الإطلاق غير المقيّد اشترك فيها أهل الظاهر و الباطن على السّواء ، و هي أمور بعضها أحدثت في زمان الصحابة واستحسنوها و استّمر العمل بها ، و بعضها استحسنها التابعون وكذلك العلماء ، و من جملة الأمثلة التي يسوقها الإمام في ذلك : " الحمد لله " في أول الرسائل ، و " الاستدلال في المسائل " و " تزويق المصاحف " ..الخ ، فلماذا الإنكار على القوم لأنّهم سمّوا بالصوفية و لم تنكر هذه المسائل لأنّها أيضا من المحدثات ؟! . كما أنّ محدثات أهل الباطن و هم المتصوفة هي أمور – عند السنوسي – توصل إلى الله و تدلّ عليه ؛ يدلّ على ذلك مجالسهم و ذكرهم لله تعالى في الجماعة ، و الكلام في دقائق التصوف و هي كلها عند الإمام مستندة إلى الأحاديث و الآثار ، وقد اتفق العلماء – بحسبه – على جواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال ، و هذه كلها نوافل و خيرات يتقرب بها إلى الله ،كما قال عليه الصلاة والسلام في أثر عن الله تعالى : " لايزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، و بصره الذي يبصر به ، و يده التي يبطش بها ، و رجله التي يمشي بها ، و إن سألني لأعطينّه و لئن استعاذني لأعيذنّه " [3] ، و أي قربة عند السنوسي أعظم من هذه البدع ، و أي خير أعظم من هذه [4] .

و علما أيضا أنّ البدعة قد تكلم عليها أهل العلم المتّقون و قسموها إلى أقسام الشريعة، منها ما هي واجبة ، و منها المحرمة ، و المكروهة ، و المندوبة ، و المباحة ، و الطريق في ذلك أن تعرض البدعة على قواعد الشريعة ، فإن دخلت في قواعد الإيجاب فهي واجبة ، و إن دخلت في

---

[1] – رواه الترمذي و أبوداود في سننهما من حديث العرباض بن سارية سنن الترمذي ، دار الفكر ، سوريا ، 1983م . وسنن أبو داود ، المكتبة العصرية ، بيروت لبنان ،دت .

[2] – السنوسي – نصرة الفقير : ص 412

[3] – رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب التواضع . انظر ، صحيح البخاري ، ط1 ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ، لبنان ، 1427هـ/2006م .

[4] – السنوسي – نصرة الفقيّر في الردّ على أبي الحسن الصغيّر : ص412- 413

قواعد التحريم فهي محرّمة ، و في قواعد الندب فهي مندوبة ، و في قواعد الكراهية فهي مكروهة، و في قواعد الإباحة فهي مباحة ، و من جملة البدع المندوبة إحداث نوافل الخيرات المستحسنة والاجتماع للذكر أدبار الصلوات بكيفية معلومة ، و جميع ما أحدثته الصوفية من الآداب واستحسنه العلماء خلفا عن سلف [1].

و قد كتب السنوسي لهذا الغرض رسالة [2]، موجزة في الردّ على هؤلاء ، و من جملتهم الفقيه " أبو الحسن الصغيّر المكناسي" [3] الذي ألّف رسالة تشبه الطرر [4] ، يعيب فيها على الصوفية مسالكهم و يعترض بها طريقهم ، و سمّاهم مبتدعة و قد جاء في مقدمتها : " إني لما رأيت الهمم قاصرة عن الله تعالى ، و عن طريق الوصول إليه سبحانه ، و رأيت شعوبا و قواطع عن الله تعالى، وأكثرهم الذين يدّعون علم الظاهر ، إذ هم في حجاب عن الله تعالى ، أخذوا بظاهر الشرع ، وتركوا ما كانت عليهم بواطن أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم ، اتخذوا الظاهر عمادا والإنكار وسادا ..و رفضوا الحقيقة و أسبابها و حجبوا بالغفلة و فتحوا أبوابها ..ألاّ و قد أجمع أهل الباطن أنّ شريعة بلا حقيقة زندقة .. " [5]. و قد رأى "أحمد زروق " أيضا أنّ أسباب هذا الخلاف يعود إلى الجهل بأصول الطريقة ، و اعتقاد أنّ الشريعة خلاف الحقيقة ، و هذا هو الأصل الكبير في ذلك ، و هو عنده أيضا من مبادئ الزندقة [6].

[1]- المصدر السابق : 413- 416

[2]- وهي رسالة موجزة في التصوف بعنوان : نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغيّر ، قام بتحقيقها جمال الدين بوقلي حسن .

[3]- أبو الحسن الصغيّر المكناسي هذا ، لم نعثر له على ترجمة في المصادر المتوفرة لدينا . يوافق اسمه اسم الحسن الصغير القاضي والفقيه علي بن محمد بن عبد الحق الزرولي أبو الحسن المعروف في المغرب بالصغّير و في المشرق بالمغربي ؛ شارح المدونة المتوفى سنة 719هـ . ولعل شهرة هذا الأخير حملت كتاب التراجم و السير على إغفال الأول ، أو لاختلاط اسمين عليهم ، وكل ما نعرفه عنه أنّه بعث برسالة إلى علماء و طلبة تلمسان يشرح فيها رسالة ابن أبي زيد في الفقه نالت إعجابهم ، ثم كتب رسالة أخرى ينتقد فيها الصوفية أثارت عليه علماء وطلبة زمانه . انظر ، السنوسي – نصرة الفقير : ص 404 - 405 . و بهامشه تعليق المحقق .

[4]- الطرر ، جمع طرة ، أي حاشية الكتاب أو ما يشبه ذلك .

[5]- السنوسي – نصرة الفقير : ص 401 - 403

[6]- أحمد زروق البرنسي – عدة المريد الصادق : ص 17

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و الواقع أنّ عصر السنوسي لم يخل من علماء الظاهر [1] الذين يتعاملون و يهتمون بالأسماء و المصطلحات التي تثير حساسية ، مع العلم بأنّ الأسماء و الكلمات ليست هي التي توصف بأنّها الإسلام ، أو هي البدع الطارئة عليه ، و إنّما الذي يوصف بهذا ، أو ذاك مسميات الأسماء و مضامينها و المعاني التي جاءت الأسماء و المصطلحات معبرا عنها و خادما لها ، فالمصطلحات والأسماء ليست هي المعنيّ ، بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :" محدثات الأمور " و إنما المعنيّ بها المعاني و المسميات التي تتمثل في معتقدات زائفة أو سلوكات باطلة [2].

رابعا : مآخذ السنوسي على متأخري الصوفية :

لقد مدح السنوسي الصوفية المتشبّثين بثوابت الشرّع و أثنى عليهم كثيرا و نافح عنهم ضد ذوي الجهل الذين لا يزنون الأمور بميزان الحق ، لكنّه يتحول عن هذا المدح و الثّناء إلى النقد و الاعتراض على ما أحدثه بعض المتصوفة المتأخرون مما يخالف مقصود الشرّع ، لأنّ الصوفية كغيرهم لم تثبت لهم العصمة يجوز عليهم الخطأ و النسيان ، و المعصية كبيرها و صغيرها ، و البدعة محرمها و مكروهها [3] . فإضافة لمآخذ العلماء عليهم في هجرانهم العلم و تلاوة القرآن . فقد آخذهم السنوسي على مسائل أخرى أساسية عنده منها :

- الزعم أنّ الإكثار من ذكر النبّي صلى الله عليه وسلم حجاب عن الله تعالى :

يرى السنوسي أنّ ذكر الله ثمرة من ثمار معرفة الله سبحانه و تعالى ، و صدق رسوله صلى الله عليه وسلم إذ بعد هذه المعرفة ، يتحول المؤمن إلى ذكر الله في كل أحواله فلا يغفل عنه

[1]- الحقيقة أنّ العدواة بين أهل الظاهر و أهل الباطن لا تقوم على أساس صحيح ، فأهل الظاهر وجودهم ضروري لأنّهم يحمون النّاس من الاستسلام إلى الأوهام و الأضاليل ، و أهل الباطن وجودهم ضروري لأنّهم يعطرون الشريعة بعبير الروح ويسكبون عليها أنداء الخيال . انظر ، زكي مبارك – التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ، دط ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا، بيروت ، لبنان ، دت : 20

[2]- محمد سعيد رمضان البوطي – (شرح الحكم العطائية / شرح وتحليل) ، ط1 ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، 2000م : ج 1 ص11

[3] – أحمد زروق البرنسي – عدة المريد الصادق : ص 19

لحظة ، لأنّ من خصائصه أنّه غير مؤقت ، بل ما من وقت من الأوقات إلاّ و العبد مأمور بذكر الله تعالى ، إمّا فرضا أو ندبا ، و الصلاة من أشرف العبادات ، فقد لا تجوز إلاّ بالذكر ، وكذلك الصوم ، فالذكر مستدام في عموم الحالات ، كما ينبغي في كل ذكر من أذكار الله تعالى أن لا يغفل المؤمن عن ذكر سيدنا و مولانا محمد صلى الله عليه و سلم ؛ إمّا أن يصلي عليه إثره ، أو يقرّ برسالته مع الصّلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، أو نحو ذلك ممّا يوجب تعظيمه و التمسّك بأذياله ؛ إذ هو صلّى الله عليه و سلم باب الله الأعظم الذي لا ينال كل خير دنيا و أخرى إلاّ بالتعلق بأذياله ، فمن غفل عن ذكره صلى الله عليه وسلم لم ينل مقصده ، وكان مرميا به في سجن القطيعة محروما من خير الدنيا و الآخرة [1].

كما أنّ سيدنا محمدا صلّى الله عليه وسلم هو دليل الخلق إلى الله تعالى فكيف يصل إلى الله من غفل عن ذكر دليله ، و من هنا فالقول إنّ الإكثار من ذكر النبي صلّى الله عليه وسلم حجاب عن الله مقالة هي – عند السنوسي – قريبة من الكفر أو هي الكفر بعينه ، قالها بعض ممن يتعاطى التصوف ، و هو ليس من أهله ؛ بل إنّ هذه المقالة دفعت بعضهم إلى القول أنّ العبد إذا أفرد التهليل عن إثبات الرسالة كان أبلغ و أسرع في تأثير معنى التوحيد ، إذ حسب زعمه ؛ أنّ للتهليل معنى و لإثبات الرسالة معنى ، و إذا اختلفت المعاني عن الباطن ضعف التّأثير و بعدت الثمرة ، و إنّما يحتاج إلى وصل الذكرين – أي ذكر الله و ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم – عند الدخول في الإسلام . و هذا الكلام حسب السنوسي و قناعته رفض للشريعة و انحلال من ربقتها و تعطيل لرسومها لأنّه لو علم – هذا الضال – ما تحت قوله : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأسرار التوحيدية ، والحكم التهليلية لا انقشع عنه ذلك العمى فأصاب المرمى [2].

كما أنّ العبارة السابقة توحي أنّ السنوسي وجد في زمنه من أضلّ غيره باسم التصوف و هو بعيد كل البعد عن هذه الممارسة النبيلة الشريفة .

[1]- السنوسي – شرح أم البراهين : ص 90

[2]- المصدر نفسه : ص 90 -91

- إنكارهم لعصمة الأنبياء قبل البعثة :

يذهب السنوسي إلى أنّ الأنبياء كلهم معصومون قبل النبوة و بعدها ، إلاّ أنّه وجد في عصره من ينكر عصمة الأنبياء قبل النبوة و من الذين توهموا هذا الأمر الذي لا خلاف عنده ممن يدّعي التصوف و غيره [1].

و يسوق السنوسي مثالا على ذلك يتلخص في تفسيرهم لقوله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام :{ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ } [2]. فقد ذهبت طائفة من مدّعي التصوف إلى الاعتقاد أنّ إبراهيم عليه السلام كان يعتقد في ربوبية الكواكب أو يشك فيها ، و هذا الأمر عند السنوسي وهم توهمه القوم ؛ و إنّما الأصحّ و الأصّوب في تفسير الآية أنّ إبراهيم عليه السلام قال هذا الكلام ليقيم الدلالة لقومه على حدوث هذه العلويات التي عبدها قومه و ادعوا لها الألوهية و لذلك قال جلّ من قائل : { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } [3]. إنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يكن يعتقد ربوبيتها أو يشكّ فيها ، و عند إقامة هذا الدليل زال عنه ذلك الاعتقاد أو الشكّ كما توهم مدّعوا التصوف ، لأنّ الأنبياء عليهم الصّلاة و السّلام معصومون من الكفر ، قبل النبوة وبعدها ، في صغرهم وكبرهم ، بل هم جميعا معصومون من جميع المعاصي ، صغيرها ، وكبيرها عموما [4].

[1]- السنوسي – شرح صغرى الصغرى ، ط 1، مطبعة التقدم العلمية ، مصر ، 1323هـ : ص41

[2]- الأنعام الآية 76- 78

[3]- الأنعام الآية 83

[4]- السنوسي – المنهج السديد : ص 322 . وشرح صغرى الصغرى : ص 41 . ومكمل إكمال إكمال المعلم شرح صحيح المسلم :ج 1 ص 364 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذا و معنى قوله عليه الصّلاة و السّلام : " أهذا ربي على ما تزعمون " بحذف حرف الاستفهام ، أو من باب ذكر دعوى الخصم لإقامة البرهان على إبطالها ، و طلوع هذه الكواكب بعد أن لم تكن ، هو الاستدلال به على حدوثها كالأفول ، إلاّ أنّه – عليه السلام – إنّما أخّر الاستدلال على حدوثها إلى رؤية أفولها لما في الأفول من التغيّر و النّقصان ، فدلالته على حدوث تلك الكواكب و عدم صلاحيتها للربوبية واضح للذكي و الغبي ، أمّا طلوعها و إن كان دليلا على حدوثها من ناحية تجدده بعد أن لم يكن فلأنّه لمّا كان فيه كمال لها لما صاحبه من تلك الأنوار التي توجب لذة النّفس و الامتداد إليها بالأبصار ، فقد يسكن عقل الغبي الشهواني المقلد أو المعاند فلا يتأمل في وجه دلالته على الحدوث و لا يصغي لسماعها [1].

و مهما يكن من الأمر ، فإنّ هذه الطائفة من المتصوفة كما يظهر إنّما جاءها هذا التوهم نتيجة التقليد في الاعتقاد و لم يكن عن بحث و تدقيق ، لهذا وجدنا السنوسي يحارب الانقياد في العقيدة دون دليل ، و إلى العناية الواسعة بمبحث النظر ، دافعه في ذلك ما عرف في عصره من جمود فكري و شيوع للتقليد في الدّين ، ولا سيّما العقيدة ، حتى جعله بعضهم كأغلال في أعناقهم ، استوى في ذلك العامة منهم و الخاصة ، متذرعين في ذلك بحجج واهية ، وشبهات شائعة ، فكان السنوسي يرى ذلك بمثابة الدّاء العضال الذي أصاب فكر المسلمين وعقيدتهم ، بما جعله يقرّر محاربة التّقليد الاعتقادي و رفضه و نقد المكتفين به ، منتهيا إلى ضرورة الاعتماد على النّظر الذي دعا إليه الكتاب و السّنة ، و رجال السّلف الصالح .

[1]- السنوسي – شرح صغرى الصغرى : ص 41- 42

المطلب الثاني : التصوف و صلته بالزهد .

يكون الزهد بتفريغ القلب من حب الدنيا و شهواتها ، و امتلاؤه بحب الله و معرفته ، وعلى قدر تخلّص القلب من تعلقاته بزخارف الدنيا و مشاغلها يزداد لله حبا ، و له توجها ومراقبة و معرفة ، و لهذا اعتبر العارفون الزهد وسيلة للوصول إلى الله تعالى ، و هو الركن الأول من أركان التصوف [1] ، و شرطا لنيل حبّه و رضاه ، و ليس غاية مقصودة لذاته ، فالتصوف معرفة تجريبية ، و ذوق لأحوال المعرفة التي تولدها في النّفس المجاهدات الزهدية [2]. فالأنبياء و الأولياء انكشف لهم الأمر ، و فاض عن صدورهم النور لا بالتعلّم و الدّراسة ، و الكتابة للكتب بل بالزهد في الدنيا و التبرّي من علائقها ، و تفريغ القلب من شواغله [3]. و تظهر صلة التصوف بالزهد في أنّ التحقّق بهذا الأخير و التدرّج في مراتبه أمر لازم في التصوف و على الصوفية ، و لهذا بحثه الإمام السنوسي سواء من جهة تقسيمه أو من جهة أثره و نتائجه ، و هو ما سنتناوله فيما سيأتي :

إذا كان إمامنا قد عرّف التصوف كما سبق ذكره ؛ فما هو الزهد عنده ؟ و ما هي حقيقته ؟ و ما هي صلته بالتصوف ؟

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]- محمد آكلي أوسليمان بن محمد – مسلك مريد الوصول في أصول التصوف ، د ط ، دار الخلدونية ، الجزائر ، د ت : ص 99

[2]- فاروق عبد المعطي – محي الدين بن عربي حياته مذهبه زهده ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1413 هـ / 1993م : ص 90 . و أسين بلاثيوس – ابن عربي حياته مذهبه ، ترجمة عن الإسبانية ، عبد الرحمان بدوي ، د ط ، وكالة المطبوعات الكويت ، و دار القلم ، بيروت ، لبنان ، 1979 م : ص 111- 112 .

[3]- عبد الحليم محمود– قضية التصوف ، المدرسة الشاذلية ، ط2 ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر، د ت : ص 432 .

أولا : حقيقة الزهد .

سئل " الجنيد"[1] عن الزهد فقال : " خلو اليد من الملك و القلب من التتبع " . أي من حبّ الدنيا و الرياسة فيها ، و فراغ القلب من تتبع اللذات التي فيها ، انشغالا بالله تعالى عنها . و سئل " الشبلي" [2] عن الزهد فقال : " أن تزهد فيما سوى الله "[3] . أما الزهد عند " عبد القادر الجيلاني" [4] فهو : " ليس بالقول و الفعل- [أي بالجوارح الظاهرة بينما] الباطن عـــامر رغبـــة و حسرة على الدنيا..فإنّ هذا قريب من النّفاق "[5] . كما أنّه ليس هو صنعة يتعلمها المرء ، أو هو شيئا يأخذه بيده و يرميه ، بل هو خطوات أولها النّظر في وجه الدنيا..و لا يكون إلاّ بـــالعلم[6] . أما " ابن تيمية "(661هــ- 728هــ) فالزهد عنده يكون في عما لا ينفع ، إمّا لانتفاء نفعه، أو لكونه ، مرجوحا ، لأنّه مفوت لما هو أنفع منه ، أو محصل لما يربو ضرره على نفعه ، و أمّـــا المنافع الخاصة ، أو الراجحة فالزهد فيها حمق[7] .

من تعريفات الزهد السالفة الذكر و بيان مشروعيته يتّضح أنّ الزهد مرتبة قلبية ؛ إذ هو إخراج حب الدنيا من القلب ، بحيث لا يلتفت الزاهد إليها بقلبه ، و لا ينشغل بها عن الغاية التي خلقه الله من أجلها ، و ليس معنى الزهد أيضا أن يتخلى المؤمن عن الدنيا فيفرغ يده من المال ،

---

[1]- الجنيد بن محمد أبو القاسم الخراز من نهاون تفقه على أبي ثور، صحب السري سقطي توفي سنة 297هـ . انظر ، السلمي – طبقات الصوفية : ص 155 - 156

[2]- أبوبكر دلف بن جحدر ، أو بن جعفر ، و اسمه الحقيقي مختلف فيه ولادته سنة 247هـ كتب الحديث و تفقه على مذهب الإمام مالك ، كان الشبلي كالجنيد فقيها و صوفيا مع مبالغة في تعظيم الشرع . انظر ، عبد المنعم الحنفي – الموسوعة الصوفية : ص407 - 412

[3]- القشيري – الرسالة القشيرية :ص 191 .

[4]- أبو محمد محي الدين عبد القادر بن موسى بن عبد الله الجيلاني أو الجيلي (471هـ- 561هـ) صاحب الطريقة القادرية من مصنفاته : الغنية لطالب طريق الحق ، و الفتح الرباني وغيرهما . عبد المنعم الحنفي – الموسوعة الصوفية : ص 165

[5] – عبد القادر الجيلاني – الفتح الرباني و الفيض الرحماني ، دط ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، دت : ص87- 88

[6]- المصدر نفسه : ص 104

[7]- أحمد ابن تيمية – مجموع الفتاوي ، جمع و ترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصي النجدي الحنبلي و ابنه محمد ، ط1، مطبعة الحكومة – مكة المكرّمة ، 1382 هـ: ج 10 ص 615

أو يترك الكسب الحلال و يكون عالة على غيره فهذا من أكبر الحماقات التي قد يتورط فيها بعض الجهال .

و بما أنّ الزهد مقام قلبي رفيع المترلة لأنّه تفريغ القلب من التعلّق بسوى الله ، كان الوصول إليه يحتاج إلى جهود كبيرة و وسائل ناجعة ، و أهمها أن يكون بعلم صحيح و فهم عميق و يمارس بوعي و حكمة ، فكم من أناس أخطأوا الطريق فجعلوا الزهد غاية ، و لبسوا المرقّع من الثياب و شغلوا غيرهم بظواهرهم الجافة بينما قلوبهم عامرة بحبّ الدنيا . و قد تنبّه لهذا الأمر الكثير من العلماء الربانيين " كالغزالي " ، و " السنوسي " و غيرهما فلفتوا النّاس إلى المعنى الصحيح للزهد . فـ"الغزالي" اعتبر أنّ الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين ، و هو ينتظم عن علم ، و حال ، و عمل ، شأنه كشأن سائر المقامات لأنّ أبواب الإيمان كلها ترجع إلى عقد و قول و عمل . و لهذا عرّف الزهد على أنّه : " عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه ، فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة و غيره يسمى زهدا ، فمن رغب عما ليس مطلوبا في نفسه لا يسمى زهدا ،إذ تارك الحجر و التراب و أشبهه لا يسمى زاهدا"[1] .

فالزهد عند "الغزالي" عبارة عن ترك المباحات التي هي حظّ النّفس ، و المقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهدا عنده ، لأنّ الزهد عبارة عن رغبة الزاهد عن الدنيا عدولا إلى الآخرة ، أو عن غير الله تعالى عدولا إلى الله تعالى ، و هي الدرجة العليا من الزهد ، أما العلم فهو العنصر المعرفي الإدراكي الذي هو مثمر للحال السابقة من الزهد ، فهو العلم بكون المتروك حقيرا بالإضافة إلى المأخوذ ، فمن عرف أنّ ما عند الله باق و أنّ الآخرة خير و أبقى سهل عليه الدخول في الزهد و ممارسته . و أمّا العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لأنّه بيع و معاملة و استبدال للذي هو خير للذي هو أدنى ، فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية، و هي الدّنيا بأسرها مع أسبابها و مقدماتها ، و علائقها ، فيخرج من القلب حبّها و يدخل حب الطاعات و يخرج من العين و اليد ما أخرجه من القلب"[2] .

[1]- الغزالي أبو حامد – إحياء علوم الدين ، ط3 ،دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ،1423هـ /2002م :ج4 ص 189
[2]- المصدر نفسه : ج 4 ص 190

هذا و قد بسط " الغزالي " حقيقة الزهد و معناه في " كتابه الأربعين في أصول الدين "، و يتلخص في أنّ للزهد في الدنيا حقيقة و أصل و ثمرة . أما حقيقته : فهو عزوف النفس عن الدنيا و انزوائها عنها طوعا مع القدرة عليها ، و أصلها العلم و النّور الذي يشرق في القلب حتى ينشرح به الصدر و يتّضح به أنّ الآخرة خير و أبقى ، و ثمرتها القناعة من الدنيا بقدر الضرورة ، فالأصل نور المعرفة فيتميز حال الانزواء ، و يظهر على الجوارح بالكفّ إلّا عن قدر الضرورة في زاد الطريق ، و الضروري من زاد الطريق ، مسكن و ملبس و مطعم و أثاث[1] .

فالزهد عند الإمام " الغزالي " ؛ ترك التعلّق بالدنيا و مظاهرها ، و مفارقة الحظوظ بالجملة ، فإن بقيت مع السّالك المؤمن بعض العلائق – رغم مروره بما سبق من علامات الطريق – فإنّه يتعين عليه أن يقتلع كل جذور التعلّق بما يزاحم حبّ الله ، و إلّا صار قلبه ضيّقا ضائعا مشتتا لا يقر له قرار و مرتعا للهموم .

أمّا حقيقة الزهد عند الإمام " السنوسي " فهو غير بعيد عن ما جاء به العلماء السّابقين و على رأسهم " الغزالي " مع اختلاف في التفاصيل ، فالزهد عنده : خلو الباطن من الميل إلى فان، و فراغ القلب من الثقة بزائل و هو أول فائدة من فوائد التصوف [2]. و هذا التعريف قريب من مفهوم " الجنيد " للزهد الذي هو : " خلو القلب عما خلت منه اليد " ، كما أنّه يتّفق مع "الغزالي" في غايته و نهايته مع اختلاف في مسمى الفاعل للزهد ، عبّر عنه السنوسي بالقلب ، و وصفه الغزالي بالنفس .

و من حسن كلام الإمام السنوسي في الزهد ما قاله في " شرحه لعقيدته الصغرى" بعدما ذكر ما يجوز من الأعراض البشرية على الأنبياء و الرّسل عليهم الصّلاة و السلام قال رضي الله عنه : " إذا نظر العاقل في أحوال الأنبياء عليهم الصّلاة و السّلام ، باعتبار زينة الدنيا و زخرفها ، علم علم اليقين أنّها لا قدر لها عند الله تعالى ، فأعرض عنها بقلبه بالكلية ، إن كان ذا همة ، للحلول في الفراديس العلى ، و عظيم التلذذ الذي لا يكيّف بزوال الحجاب عنه لرؤية المولى عزّ

[1]– الغزالي أبو حامد – كتاب الأربعين في أصول الدين ، دط ، شركة الشهاب ، الجزائر ، دت :ص154

[2]– السنوسي – شرح أم البراهين : ص 93

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وجلّ بكرة و عشية ، و شدّ إزاره لعبادة مولاه جلّ و علا ، شدّ الكرام و صبر هذه اللحظة من العمر ، و ما أربح صفقة هذا الموفق ! إذ بذل شيئا يسيرا لا قيمة له ليسارته وخسّته فأخذ شيئا لا قيمة له لكثرته و عظيم رفعته ، و تزايد نعيمه ، كل لحظة أبد الآباد "[1].

و يزيد السنوسي بيانا للحقيقة السابقة " فبينما هذا الموفق في ذلّ أطماره و خفقان قلبه، و سيلان دمعه و عويله في الأسحار ، و توحشه من الخلق طرا يندب على نفسه بنفسه ، وقد أحرق كبده خوفه فوات رضا الله عزّ وجلّ الذي لا يمكن منه خلف تطير روحه أحيانا وترفّرف ، يقصد الخروج من شدة الحب ، و إزعاج حرارة الشوق فيردّها محيط قفص البدن ، ثم يهبّ عليه نسيم الوصلة فيسكن روحه لذلك السّكون ، و بينما هو في مكابدة هذه الأحوال والتنعم بالمحبوب وراء الحجب إذ هو قد أصبح قريبا بنفسه ، موته متصلا بمحبوبه دون حجاب ، يتنعم برؤية من ليس كمثله شيء ، جلّ ربّ الأرباب ، فألقى عليه من خلع الكرامات ما يليق بكرمه و منحه مالا يحيط به عقل ، و لا يحصيه ديوان من طرائف هباته ، و جلال نعمه ، وأصبح بعد أن كان فقيرا لا يعبأ به ، ملك من الملوك الجنّة يسرح فيها أين شاء ! و تطوف عليه الحور والولدان ، و يرى إذ الموت مالا عين رأت ، و لا أذن سمعت ، و لا خطر على قلب إنسان ، فهذا هو أيّها العاقل ، هو الملك الذي يحق أن تبذل فيه النفوس و المهج ، ثم و الله ليست بقيمة لشيء منه لو فضل مولانا الكريم الوهاب ، فحدث عن بحر فضله العظيم بما شئت و لا حرج :

دببت للمجد والساعون قد بلغوا ... حد النفوس وألقوا دونها الأزر
وكابدوا المجّد حتى ملّ أكثرهم ... وعانق المجّد من وفى ومن صبرا
لا تحسب المجدّ تمرا أنت آكله ... لن تبلغ المجدّ حتى تلعق الصبرا "[2] [3]

وهكذا كان زهد الصحابة و التابعين نابعا من العقيدة الصحيحة ، و الفهم الصحيح من الدين و قضاياه ، و قد بقوا على هذه العقيدة الطيبة و السلوك الطيب إلى أواخر عهد الخلفاء

[1]- المصدر السابق : ص 62

[2]- الأبيات لحوط بن رئاب الأسدي ، انظر ، المرزوقي – شرح ديوان الحماسة ، (رقم المقطعة 640) ، تحقيق أحمد أمين ، وعبد السلام هارون ، ط 2 ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، مصر ، دت : ج 3 ص 1511

[3]- السنوسي – شرح أم البراهين : ص 62- 63

الراشدين ثم حدثت فتن سياسية ثم عقيدية ، انتهت إلى وجود فرق مبتعدة في الإسلام و اختلال نظام السياسة مع نشأة الغلو في العبادة عند البعض مع بقائهم على خير كثير من الدين لقرب عهدهم بعصر النبوة و عصر الصحابة [1].

ثانيا : أنواع الزهد من حيث الحكم .

نقل "القشيّري" خلاف النّاس في أنواع الزهد من حيث الحكم ، فمنهم من قال : "الزهد في الحرام لأنّ الحلال مباح من قبل الله تعالى ، فإذا أنعم الله سبحانه على عبده بمال من حلال و تعبده بالشكر عليه فتركه له باختياره لا يقدم على إمساكه بحق إذنه ، و منهم من قال: الزهد في الحرام واجب و في الحلال فضيلة "[2]. أما " ابن عطاء الله " فقد اعتبر الزهد أنّه أُحد مقامات اليقين التسعة [3]، و هو نوعان : زهد ظاهر جلي ، و زهد باطن خفي ، فالظاهر الجلي ، الزهد في فضول الحلال ، من المأكولات و الملبوسات و غير ذلك ، و الزهد الخفي : الزهد في الرياسة ، و حب الظهور [4]. و أشمل منهما تقسيم "ابن القيم" الذي ذكر أنّ الزهد أقسام : زهد في الحرام ، و هو فرض عين ، و زهد في الشبهات ، و هو بحسب مراتب الشبهة ، فإن قويت التحق بالواجب ، و إن ضعف كان مستحبا ، و زهد في الفضول ، و زهد فيما لا يعني من الكلام و النظر ، و السؤال و اللقاء و غيره ، و زهد في النّاس ، و زهد في النّفس بحيث تهون عليه نفسه في الله ، و زهد جامع لذلك كله ، و هو الزهد فيما سوى الله ، و في كل ما يشغلك عنه ، و أفضل الزهد إخفاء الزهد ، و أصعبه الزهد في الحظوظ "[5].

---

[1]- وكيع بن الجراح – الزهد ، تحقيق عبد الرحمان عبد الجبار الفريوائي، ط 2 ، دار الصميعي للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية 1415هـ/1994م : ج1 ص129

[2]- القشيري – الرسالة القشيرية : ص 189

[3]- مقامات اليقين التسعة عند ابن عطاء الله هي : التوبة ، و الزهد ، و الصبر ، و الشكر ، و الخوف ، و الرضا ، و الرجاء ، و التوكل ، و المحبة . ابن عطاء الله السكندري – التنوير في إسقاط التدبير ، تحقيق محمد أحمد أحمد ، د ط ، المكتبة التوفيقية ، مصر ، د ت : ص 20

[4]- المصدر نفسه : ص 20

[5]- ابن القيم- الفوائد ، ط7، دار النفائس ، بيروت ، لبنان ، 1406هـ/1986م : ص 117

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و أما أنواع الزهد عند السنوسي من حيث الحكم فهو على نوعين : زهد فرض ، وزهد نفل ، فالفرض : " هو ترك كل ما يعطل عن الواجبات أو يوقع في فعل المحرمات . أما الزهد النفل فهو : ترك كل ما زاد على مقدار الضرورة "[1]. الأول مطلوب واجب في حق الجميع المكلّفين ، و الثاني يختلف باختلاف النّاس و المقامات .

كما أنّ الزهد عنده ، له أوّل و آخر ؛ أمّا أوّله ؛ فهو ترك كل ما يشغل المريد عن الطريق من الأسباب و الأشياء و الأشخاص ، و الخروج عمّا يملكه إلّا ما لابدّ منه ، من سدّ الجوعة ، و ستر العوّرة في الوقت ، من غير ذخيرة للغد ، باعتماده على الله تعالى ، و ذلك يوجب التوكل ، فإنّ الزهد لا يمكن الصبر عليه إلا بقوة التوكّل ، و ترك الأشخاص يوجب العزلة و الانفراد عن النّاس ، إلاّ من يعينه على الطريق من شيخ كامل أو رفيق موافق أو محبة صالحة ، أو كلام شاف ، و ذلك يوجب الصمت إلاّ على قدر الضرورة ، و أمّا آخره ؛ فهو ترك كل ما يشغله عن الله تعالى ، بالإعراض عما سواه من العلوم ، و الأحوال ، و الكرامات وما في معناها [2].

و أمّا علامات الزهد فكثيرة منها ترك الرئاسة ، و الزهد فيها كما جاء في لطائف المنن عن " ابن عطاء الله " : " يستدل على الزهد في الدنيا بالزهد في الرئاسة ، و يستدل على الزهد في الرئاسة بالزهد في الاجتماع مع أهلها " [3]. قال " الملالي ": سمعت شيخنا محمد السنوسي يقول ما معناه : " إنّ الولي الحقيقي هو الذي لو كشف له عن الجنّات و ما فيها من الحور العين و الولدان ، و غير ذلك ، ما التفت إلى شيء من ذلك ، و لا مال إليه بالكلية ، و مهما سكن إلى شيء من ذلك ، و ركن إليه فقد ركن إلى غير الله " . ثم قال لي : " هذا هو العارف الحقيقي"[4] . فهذا هو الزهد الحقيقي ، و هو الزهد في الدارين ، فإن وصل العبد إلى هذا المقام ، فقد وضع قدمه في أول درجة من زهد العارفين .

---

[1]- السنوسي - المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 547

[2]- المصدر نفسه : 547

[3]- ابن عطاء الله السكندري - لطائف المنن ، ط3 ، مكتبة القاهرة ، مصر ، 2004م : ص 78

[4]- الملالي - المواهب القدسية في المناقب السنوسية : لوحة 102ص 204

ثالثا – ثمار الزهد عند السنوسي :

إذا تحقّق الزهد بالكيفية التي سبق ذكرها أثمرت نتائج طيبة في الدنيا و الآخرة يمكن تلخيصها فيما يلي :

تتمثل ثمرة الزهد الواجب عند الإمام في التمكن من إيقاع الواجبات على وجهها الشرعي ، و التحصّن من الوقوع في شبكة المحرمات بأسرها ، و أما ثمرة الزهد النافلة فتكون باستنارة القلب بالحكم ، وتعاون الأعضاء على العبادة ، وكثرة قيمة العمل ، ومضاعفة ثوابه، وعظم قدره ، و شرف محاله [1].

وقد أورد السنوسي في هذا الشأن أقولا للصوفية و أقوالا من الآثار منها : " ما يطلع على الأسرار إلا أمين ، و أنت تعطي نفسك حظّها من المآكل و المشارب حتى تبقى بيت خلاء ، و يكفيك حب الدنيا . فمن أحبّ الدنيا فقد خان ، و من خان هل يطلعه الملك على أسراره ؟ و من أحب الدنيا بقلبه كان كبناء حسن بني فوق ميحاط فرشح عليه فلا يزال كذلك حتى يرى ظاهره كباطنه ، وروي عن "سليمان الفارسي " – رضي الله تعالى عنه – : " إن العبد إذا زهد في الدنيا استنار قلبه بالحكمة ، وتعاونت أعضاءه بالعبادة .. " [2].

و لهذا ، لا ينبغي للمعرض عن الدنيا أن يقول أنا متألم بالصبر عنها ، بل يقول أنا شاكر متلذذ بالنعم الدنيوية و الأخروية ، التي أنا متقلب فيها ، من وجود الراحة و في الظاهر، و الباطن، من معاشرة الأضداد ، و مشاهدة أهل الغفلة و البعاد ، و التفرغ بالكلية لزيادة المعارف ، و اليقين و الترقي بإدمان العبادة إلى أعلى درجات المتقين .

و أيضا ، فإنّ تألم الزاهد في الدنيا بالصبر على لذائذها ، فإنّ المقبل عليها متألّم أيضا ، بالصبر عليها ، و حفظها و تحصيلها و دفع الآفات الكثيرة عنها ، ثم تألّم المعرض عنها يفضي به

[1]– السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص547

[2]– المصدر نفسه : ص 548

قريبا إلى لذائذ عظيمة في الآخرة ، و تألّم المقبل يفضي به إلى أهوال و مقاسات شدائد ، و أحزان و هموم لا تنحصر في الآخرة ، فليقرأ المعرض عن الدنيا الزاهد فيها عن توقان نفسه إلى شهواتها الضعيفة الوهمية على سبيل الاقتباس :{ وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً [1] }[2].

رابعا – أقسام الزهد من حيث المراتب و الاكتساب :

الزهد عند علماء التصوف يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث : الدرجة الأولى و هي السفلى : منها ، أن يزهد المؤمن في الدنيا ، و هو لها محب و قلبه إليها مائل و نفسه إليها ملتفتة ، و لكنّه يجاهدها و يكفّها ، و هذا يسمى بالمتزهد ، و هو مبدأ الزهد و مقدمته ، أما الدرجة الثانية : فهو الذي يترك الدنيا طوعا لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه ، و أمّا الدرجة الثالثة : و هي العليا : أن يزهد طوعا ، و يزهد في زهده ، فلا يرى زهده ، إذ لا يرى أنّه ترك شيئا ، إذ عرف أنّ الدنيا لا شيء ، فهذا كمال الزهد ، و سببه كمال المعرفة [3].

و نفهم من خلال الكلام المتقدم ، أنّ الزهد الكامل و التام يكون بإزالة طلب الدرجات و المنازل العاليات من القلب ، فالخطوة الأولى زهد في الدنيا ، و الثانية زهد في تعلق النّفس بالآخرة ، و هكذا ينتهي إلى أنّ الأدنى حجاب لما يعلوه ، و أنّ قعود الهمّة عند العتبة الأولى حائل عن الارتقاء للعتبة الثانية ، و بذلك فالدنيا حجاب عن الآخرة ، و الآخرة حجاب عن ربّ الدنيا والآخرة .

و قد أكدّ " الغزالي" على هذا المعاني في كتابه الأربعين في أصول الدين كما بسطه في الإحياء بقوله :" الزهد على درجات أن يزهد و نفسه مائلة إلى الدنيا و لكن يجاهدها و هذا متزهد ، و ليس بزاهد ، و لكن بداية الزهد التزهّد ، الثانية : أن تنفر نفسه عن الدنيا و لا تميل

[1]– النساء الآية 104

[2]– السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد: ص 548

[3]– الغزالي أبو حامد – إحياء علوم الدين : ج4 ص 197

إليها ، لعلمه أن الجمع بينهما و بين نعيم الآخرة غير ممكن ، الثالثة : أن لا تميل نفسه إلى الدنيا و لا تنفر عنها ، بل يكون و جودها و عدمها عنده ، بمثابة واحدة ، و يكون عنده المال كالماء ، و خزانة الله تعالى كالبحر ، فلا يلتفت قلبه إليه رغبة و نفورا و هذا هو الأكمل "[1].

و نجد تأثير ما قاله " الغزالي" واضحا في ما قرّره السنوسي من هذا المعنى و إن لم يعبّر عنه بنفس لفظه و كلامه ، فالزهد عند السنوسي باعتبار ما سبق نوعان : زهد مكتسب ، و زهد غير مكتسب ، أمّا الزهد المكتسب ؛ فهو عند الإمام لا يحتاج من صاحبه إلى مجاهدات و معانات، و أمّا الزهد غير المكتسب ؛ فهو برودة الدنيا من قلب الزاهد حتى تصير كالميّتة و النّار، و ترك إرادتها بالقلب واختيارها [2].

أي أنّ هذا النوع الثاني من الزهد غير مقدور على أي إنسان تحصيله لأنّه شاق على النفس و يحتاج إلى مجاهدات دائمة .

و العلاقة بين الزّهد المكتسب و الزّهد غير المكتسب أنّ الأول مقدمة و سبب للثاني – و هو غير المكتسب – و ذلك هو نهاية المطلوب ، به تقع الراحة و تنقطع الوساوس ، و تنال درجات الآخرة . قال الله تعالى : { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [3]. و قال جلّ من قائل: { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ } [4]. وقال جل من قائل :{ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً ، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً } [5] "[6].

[1]– الغزالي أبو حامد – الأربعين في أصول الدين : ص 157
[2]– السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 549
[3]– القصص الآية 83
[4]– الشورى الآية 20
[5]– الإسراء الآية 18-19
[6]– السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد: ص 549

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وكون الزّهد المكتسب ، سببا لغير المكتسب ، فإنّ سبب برودة الدنيا من القلب ، المواظبة على الزّهد المكتسب ، و إدامة ذكر آفات الدنيا ، و ما يفوت بسبب شهواتها المنقضّة عن قريب من الخيرات الأخروية ، فيوازن نعيمها ، و لذاتها الناقصة الفانية ، بنعم الآخرة و لذاتها الكاملة الباقية ، فتصير نسيا منسيا ، و يوازن أهوالها و محنها التي لا دوام لها بأهوال الآخرة ومحنها ، فيغيب جميع أهوالها و محنها في أدنى هول من أهوال الآخرة .

و قد ساق لنا الشيخ السنوسي قولا يؤيد به ما ذهب إليه : " من فرح بالدنيا إذا جاءته فقد ثبت حمقه ، و أحمق منه من إذا فاتته حزن عليها ، فمثاله كمن جاءته حيّة لتلدغه ثم مضت ، و سلمه الله منها فحزن عليها إذا لم تضرّه ..و من علامة الغفلة و صغر العقل أن تعول همّا يقع أم لا ؟ و تترك أن تعول همّا لا بدّ من وقوعه ، فتصبح تقول كيف السعر غدا ؟ أو كيف في هذه السنة ؟ ألطاف الله تأتي من حيث لا تعلم ، و الشّك في الرزّق شكّ في الرزّاق ، ما سرق السارق و لا غصب غاصب إلا رزّقه ، مادمت حيا لا ينقص من رزّقك شيئا ، وكفى بك جهلا أن تعول الهمّ الصغير ، و تترك الهمّ الكبير علّ هما ، هل تموت مسلما أو كافرا ؟ علّ هما ، هل أنت شقي أم سعيد ؟ علّ هما ، النّار الموصوفة الأبدية التي لا انتهاء لها ، علّ همّا ، أخذ الكتاب باليمين أو بالشمال ؟ هذا هو الهمّ الذي يعال ، لا تعلّ هما لقمة تأكلها أو شربة تشربها ، أو يستخدمك الملك و لا يطعمك ؟ أتكون في دار الضيافة وتضيع ؟ ..يا من لا يأكل الحنطة إلا مغربلة ، فلابدّ إن تغربل عمرك ، فلا يبقى لك منه إلاّ ما أخلصت فيه ، و ما عدا ذلك يرمى "[1].

وصفوة القول فالزهد مقام رفيع عند السنوسي لأنّه سبب لمحبة الله تعالى ، و لذا دعا إليه الكتاب و السنة ، ودعا إليه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، و أشاد بفضله أئمة الدّين ، لأنّه خلق وتربية للمؤمنين ، و لا يكون صحيحا مثمرا إلا عن علم و دراية .

[1]- المصدر السابق : ص550

المطلب الثالث : التصوف و صلته بالذكر و مناسبة كل منها للتوحيد .

أطلقت الآيات القرآنية الكريمة كلمة الذّكر على عدّة معان ، فتارة قصد بها القرآن الكريم كما في قوله تعالى:{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[1]. و تارة قصد بها صلاة الجمعة كما في قوله تعالى :{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [2]. و في موضع آخر عنى بها العلم :{ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}[3]. و في معظم النصوص أريد بكلمة الذكر التسّبيح و التهليل و التكبير و الصّلاة على النبّي صلّى الله عليه و سلّم و ما إلى هنالك من الصيغ ، كما في قوله تعالى :{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ }[4]. و قوله سبحانه تعالى: {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً } [5].

إنّ الذكر ثمرة من ثمار المعرفة بالله تعالى ، و صدق رسوله صلى الله عليه و سلم . فما هي حقيقته عند السنوسي ؟ و ما صلته بالتصوف ؟ و ما مناسبة كل من الذكر و التصوف للتوحيد ؟

أولا : حقيقة الذكر .

للذكر ثمرات كثيرة سواء للذاكر مع نفسه أو مع الله ، فكما أنّه هو وسيلة للتربية الروحية فهو كذلك طريق للمعرفة ، كما أنّه منشور الولاية فمن وفق للذكر فقد أوتي المنشور ، و من سلب الذكر فقد عزل ، و يعده البعض من الأسباب الموصلة إلى الحضرة الربانية و الأكثر فعالية فيها لتعلقه بالقلب . قال "ابن تيمية" في هذا الغرض : " فالأدعية و الأذكار النبوية هي

[1]- الحجر الآية 09
[2]- الجمعة الآية 09
[3]- الأنبياء الآية 07
[4]- الأنفال الآية 45
[5]- المزمل الآية 08

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أفضل ما يتحراه المتحرّي من الذكر و الدعاء و لسالكها على سبيل أماني الفوائد و النّتائج الـتي تحصل لا يعبر عنه لسان و لا يحيط به إنسان "[1] . و قد تابعه " ابن القيم " في تأكيد دور الـذكر في المعرفة و الولاية و الأحوال فمن فتح له باب الذكر فتح له باب الدخول على الله عز و جـل ؛ فهـو كشجرة تثمر المعارف و الأحوال بل إن الذكر عند "ابن القيم " يثمر المقامات كلها مـن اليقـضة إلى التوحيد فهو أصل كل مقام [2].

و لا يختلف علماء الإسلام في جملتهم على أنّ الذكر منه ما هو مندوب و منه الواجب، لكن المتصوفة أولوا عناية خاصة بالذكر و جعلوا له قيمة استثنائية ، فهو مترلة القوم الكبرى التي منها يتردون وفيها يتجّرون و عليها دائما يتردّدون ، و هو قوت قلوب القوم التي مـتى فارقهـا صارت الأجساد لها قبورا ، و هو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريـق و مـأوهم الـذي يطفئون به التهاب الطريق و دواء أسقامهم التي متى فارقهم انتكست منهم القلوب ، و الـسبب الواصل و العلاقة التي كانت بينهم و بين علام الغيوب [3].

و لهذا وجدنا أنّ جميع المربين و المرّشدين الكاملين قد نصحوا السالكين في سيرهم إلى الله ، و أبانوا لهم أنّ الطريق العملي الموصل إلى الله تعالى و إلى رضوانه هو الإكثار من ذكـر الله في جميع الحالات ، وصحبة الذاكرين .

عرّفت بعض المصادر الغربية الذّكر على الشكل التالي : " بالنسّبة للصوفية الذّكر هـو طريقة للتركيز الروحي ، و يأخذ معنى احتفالي في الإطار الإسلامي ، و هو ما يعني الله جهرا أو سلوكا أمر به القرآن "[4].

---

[1]- ابن تيمية- مجموع الفتاوى : ج11 ص 511

[2]- ابن القيم – الوابل الصيب من الكلام الطيب ، تحقيق السيد الجميلي ، ط1 ، دار البحار ، بيروت ، لبنان ، 1986م : ص79

[3]- ابن القيم الجوزية – مدارج السالكين ، تحقيق محمد حامد الفقي ، ط2،طبعة دار الكتـاب العـربي ، بـيروت، لبنـان، 1393هـ /1973م :ج2 ص 423

[4]- . Dictionnaire, encyclopédique d'islam- dardas paris, 1991/ : p101

و جاء في الرسالة القشيرية : " أن الذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه و تعالى ، بل هو العمدة في هذا الطريق و لا يصل أحد إلى الله تعالى ، إلاّ بدوام الذكر ، والذكر على ضربين : ذكر اللسان و ذكر القلب ، فذكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة ذكر القلب و التأثير لذكر القلب ، فإذا كان العبد ذاكر بلسانه و قلبه فهو الكامل في وصفه في حال سلوكه "[1] . فأفضل الذكر و أنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان وكان من الأذكار النبوية و شهد الذاكر معانيه ومقاصده .

و ذهب " القرطبي" مذهبا آخر إذ اعتبر أن أصل الذكر التنبيه بالقلب للمذكور والتيقّظ به ، و سمي الذكر باللسان ذكرا ، لأنه دلالة على ذكر القلب [2] . و هذا تنبيه إلى أنّ أصل الذكر القلب و ليس اللسان . و الذكر قد يكون عن نسيان ، كما يكون لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ " [3] . و لا يختلف "ابن القيم" عن غيره في أنّ المداومة على الذكر اللسان مع الغفلة تؤدي إلى حضور القلب ، و في نفس الوقت فإن ذكر القلب هو الآخر إذا قوي استتبع لسانه فتواطأ جميعا [4] . أما " ابن عطاء الله " فيحدّ الذكر على أنّه :" هو التخلص من الغفلة ، و النسيان بدوام حضور القلب مع الحق"[5].

و حقيقته الذكر عند " الساحلي" : هو قيام معنى التوحيد في النّفس حتى يصير صفة لها ، لا تغفل عنه ، و هذه الحقيقة هي المطلوب من جميع العباد ، ثم هذه الحقيقة قد يقوى قيام معناها في النفس، و قد يضعف حسب الوسائل التي تمدها ، و بحسب البداية والنهاية [6] . و هو عنده على ثلاثة أقسام : ذكر اللسان في مقام الإسلام ، و هو قيام اللسان بحركة لفظه مع متابعة القلب لما أمكن من معناه ، و ذكر القلب في مقام الإيمان ، و هو تمكن معنى الذكر في القلب حتى لا ينفك عنه مع متابعة

[1]- القشيري – الرسالة القشرية : ص 312

[2]- القرطبي- الجامع لأحكام القرآن ، تصحيح أحمد عبد الحليم البردوني ، دط ، دار الكتب المصرية ، مصر ، 1954م : ج2 ص 471

[3]- الراغب الأصفهاني- المفردات في غريب القرآن ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، دط ، بيروت ، لبنان ، دت :ص179

[4]- ابن القيم- الفوائد : ص 247 . و فضل الذكر والدعاء ، دط ، دار الشهاب ، الجزائر ، دت : ص 49

[5]- ابن عطاء الله السكندري- مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1421هـ/ 2001م : ص 07

[6]- الساحلي – بغية السالك إلى أشرف المسالك : ج1 ص 138- 139

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

اللسان لما أمكن من لفظه ، و ذكر الروح[1] في مقام الإحسان ، و هو الاستغراق في سرّ التوحيد ، مشرفا على حقائقه بما نال الروح من الخلاص من الأوهام الجسمانية و الطّهارة من الآفات الطبيعية ، حتى لا يغيب عن معنى الذكر لحة ، و إن كان اللسان متحركا ، فإبقاء إجراء الحركة رعيا لحق بدايته[2].

و هذا التقسيم الذي ذكره " الساحلي " نجده أيضا عند " السلّمي "[3] الذي أشار أنّ من أصول الصوفية في الأذكار أربعة : ذكر اللسان ، و ذكر القلب ، و ذكر بالروح ، فإذا صحّ ذكر الروح سكت السرّ[4] و القلب و اللسان عن الذكر و ذلك ذكر المشاهدة ، و إذا صحّ ذكر السرّ سكت القلب و اللسان و النفس - و هي الروح- عن الذكر و ذلك ذكر الحضور و القرب ، و إذا سكت القلب عن الذكر أقبل اللسان عن الذكر و ذلك ذكر العادة [5].

و ترجع حقيقته عند السنوسي " بأن يعظم الذاكر – بقلبه – ما عظّم الله تعالى ، و أن يحسن أدبه مع ما شرّف مولانا جل وعز "[6].

فأصل الذكر عند السنوسي و المتصوفة هو القلب ، لأنّ الذكر يقابله الغفلة ، و الانتباه يكون من القلب ، و قد يكون من اللسان مع الغفلة و لكنّه في نهاية المطاف يؤدي إلى الذكر القلبي المقصود من الذكر ، وإلا فقد الذكر معناه ، فالأرجح أن يكون إطلاق الذكر عندهم على اللسان من باب المجاز لا الحقيقة و التعريفات تؤيد ذلك .

[1] – قال القشيري : "الأرواح مختلف فيها عند أهل التحقيق من أهل السنة ، فمنهم من يقول إنّها الحياة ، ومنهم كمن يقول أعيان مودة في هذه القوالب . انظر ، القشيري – الرسالة القشيرية : ص 161

[2] – الساحلي – بغية السالك إلى أشرف المسالك : ج1 ص145-146

[3] – محمد بن الحسين الأزدي ، و نسبته إلى جده لأمه أبي عمرو إسماعيل بن نجيد السلّمي ولد سنة 325هـ على الأرجح ، شيخ الصوفية و صاحب تاريخهم و طبقاتهم توفي سنة 412هـ ، من مصنفاته : تاريخ الصوفية ، و رسالة الملامتية . انظر ، عبد المنعم الحنفي – الموسوعة الصوفية : ص 356 - 357

[4] – يحتمل أنّها لطيفة مودعة في القالب كالأرواح و أصولهم تقتضي أنّها محل المشاهدة كما أنّ الأرواح محلّ للمحبة و القلوب محل للمعارف . انظر ، القشيري – الرسالة القشيرية : ص 161

[5]– السلّمي أبو عبد الرحمان – أصول الملامتية و غلطات الصوفية ، تحقيق عبد الفتاح أحمد الغساوي محمود ، دط ، مطبعة الإرشاد، مصر ، 1995م/1405هـ : ص 147

[6]– السنوسي – شرح أم البراهين : ص 87

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إنّ وظيفة الذكر عند الإمام تتمثل في نسيان ما سوى المذكور – و هو الله تعالى – والحذر من السّقوط في الغفلة و هي الجهل بالتوحيد ، و الثاني حالة غيبة الذّاكر عن المذّكور حيث لا يبقى له رسم ، و حيث يحلّ الذاكر في المذكور أو يحلّ المذكور في الذاكر ؛ و في هذه الحالة ، يكون الجهل بالتوحيد– على مذهب الإمام السنوسي – سببا في السهو ، و مدعاة إلى المروق في الذكر [1] . إنّ ذكر الله ثمرة من ثمار معرفة الله سبحانه و تعالى ، و صدق رسوله صلّى الله عليه وسلم إذ بعد هذه المعرفة ، يتحول المؤمن إلى ذكر الله في كل أحواله فلا يغفل عنه لحظة، فهو ركن قوي في طريق الحق سبحانه و تعالى ، بل هو العمدة في هذا الطريق ، و لا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام الذكر .

وصفوة القول ، إنّ المتصوفة يركزون على نوعين من الذكر ، هما ذكر اللسان و ذكر القلب – و بعضهم أضاف ذكر الروح – و ذكر القلب أفضل من ذكر اللسان لذلك جعلوا ذكر اللسان مع الغفلة في آخر المراتب وسموه ذكر العادة [2] .

هذا و تطرح مسألة صيغ الذكر إشكالا كبيرا من حيث تبعيتها لنصوص الوحي أو بالأحرى : هل يلزم فيه من الصيغ ما كان يذكر به النبّي صلّى الله عليه و سلم ، أم أنّ الأمر مفتوح ، و رغم الاختلاف الحاصل في المسألة فهناك اتفاق كبير حول أفضلية بعض الصيغ على أخرى فصيغة الذكر بـ"لا إله إلا الله" من أفضل الذكر ، و هذا ما اختاره جماعة من المشايخ الصوفية – منهم السنوسي- باعتبار ما لهذا الذكر من تنوير للباطن إذا داوم عليه صاحبه مخلصا لله تعالى [3] . و تستند هذه الأفضلية على كثير من الأحاديث الواردة في هذا الشأن[4] لكنّ هذه الصيغة و غيرها من الصيغ الكثيرة الأخرى تصبح عند بعض المتصوفة بمجرد مرحلة للمرور إلى

[1]- جمال الدين بوقلي حسن – ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية وفي الواقع ، دط، المطبعة الحديثة للفنون المطبعية ، الجزائر 2003م : ص 546- 547

[2]- السهروردي – عوارف المعارف (ذيل كتاب إحياء علوم الدين للغزالي) ط3 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،لبنان ، 1423هـ /2002م : ج 5 ص 75

[3]- السنوسي – شرح أم البراهين : ص 82

[4]- حديث " أفضل الذكر لا إله إلا الله "رواه الترمذي ، باب الدعوات من حديث جابر بن عبد الله . انظر ، سنن الترمذي ، دار الفكر ، سوريا ، 1983م

صيغ أخرى إذ يصبح الترقي في ثمرات الذكر و هي التي كان لإمامين " ابن القيم " و شيخه " ابن تيمية " موقف منها .

و خلاصة القول فإنّ الذكر يكون بالقلب ، و يكون باللسان ، و الأفضل منه ما كان بالقلب و اللسان جميعا ، فإن اقتصر على أحدهما فالقلب أفضل ، إلاّ أنّه لا ينبغي أن يترك الذكر باللسان مع القلب خوفا من أن يظن بالعبد الريّاء ، و نحوه بل يذكر بهما جميعا ، و يقصد به وجه الله ، و لو فتح الإنسان عليه باب ملاحظة الناس و الاحتراز من تطرق ظنونهم الباطلة لا انسد على المؤمن أكثر أبواب الخير ، و ضيّع على نفسه شيئا عظيما من مهمة الدين ، و ليس هذا طريقة العارفين[1] ، كما أنّ أفضلية الذكر غير منحصرة في التسبيح و التهليل و التحميد و التكبير، و نحوها ، بل كل عامل لله تعالى بطاعة فهو ذاكر لله تعالى [2] .

ثانيا: التصوف وصلته بالذكر .

منهج الذكر وسيلة هامة لتزكية النفس و تطهير القلب ، بالتخلّص من كافة الهموم و الشواغل الدنيوية و جميع الأغيار و نقائض النّفس ، و به أيضا يمتلئ القلب بالأنوار و الاشراقات الإلهية [3]. و تتمثل صلة التصوف بالذكر في أنّه ثمرة المقامات الصوفية كلها ، و ثمرة من ثمار المعرفة بالله تعالى ، إلاّ أنّ الحديث عنهما في التجربة الصوفية عند السنوسي تدعونا إلى بعض الحذر ، و خلاصة هذا الحذر التعبير عن الحياة الذوقية بمصطلح الذّكر دون كبير اهتمام لكلمة تصوف ، و قد ردّ هذا الأمر ، إلى ما تثيره كلمة تصوف من تأويلات و بما تتضمّنه من مذاهب و اتجاهات ، مع ما يعرف عنه من دقّة في اللفظ ، و شغف باختيار ألفاظه و مصطلحاته و تحديدها [4].

[1]- النووي – حلية الأبرار و شعار الأخيار – تحقيق علاء الشريجي و قاسم النوري ، ط1 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان، 1412هـ /1992م : ص32

[2]- المصدر نفسه : ص34

[3]- منال عبد المنعم جاد الله – التصوف في مصر و المغرب ، دط ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، مصر ، دت : ص 238

[4]- جمال الدين بوقلي حسن – ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية وفي الواقع : ص 416

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و هو على العموم تفسير محتمل و مقبول ، تعزّزه الكتابات العقدية و العلمية للسنوسي، لكن في اعتقادنا أنّ هذا الأمر يعود بالأساس إلى اختيار السنوسي المقصود للمصطلح القرآني ، هذا المصطلح الذي تكرّر كثيرا في القرآن الكريم و أكّدته العديد من الآيات . من ذلك قوله تعالى: { وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ }[1]. و قوله سبحانه و تعالى : { وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلا، وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلا طَوِيلاً }[2]. و في سورة الرعد: {أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[3]. وقوله :{ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا }[4].

إنّ أعمال البر كلها عند المتصوفة إنّما مقصودها الأعظم تصفية النّفس و تطهيرها بإتلافها عن مألوفاتها ، و إخراجها عن هواها حتى تلتحق بعالمها ، خالية عن الالتفات إلى شيء من متعلقاتها ، فما كان من الأعمال أقرب لهذا المعنى و أعون عليه ، فهو أفضل ، مع أنّ علل النّفس منها ما يظهر لأول تأمل ، و منها ما هو أخفى من دبيب النمل ، و أعمال البرّ مسلطة على محو هذه العلل ، و ذهاب آثارها بطهارة النفس . لكن أعمال البر متفاضلة في أحكام هذه الطهارة ، منها ما يذهب من العلل ما ظهر دون ما خفي ، و منها ما يذهب الظاهر و الخفي دون الأثر ، ومنها ما يذهب الظاهر و الخفي و أثرهما ، حتى تعود النفس إلى نهاية صفائها ، مطمئنة بربها .

و لهذا كانت أعمال البرّ كلّها دون الجهاد ، وكان الجهاد و سائر أعمال البرّ دون الذكر ، و لا شكّ أنّ الجهاد الحقيقي مؤذن بإتلاف النّفس عن مألوفها ، و إخراجها عن عالم الحسّ إلى عالم الغيب ، و لكنّ لا يعري ذلك عن العلل الخفية المغربة بالإبقاء عليها و لو ببعض أوهامها . و بهذه العبرة – كما يؤكد الساحلي – " قصر الجهاد عن الالتحاق بفضيلة الذكر ، لأنّ الذكر إذا استعمل على طريق المعروف و مهيعه المألوف مبنيا على قواعد الشرّع ، محفوظا من خطوات الزّيغ ، فإنّه لا يدع من

---

[1] - الأعراف الآية 205

[2] - الإنسان الآية 26

[3] - الرعد الآية 28

[4] - الأنفال الآية 02

علل النفس شاذة و لا فادة و لا أثرا ، إلا أتى على ذلك الذهاب ، حتى تبلغ النفس طهارتها ، و لا تلفّت لغير الله ، كل ذلك عن علم و ذوق " [1].

و مّما سبق يظهر أنّ للذكر اختصاصا عجيبا في طهارة النّفس الطهارة التامة ، و تصفيتها التصفية العامة ، حتى تصير لها الطهارة صفة ذاتية ، و غير الذكر قد يبقى معه من علل النفس ما هو حجاب عن الله ، و بيان ذلك أنّ العبد إذا داوم على الذكر حتى انطبع معناه في النفس ، و قام بها فإنّ النّفس تنقلب إلى مقتضى الذكر ، متصفة بمعناه ، و إن كانت الأذكار مختلفة المعاني ، فلكل ذكر اختصاص بصفة حميدة فأكثر تتحلى بها النفس و تتزكى عن أضدادها [2].

كما أنّ الذكر باعتبار الذاكرين – عند الساحلي –على قسمين ذكر أجور و هو ذكر العامة، و ذكر حضور و هو ذكر الخاصة ، أمّا ذكر الأجور ؛ فهو أن يذكر الإنسان الله تعالى بما شاء من الأذكار ، لا يقصد به إلا نيل ما وعد الله الذاكرين من الأجر و أعدّ لهم من الثواب ، من غير التفات لما وراء ذلك ، فهذا واقع في رياض الجنة عنده ، و أجره ثابت على قدر نيته ، و أما ذكر الحضور ؛ فهو التزام أذكار معلومة بحسب أحوال مخصوصة ، على سبيل الاستشفاء من علل النفس و الخلاّص من أمراض متعلقاتها ، ليخرجها عن الأخلاق الذميمة و يحيلها بالأخلاق الحميدة [3].

هذا و لفظ كل ذكر له اختصاص بمعنى – عند المتصوفة – فالأذكار مختلفة المعاني كما أنّ علل النّفس مختلفة الأنواع ، و لكل معنى من معاني الأذكار اختصاص بزوال نوع من أنواع عللّ النّفس بالمناسبة الضدية التي بينهما. وكما قال : " محي الدين بن عربي " أنّ " لكلّ ذكر نتيجة لا تكون لذكر آخر ، و إذا عرض الإنسان على نفسه الأذكار الإلهية فلا يقبل منها إلا ما يعطيه استعداده"[4].

---

[1] – الساحلي – بغية السالك إلى أشرف المسالك : ج1 ص134-135

[2] – المصدر نفسه : ج1 ص136

[3]– المصدر نفسه : ج 1 ص 145

[4] – محي الدين بن عربي– الفتوحات المكية ، دط ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع دت : ج4 ص88

و كيفية تناول الذكر على سبيل التربية بمعنى الحضور و هو أن يسلك – الشيخ المربي – لـه العلاج فينظر القدوة الربانية أولا في الغالب على التلميذ من علل نفسه فيأمره باجتنابه ، و المجاهدة على تركه ثم يعمد إلى الذكر الذي يقتضي معناه مضادة تلك العلة ، فيأمره بالتزام ترداده ، و المداومة عليـه بوظيفة يوظفها عليه عدد يقتضيه حاله [1].

إنّ الشيخ السنوسي كان حريصا على تأسيس القاعدة العقائدية قبل خـوض غمـار التّجربة الصوفية الذّوقية في زمن اختلط فيه المصلح بالمظلل ، و المتعلّم بالدّجال و انتشرت فيـه ألوان من الطرق الصوفية ، فقد كثرت في عصر الإمام الفتن و اشتدّ الصّراع بين السلاطين كما أنّه في عصره قد راجت سوق المتظاهرين بالعلم بصفة عامة ، و قد ساعد على ذلـك انتـشار التعصّب و الخرافات و الاشتغال بظواهر الشّرع و المنازعات الدّينية المختلفة ، و معاداة العلمـاء بعضهم لبعض ، و غلبة الظّواهر الجافّة و استخدام العلم و المعرفة لغرض المحاولات الدنيئة .

لقد كان الإمام السنوسي يأسى لما يدور حوله في المجتمع الزّياني من لهو في اللـذات ، و لذلك حارب هذه الظّواهر و أدرك مبدأ أنّ الإنسان لا يستطيع إدراك الحقيقة إلاّ إذ جرّد عقله من الهوى ، و هو يركّز هنا على أمرين ، العقل و الهوى ، فالهوى يضرّ بالإنسان روحا و جسدا، و لا يقمعه إلاّ العقل ثم الدخول في الذكر ، و هذا أشرف الأصول الأخلاقية عنده ، لهذا نجـده دائم الاشتغال على أن تكون سلوكات المتعلّم و المؤمن مضبوطة على مقتضى المعارف العلميـة والعملية لأنّه كما يقول : " بعد بيان العلم الشريف ، التحريض في آخره على حسن العمل وذكر ما يبعث العاقل على الجدّ فيما يحصل رضى الله المولى جلا وعلا " [2].

إنّ أركان الإيمان إنّما تغرس يقينا في تربة العقل ، في حين أنّ أركان الإسلام سـلوك يصّطبغ به الكلام و الأعضاء ، كثيرون هم الذين آمنت عقولهم بالله ، و لكن سلوكهم نـاقض مقتضيات هذا الإيمان و خاصمه [3]. و من هؤلاء جمع كبير كانوا على عهد السنوسي ، اتخـذوا

[1] – الساحلي – بغية السالك إلى أشرف المسالك : ج 1 ص 149

[2] – السنوسي – شرح كفاية المريد : ص 22

[3] – محمد سعيد رمضان البوطي – شرح الحكم العطائية : ج1 ص12 – 13

إيمانهم و علمهم و تصوفهم سلّما للتقرّب للحكام و العامّة ، كما استخدموا علمهم و معرفتهم لأغراض دنيوية بحتة ؛ يتهارشون عليها تهارش الجهال بل أشدّ ، و زادوا على العامة بالجدال في الباطل ، و التكبّر على الإنصاف للحقّ [1]، و عدد أكثر من هؤلاء أنفسهم يملئون اليوم رحب الأرض .

إنّ السّبب العلمي في ذلك أنّ العقل ليس هو الدّافع الوحيد في كيان الإنسان إلى السّلوك بل يزاحم العقل و ينافسه في ذلك العصبيات و الأهواء بأنواعها ، فإذا لم تتّصل و تمتدّ بين العقل وكيان الإنسان حلقة أساسية ، فإنّ العقل لابدّ أن يصبح هو المغلوب و المهزوم في هذا العراك ، و عندئذ تصبح قيادة السّلوك بيد هذه العوامل الأخرى المتمثّلة في العصبية و الأهواء ورياح العواطف المضادّة ، و هذه الحلقة هي الإكثار من ذكر الله ، و تذكر نعمه وحسن مراقبته سبحانه تعالى [2] .

و لأهمية الذكر في التصوف فقد تناوله السنوسي بالتحليل و الترغيب فيه ، و هو عنده وسيلة لا غاية ، وسيلة إلى الحضور الدائم مع الله سبحانه و تعالى ، و لا يلتفت في هذا إلى العدد إذا تحقق العبد الذاكر بالحضور ، لأنّ العدد وسيلة إلى غاية شريفة و هي نيل رضا الله في النهاية .

ثالثا : التصوف و الذكر ومناسبة كلا منها للتوحيد.

التوحيد في العقيدة الإسلامية ، أساس الدين و الركن الركين الذي تتمحور حوله سائر حقائقه و منه تستمد قوامها ، و إليها ترجع كلها بوجه أو بآخر ، و قد جاء القرآن الكريم منبها إلى هذه الحقيقة داعيا العمل بما تقتضيه أكثر مما جاء منبها إلى حقيقة الوجود الإلهي نفسه ولا غرو فإنّ أهل الأديان عامة إنّما كان انحرافهم – غالبا – متمثلا في هذا الجانب و كذلك أهل الجاهلية من العرب ، فجاءت الأديان السماوية المتتالية تصحح هذا الانحراف تذكيرا بالتوحيد [3] .

---

[1] – السنوسي – عمدة أهل التوفيق والتسديد : ص 58

[2] – محمد سعيد رمضان البوطي – شرح الحكم العطائية : ج 1 ص 13

[3] – عبد المجيد النجار – الإيمان بالله و أثره في الحياة ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1997م : ص 117

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إنّ تدهور الحالة الروحية و تردّي الوضع السّياسي للإنسان في زمان السنوسي ، و لأهل المغرب عامة ، لم يكن يستجيب لحقيقة التوحيد الصحيح سواء منهم العامة أو العلماء فأمّا " العامة فأكثرهم ، ممن لا يعتني بحضور العلماء و مخالطة أهل الخير ، يتحقّق منهم اعتقاد التجسيم و الجهة و تأثير الطّبيعة ..و بعض اعتقاداتهم أجمع العلماء على كفر معتقدها ، و أما العلماء فمنهم من كان يصرح بنفي المعاد البدني" [1] . و من هنا صارت مهمّته تعليم النّاس هذه الحقيقة بمنهج واضح يتضمّن تصحيحا للضّمائر و العقول في تقرير ما ينبغي لكمال الله ، فخاطب عقولهم بالأدلّة العقلية و البراهين التي تضع التّوحيد في أكمل صورته ، ثم دعوتهم إلى ممارسة الذكر .

إنّ للذكر عند الشيخ السنوسي ، وظيفتان أساسيتان هما وظيفة نظرية ، و وظيفة عملية سلوكية ، فالأولى و هي الأصل ، هي علم التوحيد و أعلى مراتبها توحيد الله و نفي الشّريك عنه و إثبات رسالة نبيه محمد صلّى الله عليه و سلّم ، و هذه تبحث بالعقل في نطاق ما يجب لله و ما يستحيل و ما يجوز ، و كذلك لرسله ، أمّا الوظيفة الثانية ، فهوي الدخول في ممارسة الذكر و التصوف سعيا وراء بلوغ الثّمرة ، و الفوز بالنتيجة ، علما أنّ الاستفادة من الثّمرة لا تتحقّق إلّا من شرف الأصل و هو التوحيد و استقامة النتيجة تأتي من ثبات المقدمات وهي أحكام العقل [2] .

و بمعنى آخر ، إنّ الدخول في الذكر نتيجة مترتبة عن إدراك علم التوحيد القائم على الإيمان العقلي بالألوهية و مقتضياتها ، و الإيمان بالرسالة [3] . لأنّ من نتائج الكلام في عقائد الإيمان عند السنوسي :" التنبيه على بعض ما تثمره معرفة الله تعالى ، و معرفة صدق رسله عليهم الصّلاة و السّلام حتى ينتظم المؤمن بهذا في سلك المتقين فيتطهّر من عيوب نفسه و الصعود بهذا إلى منازل الأبرار ، فالعمل بمقتضى هذه المعاني يجتني المؤمن من الثمرات و يرتقي بفضل الله إلى ذروة أولياء الله تعالى الفائزين " [4] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 – السنوسي – عمدة أهل التوفيق و التسديد : ص 58

2 – جمال الدين بوقلي حسن – ابن يوسف السنوسي بين الذاكرة الشعبية و الواقع : ص 547

3 – المرجع نفسه : ص 547- 548

4 – السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 462

و إعلاء بكلمة الذكر و تقديرا لمترلته الشريفة ، فقد وضع السنوسي شروطا له ، حتّى يتحقق على الوجه الأكمل و الأتم ، و من جملة هذه الشروط ؛ أن يعظّم الإنسان الذاكر ما عظّم الله ، و أن يحسن أدبه مع ما شرّف مولانا عز و جل ، و سبيل ذلك أنّ يقصد المؤمن إلى الطّهارة، و يلبس أحسن الثياب ، و يقصد مكانا طاهرا ، كما يقصده للصّلاة .

كما ينبغي للذاكر في ذلك أن يكثر من الصّلاة و السلام على سيدنا محمد صلى الله عليه و سلّم ، لأنّه دليل الخلق إلى الله تعالى ، إذ كيف يصل الذاكر إلى الله سبحانه و تعالى و قد غفل عن ذكر دليله عليه الصّلاة و السّلام ؟ [1]

هذا و يظهر اهتمام السنوسي بالذكر أشد و أوضح في الفصول الأخيرة من كتابه "شرح أم البراهين" فقد أفرد في نهاية هذا الكتاب شرح لكلمة التوحيد و هي : " لا إله إلا الله محمد رسول الله صلّى الله عليه و سلّم" ، لأنّها بحسبه كلمة جامعة لكل معاني العقائد ، و لأنّها تنطوي تحتها من الفوائد و المحاسن ما يتشعشع القلب عند ذكرها بأنوار اليقين ، وهي ممّا يجب على كل مؤمن أن يعتني بشأنها ، إذ هي ثمن الجنة والمنقذة من المهالك دنيا و أخرى [2]. كما تظهر بجلاء في القسم الثاني من كتابه : " المنهج السديد في شرح كفاية المريد " ، و غيرهما ، و من هنا يعتبر الكلام عن التجربة الصوفية الذوقية عند الشيخ أمرا شرعيا ، لأنّها نتيجة عملية لمقدمات عقلية كان لابد للشيخ من يبلغها في مساره .

هذا و بعدما رأينا حقيقة التصوف عند السنوسي ، و أنّه قائم على التسليم و التصديق لأنّه سلّم و طريق إلى ثمرات الإيمان ، و أنّ الزهد و الذكر أمر لازم في التصوف و على الصوفية . فما هي أسس هذا التصوف و مبادئه ؟

هذا ما سنتطرّق إليه في المبحث الموالي من هذه الدراسة .

[1]- السنوسي - شرح أم البراهين : 90-91
[2] - المصدر نفسه : ص 65

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني :

المبادئ الأساسية للتصوف عند السنوسي :

سبق و أن رأينا في نهاية المبحث السّابق بأنّ السنوسي يقرّ بالتصوف ، و أنّه ثمرة ونتيجة من نتائج الإيمان ، و لهذا فإنّه من الطبيعي أن يمتدّ كلامه في الموضوع إلى بيان أسسه و أهم مبادئه . و ذلك أنّ الصوفية يتفقون على أنّ غايات الطريق و نهاياته لا تصحّ إلّا بصحة البداية ، كما أكّدوا على أنّ أكثر موانع الطريق و عوائقه إنّما تكون من فساد الابتداء ، و من هنا اهتم أقطاب التصوف الذين تصدروا لتربية المريدين بتصحيح بدايات السالكين ، و توضيح الأسس و المبادئ التي يقوم عليها الطريق ، لأنّ البداية كلمّا كانت أحكم ؛كانت النهاية أتمّ ، وعلى هذا فإنّ المبادئ الأساسية للتصوف تقوم عند السنوسي على ما يلي :

المطلب الأول : تحكيم الكتاب والسنة :

يعدّ الالتزام بالكتاب و السنّة أول و أهم مبدأ من المبادئ الأساسية للتصوف عند السنوسي ، و يتمثل هذا الالتزام في امتثال ما أمر به الله و رسوله ، و اجتناب ما نهيا عنه ، والحرص الدائم المستمر على أداء الفرائض و الواجبات ، و السنن و المستحبات ، و الابتعاد عن المحرمات و الممنوعات و المكروهات و سائر الشبهات ، و تحكيم الكتاب و السنّة هو شعار التصوف السنّي الخالص منذ أن تمّ تقعيده في القرون الأولى [1]، و الإمام " الجنيد " هو أول من نادى صراحة بالتمسك بالكتاب و السنّة و إتباع الشريعة في ميدان التصوف [2].

[1] – إدريس غروزي– الشيخ أحمد زروق آراؤه الإصلاحية ، و تحقيق و دراسة لكتاب : عدة المريد الصادق ، دط ، مطبعة فضالة ، المحمدية ، المغرب ، 1419هـ/1998م : ص162

[2] – محمد جلال شرف– دراسات في التصوف الإسلامي (شخصيات و مذاهب) ، دط ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان، 1404 هـ /1984م : ص242

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لقد جعل السنوسي من الكتاب و السنّة الأصل الثابت و المصدر الأساس لمبادئه الصوفية ينطق بذلك لسانه و قلمه و عمله ، و يشهد له بذلك المؤرخون لحياته من كتاب السّير و التراجم ، كما يشهد له بذلك شيوخه و معاصروه من أكابر الصوفية ، لما عرف عنه من إتباع لتعاليم الكتاب و السنة و تحكيمهما في الممارسة الصوفية .

و السنوسي لا يألوا جهدا في بيان ضرورة اعتماد المريد على الكتاب و السنة في كثير من كلامه و وصاياه ، إنّه يشترط على من أراد أن يقف على الطريق القويم ، و طريق الصوفية بأن يحكِم هذا الأصل أولا .

إنّه يتفق مع علماء الإسلام في أنّ المصدر الأول للعقيدة و الشريعة ، و السلوك والعمل، يتمثل أولا في النص القرآني و الحديث النبوي الشريف ، ثم بعدهما أقوال السلف الصالح المجمع عليها ، و لا شك أنّ من جانب ذلك فهو مبتدع من أهل النار ، فقد قرر الإمام هذه الحقيقة و أكدها عليها في جميع كتبه من ذلك ما ورد في كتابه " المنهج السديد في شرح كفاية المريد" في أنّ " الحق هو ما دلّ عليه الكتاب و السنّة ، و إجماع السّلف الصّالح فكلّ من ردّ ذلك أو شيئا منه ، بأن اعتقد خلافه فهو مبتدع من أهل النار" [1] .

إنّ السنوسي دائم التأكيد في أقواله و أفعاله على أنّه لا سبيل إلى دخول ميدان التصوف ، إلّا من باب الشرع ، فحدود الشريعة و عقيدة السّلف عنده ، هي بعينها حدود التصوف ، فلا شيء لديه يخرج عن شريعة الإسلام و ما التصوف عنده إلا إسلام بذوق ، والحقيقة بدون شريعة زندقة [2] . وقد كان دائم التنبيه إلى هذه القاعدة ، و لقد هلك بعدم مراعاتها كثير ممن ضلّ من الصوفية .و " هو أنّهم إذا لاح لهم شيء من روائح المعرفة[الذوقية] اغتروا بذلك ، و تركوا الإقتداء بالرسول عليه الصلاة و السلام و تبدعوا أمورا لأنفسهم ، فهلكوا بسبب ذلك " [3] .

[1] ـ السنوسي – المنهج السّديد في شرح كفاية المريد : ص 457

[2] ـ السنوسي – نصرة الفقيّر في الرد على أبي الحسن الصغيّر : ص 401- 403

[3] ـ السنوسي – شرح أبيات في التصوف للألبيري ،مخطوط ، المكتبة الوطنية بتونس رقم : 22668 : لوحة 260ص520

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فالواجب على الصوفي الحقيقي السّائر على طريق الحق ، العارف لمقام ربه و مقام رسوله أن يقدم في أعماله كلها الرسول عليه الصّلاة و السّلام ليكون إماما له ، ليقتدي به في أقواله ، و أفعاله ، و يرتبط به ، و لا يخالفه بوجه من الوجوه . فالعارف بالله عند السنوسي هو الذي " كان بعقله حال الابتداء ، و عند جهله بالبرهان العقلي على صدق الرسول عليه الصلاة و السّلام ، و [بعد أن] عرف شرف رتبته عند الله تعالى ، احتشم في تقديمه أولا و تقهقر إلى وراء ، و عزل نفسه عن كل نظر ، و أسلم نفسه إلى الرسول ، و قدمه أمامه ، و حكّمه في ظاهره و باطنه " [1].

صحيح أنّ الغلاة من الصوفية يزدرون العلم الشرعي ، في مقابل الكشف أو الذّوق الصوفي و هم يسمون صاحب العلم الشرعي " عالما " ، و يسمّون صاحب الكشف الصوفي "عارفا "، فالعلم عندهم كسبي استدلال ، و " المعرفة " وهبية ضرورية — و هي العلم اللدنّي — و العلم له الخبر ، و المعرفة لها العيان ، و لكنّ هؤلاء المنحرفين لا يمثلون التصوف كله ، و من الظلم أن نأخذ الجميع بوزرهم ، إنّما يمثله حقا شيوخه الكبار الذين أنكروا على هؤلاء هذه الدعاوى العريضة ، التي زعموا فيها الاستغناء عن علم الكتاب و السنة [2] .

و يحسن بنا أن نذكر هنا بعض ما نقل عن المعتدلين من أكابر القوم ، و أئمة السلوك ، من ذلك ما نقله " القشيّري" في رسالته : " قال سيد الطّائفة و شيخهم " الجنيد " : الطرق كلّها مسدودة على الخلق إلّا على من اقتفى آثار الرسول صلى الله عليه و سلم . و قال : من لم يحفظ القرآن ، و يكتب الحديث ، لا يقتدى به في هذا الأمر ، لأنّ علمنا مقيّد بالكتاب والسنة ". و قال : مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة " .وقال" أبو حفص عمر بن مسلمة الحداد"[3] : من لم يزن أفعاله و أحواله في كل وقت بالكتاب و السنّة ، و لم يتّهم خواطره ، فلا يعد في ديوان

---

[1]- المصدر السابق : لوحة 261ص 521

[2]- يوسف القرضاوي — في الطريق إلى الله (الحياة الربانية والعلم) ط1 ،موسسة الرسالة ،بيروت،لبنان،1422هـ/2001م : ص147- 149

[3] – لم أقف له عن ترجمة في المصادر المتوفرة بين أيدينا .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الرجال " . و قال " أبو سليمان الدراني "[1] : ربّما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياما ، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب و السنة "[2]. و لهذا اعتبر " ابن تيمية " أنّ اعتقاد المتصوفة غالبه موافق لأصول السلف و أهل السنة و الجماعة [3].

فالالتزام بأحكام القرآن الكريم و السنّة النبوية هما أول و أهم مبدأ من المبادئ الأساسية للتصوف و الممارسة الصوفية عند السنوسي ، و الإمام دائم التأكيد على هذه المعاني سواء في كتبه الخاصة به أو في شروحه لكتب غيره ، من ذلك ما قاله في مقدمة كتابه " شرح صحيح البخاري " في أن " أفضل ما يشتغل به من وفقه الله وهداه ، أن يزكي نفسه و يقمع به شيطانه وهواه ، و ذلك مقصور على علمي الكتاب والسنة "[4] .

كان هذا الأمر هو المعتمد في تفكير السنوسي ، و لكن هذا لا يعني أبدا إلغاء عمل العقل و النّظر لأنّ من زعم أنّ الطّريق بدءا إلى معرفة الحق الكتاب و السّنة ، و يحرم ما سواها ، فالرّد عليه – عنده – أنّ حجيتهما لا تعرف إلاّ بالنظر العقلي ، لأنّه بحسبه قد وقعت فيها ظواهر، من اعتقدها على ظاهرها فقد كفر عند جماعة و ابتدع ، و لا يحسن تأويلها إلاّ الرّاسخ في علوم النّظر ، المرتاض في علمي اللسان و البلاغة [5] .

1 – سليمان الدراني عبد الرحمن بن عطية من أهل دمشق و أحد رجال الطريقة الصوفية المشهورين، صاحب مجاهدات ومقامات ، توفي سنة 215 هـ . انظر ، ابن خلكان : ج 3 ص131

2 – القشيري – الرسالة في علم التصوف : ص 79 ومابعدها

3 – ابن تيمية– الاستقامة ، تحقيق محمد رشاد سالم ، ط1 ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ، 1420 هـ/2000م : ج 1 ص 82

4– السنوسي – شرح صحيح البخاري ، مخطوط المكتبة الوطنية ، الجزائر ، رقم 2736 : لوحة 09 ص17

5– السنوسي– عمدة أهل التوفيق و التسديد : ص 55

المطلب الثاني : ملازمة ا لتوبة .

إذا كان الالتزام بالكتاب و السنّة هما الأساس ، و المبدأ الأول الذي يقوم عليه التصوف، فإنّ التوبة هي أول مراتب السالكين لهذا الطريق ، و لهذا فقد ابتدأ بها " الكلاباذي "[1]، كلامه عن مقامات القوم[2]. و قال عنها " القشيري" : " التوبة أول مترلة من منازل السالكين ، و أول مقام من مقامات الطالبين "[3]. و هي عند "الغزالي": " مبدأ طريق السالكين ، و أول أقدام المريدين "[4]. و هي أصل كل مقام ، و قوام كل مقام و مفتاح كل حال[5]. و هي أول مراحل الطريق بل هي المدخل المفضي إليه و القرين المتنقل في مدارجه من البداية إلى النهاية[6]. وهكذا اتفق أئمة التصوف و أقطابه على أولية التوبة في الطريق الصوفي و أنّها مبدأ أساسي من مبادئ السلوك الصوفي ، و لهذا لم يخرج الإمام السنوسي على هذا الإجماع ، كما سيجيء بيانه فيما سيأتي :

أولا : وجوب التوبة و ضرورتها .

التوبة من الذنوب التي يقع فيها المؤمن – و هو في طريقه إلى الله – عند السنوسي فريضة دينية لازمة أمر بها القرآن الكريم ، و حثت عليها السنة النبوية ، و أجمع على وجوبها العلماء جميعا[7] ، علماء الظاهر ، و علماء الباطن ، أو علماء الفقه ، و علماء السلوك .

1- هو تاج الإسلام أبوبكر محمد بن إسحاق البخاري الكلاباذي المتوفى سنة 380هـ صاحب كتاب "التعرّف لمذهب أهل التصوف " و هو من أقدم و أدق الكتب التي تناولت علم التصوف بمصطلحاته ورجاله في أوائل القرن الرابع الهجري . انظر ، عبد المنعم الحنفي – الموسوعة الصوفية : ص 605 .و مقدمة محقق كتاب : التعرّف لمذهب أهل التصوف ،للكلاباذي: ص03

2- المصدر نفسه : ص07

3- القشيري – الرسالة القشيرية : ص164

4- الغزالي أبو حامد – إحياء علوم الدين :ج4 ص 03

5- شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي – عوارف المعارف : ج 5 ص221

6- محمد الغزالي– الجانب العاطفي من الإسلام ، دط ، شركة الشهاب ، الجزائر ، دت : ص192

7- السنوسي – المنهج السديد شرح كفاية المريد :ص 385

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أ / التوبة في القرآن : لقد عنى القرآن بالتوبة أبلغ العناية ، في آيات من سوره المكية، و المدنية ، و من أبرز ما جاء في القرآن ، قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [1].

و هذا آخر نداء إلهي للمؤمنين ، في القرآن ، يأمرهم بالتوبة إلى الله ، توبة نصوحا ، خالصة صادقة ، و الأمر من الله تعالى في كتابه العزيز يدلّ على الوجوب ، ما لم يصرف عنه صارف ، و لا صارف هنا ، و ذلك ليكونوا على رجاء أمرين ، أو هدفين أساسين ، يسعى إلى تحقيقهما كل مؤمن ، هما تكفير السيئات ، و دخول الجنات . و كل مؤمن في أمسّ الحاجة إلى هذين الأمرين ؛ أن تكفر سيئاته ، و تغفر ذنوبه ، و لا يخلو إنسان من أن تكون له سيئات وذنوب ، و الأمر الآخر دخول الجنات و نيل رضوان الله تعالى [2] .

و مّما جاء في القرآن عن التوبة قوله تعالى لعباده المؤمنين:{وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [3] . و في هذه الآية أمر من الله لجميع المؤمنين أن يتوبوا إليه ولم يستثن منهم أحد مهما علا كعبه في الاستقامة ، و مهما ارتقى في سلّم المستقين ، فهو في حاجة إلى التوبة ، فمن المؤمنين من يتوب من الكبائر إذا ألّم بها ، و هو ليس بمعصوم ، و منهم من يتوب من صغائر المحرمات ، و قلّ من سلم منها ، و منهم من يتوب من الشبهات ، و من اتقى الشّبهات فقد استبرأ لدينه و عرضه ، و منهم من يتوب من المكروهات ، بل منهم من يتوب من الغفلات تعتري القلوب ، و منهم من يتوب من الوقوف عند حال أدنى ، حيث لم يرتق إلى ما هو أعلى ، فالتوبة واجبة على الكلّ ، حتى الأنبياء و الأولياء لا يستثني منها أحد من البشر [4].

---

[1]- التحريم الآية 08

[2]- يوسف القرضاوي – في الطريق إلى الله– (التوبة إلى الله) ، ط1 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، 1422هـ/2001م : ص16

[3]- النور الآية 31

[4]- يوسف القرضاوي – في الطريق إلى الله– (التوبة إلى الله) : ص17

و الآيات المتعلقة بالتوبة كثيرة جدا في القرآن وهذا نظرا لفضلها وأهميتها .

ب/ التوبة في السنّة النبوية : كما اهتم القرآن بالحديث عن التوبة و دعا إليها ، أيضا السنّة اهتمت بها ، و حثّت عليها ، و بيّنت فضلها و رغّبت فيها بأساليب شتى ، حتى إنّ النّبي صلىّ الله عليه و سلم قال : " يا أيّها النّاس توبوا إلى الله ، فإنّي أتوب إليه في اليوم مائة مرة " [1].
و سنكتفي هنا بذكر بعض الأحاديث التي تناولت التوبة منها : عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه – أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ الله عزّ وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النّهار ، و يده بالنّهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها " [2] .و عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : " إنّ عبدا أصاب ذنبا، فقال : يارب إنّي أذنبت ذنبا فاغفره ، فقال له ربّه : علم عبدي أنّ له ربّا يغفر الذنب ، ويأخذ به ، فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنبا آخر – و ربّما قال ثم أذنب ذنبا آخر – فقال : يارب إنّي أذنبت ذنبا آخر فاغفره لي ، قال ربّه : علم عبدي أنّ له ربا يغفر الذنب ، ويأخذ به فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنبا آخر – و ربّما قال ثم أذنب ذنبا أخر – فقال : يا رب إنّي أذنبت ذنبا فاغفره لي ، قال ربّه : علم عبدي أنّ له ربّا يغفر الذنب ، و يأخذ به ، فقال ربّه : غفرت لعبدي فليعمل ما شاء " [3].

و قوله صلّى الله عليه و سلم : " فليعمل ما يشاء" معناه – و الله أعلم – أنّه مادام كلّما أذنب ذنبا استغفر و تاب ، و لم يعد إليه . بدليل قوله : " ثم أصاب ذنبا آخر " فليعمل إذا كان هذا دأبه ما شاء ، لأنّه كلّما أذنب كانت توبته و استغفاره كفارة لذنبه فلا يضرّه ، لا أنّه يذنب الذنب ، فيستغفر منه بلسانه من غير إقلاع ثم يعاوده ، فإنّ هذه التوبة الكذابين [4].

[1]- رواه مسلم في صحيحه، كتاب : الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب استحباب الاستغفار و الاستكثار منه . انظر ، صحيح مسلم : ص1012 . و البخاري ، رقم الحديث (5732) كتاب الدعوات ، باب استغفار النبي

[2]- رواه مسلم ، كتاب : التوبة ، باب قبول التوبة من الذنوب ، و إن تكررت الذنوب والتوبة . انظر ، المصدر نفسه : 1030

[3]- المصدر نفسه : ص 1030 . و البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : يريدون أن يبدلوا كلام الله ، رقم الحديث (7507) :ج4 ص389

[4]- يوسف القرضاوي – التوبة إلى الله : ص32

ثانيا : وجوب التوبة على الفور .

إذا كانت التوبة واجبة على المؤمنين جميعا ، فإنّ الإتيان بها على الفور واجب آخر ، فلا يجوز تأخيرها و لا التسويف بها ، فإنّ ذلك خطر على قلب المؤمن ، ذلك أنّه عند السنوسي يلزم بتأخير التوبة عن المعصية لحظة ذنب آخر ، و هو ذنب التأخير أيضا ، كما وجبت من المعصية الأولى ، و هلمّ جرا [1]. فالمؤمن إذا لم يسارع بالتطهر أولا بأول ، فيخشى أن تتراكم آثار الخطايا و الذنوب واحدا بعد الآخر ، حتى تحدث سوادا في القلب ، أو زيفا فيه ، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبّي صلىّ الله عليه و سلمّ : " إنّ العبد إذا أخطأ خطيئة تنكت في قلبه نكتة فإن نزع و استغفر صقلت فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فذلك الرّان الذي ذكره الله :" كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [2] " [3].

فالمبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور ، و لا يجوز تأخيرها يقول السنوسي : " قل لنفسك إن أبت أن تنقاد لامتثال ما أمر به المولى تبارك و تعالى من تعجيل التوبة على الفور، و أرادت أن تستمتع بالمعصية بعض زمان ثم تتوب ، إنّ الحياة ليست بيدك ، و ما من زمان إلاّ ويخشى عليك الموت فيه ، فلعلّ الذي أجلّت له التوبة لا تدركه أصلا ، و تموتين قبله ، و أنت على معصيتك ، متعرضة بها لما لا يطاق من غضب الله تعالى ، و أيضا ، فعلى تقدير أن تتأخر حياتك إلى ذلك الزمان المؤجّل للتوبة ، لعلك لا توفقين فيه للتوبة ، عقوبة لك على عدم الامتثال، أو يخلق في قلبك الرّان ، و رسوخ حبّ المعصية في القلب أضعافا مضاعفة ممّا حصل في الزمان الأول ، فلا تقدرين مع ذلك على التوبة أبدا ، و أيضا ، فعلى تقدير أن تعيشين للزمان المؤجل ، و توفّقين فيه للتوبة كما أردت ، فقد فاتك خير عظيم في مدة التأخير ، لا يمكن أن تستدركيه أبدا بالمبادرة لامتثال أمر الله ، و المسارعة لطلب رضاه ، و المسابقة لنيل محبته العظمى،

---

[1]- السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 385

[2]- المطففين الآية 14

[3]- رواه الترمذي في سننه رقم : (3331) ، و قال : حسن صحيح .

التي يصغر كل شيء دونها ، فهذه الأمور ونحوها تقرع بها النّفس الأمّارة أو اللّوامة لعلّها تستفيق من سكرها بعض الاستفاقة ، فتبصر مراشدها إن سبق لها نصيب من السعادة الأزلية "[1].

و التوبة إذا كانت واجبة عند السنوسي و قد دل على وجوبها القرآن و السنة ، و لا يلزم تأخيرها فما هي حقيقتها عند الإمام ؟

ثالثا : حقيقة التوبة وشروطها .

التوبة عند " القشيري " هي الرجوع عمّا كان مذموما في الشرّع إلى ما هو محمود، فأرباب الأصول من أهل السنة قالوا : شرط التوبة حتى تصحّ ثلاثة أشياء : النّدم على ما عمل من المخالفات ، و ترك الزلة في الحال ، و العزم على أن لا يعود مثل ما عمل من المعاصي فهذه الأركان لابد منها حتى تصحّ توبته [2].

كما أن "القشيري" أدخل التيقظ ضمن محتوى التوبة و في بداية مراحلها ، " فأول التوبة انتباه القلب عن رقدة الغفلة ، و رؤية العبد ما هو عليه من سؤال الحال "[3]. و هي عند "العز بن عبد السلام" : " النّدم على ما فاته من طاعة الله تعالى ، و العزم على أن لا يعود إلى مثل ذلك في المستقبل ، و الإقلاع عن المعصية إن كان ملابسها في الحال ، فإن أخر التوبة أثم بتأخيرها عن كل وقت لا يسمح لإيقاعها فيه "[4]. و هي عند " عبد القادر الجيلاني": " توبة بالقلب ثم باللسان ، و عن أقران السوء [5] . فالتوبة لله سبحانه وتعالى أول مقام من مقامات المنقطعين إلى

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]- السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 386

[2]- القشيري : الرسالة القشيرية : ص 164

[3]- المصدر نفسه : 165

[4]- العز بن عبد السلام – مقاصد الرعاية لحقوق الله عز وجل ، تحقيق إياد خالد الطباع ، ط1 ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا، 1995م : ص19

[5]- عبد القادر الجيلاني– الفتح الرباني و الفيض الرحماني ، دط ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، دت : 83

الله [1] . و هي عند " الهروي " [2] : بدايتها اليقظة فهي قومة لله تعالى من سنّة الغفلة ، و نهوض عن ورطة الفترة و هي أول ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه[3] .

أما التوبة عند " الغزالي" فهي الرجوع عن طريق البعد إلى طريق القرب ، و لكن لها ركن و مبدأ و كمال و " أما مبدؤها فهو الإيمان ..، و أمّا في الحال فبترك الذنوب ، و أمّا في الاستقبال فبالعزم على الترك ، و أما في الماضي فبالتلافي على حسب الإمكان ، و بذلك يحصل الكمال" [4].

فالتوبة كما شرحها " الغزالي" في إحيائه معنى مركب من ثلاثة عناصر : علم ، وحال ، و عمل . فالعلم الأول ، و الحال الثاني و العمل الثالث . فالأول موجب للثاني، و الثاني موجب للثالث : إيجابا اقتضاه المراد سنّة الله في الملك و الملكوت .. أمّا العلم فهو معرفة عظم ضرر الذنوب ، وكونها حجابا بين العبد و بين كل محبوب ، فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألّما للقلب بسبب فوات المحبوب . فالعلم و النّدم و القصد المتعلق بالترك ، في الحال و الاستقبال ، و التلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول ، فيطلق اسم التوبة على مجموعها و كثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ، و يجعل العلم كالسابق و المقدمة و الترك كالثمرة و التابع المتأخر [5] .

و ممّا ذكره " الغزالي " و غيره يتبين لنا أنّ حقيقة التوبة التي أمر الله بها المؤمنين جميعا لعلهم يفلحون ، إنّما تتكون من عناصر أو مقومات ثلاثة مرتبة بعضها على بعض . العنصر المعرفي الإدراكي : الذي يتجلى في معرفة الإنسان لخطأه . و لهذا عبّر عنه "القشيري" بانتباه

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

6- السرّاج الطوسي– اللمع ، نشرة عبد الحليم محمود ، دار الكتب الحديثة ، 1960م : ص68

2- الهروي: هو عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي فقيه حنبلي ، صوفي واعظ ولد سنة 396هـ ، عارف بالله و عابد زاهد، ذا أحوال و مقامات و كرامات ، من مؤلفاته : "مناقب الإمام أحمد" و "منازل السائرين" و "علل المقامات" ، توفي سنة 481هـ .انظر ، ابن رجب – الذيل على طبقات الحنابلة ، دط ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، دت : ج 3 ص50-67

3- الهروي– منازل السائرين : ص04

4- الغزالي – الأربعين في أصول الدين : ص 143-144

5- الغزالي – إحياء علوم الدين : ج 4 ص 4

القلب عن رقدة الغفلة . و العنصر الثاني للتوبة هو الجانب الوجداني الإرادي : و بتعبير آخر هو الانفعال و التورع ، و يكون بالنّدم اللاذع و النّدم الحازم . و الجانب العملي الثالث للتوبة: يكون بالإقلاع في الحال و الاستغفار و تغيير البيئة [1].

أما " ابن عطاء الله السكندري " فالتوبة عنده هي أول مقامات اليقين و رأسها إنّها لا تصح – عنده – إلاّ بإسقاط التدبير مع الله تعالى ، و الاختيار ، فكمّا أن التّائب يجب عليه أن يتوب من ذنبه ، كذلك يجب عليه أن يتوب عن التدبير مع ربه ، و كيف تصح توبة عبد مهموم بتدبير دنياه ، غافل عن حسن رعاياه ؟ [2]. و هي عند " أحمد زروق " تكون بإقامة شروطها الثلاثة : التي هي النّدم على ما فات ، و الإقلاع في الحال ، و النّية ألّا يعود ، و تحصيل فرائضها الأربع التي هي : ردّ المظالم ، و قضاء الفوائت ، و اجتناب المحارم ، و تعميم القصد ، و كمالاتها الست و هي : مصاحبة العلم ، و ملازمة العمل ، و صدق التوجه ، و دوام اللجأ ، و اتهام النّفس ، و شدّة الحذر [3] .

أمّا حقيقة التوبة عند الإمام السنوسي كما اختار أن يعرفها : " التوبة في الشرّع النّدم على المعصية لأجل أنّها معصية ، و إن شئت قلت هي النّدم على المعصية لأجل قبحها شرعا ، فالنّدم على المعصية لأضرارها ببدنه أو إخلالها بعرضه أو حسبه أو ماله أو نحو ذلك ليس بتوبة"[4].

ثم يمضي الإمام السنوسي في استعراض بقية عناصر التوبة الأخرى ، وهي العزم ، ويكون بترك المعاودة في المستقبل و الإقلاع عنها . فإن كانت المعصية بين العبد و بين الله تعالى ، ولا تتعلق بحق آدمي فلها بحسب ما سبق ثلاثة شروط : أحدها ؛ أن يقلع عن المعصية ، و ثانيها؛ أن يندم على فعلها ، و ثالثها ؛ أن يعزم أن لا يعود إليها أبدا ، فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبة الإنسان ، و إن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة ، هذه الثلاثة ، وردّ المظالم ، فإن

[1]- القرضاوي – التوبة : ص48- 50 . و رفيق العجم- موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي :مادة توبة ص211

[2]- ابن عطاء الله السكندري – التنوير في إسقاط التدبير : ص20

[3]- أحمد زروق البرنسي – عدة المريد الصادق :ص 105

[4]- السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص387

كان مالا أو نحوه ردّ إليـــه ، و إن كان حدّ قذف و نحوه مكّنه منه ، أو طلب عفـــو ، و إن كان غيبة استحلها منه ، و يجب أن يتوب المريد من جميع الذنوب [1].

وأما آداب التوبة فهي عند الإمام السنوسي خمسة منها : ترك الأصحاب الذين ألفهم على التقصير في جنب الله تعالى ، و مواصلة أهل الخير من العلماء العاملين ، و اجتناب مواضـع الغفلة و مواطنها كالسماع بالآلات المطربة و نحوها فإنّها مشغلة عن الوصول إلى طريق الحـق ، و منها ، ألّا يذكر المذنب العاصي التائب لربه تعالى شيئا من لذّاته التي خلت و مـضت ، و لا يخطر شيئا بباله و عقله من شهواته التي سلفت على وجه الاستلذاذ بها ، أمّا إذا ذكرها على وجه التخويف بالعقوبة ليسكن شرّ النّفس ، و تعلم قدرها و تفريطها بما اقترفت ، حتى لا تسكن هي إلّا من بما هي عليه من و ظائف التوبة فحسن عند السنوسي [2].

و الذكر الواجب الذي يلزم التائب في هذا المقام عند الإمام الاستغفار و دوام طلب العفو من الله تعالى الغفور الرحيم القائل في محكم التتريل : { فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً } [3]. و لـه عند السنوسي شروط و آداب . أما شروطه فخمـسة منـها : أن يكـون الاستغفار و التوجه للذكر على طهارة تشمل البدن و الثياب و المكان ، ليكون المستغفر الذاكر لربه تعالى ، على أكمل حالة و أحسن هيئة ، و من الشروط الحسنة في هذا المـترل ، التوجـه واستقبال القبلة ، و منها تحري الخلوة ، و دفع الخواطر المنافية لمعنى الاستغفار و الذكر الذي هو فيه ، و الخامس ، و هو أكبرها و أهمها ، الغاية و المقصد الذي بنا عليه الذاكر ذكره و المستغفر استغفاره ليبني عليه الفكر تركيزه [4].

و أما آداب هذا الاستغفار ، و الذكر الخاص بمقام التوبة فهي أيضا خمسة عند الإمـام السنوسي تتلخص فيما يلي : خلو الباطن من الطعام ، و جلوس المستغفر الـذاكر علـى هيئـة

[1]- انظر ، المصدر نفسه : ص 388 – و مكمل إكمال إكمال المعلم على شرح صحيح مسلم : ج7 ص152

[2]- السنوسي – مختصر بغية السالك في أشرف المسالك ، مخطوط ، مكتبة مسجد دار الحديث ، تلمسان ، دون ترقيم : لوحة 01ص01

[3]- نوح الآية 10

[4]- السنوسي – مختصر بغية السالك في أشرف المسالك : لوحة 02 ، ص 02

متواضعة تقتضي الخشوع و الانكسار ، و تغميض العينين عند التوجه للذكر ، و اتخاذ الذاكر سبحة ليحصي بها عدد التزامه بالأذكار و الأوراد ، لأنّ الحصر بالأصابع مشغل للفكر سيما أهل البداية ، و ألا يقطع الذاكر المستغفر ذكره و ورده بشيء من كلام أو غيره ، فإنّه قادم على الله تعالى يناجيه و يخاطبه فلا يقطع ، إلا لعارض واجب أو كالواجب [1].

و يفهم مما سبق أن التوبة ليست قولا باللسان ، كما يفهم كثير من العوام ، إنّما أمر أكبر من ذلك و أعمق و أصعب ، إنّ عمل اللسان مطلوب فيها و لكن بعد أن تتحقق و تتأكد في النفس ، إنّها عمل عقلي و قلبي و بدني ،تبدأ بعمل العقل يتبعه عمل القلب فيثمر عمل البدن .

و التوبة إذا وقعت متوفرة هذه الشروط ، فإن كانت من الكفر قبلت قطعا عند السنوسي ، و إن كانت من غيره قبلت على سبيل الظّن ، وقيل على سبيل القطع ، و دليل الأول – كما أورد ذلك الإمام – :" في إجماع السلف على الرغبة لله تعالى في قبول التوبة ، فدل على أنّها على الرجاء ، و الدليل الثاني في هذه المسألة قوله تعالى : {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [2] ، و نحوه من الآيات الواردة في ذلك " [3]. و عند " الغزالي " التوبة إذا اجتمعت شرائطها فهي لا محالة مقبولة ، و معنى القبول أن يحصل في قلبك استعداد القبول لتحلي أنوار المعرفة في القلب [4].

وبعد ..فإذا كان السالك لطريق الحق قد أحكم التوبة و أتمّها على وجهها الشرعي فإنّه يكون بذلك قد استوفى و تهيأ للممارسة الصوفية ، و بقيت عليه معرفة الدقائق ، و معرفة حقائق النفس ، و معرفة بقية مراحل و مبادئ الطريق . و هذا كله يخفى على المبتدئ ، و لا سبيل للوصول إليه من نفسه ، و إنّما السبيل الوحيد لذلك هو صحبة شيخ في التربية .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]- المصدر السابق : لوحة02ص02

[2]- التوبة الآية 104

[3]- السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص391

[4]- الغزالي أبو حامد – الأربعين في أصول الدين :ص 146

المطلب الثالث : صحبة شيخ في التربية .

إنّ المبدأ الثالث من مبادئ التصوف عند السنوسي هو صحبة شيخ في التربية ، إذ أنّه لا بد لمن أراد سلوك هذا الطريق من شيخ محقق مرشد ، قد فرغ من تأديب نفسه ، و تخلص من هواه ، فيسلّم السّالك نفسه إليه ، و يلزم طاعته من غير ارتياب و لا تردد ، فيأخذ الشيخ بيده ويتدرج به في مدارج التربية الصوفية من مقام إلى مقام ، و ينبهه إلى عيوبه ، و يعينه على إصلاحها .

المعلوم أنّ علماء الصوفية لا يكتفون بأن يوضحوا للسّالكين أحكام الشرّع و آدابه بمجرد الكلام النظري ، و لكنّهم بالإضافة إلى ذلك ، يأخذون بيد تلميذهم و يسيرون به في مدارج الترقي ، و يرافقونه في جميع مراحل سيره إلى الله تعالى ، يحيطونه برعايتهم و عنايتهم ، ويشملونه بعطفهم و حنانهم ، و يوجهونه بحالهم و مقالهم و ينهضون به بعلو همّتهم و عظيم صدقهم ؛ يذكرونه إذا نسي ، و يقوّمونه إذا انحرف ، و يتفقدونه إذا غاب ، و ينشطونه إذا فتر ، و هكذا يرسمون له المنهج العملي الذي يمكّنه به أن يتحقق بأركان الدين الثلاثة ؛ الإيمان والإسلام و الإحسان .

و لأهمية الشيخ ودوره في التصوف فقد أفرد له الكثير من أئمة التصوف الصفحات الطوال للحديث عن شيوخ الطريق و عن علو مقاماتهم و عن أثرهم و دورهم [1]. و لهذا كان للسنوسي اهتمام تربوي بهذه القضية على مستوى التنظير و التقعيد و الممارسة ، إذ أنّه قارن بين الواقع الذي يحياه الناس و يربون عليه أولادهم و بين ما يدعو إليه الإسلام من قيم تربوية وتعليمية نبيلة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- انظر ، الفصول التي عقدها أئمة التصوف حول هذا الموضوع في المؤلفات التالية : الرسالة القشيرية ، إحياء علوم الدين ، و عوارف المعارف ، لشهاب الدين السهروردي .

أولا : مفهوم التربية عند السنوسي .

تعرّض الإمام السنوسي لبيان مفهوم التربية في سياق شرحه و تفسيره لسورة الفاتحة قال في هذا الشأن : " أصل التربية ، نقل الشيء من رتبة إلى رتبة ، حتى يصل إلى الكمال الذي يريده المربي فيه " [1]. و جاء في شرحه لكتابه "صغرى الصغرى" ، " أصل الترّبية نقل الشيء من أمر إلى أمر حتى يصل إلى غاية أرادها المربي " [2] .

و يلاحظ في تعريف الإمام للتربية أنّها تقوم على فكرتين أساسيتان هما :

الأولى : أنّ التربية تقوم على التدّرج في الترقي ، بمعنى أنّه عند ممارسة التربية يجب أخذ النفس و تقويم اعوجاجها وفق مراحل و لا تكون تربيتها دفعة واحدة .

الثانية : أنّ التربية لها غاية تنتهي إليها و هي الوصول إلى حدّ درجة الكمال بالنّفس الإنسانية . و قد عبّر الإمام عن هذا المعنى في موضع آخر من شرحه " لصغرى الصغرى" بقوله : " التربية كلها : هي إيصال كل حادث إلى كماله الذي أريد له ، [و] ليست إلّا من المولى تبارك و تعالى ، فهذه التربية على قسمين عامة و خاصة ، فالعامة ؛ التربية بالإيجاد و التنمية والإمداد بالحياة و الحواس و غيرها ممّا هو مشترك بين عموم الأجساد ، و خاصة ؛ التربية الروحانية بالعلوم ، و المعارف العلمية ، و ضبط الحركات و السكنات للجري على مقتضاها ، و هذه التربية هي العزيزة ، الشريفة ، الموصولة إلى الفوز برضا مولانا جلّ و علا " [3].

---

[1]- السنوسي – تفسير القرآن الكريم ، مخطوط ، ضمن المواهب القدوسية في المناقب السنوسية للملالي : لوحة 244ص488

[2]- السنوسي – شرح صغرى الصغرى : ص02

[3]- المصدر نفسه : ص 06

ثانيا : أهداف التربية .

إنّ تحديد الهدف ، و توضيحه ، محرّك للسلوك ، و عون على تحقيق المقصود ، و التربية تلك العملية الضخمة البعيدة الأثر في حياة الأفراد و الأجيال و الشعوب لا بدّ فيها من تحديد لأهدافها [1]. و من هنا فالهدف الكلّي أو النهائي الذي تسعى إليه التربية و التعليم عند السنوسي هي الفوز برضا مولانا جلّ و علا و التمتّع بما لا يحاط بوصفه من نعيم الجنان أبد الآباد [2]. فبلوغ مرضاة الله هو سيد نتائج التربية الإسلامية و أعظمها [3]. كما تعمل التربية الإسلامية على تنشئة و تكوين مسلم متكامل من جميع نواحيه المختلفة الصحية و العقلية و الاعتقادية و الأخلاقية في ضوء المبادئ و القيم التي جاء بها الإسلام [4].

و حتى يصير الإنسان إلى هذه الغاية فلابدّ له في الإسلام أن يكون إنسانا عابدا لله . و العبادة شاملة لكل ما يقوم به الإنسان من عمل أو فكر أو شعور ما دامت وجهته إلى الله تعالى، إنّ العبادة منهج حياة يستغرق كل الحياة و يشتمل على كل ما يقوم به العبد من أقوال وأعمال و أحاسيس أو أي جزء من سلوكه ، و في إطار هذه النظرة الشمولية للعبادة كان هدف التعليم و التربية في الإسلام ، إعداد الإنسان العابد الذي ينطبق عليه الصفات التي أطلقها الله سبحانه و تعالى على عباد الرحمان [5].

[1]- محمد منير سعد الدين – دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين ، ط2 ، دار بيروت المحروسة ، بيروت ، لبنان ، 1999م : ص 12

[2]- السنوسي – شرح صغرى الصغرى , ص 06

[3]- محمد سعيد رمضان البوطي – التربية الإسلامية في ميزان البحث ، دط ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، دت : ص41

[4]- مصطفى الطحان – التربية و دورها في تشكيل السلوك دط ، دار الوفاء ، مصر ، دت : ص35

[5]- محمد منير سعد الدين – دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين : ص13

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثالثا : مصادر التربية .

نقصد بالمصادر تلك الينابيع و الأصول التي تستند إليها التربية عند الإمام في محتواها و أهدافها و خصائصها و هي عند السنوسي ليست واحدة في درجة الأهمية و الممارسة . و أهم هذه المصادر الأساسية في التربية عند الإمام هي لقرآن الكريم : إذ يعتبر المصدر الأول للتربية والتعليم ، و ذلك بما يتضمنه من أحكام و تعاليم و آداب و أخلاق ، و من يعود إلى تربية الرسول صلى الله عليه و سلم يدرك ما تركه القرآن من أثر في نفسه و نفس صحابته . ثم السنّة التي هي المصدر الثاني الذي تستقي منه التربية منهجها التربوي .

رابعا : البرنامج التربوي التعليمي عند السنوسي :

يقوم البرنامج التربوي التعليمي عند السنوسي على مجموعة من المبادئ و المضامين الأساسية تتلخص فيما يلي :

مبادئ البرنامج : البرنامج التعليمي عند السنوسي يرتكز على ثلاثة مبادئ جوهرية تتمثل فيا يلي هي :

الأولى : التمييز بين فترتي التكليف ، و ما قبل التكليف .
الثانية : الاهتمام بالأصل قبل الفرع .
الثالثة : الاقتصار على الضروري من العلوم و المعارف .

و على ضوء التصنيفات الثلاثة السابقة بادر" جمال الدين بوقلي حسن "على رسم جدولين أحدهما عام ، و الآخر مفصل لهذه العلوم و المعارف . و في هذا الإطار تم وضع شكلين تربويين مجمل و تفصيلي .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الجدول العام ، هو اللوحة الأولى التي استنتجها في خطوطها العريضة من قراءته لكتاب الإمام محمد السنوسي " شرح العقيدة الوسطى [1].

الجدول العام :

المستوى	المواد المعرفية	التدرج
- بقطع النظر عن السنّ	- حفظ القرآن الكريم - تعليم القراءة والكتابة - تعليم فن المنطق - تأسيس العقيدة الإسلامية في النفس	- الأصول
/	5- الفقه الإسلامي والعلوم الخادمة له	- الفروع
/	6- ملازمة الخلوة و الذكر	- النتائج

الملاحظة العامة :

يلاحظ في هذا الجدول العام أنّ الإمام السنوسي لا يأخذ بمبدأ التميز بين المتعلم المكلف و بين المتعلم غير المكلف .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]- السنوسي - شرح العقيدة الوسطى : ص 326

و أمّا الجـدول المفصـل ؛ فهو الإطار الذي يأخذ فيه الإمام السنـوسي بمبدأ التميز بين التكليف و ما قبل التكليف ، و يحدد فيه الأهداف المرحلية التي تقابلها مواد معرفية معينة .

الجدول المفصل :

المراحل	المواد المعرفية	الأهداف
المرحـلة السـابقة للتكليف	- حفظ القرآن الكريم - الكتابة والقـراءة - اللغة والقواعـد - الفقه والفرائض - الحسـاب - الوعـظ	إعـداد العـقل و تأهيـل الفكر الباحـث
مرحـلة التكـليف	- علـم المنـطق - التوحيد والأصول - التصوف أو الذكر	العلـوم الواجبة شـرعا : تحقيق العلم النافع والعمـل النافع وكلها فروض أعيان
	- علوم أخـرى	كسب الفكر الباحث والعامل

تحليل الجدول :

في تحليـل بعض محتويـات هذا الجـدول الأخير يمكن القول بأن الشيوخ في عهد الإمام السنوسي و قبله ، و في المغربين الأوسط و الأقصى – كانوا يبدؤون بتحفيظ القرآن دون خلطه بالحديث كمـا يضع أهل إفريقيا ، وكان مبدأ الأصول ، يحتّم على الدارس في منظومة السنوسي التربوية التمييز الدقيق بين محتويات الأصول ، و إدراك ما لكل مادة معرفية من خصوصيات [1].

[1]- جمال الدين بوقلي حسن – ابن يوسف السنوسي بين الذاكرة الشعبية والواقع :ص 677-679

خامسا : المعلم في الفكر التربوي السنوسي .

المعلّم في الفكر التربوي السنوسي هو حجر الأساس ، و نجاح العملية التربوية التعليمية يقع في جزء كبير منها على عاتقه ، و من هنا ينبغي أن يتوفر في المعلّم المربي عدد من الشروط أهمها :

الشرط العلمي : حيث يكون متمكنا من المادة التي يدرسها ، فكل عمل لا يجوز لعامله أن يباشره حتى يحققه ، و يميز أحكامه ، و إلا كان غاشّا فيه معرضا نفسه لمعرة الدنيا ، وهلاك الآخرة . وكل النّاس راع و كل مسؤول عن رعيته ، فالمتصدر لإقراء كتاب الله تعالى العزيز ، و العلم عموما ، واجب عليه أن يعتني بتعليم ذلك للمتعلمين ، و إلّا فهو غاش لنفسه وللمتعلمين ، محرّم على نفسه ما يأخذه من الأجرة في تأديب أولاد المسلمين متصف بفجور رذيلة اليهود المستهزئين بكتبهم المنزلة [1].

الشرط الأخلاقي : بحيث يجب على المعلّم المربي أن يتحلى بفضائل حميدة كالحياء ، والصبر ، و التواضع ، و التعفّف ، و الرفق ، و اللطف ، و عدم الاحتقار و عدم العنف ، و يتأكد في حقهم حسن الأدب بقدر الإمكان ، و يطرد عن تعليم الأولاد من ليسوا أهلا له ، من الجهلة ، أو من عرف بسوء الخلق ، و قبح السريرة ، و يؤدي في التعرض لذلك بما يليق من الزواجر و أنواع الهوان [2].

سادسا : تأديب المتعلمين في الفكر التربوي .

إذا كان على المعلّم أن يعتني بمصالح المتعلم و يعامله بما يعامل به أعزّ أولاده في الحنو **والشفقة عليه و الإحسان إليه ، فهل معنى هذا أن يمتنع بالكلية عن تأديب و ضرب متعلميه سواء كان ذلك بغرض التعليم ، أو بغرض زجره إذا أساء التصرف ؟**

[1]- السنوسي – فتوى في معلمي الأولاد ، مخطوط ، المكتبة الوطنية ضمن مجموع 3277/2 : لوحة 02- ص 03

[2]- السنوسي – فتوى في تدريس الأولاد , مخطوط ، المكتبة الوطنية ضمن مجموع1/ 3277/ : لوحة 1 – ص 01

الإجابة على هذا السؤال نجدها في فتوى الشيخ السنوسي حينما سأله بعض فقهاء زمانه عن مسألة عظيمة خفية عن كثير من الخلق في عصر الإمام ، و هي أنّ بعض المدرّسين للأولاد ممن أخذ عن السنوسي ، وانتسب إليه ، و حضر مجلسه ، يعلم الأولاد ، و كان رجلا ضرّابا لهم ، و لا يقدر أن ينفك عن هذا السلوك و هذه العادة ، فكان هؤلاء الأولاد يجدون منه خوفا يتألمون لـه ، كما كانت تسيل دموعهم من شدة الضرب و العقاب ، وكان بعض هؤلاء المعلمين يقول للأولاد : إذا رأيتموني قام بي عرض الغضب فذكّروني بسيدي محمد بن يوسف السنوسي فيسكن عند ذلك غضبي ببركته ! فطلبوا منه أن ينقذهم – أي هؤلاء المعلمين – من هذا التصرف العظيم على أنفسهم ، كما نقد كثيرا من النّاس في البدع و الضلال و أن يفتيهم في ذلك فتية شافية في ضرب الوجه و غيره لعلهم يقفون عنده و لا يتعدونه [1].

و الظاهر في نصّ هذا السؤال أن ضرب الأولاد في التعليم ، و على وجوههم ، و غيرها كانت ظاهرة منتشرة في القرن التاسع الهجري – قرن السنوسي – اشترك في ذلك كثير من معلمي هذا العصر ، حتى تلاميذ الإمام نفسه ممن كان يحضر مجلسه و تعلّم على يده ، و هي ظاهرة لا زالت اليوم قائمة في عصرنا الحاضر للأسف الشديد ، أكثر ما يأتي منها الشر و أقل ما يأتي منها الخير .

لقد عرف عن الشيخ السنوسي أنّه كان شديد الحياء ، ليّن الجانب سمحا رفيقا حتى مع الحيوان ، و يبدو أنّ هذه الظاهرة قد أفزعته فأجاب عنها إجابة حاسمة لا تردد فيها . قال في الجواب عن هذه المسألة ما نصه : " المعلوم عليه في حصول النّفع للأولاد و غيرهم إنّما هو جهة فضل المولى تبارك و تعالى ، و من اعتمد في حصوله على الضّرب و السجن أو غيره فقد أخطأ في اعتماده و خاب سعيه ، و المعلّم ينبغي أن يتصف بمكارم الأخلاق التي ندب الله تعالى إليها في كتابه العزيز ، من الصبر ، و الحلم ، و الرضى بقضاء المولى تبارك وتعالى في كل ما أراده في الوقت ، و لا يتهالك على أن يقع في الوجود ما لم يرده الله تعالى لـه ، حفظا أو كياسة لم يردها الله تعالى منه و نحو ذلك ، بل كل ما يراه متعسرا من ذلك يلجأ إلى المولى جلّ و علا ،

[1]- المصدر السابق : لوحة 01- ص 01

ولا يلجأ فيه إلى غضبه .. وليذكر ما قاله الشيخ " ابن عطاء الله " في حكمه ، و هو قوله : " ما تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك و لا توقف مطلب أنت طالبه بربك " [1].

و يمضي الإمام السنوسي في عرض فتواه بالقول : و " تعليم القرآن للأولاد الصّغار يطفئ غضب الله تعالى ، فيه خير عظيم للمعلّم و للأبوين ، فليراع المعلم هذا الخير ، و ليقصد إليه، و لا يعسّره بظلمه ، و قهره للصّغار الضعفاء ، الذين لا يستطيعون الدّفع عن أنفسهم ، والله لا يحب الظالمين ، إنّه لا يحب المسرفين ، فالواجب أن يرّفق بهم غاية الرّفق ، و يطلب من الله تعالى تسديدهم ، و إذا احتاج إلى أدب لبعضهم فليحضر أنّه بين يدي الله تعالى .. و ليقتصر على أقل ما يمكن في ذلك ، كثلاثة أسواط إلى خمسة ، و لا يضرب بعصا ، و لا الوجه ، و لا إلى الدّماغ ، و إنّما يضرب الساق و نحوه ، و ليكن نظره خلال ضربه إلى الله تعالى ، و منه يستمد أن يخلق عند ذلك الضرب ، اليسر نفعا ، و انزجارا لذلك الصبي المضروب ، مؤقتا ، بأن الضرب لا أثر له في شيء من ذلك ، و إنما هو باب من أبواب الله تعالى ، يرجى عنده من فضل الله تعالى ما جرت به عادته سبحانه ، فالإكثار منه ، و التعدي فيه - أي الضرب - دليل على أنّ المعلم ليس من أهل القرآن و إنّما هو جبار من الجبابرة و ظالم من الظلمة الذين يدخلون في قول الله عز وجلّ : " و إذا بطشتم بطشتم جبارين " [2]. بل قال المفسرون : يبطشون لأجل الغضب ، لا لأجل الله تعالى . و كل وعيد ذكره الله تعالى في القرآن للظالمين ، و كل لعنة لهم فإنّ المعلم المتعدى ينال من ذلك أوفر حظه ، إذ هو من شرّ الظالمين ، الذين لم ينفعهم الله تعالى بحفظ كتابه العزيز ، بل تضرّروا بحفظه و هلكوا بتعليمه على غير وجهه ، و اعتمدا في حصول المنافع ، و دفع المضار على حولهم و قوتهم ، و غضبهم ، و ضربهم ، و البركة أبدا إنّما تكون مع الرفق و اللجوء إلى الله تعالى ، لا في العنف و نسيان جانب المولى تبارك و تعالى ، و من ثمّ لم يجعل الله تعالى في تعليم أكثر المعلمين في هذا الزمان بركة ! كما كانت للسلف الصالح - رضي الله عنهم — و الله المسؤول ، أن يرشد الجميع للوقوف مع أمره و نهيه " [3].

---

[1] - ابن عطاء الله السكندري - الحكم العطائية رقم (25)

[2] - الشعراء الآية 130

[3] - السنوسي - فتوى في تدريس الأولاد : لوحة 01 ص01-02

و نحن بعد عرضنا لهذه الفتوى نستخلص منها ما يلي :

- أنّ النّفع و تحصيل العلم للأولاد إنّما يحصل بتوفيق و فضل من الله تعالى وحده وليس بالضرب ونحوه ، فكم من متعلم يقع عليه الضرب من طرف معلميه ، و لم يستفد من ذلك شيء، بل يكون العقاب سببا في نفوره من العلم و كراهيته له و للعلماء أبد الآبدين .

- ضرورة الاتصاف بمكارم الأخلاق من طرف المعلمين التي دعا إليها الشرّع في معاملة الخلق و خاصة منهم المتعلمين .

- دوام اللجوء إلى الله و طلب عونه حتى تقع الفائدة للمتعلمين .

- أنّ الضرب يعسّر الفهم على المتعلمين كما يشقّ عليهم تعلم القرآن و العلم .

- الأصل أنّ الضرب عند السنوسي ممنوع ، و إذا دعت الحاجة إليه ، فعلى المعلم أن يستحضر معية الله ، و إذا ضرب فبرفق لا انتقام فيه و لا قسوة معه .

- الإكثار من الضرب من قبل المعلم ، و التعدي فيه ، دليل على أنّ المعلم ليس من أهل القرآن و لا من أهل العلم ، و إنّما هو جبار من الجبابرة والظلمة .

لقد كان السنوسي معلما عالما ، اتخذ من التعليم وسيلة يتقرب بها إلى الله كما يتقرب بذكر الله تعالى و الصّلاة على النبي عليه الصلاة و السلام و قراءة القرآن ، و مطالعة الكتب ، ولهذا ما قدمه في هذا الشأن إنّما كان عن تجربة و اطلاع . و قد حكى " الملالي " عنه قال : " ما رأيت – أي السنوسي – قط يشتغل بما لا يعنيه ، و قد تأملت أحواله فوجدتها لا تخلو من ثلاثة أمور : إما يكون مشتغلا بذكر الله سبحانه و تعالى والصلاة و السلام على رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو مشتغلا يقرأ القرآن العزيز ، أو مشتغل بمطالعة الكتب ، و تعاهد ما كان يحفظ من الكتب " [1].

[1]- الملالي – المواهب القدسية في المناقب السنوسية لوحة 230ص460

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سابعا: شروط شيخ التربية الصوفية .

الشيخ هو المرشد الروحي الذي سلك طريق الحق ، و عرف المخاوف و المهالك والحدود ، فتولى تربية المريدين و الإشارة إليهم بمستلزمات السّلوك ، و مقتضيات الوصول إلى قرب الخالق عز وجلّ ، و يكون قد ذاق حقائق الطريق و تخلق بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم و تنبع أهمية الشيخ للمريدين من مصدرين : أولهما : مقام العبودية الذي يعتبر أصلا رئيسيا في السلوك الصوفي ، حيث لا يكون الصوفي صوفيا إلا بتحصيله ، و هو مقام عزيز يحتاج إلى مرشد أمين ، و ثانيهما : رعونة النفس ، و عدم انضباطها و محاولتها أن تخلد بصاحبها إلى أرض الشهوات ، مما يقطع بضرورة سياستها على يد الغير .

و يري الإمام السنوسي – كسائر الصوفية - أنّه لا بد لكل مريد لله من شيخ ، فالمشايخ هم الطريق إلى الله ، و الأدلاء عليه ، و الباب الذي يدخل منه إليه ، و ذلك السّلوك لا ينفع فيه الكتاب وحده ، و لا شيخ التعليم ، إنّما الواجب فيه شيخ التربية ، ذلك " أنّ التقوى معلومة ، و السنة مشهورة ، وخبايا النفوس و تجلي الحقّ غير معلومة و لا معروفة ، و لا بدّ لها من عالم بالله و بطريقة يرجع إليه في معالمها ، و أصل ذلك رجوعه عليه الصلاة و السلام في عرض ما احتف به من مبادئ الوحي على ورقة بن نوفل - رضي الله عنه – حيث كان عالما بذلك " [1].

لكن الشيخ يبقى مع المريد إلى نهاية الطريق لأنّ عقبات النفس تبقى مع السالك بحسب ترقية في المقامات و الأحوال و لعلّ هذا ما أطلق عليه " ابن خلدون" بمجاهدة الكشف و المشاهدة و الاطلاع على العالم الروحاني فهي مفتقرة إلى المعلّم المربي ، افتقار وجوب على

[1]– السنوسي – نصرة الفقير : ص 433- 434

خلاف مجاهدة التقوى التي لا يضطرّ فيها إلى الشيخ ، أو مجاهدة الاستقامة التي هي محتاجة بعض الشيء إلى الشيخ المربي لعسر الاطلاع على خلق النفس[1].

إنّ السنوسي يفرق بين شيخ التعليم و شيخ التربية — كما رأينا سابقا – فشيوخ التعليم، هم أهل الظاهر الذين يأخذ منهم علوم الشرّع حيث يمكن للسّالك تلقي علوم و فنون الشريعة منهم ، و هؤلاء تكفي عنهم الكتب لمن كان يملك العقل و الذكاء ، أما شيوخ التربية فهم أهل الباطن الذين لا يمكن أن يستغن عنهم المريد في سيره إلى الله ، و بلوغ طاعته ومرضاته .

و أهم ما يشرط في شيوخ التربية ، و هم العلماء الربانيين ، الجامعين بين علوم الظاهر والباطن العمل ، و إنّما شرط في العلماء العمل عند السنوسي لأوجه استعرضها فيما يلي :

أحدهما : أنّ غير العامل لا يوثق بقوله ، إذ لعله يكذب على الله تعالى و رسوله ، لأنّ من كان قائده في القول و العمل الهوى لا يبالي بما يقول و يعمل .

الثاني : أنّ غير العامل لا نصيحة فيه للمسلمين لأنّه كثيرا ما يعرض عما يحتاجون إليه يعلمهم مالا حاجة لهم إليه في الحال لأنّ تعاطي غير العامل للعلوم كتعاطي أبناء الدنيا للتجارات ، فكما يتركون تعاطي التجارة في كل ما يكسد في الحال عند أبناء الدنيا ، كذلك غير العامل لا يتعاطى من العلوم إلا ما هو نافق غير كاسد في الحال عند أبناء الدنيا ، و إن كان هو النافق المظطر إليه بالنسبة إلى الآخرة .

الثالث : أنّ غير العامل لا يتنزل في التعبير لإفهام الضعفاء ، بل يتعاطى في غالب أمره التفاصح و التهويل في الواضحات ، فضلا عن غيرها حتى يعميها باصطلاحات و ألفاظ غريبة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]– ابن خلدون — شفاء السائل لتهذيب المسائل ، نشر أغناطيوس عبده ، وخليفة اليسوعي ، دط ، المطبعة الكاثولوكية ، بيروت ، لبنان ، دت : ص58- 59

ليمدح بعلو العبارة ، و التحدث بدقائق العلوم و التي لا يفهمها عنه إلا الأفراد ، ولئلا تتحاسر عليه العوام وسفلة الناس إلى غير ذلك من أغراضه الفاسدة .

الرابع : أنّ غير العامل لا بركة في علمه و تعليمه ، لأنّه يبرز علمه – وإن كان حقا – مكسوا بكسوة خبائث قلبه ..مظلما لا نورا فيه ، بحيث تمجه الأسماع .

الخامس : أنّ غير العامل على تقدير أن يصلح النّاس بالأقوال فهو يفسدهم أضعافا مضاعفة بأعماله ، لأنّ إذعان النفس للعمل و سرقة الطبع لـه أكثر بكثير من الإذعان للقول ، والعالم العامل على الضدّ من هذه الأوجه الخمسة .

السادس : أن غير العامل لا يعلم منه إلا اللسان ، و العامل يعلم منه اللسان ، و اللحظ ، و الإطراق ، و سائر الأركان ، بل يؤخذ العلم حتى من ثيابه ، و مسكنه ، و خادمه، ودابته ، وكل ما أضيف إليه في حضوره و غيبته ، فهو و إن كان بحسب الظاهر معلم واحد ، ففيه على الحقيقة أعداد كثيرة من المعلمين ، يفيد كل واحد منها ما لا يفيد الآخر ، و تكرر للمتعلم معلومه و تؤكده و تأمره و تنهاه ، و تؤدبه آدابا يقصر عنها التعبير بمداه ، فيثلج منه الصدر ، و ينشرح لعدم رؤية التنافي بين القول و الفعل ، و يزول عنه كل إشكال يعتريه في أقوال اللسان لرؤية مدلولاتها في جوارح العالم العامل ، و في تصرفاته المتصلة و المنفصلة و لا خفاء أنّ الخبر ليس كالعيان ، و لهذا قيل: إنّ الولي ما إذا رأيته ذكرت الله لأنّه لا تقع رؤيتك منه إلّا على مذكر بالله سايق بدلالة الحال و المقال إلى عظيم رضاه ، و إذا كان العالم تتضمن صحبته هذه المصالح النفيسة و غيرها ممّا لا يقدر على حصره ، وجب على المؤمن المحتاج للتعلم أن يبحث عليه غاية البحث ، و إذا وجده فقد اتصل بمناه فليشد بيده عليه ، و لا يتخطاه إلى غيره " [1] .

[1]– السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : 463- 465

تاسعا : أدب المريد مع شيخه .

حتى يتيسر الخير و تحسن مصاحبة الشيخ يتعين على المريد إتباع جملة آداب مع شيخه الذي يتولى تربيته و أهم هذه الآداب عند الإمام السنوسي هي :

اعتقاد الخير في الشيخ و عدم انتقاده ، ذلك أن الاعتقاد عند الإمام أصل في كل خير ، وانتقاده أصل في كل شر [1]. و مبنى هذا الاعتقاد يرجع إلى الاستسلام للشيخ المربي ، و طاعته في ما أمر و فيما نهي ، و الالتزام بنصائحه و توجهاته ، و عدم الاعتراض عليه في شأن من الشؤون لأنّ من فتح على نفسه باب الاعتراض على المشايخ و النظر في أحوالهم و أفعالهم حرم الوصول .

عدم الاعتقاد في الشيخ العصمة ، فإنّ الشيخ ، و إن كان على أكمل الحالات فهـو ليس بمعصوم ، لأنّ العصمة لا تجوز إلاّ للأنبياء و الرسل فقط ..

وبالجملة فأدب المريد لا نهاية لـه مع شيخه و لا مع إخوانه و لامع عامـة خلـق الله سبحانه وتعالى . فالطريق الصوفي كما يكون بمعاملة الخالق عـزّ وجـلّ بالطاعـة و الصدق و الإخلاص ، يكون أيضا بمعاملة الخلق بالأدب ، ومن هنا يقال : التصوف كله أدب ..إذ معاملة الخالق هي — في حقيقة الأمر —القيام معه بآداب العبودية القائمة أساسا على العلم و التوحيد .

[1]- السنوسي – نصرة الفقير : ص 436

الفصـــــل الثالـــــث

منهج السنوسي في التصوف

المبحث الأول : اعتماد العلم و العقل أساسا و منطلقا

المبحث الثاني : تأسيس القاعدة العقائدية على مبدأ البرهان

المبحث الثالث : الدخول في الممارسة الصوفية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث :

منهج السنوسي في التصوف

إنّ مفهوم "المنهج" بصفة عامة هو " طريق البحث عن الحقيقة في أي علم من العلوم أو أي نطاق من نطاقات المعرفة الإنسانية "[1] ، ذلك أنّ العقل الإنساني لا يستطيع أن يفكّر ، و ينظر ، و أن يستدلّ بدون أن يكون له منهج متعين يقوم عليه فكره و حركته . إنّ السنوسي كالغزالي الذي يرى أنّ التصوف علم منهجي يستند إلى العقل و الشريعة معا بوصفهما أصلين متكاملين ، لهذا أخذ بتعداد الخطوات الضرورية التي توصل السالك إلى نيل الحقائق الأرقى[2] .

و السؤال الذي يطرح هنا : ما هو منهج السنوسي في التصوف ؟ و ما هي مراحله ؟

و للإجابة على ذلك ارتأينا أن نقسّم هذا الفصل إلى المباحث الآتية :

المبحث الأول : اعتماد العلم والعقل أساسا و منطلقا .

المبحث الثاني : تأسيس القاعدة العقائدية على مبدأ البرهان .

المبحث الثالث : الدخول في الممارسة الصوفية .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] – علي سامي النّشار – نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ط7 ، دار المعارف ،القاهرة ، مصر ، 1977م :ج1 ص 26

[2] – أنور الزعبي – مسألة المعرفة و منهج البحث عند الغزالي ، ط 1 ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، 1420 هـ/2000م : ص 251

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول :

اعتماد العلم والعقل أساسا و منطلقا

المطلب الأول : حقيقة العلم و فضله و طرق الحصول عليه .

أولا : حقيقة العلم

العلم أساس التصوف و إمام الأعمال و مصحّحها ، فكما أنّه لا فائدة للعلم بلا عمل ، كذلك لا ينفع علم بلا عمل . فما هو مفهومه وحقيقته عند الإمام السنوسي ؟

تعرّض السنوسي لمفهوم العلم و عرّفه على أنّه : " صفة ينكشف بها المعلوم على ما هو عليه" [1] ، و هو يعني بالمعلوم كلّ ما يصحّ أن يعلم ، و هو كل واجب و كل مستحيل و كل جائز ، و معنى ينكشف أنّه يتضح ذلك المعلوم لمن قامت به تلك الصّفة و يتميّز عن غيره اتّضاحا لا خفاء معه ، و هذا مخرج للظّن و الشّك و الوهم فإنّ الاحتمال القائم بها يمنع من انكشاف ذلك المظنون أو المشكوك أو الموهوم و يوجب له خفاء [2].

و غاية السنوسي من هذا التعريف التقريب على سبيل الاختصار لعسر تعريف العلم بما يسلم من كلّ مناقشة ، كما يدخل عنده أيضا في العلم على مقتضى هذا التعريف إدراك السّمع و البصر و سائر الإدركات فهي عنده أنواع من العلم على مذهب الأشعري [3] . أمّا المعرفة عنده: " فهي الجزم المطابق عن دليل" [4]. و المعرفة بمفهومها العام هي الاعتقاد الصادق الذي يوفر للمعتقد أسس لصدقة [5]. و يقابل كلمة معرفة في اللغة اللاتينية " connaissance " و هي

[1] – السنوسي – شرح المقدّمات ، تحقيق ج.د. لوسياني ، دط ، الجزائر ، 1908م : ص 181

[2] – المصدر نفسه : 181

[3] – المصدر نفسه : ص 181 – 183

[4] – السنوسي– شرح أم البراهين : ص 25

[5] – محمود زيدان – نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام ، ط 1 ، دار النهضة ، بيروت ، لبنان ، 1989م : ص180

عبارة عن فعل التعرّف ، و نتيجة فعل التعرّف ، أو هي عملية تفكير و اتصال مع موضوع خارجي ، مهما كانت كيفية هذا الاتصال ، و تصميم تلك النتائج المتوصل إليها في نماذج ، مع اعتبار أداة عرض هذه النتائج [1]. و من هنا فإنّ معناها يختلف عن العلم .

كما درس السنوسي العلم من حيث هو ضروري أم نظري ، و الضّروري عنده هو : الذي ليس له سبب ككون الكل أعظم من جزئه ، و هو لا يفتقر إلى دليل ، و أمّا النّظري فهو ما يحتاج صاحبه إلى الفكر و النّظر و التدبّر[2]. كما بحث الإمام أيضا ، أنواع العلم الضّروري ، و حصر التّصديقات الضّرورية في ؛ الأوليات و تسمى عنده بالبديهيات ، و المشاهدات وتسمى بالحسيات ، و قضايا قياساتها معها ؛ و هي ما يجزم بها العقل بواسطة وسط يتصوّر معه كقولنا : الأربعة زوج واحد ، فإنّه بسبب وسط حاضر في الذّهن و هو الانقسام بمتساوين ، و تجريبيات ، و حدسيات ، و متوتّرات ، و هذه الأقسام السّتة ، الغرض منها عند السنوسي ، حصول العلم الضّروري [3] .

و أمّا عن فاعل العلم ، فإنّ العلم الضّروري و النّظري كلاهما يرجع الأمر فيهما إلى الله سبحانه و تعالى ، يقول في ذلك : "و أمّا فاعل العلم فهو الله [على المكلّف] و يتعيّن عليه – بناء على ذلك طلب المعرفة بالبرهان لما يجب في حقّ الله و حقّ رسوله ثمّ يجب عليه إذا حصلت له تلك المعرفة بواسطة البرهان أن يقطع أنّ تلك المعرفة إنّما حصلت بمحض خلق الله تعالى فضلا منه سبحانه و لا أثر للبرهان و لا لفكرة المكلّف و بحثه في تحصيلها " [4] ، بل إنّه في اعتقاده يجوز في قدرة الله ، أن يجعل العلوم النّظرية لمن شاء ضرورية بحيث لا يفتقر في تحصيلها إلى النّظر [5] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] - Gérard le grand dictionnaire de philosophie ; France , 1972, matière « connaissance ; p63.

[2] - السنوسي – عمدة أهل التوفيق و التسديد : ص 71

[3] - المصدر نفسه : ص 21 – 22

[4] - السنوسي – شرح صغرى الصّغرى : ص 10 – 12

[5] - السنوسي – عمدة أهل التوفيق و التسديد : ص 34

ثانيا: **العلم و فضله و شرفه و أنواعه** .

بعد أن تعرفنا على حقيقة العلم عند الإمام السنوسي ، يجدر بنا أن نعرض لموقفه من هذا العلم و شرفه و فضله و أنواعه .

أقرّ السنوسي على غرار علماء الإسلام و فلاسفتهم بوجود العلم ، و تعرض لبيان فضله و شرفه و قيمته في الدنيا و الآخرة و يظهر ذلك فيما يلي :

أ / : شـــرف العـــلم .

يقول السنوسي متحدثا عن فضل العلم :" و قد ظهر أنّ العلم هو قاعدة الأعمـــال ، وأساسها ، و عليه بناؤها ، و منه اقتباسها ، و هذا مما ينبئك على شرف العلم و عظيم رتبته في الدين "[1]. و يدلل على هذا الرأي المتعلق بفضيلة العلم " و من هذا المعنى ما نقل عن التـــابعي " سفيان بن عيينة " أنّه سئل عن فضل العلم ، فقال : ألم تسمع قوله تعالى حين بدأ به ، فقـــال: { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ }[2] ، فأمر بالعمل بعد العلم ، و قال تعـــالى : { اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهووَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ}[3]، و قال: { إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ }[4] ثم قال بعد :{ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } 5 و قال : { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ

[1] – السنوسي – المنهج السديد شرح كفاية المريد :ص 41 -42
[2] – محمد الآية 19
[3] – الحديد الآية 21
[4] – التغابن الآية 15
[5] – التغابن الآية 16

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لِلَّهِ خُمُسَهُ }[1] ، ثمّ أمره بالعمل بعده"[2]. و لأنّ العبادة ثمرة العلم و فائدة العمر و حاصل العبيد الأقوياء و بضاعة الأولياء ، و النّظر و الاستدلال أول عقبة تستقبل المكلف في طريق العبادة[3].

و لعلّ هذا الأمر هو الذي حمل السنوسي على اعتراض من قال أنّ الإيمان هو الهدى ، بل إنّ الإيمان كما يراه هو من ضروب الهدى ، فإنّ الإيمان يحتاج في ثبوته إلى نور آخر هو الهدى في نفسه و هو العلم بما يؤمَنُ به ، و هذا العلم لا بد أن يكون ثابتا عن دليل قاطع ، و قد وفق الله تعالى العالم للنظر و الفكر في تلك الأدلة حتى تشهد له ضرورة العقل بكيفية أداء الدليل إلى العلم ، و لما كان العلم كذلك ، وجب أن يكون من شروط العالم أن يعرف كيف يعلم و يعلم كيف علم ، فمن علم و لم يعلم كيف علم ، لم يعلم ؛ و إنما توهم نفسه عالمة و رتبتها الظن ودليلها { أَوَ لَوكَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ }[4]، { أَو لَوكَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ }[5] "[6].

و يضيف السنوسي مدللا على رأيه ذلك "و هذا يؤيد قول من قال إنّ الهدى هو العلم، فإنّ من فهم عن الله آياته فقد اهتدى ، و من لم يفهم عن الله آياته فقد ضلّ و غوى وحقيقته : { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهواءَهُمْ ، وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ }[7] ، فأخبر الله تعالى أنّ لهم هداية و زادتهم الشّريعة هداية على هدايتهم وآتاهم تقواهم أي أثمرت لهم هدايتهم و هي علومهم بالله تعالى و برسله و بشريعته تقوى من عذاب الله و خوفا من عقابه جلّ وعزّ[8] .

---

[1] – الأنفال الآية 41

[2] – السنوسي – المنهج السديد شرح كفاية المريد: ص 42

[3] – دحلان الكديري – سراج الطالبين شرح على منهاج العابدين للغزالي : ص 15

[4] – البقرة الآية 170

[5] – لقمان الآية 21

[6] – السنوسي – شرح العقيدة الوسطى : ص74

[7] – محمد الآية 16- 17

[8] – السنوسي – شرح العقيدة الوسطى : ص74

و الإمام لا يقف عند هذا المعنى للعلم و شرفه بل يردّف بالتأكيد على ثمرته و نتيجته والتي هي التّقوى و الصلاح و تزكية النفس و ممارسة الذوق ، فإنّ " التقوى ثمرة العلم ، و العلم ثمرة الفكر و الفكر نتيجة العقل ؛ فمن لم يرزق العقل الحصيف حرم الفكر الباحث ، و من لم يرزق فكرا باحثا حرم العلم النّافع بالمعقولات ، و من لم يرزق علما بآيات الله تعالى حرم العلم بأحكام الله ، و من حرم العلم بأحكام الله تعالى لم يتصور منه وجود التّقوى في قلبه "[1] . و العلم بهذا الشّكل عند السنوسي هو أصل و مصدر الهداية و بالتّالي للإيمان و سلوك الطريق إلى سبحانه الله تعالى و ممارسة التصوف .

ب / : أنــواع العــلوم .

تعرّضنا فيما تقدّم لبيان مفهوم العلم و شرفه و مدى صلته بالـدّين و الـدّنيا عنـد السنوسي ، و يحسن بنا أن نبحث هنا مسألة تفاضل العلوم و المعارف و تنوعها عنده .

إنّ المتتبّع لهذه المسألة يجد أنّ فلاسفة و علماء الإسلام قد أشاروا كغيرهم من فلاسـفة وعلماء الثّقافات الأخرى إلى عدّة تقسيمات للمعرفة للبشرية ، و تتمثّل تلك الإشارة في أنّه يمكن تقسيم المعرفة من حيث اكتسابها أو عدم اكتسابها ، فهي معرفة فطرية أوّلية أو معرفة مكتسبة ، كما يمكن أن تقسّم العلوم و المعارف من حيث وضوحها و غموضها و من حيث بـساطتها أو تعقيدها ؛ فهي معرفة بديهية بسيطة أو واضحة أو هي معرفة معقّدة في أساسها تحتاج إلى بـذل جهد فكري ، و يمكن تقسيمها من حيث مصادرها و وسائل تحصيلها فهي معرفـة حـسّية أو تجريبية و علمية ، و معرفة عقلية و برهانية أو دينية .

و تتفاوت هذه العلوم و المعارف في فضلها و مراتب شرفها بحسب الموضوع و الغايـة والوسيلة ، و أعلى هذه العلوم و المعارف فضلا ، هي معرفة الله تعالى و صفاته ، على أسـاس اعتباره سبحانه و تعالى الموضوع الأسمى للمعرفة الحقّ التي ينبغي أن يتّجه إليه الإنسان في معرفتة

[1] - المصدر السابق : ص 74– 75

– عن طريق عقله و تأمله الفكري – تأتي بعد ذلك سائر العلوم والمعارف [1] . وإذا أردنا أن نقف على هذه المسألة عند السنوسي ، فهل إنّنا نجده يؤمن بتنوع العلوم و المعارف و تفاضلها أم لا ؟

الواقع أنّنا نجد السّنوسي يؤمن بتنوع العلوم و المعارف و تفاضلها ، و يـذهب إلى أنّ رئيس المعارف و سلطانها معرفة الله تعالى ، و إليك ما أثبته في هذا الشّأن : " العلـم يـشرّف بشرف المعلوم ، و العلم بالله تعالى و صفاته أشرف ، لأنّ معلومه أشرف المعلومات ، و ثمراتـه أفضل الثّمرات فمن عرف سعة رحمة الله أثمرت معرفته سعة الرّجاء ، و من عرف شدّة النقمـة أثمرت معرفته شدّة الخوف و أثمر خوفه الكفّ عن الفسوق و العصيان مع البكـاء و الأحـزان والورع و الإذعان ، و من عرف أنّ جميع النّعم منه أحبه و أثمرت المحبّة ءاثارها ، و من عـرف تفرّده بالنفع و الضرّ لم يعتمد إلاّ عليه ، و من عرف عظمته عامله بالتعظيم " [2].

و السنوسي يؤكّد على هذا المعنى عند تعرّضه لبيان مراد الله سبحانه و تعالى من الآيـة الكريمة :{ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ }[3]، أنّ المراد بهم العارفون بالله تعالى وصفاته وأفعاله و مخلوقاته ، فالعلماء هنا هم الذين عرفوا الله تعالى بصفاته ، و ما يستحيل عليه ، و مـا يجوز ، فعظّموه و قدّروه حقّ قدره وخشوه حقّ خشيته ، و على هذا الأساس فإنّ العلماء بـالله وصفاته هم أفضل الناس ، و أرفعهم مرتبة عند ربّهم لقوله تعالى : { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هو وَالمَلَائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلمِ} [4]، فهم في المرتبة الثالثة كما في الآية الكريمة بعد الله والملائكة ، وهم في المرتبة الأولى بعد الله كما في آية أخرى ،قال تعـالى : { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلمِ } [5] ، و على قدر زيادة معرفة الإنسان بربّه تعالى و صفاته يزداد قربا وخشية ، و تفسير الإمام لهذه المعاني ، أنّه من ازداد بالله علما ازداد منه خوفا ، فأعلم الناس بالله

[1] – محمد البهي – الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ، ط1 ، دار إحياء الكتب العربية ، 1945م : ص 11

[2] – السنوسي – شرح العقيدة الوسطى : ص 47 – 48 . و كتابه – شرح منظومة بغية الطلاب في علم الإسطرلاب لابن الحباك ، مخطوط ، المكتبة الوطنية، رقم 8/ 631 : لوحة 140 ص280

[3] – فاطر الآية 28

[4] – آل عمران الآية 18

[5] – آل عمران الآية 7

أشدّهم خشية ، فتقديم اسم الله تعالى في الآية السابقة على العلماء لأنّ المعنى أنّ الذين يخشون الله من عباده هم العلماء دون غيرهم[1] .

و يمضي السّنوسي في التنبيه على هذه الحقيقة بشكلها المنطقي ، فيذكر بأنّ بعضهم ركب من هذا ، ومن قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ، جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ }[2] ، قياسا من مقدّمتين و نتيجة. المقدّمة الأولى : خير البرية من يخشى الله . المقدّمة الثانية : هم العلماء بالله . و النتيجة : خير البريئة هم العلماء بالله . وهو استنباط حسن صحيح[3].

إذن فالمعرفة الشّاملة والحقيقة المطلقة هما معرفة الله و أفعاله و مخلوقاته من حيث هي أفعاله و مخلوقاته ، والذي يتفرّع عنها علم التّوحيد الذي قال عنه أنّ "من أراد الله به خيرا عرّفه مراشده و فتح له في معرفته هذا العلم الذي هو أفضل [العلوم]و أوجبها و أول ما يشغل به كلّ موفق " [4] .

و لعلّ ما نلاحظه عند السنوسي هنا أنّ مراتب العلم قائم عنده على تصور عقدي ، حيث أنّ المسلم مطالب بأن يعرف الله أوّلا ثمّ يعرف الرّسول ، و هو تبعا لذلك مطالب بأن يعرف ما يؤدّي إلى المعرفة بهما ، و قد عبّر عن هذا المعنى بقوله : " اعلم أنّه يجب على كل مكلّف أن يعرف ما يجب في حقّ مولانا جلّ و عز ، و ما يستحيل ، و ما يجوز ، و كذا يجب عليه أن يعرف مثل ذلك في حق الرّسل عليهم الصّلاة والسّلام" [5] .

[1] - السنوسي - شرح العقيدة الوسطى : ص 47 - 48
[2] - البينة الآية 7-8
[3] - السنوسي - شرح العقيدة الوسطى : ص 49
[4] -المصدر نفسه : ص 42
[5] - السنوسي - شرح صغرى الصّغرى : ص 42

إنّ هذا المنطلق لئن كان سليما من حيث المبدأ ، إلاّ أنّه أدّى بالسنوسي إلى أن تطغى عليه علوم العقيدة على سائر العلوم الأخرى ، و المتتبع لفكره في التّوحيد يجد أنّ الذي حمله على ذلك ليس فقط قيمة هذا العلم فقط ، بل كان تجرّده لهذا العلم كان استجابة لمشاكل وقته و ما شهده عصره – لا سيما في تلمسان الزيانية – و ما كان عليه حال العلماء و العامة من اعتقادات باطلة البعض منها أجمع العلماء على كفر معتقدها [1].

غير أنّ الملفت للانتباه أنّ السنوسي لم يضع تصنيفا للعلوم على شاكلة التصنيفات الحديثة ، و إنّما يفهم من خلال مكتوباته ، فعلم التّوحيد القائم على الأدلة العقلية ثمّ الشرعية هو المنطلق ، وهو الصّدر ثمّ يأتي بعده سائر العلوم الأخرى منها علم التصوف ، فقد نقل تلميذه "محمد بن يحي بن موسى المغراوي التلمساني" [2] ، أنّه سمع منه : " ليس علم من علوم الظاهر يورث معرفته تعالى و مراقبته إلاّ علم التّوحيد وبه يفتح له العلوم كلّها ، و على قدر معرفته به يزداد خوفه من الله تعالى وقربه منه" [3] .

ثالثا: طرق الحصول على العلم .

سبق و أن بيّنا مفهوم العلم عند السنوسي ، أمّا تعريفه للمعرفة فقد وجدنا أنّها عنده ، هي الجزم المطابق عن ضرورة أو برهان [4] ، و يذهب إلى تأكيد هذا المعني بأنّ الجزم احتراز من الظّن و هو الاحتمال الراجح ، و من الشّك و هو : الاحتمال المساوي ، و من الوهم و هو الاحتمال المرجوح ، و يقصد بالمطابق و ذلك احترازا من الجهل المركب فإنّه جزم غير مطابق لما

[1] – يقول في ذلك : "لقد حكى لي بعض أصحابنا – عن بعض – ممن يتعاطى العلم بتلمسان ، و له أصل في رياسة العلم ، قال ، وصرّح لي بأن رأيه و عقيدته نفي المعاد البدني كرأي الفلاسفة ..وجادلته في ذلك مرارا و لم يقبل ، وزادوا على العامة بالجدال في الباطل و التكبر على الإنصاف للحقّ . انظر ، السنوسي – عمدة أهل التوفيق والتسديد : ص 58

[2] – هو بن يحي بن موسى المغراوي التلمساني ، فقيه و متصوف أخذ عن السّنوسي المنقول و المعقول له شرح جليل على أرجوزة أبي زيد عبد الرحمن السنوسي .انظر ، ابن مريم – البستان :ص 276 - 277

[3] – المصدر نفسه : ص 277

[4] – السنوسي – شرح صغرى الصغرى : ص 9

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

في نفس الأمر ، كجزم الفلاسفة بقدم الأفلاك ، و جزم اليهود و النّصارى بسلامتهم من الخلود في النّار يوم القيّامة [1].

و يذكر الإمام إلى أنّه إذا كانت العلوم المطلوبة- وكلّها عنده مطلوبة –فضرورة تحصيلها من طرقها المألوفة واجب ، و هو الاجتهاد في النّظر و التّعلّم من العلماء و إلزام التعسب في الدرّس و الرحلة في طلب الفوائد ، أي ضرورة توظيف العقل و الحس في المعرفة بالإضافة إلى طريق الخبر و الوحي ، و يؤكّد السنوسي هنا على بعض الآثار الواردة في هذا الشّأن ، نحو قوله تعالى لنبيّه يحي عليه السّلام " { يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ }[2] ، و قال لموسى عليه السّلام: { وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الألْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ }[3]، و قال تعالى : { فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ }[4]. فلقد كان السّلف الصّالح يرحل أحدهم لطلب الفائدة مسيرة شهر ، و لقد سافر كليم الله عليه السلام ، مع ما أعطي من كل علم شيء، للقاء الخضر عليه السلام حتى مسّه من التعب في ذلك وقال :{ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا }[5] .

و بالجملة فالعلم عند السنوسي هو الأساس و المنطلق في الممارسة الصوفي الذوقية ، لأنّه أصل و طريق الهداية و بالتّالي للإيمان ، و شرفه من شرف ثمرته و نتيجته والتي هي التّقوى ، فإن التقوى ثمرة العلم ، و العلم ثمرة الفكر والفكر نتيجة العقل .

[1] – المصدر السابق : ص 9
[2] – مريم الآية 12
[3] – الأعراف الآية 145
[4] – التوبة الآية 122
[5] – الكهف الآية 62

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثاني : العقل و مبررات الاعتماد عليه وحاجته للمنطق :

اهتمّ السنوسي بدراسة العقل في مواضع كثيرة من كتبه – كما اهتم من قبل بالعلم – و قد سار في ذلك على نهج أسلافه الأشاعرة الذين أولوا العقل عناية بالغة و اهتموا به اهتماما خاصا في بحوثهم كـ" الباقلاني " و " الجويني " ، إذ أنّه يخص العقل بنظرة وافية و تحليل دقيق من حيث حقيقة ذلك الشيء و التعريف بوظائفه ، على اعتبار أنّه مناط التّكليف و به يعرف التّوحيد و يقع التّقرب به إلى الله وعن طريقه تقع معرفة الله تعالى .

أولا : حقيقة العقل :

أ / العقل في اللغة :

العقل في اللغة : "مصدر عقل يعقل عقلا ، و رجل عاقل هو الجامع أمره و رأيه مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه ، و قيل : العاقل الذي يحبس نفسه و يردّها عن هواها ، أخذ من قولهم اعتقل لسانه إذا حبس و منع الكلام ، و العقل : التّثبّت في الأمور ، و سمي العقل عقلا لأنّه يعقل صاحبه عن التورّط في المهالك أي يحبسه ، و يقال : لفلان قلب عقول ، و لسان سؤول ، و قلب عقول: فَهِمٌ"[1] ، و في التعريفات : العقل : نور في القلب يعرف الحق والباطل [2] .

و الذي يظهر من معاني السابقة أنّ علماء اللغة قد ساروا مع التطّور اللفظي لمعنى العقل حيث أشاروا إلى الدّلالة اللغوية بجانب الدّلالة المعنوية و الوظيفة الأخلاقية للعقل فشملت هذه المعاني جانبين : جانب نظري و هو الفهم و الإدراك والعلم ، و جانب عملي في مجال الأخلاق

---

[1] – ابن منظور – لسان العرب ، تقديم عبد الله العلايلي، إعداد وتصنيف يوسف خياط و نديم مرعشلي ، د ط ، دار لسان العرب ، بيروت ، لبنان ، دت : ج 2 ص 445

[2] – الجرجاني – التعريفات ، تحقيق ابرهيم الابياري ، ط3 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، 1418هـ/ 1996م : ص 197

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وهو التّمييز بين الحقّ و الباطل و الخير والشّر ، و هنا تتعدّد الوظائف العقلية لـه [1]. و للعقـل جملة من المعاني نشير إلى بعضها باختصار و هي : الحجر ، و الحلم ، اللّب ، و القلب : وقـد أجمع أكثر المفسّرين على أنّ القلب هو العقل[2] .

ب / مفهوم العقل عند السنوسي :

يبدأ الإمام بالحديث عن بيان مفهوم العقل فيـذكر أن للفلاسـفة – كـسقراط [3] ، و أفلاطون [4] ، و أرسطو [5] ، وغيرهم – اصطلاحات متعددة و مختلفة [6] على معاني العقـل لا

---

1 – فاطمة إسماعيل – القرآن و النّظر العقلي ، ط 1 ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، فرجينيا ، و ، م ، أ ، 1993 م : ص 49 -50

2 – الحارث المحاسبي – العقل و فهم القرآن ، تحقيق حسين القوتلي ، ط2 ، دار الكندي ، 1978 م : ص 120 – 126

3 – سقراط Socrates حكيم مشهور من أهل أثينا ، عاش ما بين حوالي سنة 470 و 399 ق م . انظر ، ابن النّديم – الفهرست ، تعليق إبراهيم رمضان ، ط 1 ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، 1994م : ص 304

4 – هو أفلاطون بن أرسطن و اسمه باليونانية Platonn عاش ما بين حوالي 428 و 348 ق م أحد الحكماء الخمسة من اليونان أشهر كتبه ، كتاب السّياسة . المصدر نفسه : ص 304

5 – من عظماء فلاسفة اليونان ولد سنة 384 ق م بمدينة أسطاغيرا وهو واضع علم المنطق كلّه تقريبا لقب بالمعلّم الأول توفي سنة 322 ق م ، له عدّة مصنّفات منها ما بعد الطّبيعة ، السّياسة . انظر ، عبد الرحمن بدوي – موسوعة الفلسفة ، ط 1 ، المؤسّسة العربية للدّراسات و النّشر، بيروت، لبنان، 1984 :ج1 ص 98 - 132

6 – تعود بوادر الاهتمام بالعقل في الفكر البشري إلى الفلاسفة وخاصة منهم اليونان من أمثال سقراط، وأفلاطون ،و أرسطو، إذ رأى هؤلاء أن العقل أداة صالحة للمعرفة مزوّدة بالمقدرة على تحصيل الحقيقة المطلقة ، إذ أنّ هؤلاء ذهبوا إلى أنّ العقل أسمى من المحسّات وأنّه : ملكة منعزلة عن عالم الحس العاجز عن شرحها وتعليلها لأنّها لا تخضع في مقاييسها للتّجربة الحسّية وأنّـها أهل لمنحنا ذلك الحدس الجلي الذي هو أساس إدراك المطلق . فأرسطو مثلا يرى أنّ العقل نوع من النّفس يقبل المفـارقة أو الانفصال عن البدن كما ينفصل الشّيء الخالد عن الشّيء الفاسد ، كما أنّه في هذه الحالة هو وحده الشيء الإلهي ، والـذي يظهر أنّه يولد فينا جوهرا تام الوجود ، فهو أسمى قوى الإنسان ، كما يرى أرسطو أنّه مهما يكن من طبيعة هذا العقل فإنّـه يعجز عن إدراك أي شيء بنفسه ، لأنّه عقل بالقوّة ، لا يمكن أن يصبح شيء بالفعل إلاّ بتأثير شيء آخر يوجد وجودا فعليـا، وهو العقل الفعّال، وقد وضع أرسطو بذلك نفسه أمام مشكلة لم يوضّحها واختلف فيما بعد شرّاحه، وهي عن العقل الفعّـال هل هو جزء منّا أم لا ؟ الأمر الذي جعل شرّاحه– يحاولون إيجاد حل لهذه المعضلة فذهبوا إلى أنّ العقل الفعّال الذي ليس جزءا من أجزاء النّفس بل هو الإله . و الذي يبدو في تعريف أرسطو للعقل أنّه بحث في ماهية العقل و أهمل اهتمامه بوظائفه . انظر ، محمد العربي بوعزيزي – نظرية المعرفة عند الرازي من خلال تفسيره ، ط 1 ، دار الفكر العربي ، بيروت ، لبنان ، 1999 م : ص 289 . و إبراهيم مصطفى إبراهيم – مفهوم العقل في الفكر الفلسفي ، دط ، دار النهضة العربية، ، بيروت ، لبنـان، 1993 : ص59

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يحتاج لذكرها [1] . و عدم تعرّضه لذلك يعود إلى موقفه المبدئي من اصطلاحاتهم التي هي في اعتقاده اصطلاحات و عبارات أكثرها أسماء بلا مسمّيات [2].

و يذكر السنوسي أنّ العقل يطلق في اصطلاح أهل العرف على صحة الفطرة و على صحة الفطنة و على كثرة التّجربة ، و على الهيئة المستحسنة للإنسان في حركاته و سكناته ، وهو هنا لا يجيز استعمالات المعتزلة للعقل الذي رأوا أنّه هو ما يعرف به قبح القبيح و حسن الحسن ، وهو في اعتقاده يعود بناءا على فساد أصلهم أنّ الحسن و القبح وصف يمكن تعقّله لا من جهة الشرع [3] .

و يمضي الإمام في استعراض آراء أهل السّنة ؛ فيذكر أنّ منهم من قال : العقل هو العلم، و لهذا يقال لمن علم شيئا عقله ، و من عقل شيئا علم و هو اختيار أبو إسحاق الأسفرايني[4]. و منهم من قال : إنّه غريزة يتوصّل بها إلى المعرفة . و يظهر تعريف العقل بهذا المعنى عنده غير مناسب ، و لذلك قدّم بشأنه الاعتراض التالي : فإن أراد بالغريزة العلم لزمه أن من فاته بعض العلوم لا يكون عاقلا ، و إن أراد بها غير العلم ، فقد لا نسلم وجود أمر وراء العلم يتوصّل به إلى المعرفة ، و هو ممّا تعسر الدّلالة عليه [5] . و يختتم الإمام محمد بن يوسف السنوسي بحثه و دراسته لهذه المسألة إلى ما اختاره القاضي الباقلاني و تبعه عليه إمام الحرمين الجويني [6] ، أنّ العقل بعض العلوم الضّرورية كالعلم باستحالة اجتماع الضّدين ، و أنّه لا واسطة بين النّفي و الإثبات ، و أنّ الموجود لا يخرج عن أن يكون قديما أو حادثا [7].

[1] - السنوسي – عمدة أهل التّوفيق و التسديد : ص 38

[2] - السنوسي – شرح أم البراهين : ص 28

[3] - السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 38 -39

[4] - هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الأسفرايني الملقّب بركن الدّين ، الفقيه الشافعي المتكلّم الأصولي الأشعري توفي بنيصبور سنة 418 هـ . ابن خلكان – وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان : ج 1 ص 28

[5] - السنوسي – المنهج السديد شرح كفاية المريد : ص 39

[6] ورد في البرهان للجويني تعريف آخر للعقل "فإن قيل مالعقل عندكم قلنا ليس الكلام فيه بالهين ...فالقدر الذي يحتمل ذكره " أنه صفة إذا ثبتت تأتي بها على التوصل إلى العلوم النظرية ومقدماتها من الضروريات التي هي مستند النظريات" . الجويني - البرهان في أصول الفقه ، تحقيق عبد العظيم الديب، ط3 ، دار الوفاء للطباعة و النشر و التوزيع ، المنصورة ، مصر ، 1992م : ص95-96

[7] - السنوسي – النهج السديد : ص 40

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و يعتبر السنوسي أنّ إمام الحرمين احتجّ على صحة هذا الاختيار بطريقة جامعة مانعة ، و ينقل هنا نصا واسعا في هذا الاحتجاج فقال : " العقل موجود إذ كان نفيا محضا لما اختص به ذات دون ذات ، و إذا كان موجودا ، فإمّا أن يكون قديما أو حادثا لا جائزا أن يكون قديما إذا لا قديم غير الله تعالى و صفاته ، كما هو معلوم في مسألة حدوث العالم ، و لا وجود للإله ، و لا لشيء من صفاته في شيء من المحدثات ، فلا يوجب كون شيء منها عاقلا ، فإنّ حكم الذّات لا يكون ثابتا إلاّ لما قام بها ، و على هذا فقد بطل قول الحشوية بأنّ العقل قديم ، و إذا تعيّن أن يكون العقل حادثا ، فهو إمّا جوهر أو عرض لا جائر أن يكون جوهرا ، إذ الجواهر متماثلة فلو كان بعض الجواهر عقلا لكان كلّ جوهر عقلا لأنّ ما ثبت لأحد المثلين ثبت للأخر و أيضا لو كان جوهرا لما ثبت به للعاقل حكم لأنّ الأحكام إنّما تثبت للجواهر لا بها ، و إنّ كان عرضا فلا يمكن أن يكون عبارة عن مجموع الأعراض ، فإذا هو بعض الأعراض ، فإذا ما أن يكون من العلوم أو من غيرها لا جائز أن يكون من غير العلوم و إلاّ لصلح أن يتّصف بالعقل من لم يعلم شيئا ، كيف و ما من شيء من أجناس الأعراض إلاّ و يمكن تقدير العقل مع عدمه ، ما عدا العلوم ، و ما يصحبها ، و إذا كان من العلوم فلا جاز أن يكون كل العلوم ، لا تصاف الإنسان بالعقل مع تعريه عن معظمها ، و إذا كان بعض العلوم ، فإمّا أن يكون ضروريا أو نظريا لا جائز أن يكون نظريا ، إذا العقل شرط في العلم النّظري ، فلو كان العقل نظريا لكان دورا ، و أيضا فقد يتّصف بالعقل من ينظر و لم يستدل أصلا ، و إذا كان ضروريا ، فلا يمكن أن يكون مجموع العلوم الضّرورية ، فإن العلم بالمحسوسات من جملتها ، و قد يتّصف بالعقل من لم يدرك شيء منها – وفي رواية شيئا وهو أصح – فإذا بعض العلوم الضّرورية "[1].

و هذا الذي انتهي إليه الجويني ، هو الذي اختاره السنوسي و قال به .

غير أنّ الشيء الذي يستوقفنا هنا ، هو البحث عن دواعي هذا الاختيار لدى السنوسي . الواقع أن دوافع هذا الاختيار و القول به لدى الإمام كثيرة إلاّ أنّنا سنقتصر على أهمها :

[1] – المصدر السابق : ص 41

أوّلا : نزعة التأثير بالمدرسة الأشعرية و مقولتها بشكل عام و هو أمر تؤكده كتابته العقدية و اتجاهه الكلامي ، كما أنّ هذه النزعة تظهر في أشدّ ما تظهر بالجويني على وجه التحديد، و في اعتقادنا أنّ هذه القناعة لها ما يفسرها ؛ فقد ذكر كل من ترجم للسنوسي أنّه تلقى مبادئه الأولى في علم التوحيد علي يد " أبي القاسم الكنابشي " و ذلك من خلال كتاب إمام الحرمين " الإرشاد " [1] ، و قد كانت من نتائج هذه المرحلة – على حسب ما يبدو– أنّها تركت في نفس السنوسي انطباعا حسنا اتجاه بعض آراء الإمام الجويني بعد ذلك من بينها تصوره ومفهموه للعقل .

ثانيا : إنّ المتمعن في آراء السنوسي يظفر أنّه حمل حملة نكراء على دعاة التّقليد في الاعتقاد ، على أساس أنّه من جهة يضرّ بالعقيدة أولا ، و من جهة ثانية أنّه لا مبرّر للمقلّد و من عجز النّظر و الاستدلال ؛ بناء على أنّ النّاس عنده يشتركون في الموازين العقلية لأنّ العقل واحد لدى جميع الناس ، و عليه فمن لم يدرك هذه الموازين فليس بعاقل و لا يأتي منه نظر و لا استدلال صحيح أصلا ، بل أنّ الجهل بهذه القواعد العقلية ، قد يؤدي بصاحبه إلى الظلال [2] .

و إذن فالعقل عند السنوسي هو بعض العلوم الضّرورية ، و هو: كل علم ضروري يمتنع خلو الموصوف بالعقل منه و لا يشاركه فيه من ليس بعاقل كالعلم بأنّ الضّدين لا يجتمعان ، و أنّ الموجود لا يخرج عن كونه قديما أو حادثا و نحوه .

و على الجملة فإنّ ما يمكن أن نخلص إليه أنّه مهما اختلفت عبارات علماء الإسلام – و من جملتهم السنوسي – حول تحديد مفهوم العقل فهو عند جميعهم وسيلة للإدراك و هو مناط التكليف ، و هو قوة متميّزة في الإنسان تعرّفه بالحق و الخير و تهديه إليهما و بالباطل و الشّر و تبعده عنهما ، فهو قوة كاشفة و موجّهة في نفس الوقت .

[1] – أحمد بابا التنبكتي – نيل الابتهاج بتطريز الديباج : 325 . و محمد بن مريم – البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان : ص 238

[2] – السنوسي – المقدّمات ، عن أبي إسحاق إبراهيم الأندلسي البناني ، المواهب الرّبانية في شرح مقدّمات السنوسي ، المطبعة اليمنية ، مصر ، 1324 هـ : ص 139 -143

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا: مبررات الاعتماد على العقل و عوائقه في الوصول للحق :

أ/ – مبررات الاعتماد على العقل كأساس و منطلق : مبررات الاعتماد على العقل عند الإمام السنوسي كأساس و منطلق بالنسبة للمؤمن السالك طريق الحق كثيرة أهمها :

أولا – دعوة القرآن إلى إعمال العقل : لقد جاء خطاب القرآن موجّها إلى العقل ، ونهج في ذلك منهجا أساسه و قوامه النّظر العقلي و التّدبّر و التّبصّر و إعمال الفكر ، و ليس في القرآن آية من آياته تخلو من إشارة دالّة أو لمحة موحية للعقل الإنساني تدلّه و ترشده إلى العلم والمعرفة إلى الحدّ الذي جعل كثير من العلماء يعتبر النّظر العقلي و أدلّته التي أشار إليها القرآن وجها من وجوه إعجازه ،و كلّ آية في القرآن ذامة التقليد وآمرة بالنظّر والاعتبار ، دليل ذلك[1] .

و لم يقف القرآن عند حد الأمر بالنّظر و العقل و التكليف به ، بل وضع أمام عقل الإنسان نماذج للتّفكير ، كمثل الأستاذ – و لله المثل الأعلى – الذي يلقي التّوجيهات على تلامذته ، ثمّ يقدّم لهم مادّة ليطبّقوا عليها ، و هذه أقوم الطّرق في التّعليم و التّوجيه و الإرشاد[2] . قال تعالى :{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ، وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ، وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ }[3] .

فالقرآن الكريم لا يذكر العقل إلاّ في مقام التّعظيم و التنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه ، و لا تأتي الإشارة إليه عارضة و لا مقتضبة في سياق الآية ، بل هي تأتي في كلّ موضع من مواضعها مؤكّدة جازمة باللفظ و الدّلالة ، و تتكرّر في كل معرض من معارض الأمر والنّهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله أو يلام فيها المنكر على إهماله له و قبول الحجر عليه[4] .

[1] – السنوسي – عمدة أهل التوفيق و التسديد : ص 30

[2] – سليمان دنيا – التفكير الفلسفي في الإسلام ، ط 1، مكتبة الخانجي ، مصر ، 1967م : ص 223 - 224

[3] – يس الآية 71 –73

[4] – عباس محمود العقاد – التفكير فريضة إسلامية ، دط ، مكتبة رحاب ، الجزائر ، دت : ص 5

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا – العقل عام في الناس بحسب الخلقة : من مبررات الاعتماد على العقل كأساس ومنطلق عند السنوسي اعتبار أنّ العقل عام في الناس بحسب الخلقة و الذي يفسر ذلك عنده ، الأمر القرآني بالتدبّر متّجها إلى كافة الناس ، و لو لم يكن ذلك القدر حاصلا عند كافة الناس ، ما كان الخطاب القرآني عاما بهم ، و لما كان العقل واحدا لدى جميع الناس و من ثمة كانوا يشتركون في الموازين العقلية ، و عليه ، فمن لم يدرك هذه الموازين، فليس بعاقل ، و هذه الموازين التي يقصدها السنوسي ، إنّما هي أقسام الحكم العقلي من معرفة الواجب و المستحيل ، و الممكن، فمن لا يعرف هذه المسائل فإنّه لا يأتي منه نظر و لا استدلال صحيح أصلا ، بل إنّ الجهل بهذه القواعد العقلية في الميدان العقائدي ، قد يؤدي بصاحبه إلى الكفر و البدعة ، يقول السنوسي : " فلا شك أنّ الجهل بذلك -- أي الأحكام العقلية -- قد يجرّ إلى الكفر " [1] . فالعقل إذا بهذا حق مشترك و إنّ كانت مستويات النّاس تختلف في الفهم لدى العوام و الخواص و في الفئة الواحدة ، من هذا إلى ذاك ، فإنّه مع ذلك يبقى العقل واحدا في أحكامه و مقولاته عند الجميع [2] .

لقد كان السنوسي متكّلما ، و العقل مرتبط أشد الارتباط عنده بالنّظر و علم الكلام ، ومن هنا فإنّه كان حريصا على تأسيس ما يبلّغه للناس ، في المشافهة و التأليف ، على البراهين العقلية ، و لا يسمح لنفسه بالتّنازل عن هذا المبدأ مهما كان قصر الموضوع أو تدنّي مستوى العوام ، لأنّ الإنسان -- كما يفهم من خلال طريقته في التّدريس و الكتابة -- لا يخلو من أدنى نصيب من التّعقل ، ففي قدرته ، استقبال الحقائق العقائدية و الفكرية ، إذا كانت على الصورة

[1] – السنوسي– شرح المقدّمات :ص 137
[2] – بوقلي حسن– ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية و الواقع :ص 539

العقلية المجملة [1] . و الدّليل الجملي [2] الذي تجب معرفته على جميع المكلّفين هو الذي يحصل في الجملة للمكلّف العلم و الطّمأنينة بعقائد الإيمان [3] .

ب/– العوائق التي تعترض العقل في الوصول للحق :

إنّ الاستدلال يكون بالعقل ، و قد تأتي على العقل عوامل تعوقه عن أداء وظيفته في النّظر ، فإذا هو خامل لا يقصد إلى النّظر أصلا ، أو هو ينظر نظرا فاسدا فلا يكون له مبلغ إلى المعرفة لا في هذا و لا في ذاك ، و لذلك نجد السنوسي ينبّه إلى جملة هذه العوائق ، و يدعو إلى إعداد العقل بشروط تمكّنه من ممارسة النّظر الصّحيح إلى المعرفة ، و تحريره من كلّ ما شأنه أن يكبّله بإلزامات مسبقة تحدّد وجهته في قناعات معيّنة يثبت عليها ، فينصرف عن الحركة الحرّة في النّظر ، تلك الحركة التي تتعامل مع المعطيات الموضوعية مباشرة .

وأهمّ ما يجب أن يتحرّر منه العقل هو :

أولا– المورّثات المظلّة المنحدرة عن الآباء : و هي تلك التي جمد عليها العقل بالتّقليد فأصبحت تعيقه عن النّظر بموضوعية في كلّ ما يعرض عليه ، ذلك لأنّ التقليد يلغي عمل العقل ، و المقلّد حين يقبل قول الغير دون حجة أو دليل يصبح إمّعة [4] . لهذا نجد القرآن الكريم دعا إلى التّحرّر من هذه المورثات ، و أنكر إنكارا شديدا على أولئك الذين أعرضوا عن الحق الذي دعوا إليه بسبب تشبثهم بما وجدوا عليه آباءهم باعتبار أنّه موروث فحسب ، دون التفات بالتأمّل إلى ما يرد مخالفا له من الرأي ، و قد وردت في هذه المعاني آيات كثيرة تصوّر موقف المقلّدين

[1] – المرجع السابق : ص 539

[2] – سئل " البرعي " عن معنى ولو بطريق الإجمال في كلام الشيخ السنوسي فأجاب :" والاستدلال بطريق الإجمال هو الاستدلال بوجود المخلوقات متغيرة قابلة للعدم أصلا وحالا ومآلا على وجود خالقها وقدمه وبقائه ، أي على وجوده أزلا و أبدا ، ومن صور ذلك قول " أبي عمر الجورائي " : بالمخلوقات يعرف الخالق كما أن بالمصنوعات يعرف الصانع " . انظر ، محمد بن ناصر البرعي – الكنوز الصفية، مخطوط ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ، مجموع رقم (1307) : لوحة 64ص 127-128

[3] – السنوسي– شرح أم البراهين : ص 27

[4] – المصدر نفسه : ص 27

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عندما يدعون إلى الإيمان وذلك في مثل قوله تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ}[1]، وفي سورة المائدة يقول سبحانه و تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ}[2].ففي هذا الاستنكار التسفيهي لهذا الموقف دعوة إلى التّحرّر العقلي من سطوة الموّرثات، والتعامل مع ما يعرض من الأطاريح بما يقتضيه التّدبر الصحيح المفضي إلى قبول الحقّ ورفض الباطل .

أمّا أسباب ذلك فكثيرة منها أنّ للانصراف إلى البحث و النّظر و الجمود على التّقليد يحتاج إلى كثير من التعب و العناء، و الإنسان يميل إلى الرّاحة و إلى عدم بذل الجهد فهو يؤثّر الطّرق السّهلة و المعبّدة التي شقّها له غيره، و منها الاشتغال بتحصيل العيش و طلب الشّهرة والمال و السلطان، و من أهمّ الأسباب التي تصرف الإنسان كذلك عن البحث و النّظر والاستكانة إلى الموّرثات، هو خوف الإنسان من أن لا يجد في النّظر و البحث ما يجده في التسليم المطلق لما عليه السّلف المعظّمون، و ربّما يمرّ بباله التّفكير في خلق الله، فيردّه الشّيطان من الإنس و الجن فيقول له إن تفكّرت فقد تشككت فيعرض عن النّظر[3] .

ثانيا – أهواء النّفس : من حواجب النّظر الصّحيح عند السنوسي الأخرى، الهوى، الذي يميل بالعقل عن طريق التّفكّر ليصل به إلى تقرير أحكام لا تقوم على أساس من الحجة، بل تحصل بمجرّد التشهي، ذلك أنّ أهواء النّفوس و شهواتها قد تستبدّ بالإنسان فتصبح هي المسيّر له في سائر تصرّفاته، و تتكّون له من ذلك حال مألوفة تجري عليها حياته، يقول السنوسي في ذلك: " و لقد علم أنّ أحكام الوهم، و رسوخ العوائد و المألوفات، تزحم النّظر الصّحيح، مزاحمة لا ينفكّ عنها إلاّ بعسر ليس فوقه عسر، لولا التّوفيق الإلهي، و التأييد الرّباني"[4] . فالهوى يعمي و يصم، و اتّباع العواطف قد يظّل الإنسان عن الحقّ ولهذا عاب القرآن على الذين يتّبعون

[1] – البقرة الآية 170

[2] - المائدة 104

[3] - السنوسي – عمدة أهل التوفيق و التسديد ص : 53

[4] – المصدر نفسه :ص 59

أهواءهم بغير علم فقال في شأنهم: :{ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }[1]. وفي سورة الجاثية { أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ }[2]. وفي سورة أخرى يقول : {أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا،أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا }[3].

ثالثا – الجهـــــل : و ممّا يزاحم النّظر الصّحيح ، الجهل ، و هو عند السنوسي علـــى ضربين ، جهل بسيط و جهل مركّب ، فأما الجهل البسيط فهو عدم إدراك أمر من الأمور والغفلة عنه ، و أمّا المركّب فإنّه و ثوق النّفس من العقليات بما ليس برهانيا من الأدلّة[4] .

أمّا أسبابه ، فهي عند العامة نتيجة عدم الاعتناء بحضور مجالس العلماء و مخالطة أهـــل الخير فإذا كان هذا حالهم وقعت منهم اعتقادات منحرفة بعضها إلى الكفر أقرب ، أمّا حـــصولها عند العلماء فذلك نتيجة الإطّلاع على بعض العلوم من غير إتقان الأصول ، من ذلك مثلا ، ما حصل لبعض علماء تلمسان ، فسبب إنكارهم للبعث البدني جاء كنتيجة لمطالعتهم بعض كتب الفلاسفة قبل إتقان التّوحيد على شيخ عارف[5] .

و على هذا فإنّ صاحب الجهل البسيط متى جاء من ينبّهه بطلب العلم أو جاء من يعلّمه فإنّه يجيب إلى ذلك ، بما جبلت عليه النّفوس من النّفرة إلى الجهل البسيط ، أمّا صاحب الجهــل المركّب فإن وثوق نفسه بما هو عليه من الإصابة يحمله على العجب و الزهو فيكون مانعا له من النّظر الصّحيح ، الذي يطلع صاحبه على الوجه الأكمل[6] .

---

[1] – القصص الآية 50
[2] – الجاثية الآية 23
[3] – الفرقان الآية 43 – 44
[4] – السنوسي – شرح المقدّمات : ص 125
[5] – السنوسي – عمدة أهل التوفيق و التسديد : ص 57 – 58
[6] – السنوسي – شرح المقدّمات : ص 125

ثالثا – حاجة العقل إلى المنطق :

لقد التزم السنوسي في حياته بموقف معيّن ، هو الدّفاع عن عقيدة أهل السّنة ، و قد حصر همّه كلّه في نشرها و ترسيخها في النّفوس و قد كانت أهم الحقائق الإيمانية عنده هي : وجود الله و وحدانيته و صدق الرسول و إثبات الوحي و التنزيل ، ثم ممارسة الذوق و التصوف، و قيمة العقل عنده ، هي بالنسبة لقدرته على القيام بهذه المهمّة . و لمّا كان هذا العقل لا يؤمن عليه من الخطأ ، كان لابدّ من استخدام قواعد عقلية تعصمه من الشطط ، و هذه القواعد هي المنطق و مقدّماته .

فالمنطق بهذا يعدّ الأداة الأساسية التي تساعدنا و تمكّننا من معرفة الحقيقة و بيانها ، وإزالة الغموض عنها أي فهو " قانون تعصم مراعاته – بتوفيق الله تعالى – الذهن من الخطأ في فكره كما يعصم النّحو اللسان من اللحن ، بالإضافة إلى هذا ، فإنّه يسهل للعقل وعر الأنظار ، ويتسّع به مجال الفكر مع الراحة و الأمن من الخطأ في سلوك مفاوز الاعتبار "[1] .

إذن فلكي يتسنى للعقل الوصول إلى نتائج صحيحة عليه أن يلتزم بطرق الفكر الأساسية و المتمثلة بشكل خاص في المقدّمات المنطقية ، و لذلك يعيب السنوسي على كلّ من رفض المنطق وقواعده " و الذي يصرح بتحريمه هو الذي لا معرفة له بحقيقته "[2] .

معنى هذا أنّ الذين رفضوا المنطق لم يرفضوه لعجزه عن الوصول إلى المعرفة و إنّما رفضوه انطلاقا من أفكار مسبقة ، كأن يكون دخيلا على العلوم الإسلامية ، على اعتبار أنّه لم يقل به السلف أو نحوه .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] – السنوسي – شرح المختصر في المنطق : ص 04 . و كتابه – شرح إيساغوجي في المنطق ، مخطوط ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ، رقم 1382 : لوحة 02 ص 02

[2] – السنوسي – شرح المختصر في المنطق : 04

كما أنّه في هذا يبدو متأثرا بــ" الغزالي" و بــ" ابن عرفة " ، فالسنوسي يعتبر امتدادا لــ" الغزالي "و ممّا تأثر به تنقيته المنطق من ميتافيزيقيا اليونان و ملئه بعلم الكلام الإسلامي ، و قد كان منطق السنوسي أكثر ميتافيزيقا من منطق " الغزالي " ممّا جعله يبــدأ كتابــه "المقــدّمات وشرحه" – و هو كتاب في علم الكلام – بدءا منطقيّا .. بالإضافة إلى هذا فإنّ شرح السنوسي لمختصره في المنطق مليء بالأمثلة من علم العقيدة كالبراهين على وجود الله و حدوث العالم و غير ذلك " [1] .

و لأهمّية المنطق عنده فقد ألّف فيه كتبا عديدة [2] ، منها كتاب مختــصر في المنطــق ثمّ شرحه بعد ذلك ، و يظهر فيه أنّه متمرس به متمكّنا من قواعده و هو كتابه "شرح المختصر في المنطق" ، قد قرّر فيه مسائل المنطق على طريقة المختصرات التي آل إليها التأليف في العلوم في ذلك العهد ، فابتدأه كعادة المناطقة بقسم التّصور ، فقرّر مبحث الألفاظ من حيث الدّلالة و أنواعها ، ثمّ التعريفات و أنواعها ، ثمّ انتقل إلى قسم التصديق فبحث القضية و أنواعها ، و أورد بعد ذلك أحكامها من تناقض و عكس و تلازم و انتهى إلى القياس و أنواعه و لواحقه ، و قد أورد فيــه أقوال المؤلّفين السّابقين من أمثال " ابن عرفة " و غيره .

إنّنا نلمس من خلال هذا الكتاب أنّه اعتمد أسلوب الإيجاز ، و لكن الجدير بالتّنبيه عليه هو أنّ السنوسي لم يكن من الذين ملك المنطق عليهم نفوسهم فأعجبوا به إعجابا مبالغا فيه وإنّما كان ينظر إليه كعلم دعت الحاجة الظرفية إليه ، و لهذا فإنّه ينبغي الاستعانة به ومعرفته . و رغم تأثر السنوسي بــ" الغزالي " و " ابن عرفة " إلاّ أنّه كان له اجتهاده الخاص في ذلك فنجده قــد خالفهما في كثير من المسائل و يظهر ذلك في إهماله الناحية المادّية في المنطق ، و تأكيــده علــى النّاحية العملية الوظيفية [3] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] – اسعيد عليوان – محمد بن يوسف السنوسي وشرحه لمختصره في المنطق : ص 130.و ابن يعقوب – لوامع النظر في تحقيق معاني المختصر مخطوط ، مكتبة الأساتذة ، ثانوية المشور (حامد بن ددان) ، تلمسان ، الجزائر ، بدون ترقيم : لوحة 73 ص145

[2] – انظر ، المبحث الخاص بآثاره – الفصل من هذه الدراسة –

[3] – اسعيد عليوان – محمد بن يوسف السنوسي وشرحه لمختصره في المنطق : ص 132

كما أنّ منهج السنوسي في المنطق يقوم على الواقعية ، إذ أنّه راع فيه العصر الذي كان يعيش فيه و روحه ، فهو لم يخرج في ذلك عن طريقة كتابة المختصرات التي كان المفكّرون يتبعونها بمختلف فروع المعرفة الإسلامية وذلك بسبب قصور الهمم وعجزها عن فهم المطولات[1].

و ممّا يجب ملاحظته هنا هو أنّ تعلّم المنطق ليس عاما لكل أحد ، فصاحب العقل الذكيّ و الطّبع السّليم لا يحتاج إليه ، و هنا ينبغي التّمييز بين شيئين ، بين معاني قواعد المنطق المركوزة في عقل كلّ أحد و تعلّم اصطلاحاته و ضبط قواعده ، فمعاني قواعد المنطق فطرية لا يستطيع أي إنسان طلب العلوم المكتسبة بدونها [2] .

و مهما يكن من أمر فإنّنا نجد السنوسي استخدم المنطق و مقدّماته لخدمة العقل و علم الكلام و تقوية أدلّته وحججه و بعيدا عن منطق الرفض لـه ، و يكاد المزج بين المنطق وعلم الكلام يشمل جميع كتبه الكلامية و أشدّ ما يظهر ذلك في كتابه "المقدّمات" و شرحه له ، لأنّه كان يعتبر أنّ علوم الشريعة هي من جملة العلوم التي ينبغي أن يستخدم فيها المنطق ، لأنّ العلوم كلّها تصبح طوع اليد لمن أتقنه .

---

[1] – المرجع السابق : ص 133

[2] – السنوسي – شرح المختصر في المنطق : ص 04

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني :

تأسيس القاعدة العقائدية على مبدأ البرهان

لقد جعل السنوسي للعقل مكانة كبرى في بناء العقيدة الإسلامية و تثبيت دعائمها وترسيخ قواعدها ، و ذلك لكي تقع موقع اليقين من صاحبها ، انطلاقا من كون أنّ الإسلام أعطى لكل من يدين به حقّه في النّظر في أصول عقيدته ، لأنّ خطاب القرآن موجّه للعقل في معالجة هذه الأمور الاعتقادية ، فأقام الأدلّة العقلية على الألوهية – وجودا و وحدانية – وكذلك على إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلّم . و ليسهل – أيضا – على السّالك طريق الحق ممارسة الذوق و التصوف على بصيرة و هدى ، فلا يقع في الشطط أو الانحراف ، لأنّ التصوف عند السنوسي في النهاية سلّم و طريق إلى ثمرات الإيمان لأنّه تنبيه على بعض ما تثمره معرفة الله تعالى ، و معرفة صدق رسله عليهم الصلاة و السّلام المؤسس على الدليل والبرهان لمن تأمّل و استبصر .

و لكي نتبين هذه المسألة بوضوح ، ارتأينا أن نخصّص هذا المبحث بدراسة طبيعة مبدأ البرهان، و دوره في إثبات وجود الغيبيات عند السنوسي ، و ما حسّنة في ذلك من أدلة وبراهين.

المطلب الأول : طبيعة مبدأ البرهان .

البرهان العقلي هو أساس العقيدة عند السنوسي ، فما هي طبيعة هذا البرهان ؟

هو دليل مركّب من مقدّمات قطعية ضرورية في نفسها أو منتهية في الاستدلال عليها إلى علوم ضرورية ، يقول السنوسي في شرح الوسطى : "و أمّا البرهان فحقيقته ما تركّب من

مقدّمات ضرورية كلّها أو منتهية إلى الضرورة ، و إن شئت قلت ، هو ما تركّب من مقدّمات يقينية كلّها "[1].

و إذا سألت عن الغاية من البرهان العقلي أجابك : " و الغرض من البرهان تحصيل اليقين ، و وصفه في العقيدة بالقاطع لكشف معناه لا للتخصيص ، إذ لا يكون البرهان إلاّ قاطعا و يقابله الجدل و الخطابة و الشّعر و المغالطة "[2] . وكونه برهانا يعني كونه قاطعا ، و ذلك لتركيبه من مقدّمتين يقينيتين ، و اليقينيات أقسام منها : أوّليات و تسمّى بديهيات ، و مشاهدات و تسمّى حسّيات ؛ و هي ما يجزم العقل به عن طريق الحس ، و تجريبيات ، و متوتّرات[3] .

و البرهان عند السنوسي هو أحد أقسام الحجة العقلية لأنّ الحجة تنقسم بحسب مادّتها وحقيقتها إلى : حجّة عقلية وحجّة نقلية ، كما أنّ الحجة العقلية فخمسة أقسام : برهان ، جدل، خطابة ، شعر ، و مغالطة . و الغرض من الجدل ينحصر في : " إمّا لإقناع قاصر عن البرهان ، أو إلزام الخصم ودفعه ، بينما الغرض من الخطابة يتمثّل في ترغيب النّفس ، أمّا الشّعر فغرضه انفعال النّفس ، و أمّا المغالطة فهي سفسطة..أمّا الغرض و الغاية من البرهان فيتمثّل في حصول العلم اليقيني "[4] .

و على هذا الأساس ، أي أساس البرهان العقلي ، ينطلق السنوسي بوضع العقيدة وتأسيسها كاملة و تحويطها ثم تقديمها إلى المكلّفين ، كلّ المكلّفين دون استثناء[5] . و انطلاقا من ذلك يقرّر السنوسي أنّ المكلّف مطالب أن يعرف من العقيدة بالبرهان القاطع ؛ العلم بالله تعالى ومما يتعلّق به ، و العلم برسله عليهم السّلام ، " فيعرف ما يجب في حق مولانا جل وعز ما

[1] – السنوسي – شرح العقيدة الوسطى : ص 75

[2] – المصدر نفسه : ص 76

[3] – السنوسي – عمدة أهل التوفيق والتسديد : ص 25

[4] – المصدر نفسه : ص 21

[5] – بوقلي حسن – ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد : ص 103

يستحيل و ما يجوز ، و كذلك يجب عليه أن يعرف مثل ذلك في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام "[1] .

و المتأمل على فحوى و مضمون العقيدة عند السنوسي مع أمهات براهينها يلمس كيف أنّه استطاع أن يحصنها بالدليل العقلي أو يزاوجها بالحجة المقنعة ، و لا يسمح لنفسه أو يسعى لفرض مضمون توحيده فرضا ، كما أنّه إذا حدث أن استشهد في عقيدة من توحيده بآية من القرآن إلى جانب الحجة العقلية ، فإنّه لا يفوته التنوية بعلاقة هذه العقيدة بالنقل كما هو الأمر في صفات الله تعالى[2] ، يقول السنوسي عن هذا الأمر : " فإنّ تعليم العقائد الصحيحة ، ثمّ تأييدها مع ذلك ، بالبراهين القطعية ، المتضح فهمها لديهم بطول التكرار الذي يوجب للنفس الطّمأنينة ، و عدم قبولها التشكيك بوجه من الوجوه ، فلا يخفى أنّ هذا من أعظم النّصيحة لهم "[3].

وعلى هذا فغاية علم الكلام أو التوحيد لا تنحصر على مجرّد الدّفاع على العقيدة ضدّ التّحديات الواردة عليها وإنّما غايته كذلك تحصين إيمان المكلّفين بالبرهان ضدّ الشّبهات و الجهل و إسكان القلب بالاطمئنان و التقوى .

[1] - السنوسي – شرح أم البراهين : ص 25

[2] - بوقلي حسن – الإمام ابن يوسف وعلم التوحيد : ص 164 -165

[3] - السنوسي – شرح العقيدة الوسطى : ص25

المطلب الثاني : البرهان العقلي على قضايا العقيدة .

أولا : البرهان العقلي على وجود الله .

الإيمان بوجوده تعالى هو أساس العقيدة الإسلامية وجوهرها ، فكلّ مسائلها إنّما هي فروع من هذا الإيمان ، بما في ذلك الإيمان بصفاته تعالى ، ذلك أنّه بقدر ما يكون الإيمان بوجوده تعالى متأسّسا على أصل متين من اليقين بقدر ما يكون الإيمان بالعقيدة الإسلامية عامّة قائمة في النّفس موقع الثّبات و الرسوخ و العكس صحيح ، فكلّما أصاب هذا الإيمان غفلة و نسيان أصبحت العقيدة كلّها في حال من الضّعف و الاضطراب .

و لّما كان الأمر كذلك ، اعتبرت قضيّة الاستدلال على وجود الله عزّ و جلّ من أهم القضايا التي شُغل بها مفكّروا الإسلام و نالت عناية فائقة عندهم ، و من هنا جاء اهتمام السنوسي البالغ بهذه القضية ، و يظهر ذلك فيما قدّمه في هذا الصّدد ، و ما ارتضاه من أدلة في ذلك ، و الباحث في مؤلّفات السنوسي يعثر على دليلين استعملهما في إثبات وجود الله و هما التاليان :

أ / دليل حدوث النفس :

تعتمد هذه الدّلالة من جهة ما يعرض للإنسان في حياته من أطوار ، كما تعتمد من جهة أخرى على أنّه خلق في أحسن تقويم ، و ملخص هذا الدّليل عند السنوسي هو " أن تنظر إلى أقرب الأشياء إليك ، و ذلك نفسك قال تعالى : [وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ][1] فتعلم على الضّرورة أنّك لم تكن ثمّ كنت ، فتعلم أنّ لك موجدا أوجدك ، لاستحالة أن توجد نفسك، وإلاّ لأمكن ما هو أهون عليك من نفسك ، و هو ذات غيرك لمساواته لك في الإمكان " [2]. فإنّ الإنسان إذا تأمّل في نفسه وفق هذا النّسق توصّل إلى إدراك وجود الله قطعا .

[1] - الذريات الآية 21

[2] - السنوسي – عمدة أهل التوفيق و التسديد : ص70- 71

و كيفية النظم للاستدلال بالنّفس عند السنوسي يقوم أن تقول : أنا لم أكن ثمّ كنت أو أنا موجود بعد عدم ، أو أنا حادث – وكلّها عنده بمعنى واحد – وكل من لم يكن ثمّ كان أوكل موجود بعد عدم ، أوكل حادث فله موجد أوجده ، فينتج عن هذا البرهان : أنا لي موجد أوجدني [1] .

و هذا الدّليل هو وجه تطبيقي لمبدأ البرهان العقلي الذي يعتمده السنوسي كثيرا في تأسيس العقيدة ، و على ذلك فإنّه قد أنكر على من قال إنّ الحكم بافتقار كل حادث إلى محدث بأنها قضية ضرورية لا تفتقر إلى دليل و نظر ، فقد ذهب بعض الأئمة كـ"الفخر الرازي " إلى أنّ العلم بها مركوز في فطرة الصّبيان ؛ فإنّك إذا لطمت وجه الصّبي من حيث لا يراك ، و قلت له إنّما حصلت هذه اللطمة من غير فاعل البتّة لا يصدّقك ، بل إنّها- بحسب الرازي – مركوزة في فطرة البهائم ، فإنّ الحمار إذا أحسّ بصوت الخشبة فزع لأنة تقرّر في فطرته أنّ حصول صوت الخشبة بدون الخشبة محال [2] .

و قد رفض السنوسي هذا القول على اعتبار أنّ هذه المسألة النظرية تحصل بنظر قريب ولأجل قربه ظنّ قوم أنّ ذلك العلم ضروري ؛ أي أنّ هذه القضية من قبيل العلم الاستدلالي وليس اضطراريا ، و لكن استدلاله استدلال مباشر و بسيط ، أمّا إن كان يريد " الرازي " أنّها في الفطرة ، فإنّها قضية مسلّمة بها ، إذ كيف و نحن نرى الصبيان لا ينفكّون عن علوم نظرية لاسيما القريبة التي لا تعارضها شبه و يتمحض العقل فيها [3] .

و أمّا مبالغته بأنّ هذا الأمر مركوز أيضا في فطرة البهائم بدليل ما ذكر في صوت الخشبة ، فمن أعجب ما يذكر أنّ البهائم تدرك قضايا كلّية و لوازمها ، فالأمر لا يعدو- عند السنوسي- أن يكون إذا تكرّر عليه ذلك التألم عند سماعها تخيّل من حسّها الألم ، لمقارنته المؤلم ، وعدم التميز و الانفكاك في خياله ، فلو لم يضرب قط بخشبة ، لم ينفر من صوتها البتّة كما أنّ

[1] - المصدر السابق : ص 71
[2] - المصدر السابق : ص 72
[3] - المصدر السابق : ص 73

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

السّليم ينفر من الحبل المبرقش ، لمقارنة الأذى عنده لهذا الشكل ، و هذه من الخيالات ، لا من التّمييز العلمي[1].

أي هي بالتفسير الحديث تشبه طريقة المنعكس الشّرطي ، و الذي فحواه أنّ سلوك أي نشاط الكائن ، إنّما يمثل ردّ فعل محدّد بقوانين معيّنة ، اتجاه تأثير عامل محدّد من عوامل العـالم الخارجي[2] .

إذن فدليل حدوث النّفس لا يعدو أن يكون ملاحظة الإنسان في ذاته ، كيف وجـد ، فمهما لاحظ من الموجودات الكونية في وجودها بعد عدمها ، و استيقن حدوثها من ذلك ، فإنّ استيقانه لحدوث نفسه يكون أقوى و أشدّ ، و لذلك فإنّه لّما يتأمل ذاته و يغوص فيهـا تـدبّرا لظواهرها المادّية ، و استشعارا لمكنونها الروحي ، فإنّه يظفر لا محال بدلالات مباشرة على وجود الله قد لا يظفر بها على نفس الدّرجة بالتأمّل في سائر مخلوقات الكون .

و قد كان التأمّل في النفس ديدن المتألهين قديما و حديثا حتى ذهبت بينهم كلمة شهيرة في ذلك هي "من عرف نفسه عرف ربّه " [3] ، و دليل حدوث النّفس على وجـود الله الـذي استعمله السنوسي ، ليس بمستجد فلقد استعمله المتكلمون من قبل ، و من أول من استعمله " أبو الحسن الأشعري " في كتابه اللّمع [4] ، و قد اقتصر عليه في الاستدلال على وجود الله .

كما أنّ هذا الدّليل مشتق من الطّريقة القرآنية في تنبيه العقول إلى وجود الله انطلاقا من ملاحظة خلق الإنسان ، و تقلّب أطواره و تبدله من حال إلى حال ، و قد وردت في ذلك آيات كثيرة، فقد كانت أول آية نزلت على الرّسول محمد صلى الله عليه وسلّم تبرز هذا الفعل لله في قوله :[اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقْ][5]. و توالت الآيات توضّح هذا الفعل لله وحده و أنّه ليس

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 - المصدر السابق :ص 74

2 - حمانة البخاري - التعلّم عند الغزالي ، دط ، الموسّسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1987م : ص 46

3 - عبد المجيد النجار - الإيمان و أثره في الحياة : ص101

4 - الأشعري - اللمع في أهل الزيغ و البدع ، تحقيق حمودة غرابة ، د ط ، مطبعة مصر ، مصر، 1955 : ص 17 - 19

5 - العلق الآية 01

من خالق إلا الله وذلك في مثل قوله تعالى : [سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأعْلى الّذِي خَلَقَ فَسَوّى][1]، وقوله سبحانه و تعالى : [تَنْزِيلٌ مِمَّنْ خَلَقَ الأرْضَ و السَّمَوَاتَ العُلى][2]، وقوله : [قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى][3].وعلى ذلك ليس من المعقول أن يكون هنـاك خلق دون خالق لذلك كانت الآية القادمة من أقوى البراهين العقلية التي يضعها القرآن الكـريم أمام العقل حيث قـال تعـالى : [أمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أمْ هُمْ الخَالِقُونَ، أمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ][4].

فالمنكرون للوجود الإلهي يجدون أنفسهم أمام تقسيم حاصر يقول : أخلقوا مـن غـير خالق خلقهم ؟ و هذا ممتنع في بداهة العقول ، أم هم خلقوا أنفسهم ؟ و هذا أشدّ امتناعا ، و لا تبقى إلاّ الحقيقة و هي ، أنّ لهم خالقا خلقهم لا يشاركه أحد في الخلق و هو الله سبحانه وتعالى، كما أنّه سبحانه و تعالى ذكر الدّليل في الآية بصيغة استفهام الإنكار ليبيّن أنّ هذه القضية الـتي استدلّ منها فطرية بديهية مستقرّة في النّفوس لا يمكن لأحد إنكارها ، فلا يمكن لصحيح الفطرة أن يدّعي وجود حادث بدون محدث أحدثه ، و لا يمكن أن يقول هو أحدث نفـسه[5] ، و هـو نفس ما أكّده و أثبته السنوسي في دليله .

ب / دليل حدوث الآفاق :

تتفق هذه الدلالة مع سابقتها في أنّ كل منهما يقوم على التأمل العقلي في الفعل المعجز والتدبير المحكم الذي يقود العقل إلى الإقرار بالفاعل الحكيم و الخالق المدبّر ، غير أنّ الدلالة السابقة خاصة بالنظر في الإنسان و أحواله ، أما هذه فتقوم على التفكر في ما هو مشاهد لنا في هذا الكون من آثار القدرة و التدبير ، فنحن نرى في عالمنا هذا أقمارا وكواكبا و أفلاكا دائرة ونجوما سائرة ، و نشاهد ما حولنا من سماء مرفوعة و أرض مبسوطة و جبال منصوبة ، و نعلم

---

1 - الأعلى الآية 01 - 02
2 - طه الآية 04
3 - طه الآية 50
4 - طه الآية 35- 36
5 - البيهقي – الأسماء و الصّفات ، دط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، دت :ص 496

أنّ ذلك كله معلق في الفضاء محفوظ من السقوط ، كذلك نلمس اختلاف الليل و النهار والفصول و الأحوال . فإذا تفكرنا بعقولنا في هذه الأمور و ما يعرض لها من تجدّد و حدوث وتغيّر في الأحوال مع عجز الأجسام عنها ، علمنا أنّ لهذه الآيات و المشاهد خالقا مخالفا للأجسام الأخرى ، إذ كل حادث هو دليل قطعي عليه[1] .

فإذا التفت الإنسان إلى ما يحيط به من أشياء ، وجده كله عبارة عن أجرام ، و هذه الأجرام تقوم بها أعراض من حركة و سكون و غيرها ، و حدوث هذه الأعراض لا ينكر ، إذ لو كان أحدهما قديما ، لما قبل الانعدام أصلا ، و لأنّ ما ثبت قدمه استحال عدمه [2] .

كما أنّه لا يخفى أنّ كلا من الحركة و السكون قابل للعدم في كثير من الأجرام[3] ، ودليل قبول السكون العدم ، حركة هذه الأجرام ، و بناء على ذلك دلّ بالبرهان العقلي القاطع أنّ العالم الملازم للحركة و السكون حادث يستحيل وجوده في الأزل ، أمّا الأجرام فإنّها حادثة بحكم تعلّقها بما هو حادث ، و العقل يستبعد أن يكون شيء من الأجرام في الأزل ، و إلاّ لزم أن يكون في الأزل غير متحرّك و لا ساكن ، و هذا لا يعقل بدليل عدم انفكاك الأجرام عن الحركة والسّكون [4] .

فيتعيّن على النّاظر من خلال ما سبق أن يقول : - إجمالا -في برهان حدوث العالم : " لو كان جرم من أجرام العالم ، كالسّماء و الأرض مثلا ، موجودا في الأزل ، لم يخل ، إمّا أن يكون في الأزل متحرّكا ، أو ساكنا ، أو لا متحرّكا و لا ساكنا ، و الأقسام الثّلاثة مستحيلة على الجرم في الأزل ، لأنّه لا يعقل وجوده عاريا عن تلك الأقسام " [5] .

---

[1] - السنوسي - المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 143

[2] - السنوسي - شرح أم البراهين : ص 50

[3] - المصدر نفسه : ص 49

[4] - السنوسي- شرح العقيدة الوسطى : ص 58-59 .وابراهيم البيجوري -حاشية على متن السنوسية ،دط ، مطبعة التقدم، مصر ، 1319هـ :ص30

[5] -السنوسي - شرح العقيدة الوسطى : ص 57 -58

و هذا الدّليل ليس بمستجدّ أيضا ، فهو أحد أدلة المتكلّمين و قد ذكـره " الإيجـي " بعنوان " الاستدلال بحدوث الجوهر"، كما يمكن أن يعتبر صورة من صور دليل الاختراع [1]، وهو مشتق من الطّريقة القرآنية في التنبيه على وجود الله انطلاقا من حدوث الأشياء و الأفعال كمـا قال الله تعالى : [إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ][2].

يتبن ممّا تقدّم أن السنوسي بنى استدلاله على وجود الله على مبدأ ضروري من مبادئ العقل هو مبدأ السببية ، وأورد من صور ذلك المبدأ صورتين : خلق الأنفس ، وخلق الأفاق ، وكان في ذلك سائرا على طريقة المتكلّمين للاستدلال على المحدث بالحدوث ، تلك الطّريقة المستنبطة من منهج القرآن المنبّه على وجود الله انطلاقا من مخلوقاته .

ثانيا : البرهان العقلي على وحدانية الله

لقد كانت قضية التوحيد هي رأس القضايا التي خاضها جميع الأنبياء و الرّسل لإزالة الشّرك و نبذ ما كان يعبد من دون الله ، و من هنا صارت مهمّتهم تعليم العباد هذه الحقيقة و قد تناول القرآن الكريم هذه القضية – التي مثّلت جوهر العقيدة الإسلامية – بمنهج واضح يتضمّن تصحيحا للضّمائر و العقول في تقرير ما ينبغي لكمال الله ، فخاطب العقل البشري بالأدلّة العقلية والبراهين التي تضع التّوحيد في أكمل صورة .

و ذلك لأنّ لحقيقة الوحدانية امتدادات وأبعاد كثيرة ، فإنّه لا يخلو تصرّف من تصرّفات المسلم بالفكر و السّلوك من وجوب أن يكون مبنيا على معنى من معانيها و محكوما بواحد من مقتضياتها ، و لم يصب المسلمين غبش في عقيدتهم مثلما أصاب تصوّرهم لحقيقة التّوحيد ، فكثيرا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] – الجرجاني – شرح المواقف ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1419هـ/1998م : ج8 ص 4

[2] – البقرة الآية 163

ما وقعت الغفلة من بعضهم عن أبعاد و مقتضيات لتلك الحقيقة سواء منها ما تعلّق من السّقوط في الشّرك الخفي أو انحراف يتعلّق بأنّ النّفع أو الضّر يمكن أن يحصل من الأموات الصّالحين ، وقد يتمثل بعضها في أغراض دنيوية من مال و متاع ، تستولي على القلوب و تتخذ معبودا بما يعصى من أمر الله . و لذلك فإنّ علماء العقيدة لم يولوا من الأهمّية و الجهد مثلما أولوا لحقيقة التّوحيد بيانا و استدلالا و دفاعا و تصحيحا .

و قد كانت كتابات السنوسي كلها تصب في هذا المجال فقد جاءت حركته الإصلاحية لأحوال الأمة الإسلامية تنزع إلى أن تتأسس على تصحيح عقيدة التوحيد ليكون انصلاحها طريقا إلى انصلاح سائر الأوضاع و الأحوال .

أ / مكانة التوحيد و أهميته :

حقيقة التوحيد هي الأساس في الفكر العقدي والصوفي عند السنوسي ، كما أنّها الأساس في حركته الإصلاحية ، و قد تجرد لهذا الأمر لجملة من الأسباب ترجع كلها إلى :

- قيمة التوحيد في العقيدة الإسلامية ، فهي أساس الدين الإسلامي الذي تتمحور حوله سائر حقائقه و منه تستمد قوامها ، و إليها ترجع كلها بوجه أو بآخر ، و قد جاء القرآن الكريم منبها إلى هذه الحقيقة داعيا العمل بما تقتضيه أكثر مما جاء منبها إلى حقيقة الوجود الإلهي نفسه ، ولا غرو فإن أهل الأديان عامة إنما كان انحرافهم - غالبا - متمثلا في هذا الجانب وكذلك أهل الجاهلية من العرب ، فجاءت الأديان السماوية المتتالية تصحح هذا الانحراف تذكيرا بالتوحيد [1] .

- تدهور الحالة الروحية و الصوفية و الوضع السّياسي للإنسان في زمانه ، إذ أنّ اعتقاد الناس في هذه الفترة و لسكان المغرب الأوسط خاصة ، لم يكن يستجيب لحقيقة التوحيد الصحيح سواء منهم العامة أو العلماء فأمّا **" العامة فأكثرهم ، ممن لا يعتني بحضور العلماء ومخالطة أهل الخير ، يتحقّق منهم اعتقاد التجسيم و الجهة و تأثير الطّبيعة ، وكون أفعال الله تعالى معلّلة**

[1] - عبد المجيد النجار - الإيمان و أثره في الحياة : ص 117

لغرض، وكون كلامه جلّ و علا حرفا و صوتا ، مرة يتكلم و مرة يسكت ، كسائر البشر ونحو ذلك من اعتقادات أهل الباطل ، و بعض اعتقاداتهم أجمع العلماء على كفر معتقدها ، و أمّا العلماء فمنهم من كان يصرح بنفي المعاد البدني" [1] .

لذلك كان الحجم الذي تبوأه التوحيد في تفكير السنوسي و حركته متناسبا لتلك المكانة التي احتلها التوحيد من الدين ، و من هنا انطلق في دعوته الإصلاحية لشرح معاني التوحيد خاصة والعقيدة بصفة عامة ، وقد ألّف في شرح هذه المعاني عدّة كتب و ألحق ببعضها شروحا ومختصرات بحسب ما تدعو إليه الحاجة في الفهم و حسب جميع المستويات .

ب / مفهوم التوحيد و أبعاده :

تناول السنوسي بالتحليل و البيان حقيقة التوحيد في مفهومها العام من خلال كتابه "شرح أم البراهين" فقد جاء فيه أنّ التوحيد هو العلم بعقائد الإيمان أي العلم بلا إله إلاّ الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، و قد بيّن هذا المعنى بقوله : "إذ معنى الألوهية استغناء الإله عن كلّ ما سواه و افتقار كل سواه إليه– فبمعنى – لا مستغني عن كل ما سواه و مفتقر إليه كل ما عداه إلاّ الله " [2] .

و من الواضح أنّ هذا التعريف يحدّد لحقيقة التوحيد أبعاد أساسية منها :

– البعد التصوّري للتوحيد : بيّن السنوسي تصوّره للتّوحيد في مواضع مختلفة من تآليفه ولعلّ أوفى بيانا في ذلك ما جاء في " المنهج السّديد في شرح كفاية المريد "إذ يقول : " اعلم أنّ المراد من كونه جلّ و علا واحدا ، نفي قبوله الانقسام و نفي نظير له في الألوهية ، و حاصله نفي الكمّية المتّصلة و الكمّية المنفصلة ، و في معنى نفي نظير له تعالى في الألوهية نفي شريك له

[1] – السنوسي – عمدة أهل التوفيق والتسديد : ص 58

[2] – السنوسي – شرح أم البراهين :ص 73 . و أحمد بن عيسى الأنصاري – شرح أم البراهين ، دط ، كانو ، نيجيريا ، دت :ص14

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تعالى في ممكن ما من الممكنات ، فلا مؤثّر في شيء منها سواه جلّ و علا فهو الواحد في ذاته أي غير مؤلّف من شيئين فأكثر ، و الواحد في صفاته ، فلا مثل لـــه تعالى و لا نظير ، و الواحد في أفعاله ، فلا شريك لـــه تعالى في شيء من الممكنات ، و لا ضدّ له ، و لا وكيل ، و لا وزير ، وليس معنى الوحدة في ذاته تعالى الدّقة و الصّغر إلى حدّ لا ينقسم ، و إلّا لزم أن يكون تعالى جوهرا فردا ، و ذلك يستلزم الحدوث و كثرة الأمثال من العوالم لكثرة جواهرها كثرة لا تنحصر، و ليس معناها أيضا في حقّه تعالى أنّ ذاته العليّة معنى من المعاني ، إذ المعاني لا تقبل الانقسام في نفسها ، لأنّه لو كانت ذاته معنى ، لزم أن يكون غير قائم بنفسه لوجوب احتياج المعنى إلى محل يقوم به ، و ذلك يمنع من قيام صفات به جلّ و علا ، كالقدرة ، و الإرادة ، والعلم ، والحياة ، لاستحالته قيام الصّفة بالصّفة ، إذ لو قبلت الصّفة أن تكون محلا للصّفات،كما هي الأجرام محل لها ، لزم أن لا تعرى صفة من صفة تقوم بها ، كما لا تعرى ذات من قيام عن قيام صفة بها ، و ذلك يستلزم أن يجتمع في المحلّ الواحد من الصّفات ما لا نهاية له ، و هو مستحيل ضرورة ، فتعيّن أنّ المراد من وحدانيته جلّ و علا أنّه ذات قائم بنفسه ، أي هو موصوف بالصّفات ، و ليس هو في نفسه صفة ، و لا تقبل ذاته صفة من صفاته تعدّدا ، لا متّصلا و لا منفصلا و لا يقبل صغرا و لا كبرا ، و لا يقبل شريكا في فعل من الأفعال ، تبارك وتعالى الرّب العظيم ، العلي ذو الجلال "[1] .

و يقوم هذا التصوير لوحدانية الله على فكرة أساسية هي التنزيه المطلق لله تعالى عن المثلية ، و يتمثّل هذا التنزيه في محاور متعدّدة جاءت في فكر السنوسي كالآتي : " إقامة البرهان على وحدة الذات ، بمعنى نفي تركيبها و عدم انقسامها في ذاته تعالى ، هو أنّ التركيب من خصائص الأجرام ، و هو تعالى يستحيل أن يكون جرما ، أي مقدارا يشغل فراغا ، لأنّ كلّ جرم فهو ملازم للحركة والسكون ، وهما حادثان ، بدليل قبول كلّ واحد منهما العدم ، وكل ما يقبل العدم فوجوده مفتقر إلى الفاعل ، فكل جرم إذا حادث ، إذ كلّ ما لازم الحادث فهو حادث ، ويتعالى من وجب لـــه القِدم والبقاء أن يكون حادثا ، وأيضا فلو كان تعالى جرما لجاز أن يكون أكبر ممّا هو عليه أو أصغر ، لاستحالة وجود جرم لا نهاية له ، فيحتاج إلى مخصص يخصّه بما هو عليه من المقدار المخصوص دون غيره من المقادير الجائزة ، فيكون حادثا وهو محال ،

[1] - السنوسي - المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 171

وأيضا فلو كان تعالى مركّبا من جزئين فأكثر ، لزم أن يقوم بكلّ جزء صفة العلم والقدرة والحياة، وسائر صفات الإله لاستحالة وجود ذات قديمة ليست بإله ، ولئلا يلتزم الافتقار إلى مخصّص في ترجيح بعض الأجزاء المساوية بقيام الصّفات بها دون البعض ، لكنّ قيام الصّفات بكل جزء محال ، لأنّه يوجب تعدّد الآلهة " [1] .

و من معاني التتريه المطلق لله تعالى : التتريه عن النّظير له تعالى أو قسيم له في الألوهية ، وفي معناه انفراده تعالى بإيجاد جميع الكائنات كلّها ذواتا كانت أو أفعالا أو غيرهما و عدم استناد التأثير في شيء من الممكنات لغيره جلّ و علا . أمّا دليل السنوسي على ذلك فقد أورده كما يلي : " فالبرهان فيه مثل الأول إذ كل ما سواه تعالى أجرام و أعراض قائمة بها و قد عرفت في الأول استحالة الجرمية عليه تعالى ، لما تستلزمه من الحدوث ، فأحرى استحالة العرض عليه ، إذ حدوثه أظهر من حدوث الأجرام ، و لهذا استدلّ بحدوث الأعراض على حدوث الأجرام " [2] .

– و منها تنـــزيه وحدته تعالى : بمعنى مخالفته جلّ و علا لجميع الحوادث فلا مثل له منها كما أنّه لا ضدّ له فيها [3] .

و بالجملة فإنّ الخلاصة التي ينتهي إليها السنوسي أنّ كلّ ما سواه تعالى من الممكنات حادث ، فلو ماثل شيئا منها لوجب له جلّ و علا ما وجب لها من الحدوث و الحدوث مستحيل عليه تبارك و تعالى فلا مثل له إذا جلّ و علا [4].

و الواقع أنّ هذه الصورة القائمة الّتي أوردها لنا السنوسي على التّتريه المطلق نفيا للكثرة في الذّات و نفيا للندّ و الشريك ، تشبه إلى حدّ بعيد تلك الصّورة التي أثرت عن المعتزلة ، فيما اشتملت عليه من كثرة في استعمالها السلب و النفي لكل ما عسى أن يتوهم منه مثلية لله تعالى و

[1] – المصدر السابق : ص 172
[2] – المصدر السابق : ص 173
[3] – المصدر السابق : ص 172
[4] – المصدر السابق : ص 173

قد ضمّن " أبو الحسن الأشعري" نحو كلامهم هذا في كتابه "مقالات الإسلاميين" : " فقد أجمعت المعتزلة على أنّ الله واحد ليس كمثله شيء و هو السّميع البصير ، و ليس بجسم ، و لا شبح ، و لا جثة ، ولا صورة ، ولا لحم ، ولا دم ، ولا شخص و لا جوهر و لا عرض ..."[1] .

و يمكن أن يعلّل هذا التّقارب في الصورتين بأنّ كلا منهما كانت رد فعل على تصور إلهي يشوبه التشبيه و التجسيم ، فالمعتزلة كان مبدأ التوحيد الذي جعلوه أول أصولهم الخمسة ، مقاومة لما نجم من تصورات متطرّفة ، مشبهة و مجسّمة تمثّلت بالأخصّ عن الكرامية و لما تسرّب من مقولات الثنوية و المسيحيين القائمة على تعدد الذات الإلهية [2] .

أمّا السنوسي فقد كان مبدأ التوحيد الذي جعله قوام فكره و أساس حركته الإصلاحية فهو مقاومته لما اعتبره تجسيما و تشبيها في عقيدة أهل المغرب الأوسط ، و قد صرّح بذلك أكثر من مرّة [3]. و قد كانت طبيعة هذين المبدأين سببا في اشتمالهما على شيء من الحرص و التأكيد ، أخذ عند المعتزلة بعض الغلوّ تمثّل في هذا التصوير السّلبي للذات الإلهية .

ج / أدلّة التوحيد عند السنوسي :

لقد استجمع السنوسي للاستدلال على التوحيد ، جملة من الأدلة ، و صرف من ذهنه في بناءها و ضبطها جهدا لا يستهان و يمكن إرجاع هذه الأدلّة إلى التالي :

أولا – دليل التمانع : يستند هذا الدّليل إلى أنّ خالق الكون واحد و لا يمكن أن يصدّق مفهوم واجب الوجود إلاّ على ذات واحدة فلو أمكن إلهان لأمكن بينهما تمانع بأن يريد أحدهما حركة إنسان و الآخر سكونه ، و قد قرّر السنوسي هذا الدّليل على الوجه التالي : " الدّليل على

[1] – الأشعري أبو الحسن – مقالات الإسلاميين ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دط ، المكتبة العصرية، صيدا ، بيروت لبنان ، 1990م :ج1 ص 235

[2] – عبد المجيد النجار و آخرون – المعتزلة بين الفكر و العمل ، دط ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، دت : ص 12

[3] – السنوسي – عمدة أهل التوفيق و التسديد : ص 57-58

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نفي شريك له تعالى في الألوهية أنّه لو كان معه تعالى إله آخر لم يخل إمّا أن يختلفا في الإرادة على حكم التضاد ، أو يتّفقا في الإرادة بحيث أن يكون كلّ ما أراده أحدهما أراده الآخر و كلا القسمين مستحيل "[1] .

فهذا الصّلاح الذي عليه الأرض و السّماء وما بينهما يدّل دلالة قاطعة على وجود إله واحد هو الذي خلقهما ، و هو الذي ينظم الأمور فيهما ، و ذلك لأنّه لو كان يفعل ذلك فيهما أكثر من إله واحد لآل للأمر إلى الفوضى و الفساد .و إنّما يصير الأمر فيها إلى الفساد و الفوضى لو كان فيها آلهة دون الله تعالى ، لأنّنا لو افترضنا وجود إلهين يخلقان الكون و ينظّمان أمره ، فإنّهما إمّا أن يفعلا ذلك باتّفاق بينهما أو باختلاف ، فإن كانا يفعلانه باختلاف ، فسيؤدي هذا الاختلاف إلى تدافع بينهما في الخلق و التدّبير ، و يؤدّي ذلك إلى الفساد و الاضطراب و ذلك لأنّ نفوذ إرادتهما معا مستحيل لما يؤدّي إليه من اجتماع النقيضين [2] .

و لما لم يكن في الكون فسادا و لا اضطرابا فإنّ هذا الاحتمال باطل ، و إن كانا يفعلانه باتّفاق فـــ : "الاتّفاق المفروض بين الإلهين المقدّرين لا يخلوا إمّا أن يكون واجبا أو جائزا، فإن كان واجبا لزم أن يكون كلّ واحد منهما عاجزا مقهورا غير مختار ، و إن كان كلّ واحد منهما لا يقدر على مخالفة الآخر ، و إن كانا أحدهما يقدر على المخالفة دون الآخر ، لزم عجز الذي يقدر عليها ، و نفي كونه مختارا لأنّ المختار هو الذي يتأتى منه الفعل و الترك ، فإذا فرض الاتّفاق واجبا لم يتأتّ من المجبور منهما ترك ما اختاره الآخر ، كيف و الربّ يخلق ما يشاء ويختار !؟ "[3] ، و لما كان الأمر كذلك دلّ هذا على أنّ الله واحد أحد كما قد قال خالقتنا في قوله : { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلا اللّهُ لَفَسَدَتَا }[4] "[5] .

---

[1] – السنوسي– المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 173

[2] – المصدر نفسه :ص 173

[3] – المصدر نفسه : ص 174

[4] – الأنبياء الآية 22

[5] – السنوسي– المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 180

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا – دليل وحدانية الذات : أي أنّ ذات الله تعالى واحدة ليست مركّبة من أجزاء وأنّه لا شريك لـــه ، فهي نفي التعدّد متصّلا كان أو منفصلا ، أي أنّ الذات الإلهية ليست مركّبة في نفسها ، و لا يمكن وجود ذات أخرى منفصلة عنها تماثلها [1]. و يدخل تحت هذا الدليل ما يلي :

1- نفي التعدّد المتصّل : و هو أن يكون الله سبحانه مركّبا من أجزاء ، و هذا نفي أن يكون كُلاًّ [2] ، فإنّه لو وقع في ذاته تعالى لزم اعتبار الذات جسما ذلك أنّ الجسم بالاصطلاح المشهور هو المؤلّف من جزأين فأكثر [3]، و الأمر في هذه الحالة لا يعدو أن يكون ؛ إمّا أن تقوم صفات الألوهية العامة بالتعلّق بكلّ جزء من أجزاء الإله ، و هذا محال ، و إمّا أن تقوم تلك الصّفات بجزء واحد فيكون هو الإله ، و يكون الجزء الآخر ذاتا قديمة و ليست بإله ، و لا قديم من الذوات إلاّ الله تعالى ، ثمّ إنّ اختصاص أحد الأجزاء بصفات الألوهية يجب الاحتجاج إلى الفاعل المخصّص ، و هذا معناه حدوثها [4] .

2 – نفي التعدّد المتصّل : و هو أن تكون ذات الإله متعدّدة ، و هذا نفي أن يكون الإله كلّيا [5] ، فإنّه لو حصل هذا النّوع من التعدّد في ذات الله تعالى ، أي لو كانت ثمة ذات أخرى مثلها ، فإنّه لم يخل من احتمالين ؛ إمّا أن تتصف بمثل صفاتها فيلزم تعدّد الإله ، أو تتصف بمثل ذلك فيلزم احتياج صفات الإله إلى المخصص ، و يلزم الحدوث [6] .

فإذا ثبت بطلان التعدد المتصّل و المنفصل ،فقد ثبت أنّ الله عز و جل واحد في الذات .

---

[1] – صبري خدمتلي – العقيدة و الفرق الإسلامية ، دط ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1994م : ص 168

[2] – مصطفى سعيد الخن و محي الدين ديب متو – العقيدة الإسلامية : أركانها – حقائقها – مفسداتها ، ط 3 ، دار الكلم الطيب ، دمشق ، سوريا، 1999م : ص 166

[3]– السنوسي – المنهج السديد : ص 185 . و شرح العقيدة الوسطى : ص 174

[4] – المصدر نفسه : ص 174 .

[5] – سعيد الخن و محي الدين متو – العقيدة الإسلامية : ص 166

[6] – السنوسي – شرح العقيدة الوسطى : ص 175

ثالثا – دليل وحدانية الصفات : و هي تنفي في أنّه ليس لأحد من مخلوقاته صفة تشبه صفاته ، أي أنّها عبارة عن وجوب انفراده تعالى بصفاته ، و عدم إمكان اتصافه ذات بمثل صفاته عز وجل [1] ، و إذا لزم أنّ الله واحد في ذاته فإنّه يلزم أيضا أن يكون تعالى واحد في صفاته ، بمعنى أنّه لا مثل له [2] ، و قد استدل السنوسي على بطلان وجود مثل مولانا تعالى في صفاته بدليلين :

أحدهما : أنّه لو افترضنا وجود مثل مولانا تعالى في صفاته للزم ضرورة أن يكون وجوب الوجود مشتركا بينهما ، وللزم معه أن يمتاز كل واحد منهما بصفة تجعله متميزا عن الآخر [3] .

ثانيهما : أنّه لو كان معه تعالى ثان مماثل له في الألوهية للزم عجزهما معا و ذلك ينفي ألوهية كل واحد منهما ، و يعني هذا أن لا يكون وجد شيء من العالم و هذا محال ، لأنّه قد علم أنّه يجب أن تكون قدرة الإله عامة و شاملة و لا تكون كذلك إلاّ إذا كانت مستقلّة و لا تكون مستقلّة إلّا إذا كانت واحدة [4] .

رابعا– دليل وحدانية الأفعال : و وحدانية الأفعال تعني أنّه ليس لأحد غيره مثل فعله ، بمعنى انفراده تعالى وحده بالإيجاد و التدبير العام ، فالله خالق كلّ شيء و مبدع كلّ شيء و مدبّر كل شيء فهو سبحانه مستقل بالإيجاد و الإبداع و جميع الأمور عائدة إليه و في قبضته و تحت تصرّفه [5] . و تقريره عند السنوسي أنّه يجب انفراده تعالى باختراع جميع الحوادث بلا وساطة ولا أثر لكل ما سواه في أثر ما على العموم [6] ، فلو صحّ أن يكون لشيء غيره تعالى تأثير في أثر ما ، لكان ذلك الأثر مقدور لله مراد له ، و إذا لزم ذلك ، فالأمر لا يخلو عند السنوسي :

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] – صبري خدمتلي – العقيدة و الفرق الإسلامية :ص 168

[2] – السنوسي – شرح العقيدة الوسطى : ص 175

[3] – المصدر نفسه : ص 176

[4] – المصدر نفسه : ص 177

[5] – صبري خدمتلي – العقيدة و الفرق الإسلامية : ص 168

[6] – السنوسي – شرح العقيدة الوسطى : ص 182

في حالة الاتّفاق ؛ إمّا أن يكون بهما و هو محال لاستحالة وقوع أثر واحد بمؤثّرين مستقلّين و ذلك أنّ الفرض استقلال كل واحد منهما باختراع هذا الأثر . و إماّ أن يكون بأحدهما فيلزم الترجيح ، كما يلزم من تخلف هذا الأثر عن أحدهما جواز تخلّفه عن الآخر ، إذ الفرض استواؤهما بالنسبة إلى هذا الأثر و ذلك ملتزم لجواز تعجيز قدرة الله تعالى[1] . و إذا لزم عجزهما معا مع الاتّفاق على ممكن واحد كان مع الاختلاف فيه على سبيل التضاد أولى و أظهر، فتعيّن ممّا سبق وجوب وحدانية الله تعالى في ذاته و في صفاته و في أفعاله [2] .

و النتيجة التي يمكن أن ننتهي إليها من خلال العرض السابق لأدلة السنوسي في التوحيد أنّها في عمومها تظهر لنا مدى قدرة السنوسي الكلامية و تعمقه في أصول الدّين ، غير أنّ الشيء الذي يلاحظ عليها بشكل جليّ أنّها صيغت بأسلوب كلامي معقّد و صعب أحيانا ، و هو ما يتنافى مع المسلك العام الذي اختاره لحركته الإصلاحية ، و الذي أقامه و أسّسه على مخاطبة الناس كافة ، و لإصلاح ما و قعوا فيه من تصوّرات و انحرافات عقدية .

و لكن ينبغي ألاّ يفوتنا أنّ هذه الأدلّة ليست على نفس التركيز في جميع عقائد السنوسي ، إذ أننّا نجدها تتراوح ؛ بين العمق إذ الكتاب موجه إلى العلماء لإقامة الحجة فيما رآه من انحرافهم ، و بين البساطة و الإجمال إذ الكتاب موجه إلى العامة لإخراجهم من ربقة التقليد .

ثالثا: البرهان العقلي في إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلّم

تعدّ الرسالة من المسائل المهمة في تاريخ البشرية لأنّها الصّلة بين السّماء و الأرض ، فهي الوسيلة التي عرفت البشرية من خلالها ، ما يتعلّق بعالم الغيب و ما يجب على الخلق أن يفعلوه نحو خالقهم و هدايتهم إلى المنهج الحق الذي تقوم به حياتهم ، فتقوم الحجة على العباد و تنقطع الأعذار كما قال تعالى : [رُسُلا مُبَشّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئلاَ يَكُونَ لِلنّاس عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ

[1] – المصدر السابق : ص 182-183

[2] – السنوسي- شرح أم البراهين : ص 53

الرُّسُلِ][1] . و ليست الرسالة أمرا بمقدور النّاس اكتسابه من ذات أنفسهم بعمل يعملونه من جانبهم إنّما هي اصطفاء و اختيار من الله وحده و لا دخل للإنسان في اختياره .كما شاءت إرادة الله أن تختم رسالة السماء بسيدنا محمد صلى الله عليه و سلّم فكان بحق إمام الرسل من آدم إلى يوم القيامة .

و لقد تمثّلت مكانة العقل و أهمية البرهان العقلي في تأكيد رسالة محمد عليه الصلاة والسلام عند السنوسي بجملة من الدّلائل وقف عندها الإمام و استعرضها و على رأسها معجزة القرآن ، و الاستدلال بسيرته و أوصافه ، و شهادة الكتب السّابقة .

أ / دلالة معجزة القرآن على صدق الرسالة .

يعدّ الإيمان بالرّسل و الرسالات الركن الرابع من أركان العقيدة الإسلامية بحيث أنّ الإيمان لا يكون كاملا و لا صحيحا بدونه ، و لا يكون كذلك بدون الإيمان برسالة سيّدنا محمد رسول الله ، و من الطّرق الأساسية إلى تصديقه عند السنوسي المعجزة ، و هو ما يقرّره الإمام في كتبه العقدية ، فإنّه " لّما كانت دعوة النبّوة تقع من الصّادق و الكاذب ، تفضل مولانا جلّ و عز من عظيم كرمه و سعة فضله بأن أيّد سبحانه بمحض فضله الصادق بما يدلّ على صدقه بحيث لا يستريب مع ذلك في صدقه إلاّ من حقت عليه كلمة العذاب...و هذا الذي أيدهم جلّ و علا به للدّلالة على صدقهم ، هو المسمى في اصطلاح المتكلّين بالمعجزة "[2] .

1- حقيقة المعجزة : يعرّف السنوسي المعجزة بقوله أنّها " فعل الله سبحانه ، الخارق للعادة ، المقارن لدعوى الرسالة ، متحدي به قبل وقوعه ، غير مكذّب ، يعجز من يبغي معارضته عن الإتيان بمثله "[3] .

---

[1] - النساء الآية 165

[2] - السنوسي - المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 315

[3] - السنوسي- عمدة أهل التوفيق و التسديد : ص 351

و الملاحظ على تعريف الإمام للمعجزة أنّه قائم و مبني على الدّلالة العقلية و لا مدخل فيها للسّمع ، فإنّه لكي تدلّ المعجزة على صدق الرّسالة لابدّ من أن تتوفّر لها أوصاف :

- أن تكون من جهته تعالى ، كإحياء الموتى وإنزال القرآن الكريم .
- أن تكون خارقا للعادة .
- و أن تكون مطابقة لدعوى المدّعي للرّسالة .
- أن تقع عقب دعوى المدعي للنّبوة ، فلا يصحّ أن تقع قبلها أو متراخية عنها .
- ألّا يكون مكذّبا له .
- أن يتعذّر معارضته .

فإذا وقعت المعجزة بهذه الأوصاف كانت بمترلة قوله تعالى "صدّق عبدي فيما يبلغ عنّي" و معجزات سيدنا رسول الله عند السنوسي كثيرة منها : تكثير الطعام ، و انقياد الحجر والشجر...[1] و من هذه المعجزات القرآن الكريم و وجوه إعجازه .

2- دلالة معجزة القرآن على صدق رسالته عليه السلام : تعدّ معجزة القرآن أفضل معجزات محمد رسول الله ، و وجه الإعجاز به أنّه تحدّى العرب بمعارضته ، مع أنّهم كانوا الغاية في الفصاحة و المشار إليهم في الطّلاقة المتوقدي الفطنة ، الأقوياء العارضة نظما و نثرا ، الخائضين في كل فن من فنون البلاغة طولا و عرضا [2] .

ثمّ إنّ هذا القرآن خاطب عقول المنكرين و طالبهم أن يتفكّروا ، فإذا كان الأمر كذلك وكانوا صادقين في ادّعائهم على الرّسول بأنّه كاهن أو مجنون أو شاعر و أنّه تقوّل القرآن ، فهم أمام أمور :

- إمّا أن يأتوا بمثله و من هنا جاء التّحدي .

---

1 - المصدر السابق : ص 352

2 - المصدر السابق : ص 376 . و محمد عبد الله دراز - النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن) ، ط8 ، دار القلم ، الكويت ، 1996م : ص80

– و إمّا أن يعجزوا عن ذلك ، و في هذه الحالة يجب أن يعقلوا أنّه معجز و أنّه وحي من عند الله و أنّه دليل صدق الرسول عليه السلام ، و على هذا فإنّه تحدّاهم أن يأتوا بعشر سور :[أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ][1]. ثمّ بسورة واحدة في قوله: [أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ][2] ثم صرّح بعجز الجميع جنّهم وإنسهم ، مفترقين أو مجتمعين فقال :[قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا][3]، ومع ذلك لم تتحرك أنفة العرب – و هم المجبولون عليها – و من عاداتهم أنّهم لا يتمالكون معها ضبط أنفسهم عند ورود أدنى معارض يقدح في مناصبهم ، لكنّ القوم أخرسهم أنّهم أحسّوا أنّ الأمر إلهي لا يمكن مقاومته [4] .

و يضيف السنوسي إلى ذلك أنّ إعجاز القرآن لا يتوقف عند هذا فحسب بل إنّ فيه من الإخبار – قبل الوقوع – بالغيوب المطابقة ، و محاسن علوم الشّريعة المشتملة على ما لا يقدر البشر على ضبطه من المصالح الدّنيوية و الأخروية ، و تحرير الأدلة ، و الردّ على المخالفين بالبراهين القطعية و سرد قصص الماضين ، كما يعدّ القرآن دستورا جامع لجملة من الأخلاق الفاضلة التي ترقى بالإنسان إلى مستوى الكمال الأخلاقي ، هذا كلّه وقع على يد نبي أمّي ، لم يخطّ قط كتابا ، و لا حصلت لــه مخالطة مع ذوي العلم و المعرفة ، علم ذلك كلّه بالضّرورة كما قال تعالى : [وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ][5]، أفيستريب عاقل من العقلاء بعد هذا في كون القرآن من عند الله عز وجل! "[6] .

[1] – هود الآية 13
[2] – يونس الآية 38
[3] – الإسراء الآية 88
[4] – السنوسي – عمدة أهل التوفيق والتسديد : ص 377
[5] – العنكبوت الآية 48
[6] – السنوسي – عمدة أهل التوفيق والتسديد : ص 377

و ممّا سبق يمكن القول أنّ السنوسي استخدم لغة الفكر و العقل و توجيه النّظر في تأسيس اليقين بأنّ القرآن يعدّ دلالة صادقة على صدق رسالة سيدنا محمد رسول الله و من ثمّ وجوب الإيمان به ، فالمعجزة القرآنية شيء باق و خالد ، و خلوده إرشاد للعقل إلى أنّ هذا القرآن هو كتاب الله الحقّ و أنّ من جاء به حق و صدق .

ب / الاستدلال بسيرته و أوصافه .

إنّ الدارس لحياة الرسول عليه الصّلاة و السلام ، و المطّلع على الأخلاق التي كان يتخلّق بها صلى الله عليه و سلّم ليؤمن تماما الإيمان ، و يذعن حقيقة الإذعان بأنّه عليه الصلاة والسلام هو رسول من عند الله تعالى ، قد أحاطه بالعصمة و رعاه بعين رعايته ، ليقدّمه للناس بشرا كاملا ، و رسولا مبلّغا ، و إنسانا فذّا تتحقّق فيه كل صفات الرّجولة و الكمال ، و قد قال سبحانه و تعالى في حقّه [وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ][1]. و قد ذكر السنوسي أنّ ما يتمتّع به محمد عليه الصلاة والسلام من صفات رفيعة و أحوال عالية ، هو من جملة المسالك التي يستدلّ بها على صحّة رسالته عليه الصلاة و السّلام فقال : " الاستدلال بسيرته و أوصافه التي توارت إلينا وهي كثيرة منها :

1 – ملازمته الصّدق من أول عمره إلى آخره ، فإنّ أحدا ما سمع منه كذبة قط ، و قد اعترف له أعداءه بذلك ، و أيضا لو صدر منه الكذب و لو مرة في عمره لنبذه أعداءه لذلك .

2 – ترك الدّنيا و الإعراض عن زخارفها على الدّوام ، حتى أنّ قريشا عرضوا عليه المال و الزّوجة و الرّياسة لترك هذه الدّعوة فلم يلتفت إليها .

[1] – القلم الآية 04

3 – كان في أعظم الدّرجات في السّخاوة ، حتّى إنّه سبحانه و تعالى عاتبه عليها بقوله : [ولاَ تَبْسِطْهَا كُلَّ البَسْط] [1] ، و الشّجاعة ، حتى إنّه لم يفرّ قط ، و لا تزحزح للفرار في معركة قط ، حتى في يوم أحد و نحوه ممّا عظم فيه الرعب .

4 – كان في غاية الفصاحة والبلاغة ،حتّى إنّ فصاحته قد أعيت بلغاء من العرب العرباء.

5 – أنّه عليه الصلاة و السّلام تحمّل في أداء الرّسالة أنواعا من المشاق و المتاعب لا يثبت معها إلاّ من هو على الحق من الله تعالى ، و هو مع ذلك مصرّ على دعوة الرسالة ، و لم يظهر في عزمه فتور ، و لا في إصراره قصور .

6 – أنّه عليه السّلام كان مع أهل الدّنيا في غاية الترفع ، و مع الفقراء في غاية التّواضع .

7 – ما كان عليه من حسن الخلق ، حتى أنّه لا يزداد مع الغضب إلاّ حلما .

8 – حسن ذاته الكريمة ، و ما اشتملت عليه من المحاسن التي هي خرق عادة ، و لم توجد لبشر سواه ، و ما أحسن قوله "ابن رواحة الأنصاري" يشير إلى محاسنه عليه السلام خلقا وخلقا

لو لم يكن فيه آيات مبيّنة لكان منظره ينبيك بالخبر

و لهذا لمّا أسلم أبو ذر – رضي الله عنه – عند رؤيته إيّاه قال : لمّا رأيت وجهه عرفت أنّه ليس وجه كذّاب . و لا خفاء أنّ مجموع هذه الأوصاف ، بل بعضها لا يكون لغير الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام "[2] .

فهذه المناقب و المحامد كلّها وجوه عقلية كلّ واحد منها يصلح لأن يكون دليلا مستقلا يثبت به صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلّم،كيف وقد اجتمعت كلّها عليه الصلاة والسلام.

[1] – الإسراء الآية 29

[2] – السنوسي – عمدة أهل التوفيق و التسديد :ص 386 – 387 . و عبد الله الشرقاوي – حاشية على شرح الهدهدي على السنوسية ، دط ، شركة التمدن الصناعية ، مصر ، دت : ص130

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ج / شهادة الكتب السابقة .

قد مرّ بنا أنّ سيدنا محمد رسول الله كان يتمتع بصفات رفيعة و خصائص جمّة هو من جملة المسالك التي يستدل بها عند السنوسي على صحة رسالته و من جملة المسالك الأخرى التي ارتضاها للاستدلال على ذلك ، شهادة الكتب السماوية السابقة ، و إخبار الرسل السابقين برسالته عليه الصلاة و السلام ، و ذكرهم بعض صفاته ، فقد بشّر الله برسالته في لسان أنبياء كثيرين ، و لكنّه بشكل خاص بشّر به في كتب الديانتين اليهودية و النصرانية ، ليحثّ اتباعها على إتباع رسالة محمد صلىّ الله عليه وسلّم ، حينما يجيء من بعثته ، و شهادة الكتب الماضية لــه و ذكر الأنبياء له و إيصاؤهم على إتباعه هي عند السنوسي دليل وحده كاف بدون المعجزة على ثبوت رسالته [1] ، و من جملة النّصوص الدّينية التي يستشهد بها السنوسي على ذلك :

منها أنّ في المصحف الخامس من التوراة قال الله تعالى لموسى بن عمران : " إني أقيم لبني إسرائيل من بني اخوتهم نبيا مثلك أجعل كلامي على فيه ، فمن عصاه انتقمت منه ، فقوله تعالى : من بني اخوتهم نبيا ، يدلّ على أنّ هذا النبي ليس من بني إسرائيل ، فلا محالة أنّهم إمّا من العرب أو الروم ، فأمّا الروم لم يكن منهم نبيا سوى أيوب عليه السّلام ، وكان قبل موسى بزمان فتعيّن أنّ المراد بالأخوة العرب ، فالذي بشّرت به التّوراة إذن نبينا و مولانا محمد صلى الله عليه وسلّم [2] .

و في الزّبور أيضا : إنّ الله أظهر من صهيون إكليلا محمودا ، فالإكليل كناية عن الرياسة، ومحمود هو نبينا و مولانا محمد صلى الله عليه و سلّم . و فيه أيضا : تقلّد أيّها الجبّار السّيف ، فإنّ ناموسك و شرائعك مقرونة بيمينك ، و سهامك مسنونة ، و الأمم يخرون تحتك...

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] - السنوسي – عمدة أهل التوفيق و التسديد :ص387

[2] – و في الكتاب المقدّس المعاصر :" أقيم لهم نبّيا من وسط اخوتهم مثلك و أجعل كلامي في فمه فيكلّمهم بكلّ ما أوصيه به ، و يكون أنّ الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلّم به باسمي أنا أطالبه". سفر التثنية 18: 19،18. الكتاب المقدس – جمعيات الكتاب المقدس المتحدة ، 1966م

و في صحف أشعياء : لتفرح أرض البادية العطشى و لتبتهج البراري و الفلوات ، لأنّها ستعطي بأحمد محاسن لبنان ، وكمثل حسن الدساكر و الرياض [1]. و في صحف حبقوق النبي : جاء الله من التين و تقدس من جبال فاران و امتلأت الأرض من تحميد أحمد و تقديسه [2] "[3].

هذه بعض النّصوص التي يسوّقها السنوسي من ثماني عشرة نصا جمعها في كتابه شرح العقيدة الكبرى " عمدة أهل التوفيق و التسديد " كلّها بشّرت بمقدم و صدق رسالة نبينا محمد عليه الصّلاة والسّلام .

و بالجملة فنصوص الكتب السابقة في إثبات رسالة نبيّنا ومولانا محمد رسول الله ، وبشارات الأنبياء و الأحبار ، والأخبار به لا تكاد تنحصر ، فضلا عن مبالغتهم في تبديلها وتحريف الكثير منها ، و هي كلّها من دلائل نبوّته وعلامات رسالته [4]. هذا و لقد نصّ القرآن الكريم على أنّ أهل الكتاب يعرفون أنّ محمّد رسول الله لا يشكّون في رسالته ، كما يعرف أحدهم ابنه فلا يشكّ فيه ، قال تعالى :[الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ][5].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]- و في الكتاب المقدس المعاصر : " تفرح البرية و الأرض اليابسة و يبتهج القفر و يزهر كالنّرجس ، يزهر إزهارا و يبتهج ابتهاجا و يرنّم ، يدفع إليه مجد لبنان ، بهاء كرمل وشارون . هم يرون مجد الرّب بها إلهنا" . سفر أشعياء 35 : 1

[2] – و في المعاصر : "الله جاء من تيان و القدّوس من جبل فاران ، سلاه . جلاله غطّى السّماوات و الأرض و امتلأت من تسبيحه . و كان لمعان كالنّور . له من يده شعاع و هناك استتار قرته . قدّامه ذهب الوبأ و عند رجليه خرجت الحمى ، وقف وقاس الأرض . نظر فرجف الأمم ودكت الجبال الدّهرية وخسفت آكام القدّم هنالك الأزل له". سفر حبقوق 3 : 3

[3] – السنوسي – عمدة أهل التوفيق والتسديد :ص287- 293

[4] – المصدر نفسه : ص 393

[5] – البقرة الآية 146 – 147

المبحث الثالث

الدخول في الممارسة الصوفية

الشيخ السنوسي ليس صاحب طريقة في التصوف أو الزهد على ما نحو ما نعرفه من الطرق المنتشرة في زمانه ، و وجوده في عالم الذوق و التصوف هذا ، إنّما هو النهاية الطبيعية التي كان لابد أن يصل إليها كل مؤمن سالك حقيقي يزاوج بين مطالب النظر و ما يدعو إليه العقل ومطالب المجاهدة و التزكية النفسية . إنّ المؤمن الحقيقي في نظره ، هو من يسعى إلى طلب الحقيقة بعقله و قلبه ، ويتخذ لأحواله سيرة خاصة تليق به [1] .

إنّ الممارسة الصوفية نتيجة من نتائج تحصيل عقائد الإيمان بالنظر و العقل فما هو مفهومها عند الإمام السنوسي ؟ و ما هو مركزها ؟ وما هي منازل السير فيها ؟

أولا : مفهوم الممارسة الصوفية :

حقيقة الممارسة الصوفية عند الإمام رياضة نفسية " و الرياضة عبارة عن ملازمة العزلة والخلوة و تناول الحلال ، و الجوع ، و التقليل من الدنيا على سبيل الزهد فيها ، و مداومة التعبد والذكر " [2] .

إنّ العبادة و التعبد عند الإمام لا يمكن أن تكون صحيحة و لا مقبولة للسالك إذا لم يعرف هذا العبد معبوده ، كذلك الذكر لا يكون صحيحا لمن لا يعرف مذكوره ، و التقوى لا تكون عند السنوسي لمن لا يعرف آمره و ناهيه ، أو طلب مباح لمن لا يعرف المبيّح ، كذلك الممارسة الصوفية لا تكون نافعة لصاحبها إذا مارسها عن جهل لأنّها وسيلة يتوصل بها إلى مقصد

[1] – جمال الدين بوقلي حسن – الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد :ص355

[2] – السنوسي – عمدة أهل التوفيق التسديد : 55

عظيم ، إذا قامت على أساس من العلم و العقل و التوحيد و الدراية ، ذلك أنّ الاستعانة بها بعد معرفة الله تعالى ، و أحكام ما يتقرب به إليه سبب لرسوخ المعرفة ، و الزيادة في المعارف ، وتعرّض لكثير من المواهب ، و الترقي في مقام الإحسان ، " فالبحث عن ذلك فرع تحصيل أصل الإيمان بالنظر الصحيح ، و تحصيل علوم يطول تتبعها ؛ و التقدم لمعالي الأمور قبل إتقان أصولها ، وضبط طرقها ، عجلة و شهوة نفسانية ، توجب لصاحبها الفضيحة دنيا و أخرى "[1].

و من الأمثلة التي يسوقها السنوسي في سبيل تبرير موقفه هذا ، أنّ البراهمة و النصارى ، لما كانت عقائدهم فاسدة ، فإنّها لم تزدهم إلا ضلالا و انحرافا ، إذ أنّ الكثير من أصحاب هذه الديانات و العقائد ما يغترّون في طريقهم و عباداتهم بالتخيلات الشيطانية أو النفسانية ، نوما ويقظة ، و يعدّونها كرامات ، و هي في الحقيقة استدراج ، و زيادة لهم في أنواع الضلالات[2]. إنّ الممارسة الصوفية ثمرة من ثمرات الإيمان ، إذ لا قيمة للتصوف عند السنوسي إذا لم ينهض على أساس من العلم السليم بكتاب الله و سنّة رسوله ، فهو يرى أن صدق الانفعال بثمرات الإيمان التي هي حقيقة التصوف ولبه ، لا يأتي إلا من سعة العلم بالله عز وجل و برسوله صلى الله عليه وسلم ، و بالشرائع التي خاطب الله بها عباده ، معنى هذا ، التنبيه إلى أنّ العلم وسيلة لابد منها ، وأنّ التحقق بالتصوف الذي هو ثمرات الإيمان غاية ، و لكنها لا تنال ولا يتم الوصول إليها إلا من طريق العلم .

و لعلّ من القصص التي تروى في هذا الشأن قصة " عبد القادر الجيلاني " ، وخلاصتها أنّه بينما كان جالسا ذات يوم في محرابه يذكر الله و يراقبه ، إذ سمع هاتفا يقول له : يا عبد القادر أبشر ، فقد أسقطت عنك التكليف ! و لما صحا الشيخ إلى نفسه أخذ يفكر في صاحب النداء ، و في مدى احتمال إسقاط الله الأحكام التكليفية على أحد من عباده قبل الموت ، و على ضوء ما يدل عليه القرآن والسنة . و كان الشيخ "عبد القادر" عالما جليلا و فقيها متمكنا ، فصاح الشيخ

[1] – المصدر السابق : ص56

[2] – المصدر السابق : ص56

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قائلا : اخسأ ، فقد عرفتك أيها الملعون . قال فعاد إليه النداء يقول لولا علمك بالشريعة لأضللتك ، وكم من شيخ مثلك جاهل بها أرديته في أقصى أودية الضلال ! [1]

إنّ للتصوف و الذكر عند السنوسي ، وجهان : وجه نظري و وجه عملي ، فالأول وهو الأصل ، هو علم التوحيد الذي يبحث بالعقل ، فيما يجب لله ، وما يستحيل ، و ما يجوز ، وكذلك لرسله ، و أما الوجه الثاني ، فهو الدخول في الممارسة الذوقية سعيا وراء بلوغ الثمرة ، والفوز بالنتيجة ، مع العلم أن الانتفاع بالثمرة ، يأتي من شرف الأصل وهو التوحيد ، و استقامة النتيجة تأتي من ثبات المقدمات وهي أحكام العقل ، وبتعبير آخر إن علم التوحيد ثلاث محطات: الإيمان العقلي بالألوهية و مقتضياتها ، و الإيمان بالرسالة و ما يترتب عنها ، و أخيرا الدخول عالم الذوق والتصوف [2]. فمن يلتزم مع السنوسي بقول ثابت بالأدلة و قوة يقين و عقد راسخ ، لا يتزلزل لكونه نتج عن قواطع البراهين ، لاشك في أنّه سائر معه إلى ذكر الله و ذكر رسوله عدد ما ذكرهما الذاكرون ، و عدد ما غفل عنهما الغافلون .

[1] -محمد سعيد رمضان البوطي – هذا والدي ، ط3 ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، 1416هـ/1995م : ص107

[2] – جمال الدين بوقلي حسن – ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية والواقع : ص355

ثانيا : القلب مركز الممارسة الصوفية :

اهتم علماء الإسلام بالقلب اهتماما ملحوظا و لكنّ الذين أولوه عناية خاصة في بحوثهم ودراساتهم هم الصوفية ، و هم الذين يعبّر عنهم برجال الذوق و في مقدمتهم "المحاسبي" و"الغزالي"، و قد سار على طريقهم السنوسي . و جميعهم يذهبون – رغم تفاوتهم في التحليل – إلى أنّ القلب هو العنصر المخصوص بالخطاب الإلهي و العبادة و الطاعة و هو موطن المعرفة .

فالقلوب عند "المحاسبي" أول محل التكاليف ، و أعمال الأبدان موقوفة على أعمال القلوب ، و الأعمال إنّما يقع ابتداؤها من القلوب ثم يظهر على الجوارح [1]. و القلب عند "الغزالي" به كان شرف الإنسان و تفوق على غيره " فشرف الإنسان و فضيلته التي فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه ، التي هي في الدنيا جماله و كماله و فخره ، و في الآخرة عدّته و ذخره ، و إنّما استعدّ للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه ، فالقلب هو العالم بالله..و إنّما الجوارح أتباع و خدم و آلات..فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله ، و هو المحجوب و هو المطالب ، و هو الذي يخيب ويشقى..، فمعرفة القلب و حقيقة أوصافه أصل الدين و أساس طريق السالكين " [2]. و أمثال القلب عنده مثال حصن منيع و الشيطان يريد الدخول إليه [3] .

و لما كان القلب يوصف بالحياة و ضدها انقسم بحسب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة وهي القلب السليم ، الذي ليس بينه و بين قبول الحق و محبته و إيثاره سوى إدراكه ، فهو صحيح الإدراك للحق ، تام الانقياد و القبول له ، و القلب الميت القاسي ، لا يقبله و لا ينقاد له، و القلب المريض ، إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسي ، و إن غلبت عليه صحته التحق بالسليم .

1 – المحاسبي – الرعاية لحقوق الله ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، ط3 ، دار الكتب الحديثة ، مصر ، 1390 هـ/1970 م : ص44

2 – الغزالي أبو حامد – إحياء علوم الدين :ج3 ص03 .

3 – الغزالي أبو حامد – مكاشفة القلوب المقرب إلى علام حضرة علام الغيوب في علم التصوف ، ط7، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1402 هـ/1982م : ص 70

و يرى " ابن القيم" : في شأن القلب " أنّ الصحابة قد قسموا القلب إلى أربعة أقسام : قلب أجرد فيه سراج يزهر ، فذلك قلب المؤمن ، و قلب أغلف ، فذلك قلب الكافر ، و قلب منكوس فذلك قلب المنافق ، عرف ثم أنكر و أبصر ثم أعمى ، و قلب تمده مادتان : مادة إيمان ، و مادة نفاق و هو لما غلب عليه منهما " [1] . و لهذا كان ارتكاز أحكام الشريعة كلها على تزكية القلب عن الفواحش الباطنية و تحليته بالفضائل و الأخلاق الحميدة من أوضح ما صرح به كل من كتاب الله تعالى و سنة رسوله [2].

هذا و قد تعرّض السنوسي لدراسة مسألة القلب مرارا عديدة و في مواطن كثيرة متفرقة من كتبه متابعا في ذلك العلماء السابقين ، فهو يعتبره من أعظم الأعضاء خطرا ، و أكثرها أثرا ، وأدقها أمرا و أشقها إصلاحا ، فإنّ القلب محل العقل و هو ملك مطاع و رئيس متبع ، والأعضاء كلها تبع لــــه ، ذلك أنّ أعمال القلوب مصححة الجوارح ففي الحديث الشريف : " إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، و إذا فسدت فسد الجسد كله ألّا و هي القلب" [3] . فما يقع لأولياء الله تعالى من مكابدة العبادات ، و ما خرقوا فيها من العادات ، حتى بلغ كثير منهم رتبة الملائكة ، في عدم الشهوة ، و النوم ، و الأكل ، و الشرب ، و مداومة العبادة ، في كل وقت من غير تخلل شيء من الفترات ، وهم لم يزيدوا على الناس بقوة بدن ولا كبر أضلاع، ولكن زادوا بطهارة القلب من كل دنس ، وامتلائها بجواهر المعارف الربانية ، والمواهب القدسية النورانية ، فانتفضوا بذلك من جميع الرسوم الجسمانية ، وطاروا بقلوبهم إلى العالم الملكوتي و اتسعوا في صحراءه أي اتساع ثم صاروا بعد ذلك غيّبا عن الكل وعن أنفسهم وعن غيبهم عن أنفسهم في شهوده تعالى ، ثم منّ عليهم بالبقاء به جل وعلا بعد ذلك الفناء ، ومتعوا بمواهب وطرائف حكمه التي لا نهاية لها ، ولا وصول للعبارة إلى أدناها غاية الإمتاع [4].

---

[1] – ابن القيم الجوزية – إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، ط2 ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 1429هـ/ 2001م : ج1 ص7 - 11

[2] – محمد سعيد رمضان البوطي – باطن الإثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين ، دط ، دار البعث ، قسنطينة ، 1987م : ص 16

[3] – رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه . انظر ، صحيح البخاري : ج1 ص25

[4] – السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 537

إذا كان عمل القلب أشرف من عمل الجارحة لأنه محل الهداية ، فإنّ غفلته عند السنوسي تمنع المريد من الدخول في حضرة الله ، أي : دائرة ولايته ، و التمتع بجمال ذاته و صفاته ، و لا مطمع للمريد في هذه الحضرة المقدسة إلا بالتطهر من هذه الجفاية والإعراض عن المعاصي والشهوات [1] . و قد أشار الشيخ " ابن عطاء الله " إلى هذا المعنى في قوله :" كيف يشرق قلب ، صور الكائنات منطبقة في مرآته ؟! أم كيف يرحل إلى الله ، وهو مكبل بشهواته؟! أم كيف يطمع أن يدخل في حضرة الله ، و هو لم يتطهر من جنابة غفلاته ؟![2]

إنّ المشكلة هي غفلة القلب عن الله ، و العلاج يكمن في أن يسعى الإنسان سعيه الجاد للتخلص منها ، فإذا تخلص من الغفلة اتجه منه القلب إلى مولاه ، و سار ثابتا مستقيما في طريق الطاعات و صحا شعوره و ضميره إلى مراقبة الله عز وجل و ذكره ، و لا يتحقق هذا إلّا إذا أقبل العقل يستأذن القلب ليغرس فيه هذه المعاني المتقدمة ، و هذه هي طهارة العارفين عند السنوسي وأول مقاماتهم [3].

إنّ الذين حصل لهم عمى القلب في الدنيا إنّما حصلت هذه الحالة لهم لشدة حرصهم على الدنيا و ابتهاجهم بملذاتها و طيباتها و ليس معهم شيء من أنوار معرفة الله تعالى ، فيبقون في ظلمة شديدة و حسرة عظيمة و همّ دائم لا ينفك عنهم حتى يرجعوا إلى ربهم ، و أمّا من راقب الله في قلبه ، و راقبه في ما أمره به و في ما نهاه عنه ، و اقتصر في الأعمال على الفرائض وما تكمل به سننها و فضائلها فقد بلغ الغاية في الولاية عند الإمام السنوسي ، و الاجتهاد في الطاعة وإن قلت صلاته و صيامه و ذكره اللساني [4] .

[1] – السنوسي – شرح أبيات التطهر بماء الغيب : لوحة 197ص295
[2] – ابن عطاء الله السكندري – الحكم العطائية (الحكمة الثالثة عشر من الحكم العطائية) : ص 05
[3] – السنوسي – شرح أبيات التطهر بماء الغيب : لوحة 197ص295
[4] – السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 471

كما أنّ سلوك الهدية عند السنوسي يكون بالأساس أن يوفق الله العبد لذلك ، و أن يرشده سبحانه إلى طرقها العادية و التي هي عنده ملازمة العلماء العاملين و تحصيل العلوم النافعة و السلوك بتربية الوارثين المربين ، و نحو ذلك مما جرت عادته تعالى أن يوفق العبد عندها [1].

و تجدر الإشارة إلى أنّ مسألة القلب تعد من أعوص المسائل العرفانية التي حيرت العلماء و الحكماء منذ وجد الإنسان على هذه البسيطة و لا يزال البحث فيها قائما إلى اليوم بين أخذ وردّ و نقاش ، و ربما لن تتفق الأفكار و تنسجم حولها حتى نهاية الوجود .

[1] ـ المصدر السابق : ص472

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثالثا : منازل السّير إلى الله تعالى .

بعد أن بينّا سابقا المنهج النظري في البحث الصوفي و الممارسة الصوفية عند السنوسي القائم على العلم و العقل و التوحيد و هو منهج – فيما نرى – اقتبسه من كتاب الله تعالى و سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، نتناول هنا الجانب العملي للممارسة الصوفية و التي على المريد السير فيها في الطريق إلى الله . و طريق الوصول إلى الله هو تلك المقامات القلبية التي يتحلى بها السالك في طريقه إلى معرفة الله تعالى ، معرفة ذوقية ، و الوصول إلى مقام الإحسان الذي لا حدّ لمراتبه ، وقد لخّص السنوسي هذه المقامات والمنازل في كتابه " مختصر بغية السالك في أشرف المسالك " تلخيصا رائعا و هذا بيان ذلك .

مقامات الطاعة ومنازل القرب من الله تعالى في الطريق الصوفي عند السنوسي متعددة ، و على المريد أن يسلكها جميعا بعد إتقانه لعقائد التوحيد ، ومراتبها عند الإمام على النحو التالي :

المترل الأول – التوبة :

و حقيقة التوبة معلومة و شرط صحتها كذلك و قد سبق أن ذكرنا ذلك[1]. و أمّا آدابها فأربعة : الأول ترك الأصحاب الذين ألفهم على التقصير ، و الثاني مواصلة أهل الخير من العلماء العاملين ، و الثالث اجتناب مواضع الغفلة كالسماع بالآلات المطربة و نحوه ، و الرابع ألّا يذكر التائب شيئا من لذاته التي خلت و لا يخطر شيئا بباله من شهواته التي سلفت على وجه الاستلذاذ بها ، أمّا إذا ذكرها على وجه التخويف بالعقوبة ليسكن شر النّفس و تعلم قدرها بما اقترفت حتى لا تسكن هي إلاّ بما هي عليه من و ظائف التوبة فحسن . و الذكر الخاص بهذا المترل عند السنوسي الاستغفار و له هو أيضا شروطا وآدابا [2].

[1] – انظر ، الفصل الثاني ص 115

[2] – السنوسي – مختصر بغية السالك في أشرف المسالك : لوحة 01ص 01

أما شروط الاستغفار فخمسة : و هي الأول أن يكون التوجه للذكر على طهارة ليكون على أكمل حالة ، الثاني التوجه إلى القبلة ، الثالث الخلوة ، الرابع دفع الخواطر المنافية لمعنى الذكر الذي هو فيه ، الخامس و هو أكبرها المقصد الذي بنا عليه ذكره ليبني عليه الفكر .

و أمّا آداب الاستغفار عند السنوسي فخمسة أيضا و هي : خلو الباطن من الطعام ، وجلوس الذاكر على هيئة تقتضي الخشوع و الانكسار ، و تغميض العينين عند التوجه للذكر، والرابع اتخاذ سبحة ليحصي بها عدد التزامه ، لأنّ الحصر بالأصابع مشغل للفكر سيما أهل البداية، و الخامس ألا يقطع ورده بشيء من كلام أو غيره ، فإن المريد قادم على الله تعالى يناجيه ويخاطبه فلا يقطع إلا لعارض واجب أو كالواجب [1].

و من كيفيات الاستغفار : أن يفتتح المريد ورده بالاستعاذة و البسملة بغاية درء خواطر الشيطان ، و استنجادا باسم الرحمان ، و أن يختمه بالحمد و الشكر وترا عليه ثالثا ، أو خمسا ، أو سبعا ، و أن لا يفارق المريد الصّلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم على كل حال ، لأنّها مطلوبة إمّا لنفسها أو لغيرها . و من كيفيات الاستغفار عند السنوسي ، أن يبدأ السالك أمره بصلاة ركعتين فأكثر و يختم بمثل ذلك إن كان وقت صلاة ، و إلاّ ختم بالدعاء . و من الكمّ : أن يلتزم ما يتمكن من مداومته ، و ينبغي أن يتحين بذكره الأحيان الفاضلة و أخص الأوقات ذكر الاستغفار ، السّحر و هو الثلث الأخير من الليل ، فليورد على نفسه فيه خطاب المولى جل و علا : هل من مستغفر فاغفر له ؟ ثم يقول : أنا يا رب بتوفيك[2].

المنزل الثاني – الاستقامة :

وحقيقة الاستقامة : " عبارة عن اعتدال السير على نهج السنة من غير تحريف [لها] من الغرق في لجج التعطيل عند ركوب بحار التحقيق . ولها ظاهر باطن ، أمّا ظاهرها فتحلية الجوارح بالطاعات على قانون الشرع و أمّا باطنها فتحلية الباطن بأخلاق الشرع ، و استقامة الباطن أصل

[1] – المصدر السابق :ص01- 02

[2] – المصدر السابق :ص 02 .و كتابه – شرح أم البراهين : ص87- 88

في استقامة الظاهر "[1]. و هي أيضا : "الوفاء بالعهود كلها و ملازمة الصّراط المستقيم ، و الصّراط المستقيم رعاية حدّ التوسط و العدل في كل الأمور" [2]. و للاستقامة عند الإمام شروط وآداب .

أمّا شروط الاستقامة فخمسة و هي : مواصلة أهل السنّة و مجانبة أهل البدعة ، و تعلم العلم النّافع الهادي إلى وظائف الشرع ، و تسليم النظر للشارع بحسن و صدق طوية ، فلا يقبل المريد من خواطره و أحواله إلاّ ما شهد له الشرع بالصدق ، و الرابع عدم التعمق والتأنق و الميل مع أوهام الوسواس . و الخامس بناء كل حركة و سكون من أموره على السنّة مع قصد القربة .

و أمّا آداب الاستقامة فخمسة أيضا و هي : الأول : متابعة النبي صلى الله عليه وسلم في جميع ما ورد عنه في الأقوال و الأفعال في العبادات ، و الثاني : الأخذ بالأعمّ فالأعمّ من أقواله أفعاله صلى الله عليه و سلم فهو الأحوط كعدد ركعات الوتر و الضحى ، و كذا ما كان عليه آخر عمره يقدمه ، و الثالث : أن يقصد بمتابعته صلى الله عليه وسلم تعديل الحركات و السّكنات حتى تنفعل النّفس لذلك التعديل فتتّصف به ، و الرابع : أن يضبط نفسه بضابط الإقتداء حتى يقمعها عن اتباع الهوى و لو في الطاعات ، و الخامس : أن يرفع الخواطر العارضة عند التلبّس بالإتباع و لا يلتفت إليها . و الذكر الخاص بأصحاب هذا المترل : هو الصّلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بالشروط و الآداب التي تقدمت في الاستغفار [3] .

المترل الثالث – التقوى :

و حقيقة التقوى : " اجتناب كل ما يبعد عن الله تعالى "[4] و عند " القشيري": التحرز بطاعة الله عن عقوبته ، و أصلها اتّقاء الشّرك ثم بعده اتقاء المعاصي و السّيئات ثم بعده

1 - السنوسي – مختصر بغية السالك في أشرف المسالك :ص 02
2 - شمس الدين الرازي – حدائق الحقائق ، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1423هـ/ 2002م : ص128
3 - السنوسي – مختصر بغية السالك في أشرف المسالك :ص 02
4 - شمس الدين الرازي – حدائق الحقائق : ص 67

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

اتّقاء الشّبهات ثم تدع بعده الفضلات [1]. و عند السنوسي : " هو عبارة عن التحرّز من موافعة المخالفات ، و إن شئت قلت حراسة الجوارح من العصيان اتّقاء سخط الدّيان . و لها شروط وآداب " [2].

أمّا شروط التقوى فأربعة و هي : الأوّل : الإعراض عن جميع المخالفات ظاهرا و باطنا تنزها عنها ، و ترفّعا إلى ما قصده من حضرة العبودية باستحضار الفكرة في معنى الربوبية ، والثاني : الإعراض عن أسباب المخالفات ، إذ للأسباب حكم المسبّب كمواضع الفتن و مراتع الشّهوات و مؤالفة أهل التضييع ، و الثالث : مواصلة الطّاعات فهي المجش الواقي من الخذلان و الحرمان ، و الرابع : امحاض القصد في التقوى لله تعالى .

و أمّا آداب التقوى فهي أربعة : الأول التحفّظ و التنزّه عن الشّبهات ، و التحفّظ من فضول الحلال في الأكل و الشّرب واللباس ، و سائر الجوارح ، فيترك المريد ما لا بأس به حذرا ممّا به البأس ، و ترك التفريط و الإفراط ، و الأدب الرابع التستّر بذلك وسع الإمكان ليسلم المريد من الرّياء و الوقوع فيه . و الذّكر الخاص بهذا المنزل و المقام عند السنوسي التهليل و هو : لا اله إلاّ الله وحده لا شريك لـــه محمد صلى الله عليه وسلم حبيب الله و دليله ، و كيفية صلاة المريد على النّبي صلّى الله عليه و سلّم أن يقول : اللهّم صلي على محمد الدّال عليك الكريم لديك صلاة تنال بها كرامة المزيد و نبلغ بها خالص التوحيد و سلّم [3].

[1] - القشيري – الرسالة القشيرية : ص180

[2] - السنوسي – مختصر بغية السالك في أشرف المسالك :ص 02

[3] - المصدر نفسه :ص 02-03

المترل الرابع – الإخلاص :

و مقام الإخلاص أول مترل من منازل الإيمان عند السنوسي و المراد به : " تصحيح الوجهة إلى الله تعالى في جميع الحركات و السكنات جريا على سبيل العبودية ، و هي أخصّ من النّية ، و له شروط و آداب "[1].

أمّا شروطه فأربعة و هي : الأول اتحاد معنى العبادة في القلب عريا عن واردات الخواطر المنافية للإخلاص استئناسا بما احتوى عليه الذكر من لذيذ المناجاة ، و الثاني غيبة القلب في إعمال الطّاعات عن الالتفات لغير الله تعالى من غرض المباح و نحوه ، و الشرط الثالث : الصبر على تجرّع ما ينافي الطباع و ينافي الهوى من أمور الإخلاص ، و ذلك بربط النّفس لقوانينه ، والرابع : عدم المبالاة بغير الله تعالى تعويلا على أنّه المولى الذي يجب أن يكون له الدين الخالص .

و أمّا آداب الإخلاص فهي عند السنوسي أربعة أيضا و هي : الأول : الجزع من سلب الإخلاص ، و الثاني : اتهام النّفس فيما تدّعيه من توفية الإخلاص ، لأنّها ذات مكر عظيم فيما يظهر فكيف بما يخفى ، و الأدب الثالث : أن يلجأ المريد إلى الله بالضراعة ، و الدعاء على مرور الأزمان ، و إسقاط الحول و القوة ، و الرابع : مطالبة النّفس بالإخلاص في المباحاة ، و العادات، مع إحضار نيّة القرّبة في ذلك ، ليكون للسالك بذلك مرقى إلى مترل الصدق مع الله تعالى في معاملاته في كل الأنفاس . و الذكر الخاص بهذا المترل عند الإمام السنوسي لا اله إلا الله محمد رسول الله [2].

[1] – المصدر السابق : ص 03 . و السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 544

[2] – السنوسي – مختصر بغية السالك في أشرف المسالك:ص 03

المنزل الخامس – الصدق :

و مقام الصدق عند الإمام هو المنزل الثاني من منازل الإيمان و هو : " قول الحق في مواطن الهلاك "[1] . و عند السنوسي هو : " عبارة عن صفاء معاملة الله عز و جل من امتزاج الخواطر الجالية و الخفية ، و له أيضا شروط و آداب "[2] .

أمّا شروطه فأربعة و هي : الأول طرح الطائف كليا من غير ترخّص و لا تأويل ، لأنّ الصّدق أول صفة يعقدها السّالك مع الله تعالى في بيع نفسه ، و الثاني : إسقاط حظوظه في الوجهة إلى الله تعالى ، و الثالث : تصحيح العزم بإمحاض القصد في معاملة الرب ، و سداد السعي لموافقة القلب ، حتى يجتمع القصد و السعي على منهاج التوحيد ، و الرابع : ملازمة الكتمان غيرة على أسرار المراءات و احتياطا لمداخلة الأوهام .

و أمّا آداب الصّدق فأربعة أيضا و هي : الأول : حفظ الوسط من الخواطر ، و تصفية القلب باتحاد الضمائر و تعلقه بعالم السرائر ، و الثاني : بلمح الحكم من مختلفات الموجودات في طرفاه السرّاء و الضرّاء ، و الثالث : اتهام النّفس ، مع وفائها في توفيتها كل شيء ، و الرابع : ترك الاجتهاد بالتأويل حفظا لرسوم القوم – أي الصوفية – من التغيير و التبديل . و الذكر الخاص بهذا المنزل : التسبيح[3]. و يكون بتنزيه الحق عن نقائض الإمكان و الحدوث[4].

المنزل السادس – الطمأنينة :

و حقيقة الطمأنينة عند الإمام السنوسي : "سكون القلب إلى ثلج يقين يشبه العيان على عار عن التقلب و الاضطراب ، في هذا المنزل ينفض السالك رجله من قيود الغفلة ، و يحصل في

[1] – شمس الدين الرازي – حدائق الحقائق : ص 89 .و عبد القادر الجيلاني – الغنية لطالبي طريق الحق ، تحقيق الشيخ يوسف بن محمود الحاج أحمد ، ط1، المطبعة العالمية ، دمشق ، سوريا ، 1421هـ/2001م :464

[2] – السنوسي – مختصر بغية السالك في أشرف المسالك :ص 04

[3] – المصدر نفسه :ص 04

[4] – الجرجاني – التعريفات : 80

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مأمن الاختصاص ، و يشم روائح الوصلة ، و هو أول منزل من منازل المراد . وله شروط و آداب "[1].

و أمّا شروط منزل الطمأنينة فأربعة وهي : نفي جميع الهموم على القلب حتى يصير همه هما واحدا إلى الواحد القيوم ، و يعود ذكره تعالى جاريا مجرى حديث النفس ، والثاني: نبذ هواجس الإيراد تعويلا على الحق ، و اتهاما لنفسه ، و الثالث : غسل القلب من تبعات الأوهام ، والرابع : مراعاة الرسوم الشرعية قياما بالوظائف الدينية حتى لا يتحرك حركة و لا يسكن سكنة بدون أصل شرعي و أساس سني [2].

و أمّا آداب الطمأنينة فأربعة : أولها الحرص على العمل الظاهر و الباطن بالتزام الأدب و حفظ الوقت ، الثاني مباحثة الأنفاس في التصفية خشية الفضيحة عند ورود سلطان المراقبة ، إذ لا يحمل أعباء المراقبة إلا باطن صاف من كدرات الخطرات النفسية ، الثالث أن لا يشغله سكون الطمأنينة عن حركة الانتهاض إلى مبادي المراقبة و السعي إلى مرقاها ، لأنّ طالب الله لا يقنعه دونه شيء فلا يزال يدرج إلى الهضبات الاحسانية حتى يحصل في حضرة المقربين ، الرابع خمود نار الفكرة بوارد نور معنى الذكر من غير أن يبلغ به مبلغ السكر ، و المراد منه أن يرد على معنى الذكر مورد اعتدال من غير قوة إقدام و لا ضعف توان[3] ، إنّ الله يأمر بالعدل و الإحسان [4]. و الذكر الخاص بهذا المنزل هو الذكر المفرد ، و نسبة هذا الذكر لهذا المنزل كنسبة التهليل لمنزل التقوى ..[5].

[1] – السنوسي – مختصر بغية السالك في أشرف المسالك :ص 04

[2] – المصدر نفسه :ص 04

[3] – الساحلي – بغية السالك في أشرف المسالك : ج1ص360- 361

[4] – النحل الآية 90

[5] – الساحلي – بغية السالك : ج1ص362

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المترل السابع – المراقبة :

المراقبة : هي بداية مقام الإحسان و أول مترلة من منازله ، و هي تمكن يقي الروح باطلاع الله عليه ، فيلازم الوجهة ، يرتقب كشف الحجاب عن وجه القلب لتتصل المراقبة بالمراقبة..و سببها مراعاة القلب و حفظ الأنفاس مع الله تعالى [1]. و لها شروط وآداب .

أما شروطها فأربعة و هي : القيام بجميع حقوق الله تعالى سرا و علانية خالصا من الأوهام ، صادقا في الاحترام ، سالما من الدعوى . الثاني : استرسال الروح في تلمح عالمه إعراضا عما سوى الله لأنّ أدنى فلتة من التفات إلى غير الله هي حجاب عن معنى ما ينتظر من هبات روائع أنفاس المشاهدة . الثالث : إقامة رسوم الشريعة أحسن إقامة . فهي شعائر أهل العبودية و هي الوسائل إلى درك الحقائق الإلهية . الرابع : التجافي عن الإشارات الواردة عليه من مراقبته ، و الإعراض عن تلمّح لامح و لحظ لامع أو طالع [2] .

أمّا آداب المراقبة فأربعة و هي : قوة المباحثة في تصفية الروح بشدة عزم و حسن هدى، حالا و قصدا ، عدولا عن بقايا الأوهام و بعدا . الثاني : الإعراض عن عالم الحسّ بالمعنى إن لم يكن بالحّس جملة من غير تفصيل ، مستعينا على ذلك بالخلوات و السهر و الجوع من غير هلكة. و تواصل الصمت مطلقا إلا الذكر الخالص به . الثالث : الكتم لما يظهر و يلوح من مبادي الأسرار مع تتره الروح عن الالتفات لشيء مما وقع فيه الكتم ..، لكن كتم الأسرار من علامات الأحرار و هتك الأستار شعار الأشرار . الرابع : ملازمة الانكسار و الخضوع بحفظ الأدب في المحاضرة القدسية ، لأنّه قادم على حضرة تدقّ فيها وظائف الأدب وتخفى فيها هواجس الأسرار. و الذكر الخاص بهذا المترل الدال على نهاية توحيد الصفات هو الذكر المفرد [3].

---

[1] – الساحلي – بغية السالك :ج2ص 385

[2] – المصدر نفسه :ج2ص 388- 389

[3] – المصدر نفسه:ج2ص 389- 390

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المنزل الثامن — المشاهدة :

و حقيقة المشاهدة " عبارة عن وجود الحقّ من غير ريبة و لا تهمة و لا بقية "[1] . و لها شروط وآداب . أما شروطه فأربعة : الأول : اطلاع الروح على الموجودات خطيرها وحقيرها ، ظاهرها و باطنها ، أوائلها و أواخرها بنظرة واحدة . الثاني : الاتصاف بصفة الاستهتار[2] بسر التوحيد و هو المشار في الحديث بقوله صلى الله عليه و سلم: " سبق المفردون . قالوا : و ما المفردون يا رسول الله ؟ قال : المستهترون بذكر الله . يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون خفافا "[3]. و هذه إشارة إلى بلوغ الغاية في تصفية الروح . الثالث : حفظ الرسوم الشرعية و الأحكام الدينية لأنّ هذا المنزل لا ينال مع ترك شيء من الرّسوم الشرعية . الرابع : رفع أوصاف العادة و نوعها ، من جميع ما يقدح في المواصلات ، و ليس لصاحب هذا المنزل في هذا المحو[4] سبب و لا إرادة ، بخلاف ما يكون من المحو في غيره من المنازل[5] .

و أما آدابه فأربعة : الأول : الحياء من الحق بالحق هيبة و وجودا و إفرادا ، بطرد طوارق الاعتلال عن الرّوح ، و غض طرف الإشارة . الثاني : الثبوت عند أول الواردات بتهيئة الرّوح للمشاهدة من غير مقاواة ليتقوى بالثبات عند بدايتها ، لما يرد عليه من أسرار نهايتها . الثالث : الرجوع إلى الشاهد كلما ضعف الروح عن حمل مؤونة واردات المشاهدة لأنّها لا تقتضي المكث و الديمومة ، لاسيما في بداية الأمر . الرابع : عثور الروح على حقيقة نفسه فإنّه إذا حصل على حقيقة نفسه ، حصل على تمكين سرّ المشاهدة . و الذكر المناسب لهذا المنزل هو الاسم العظيم مفردا فهو أخصّ الأذكار به و إن كان استعماله في منزل الطمأنينة و منزل المراقبة لتعلق معناه بتوحيد الصفات من جهة أنّ الصفات قائمة بالذات ، و ذلك أنّ الاسم العظيم يدل على الذات المقدسة من حيث هو اسم الله العظيم و ذاته و حقيقته ، و للإفراد اختصاص بحالة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1] – الساحلي – بغية السالك :ج2ص 412

[2] – الاستهتار: الولوع بالشيء و الإفراط فيه من كأنه أهتر أي خرق

[3] – رواه الترمذي رقم الحديث : 3666

[4] – قال القشيري : المحق فوق المحو لأن المحو يبقى أثرا ، و المحق لا يبقى أثرا و غاية همة القوم أن يمحقهم الحق عن شاهدهم ثم لا يردهم إليهم بعد ما محقهم عنهم) و لا إرادة ، بخلاف ما يكون من المحو في غيره من المنازل .القشيري –الرسالة القشيرية:ص

[5] – الساحلي – بغية السالك :ج2ص 419 – 421

الجمع ، ففي الطمأنينة يشير إلى الجمع من بعد ، و في المراقبة يشير إليه من قرب ، و في المشاهدة يفصح عن الجمع نصا جليا [1].

المترل التاسع – المعرفة :

و حقيقتها : " تمكين حال المشاهدة و استصحابها مع إقامة العدل و ملازمة الحكمة و هذا غير ما يطلقه أهل الفقه من أنّ المعرفة هي العلم بالرسوم .. فالمعرفة عند أهل هذا الشأن [أي أهل التصوف] إنّما يشيرون بها إلى معرفة الله تعالى بما يقتضيه اسمه العظيم من معنى توحيد الذّات و الصّفات و الأفعال ، و هي غاية السالكين و نهاية المسافرين . و لها شروط و آداب[2].

أمّا شروطها فأربعة هي : الأول : القرب الدائم فلا يشهد غير الله و لا يرجع إلّا إليه. الثاني : العجز المؤذن بالإدراك . الثالث : المحافظة على الرسوم الشرعية و إقامة الوظائف الدينية. الرابع : صيانة ما حصل عليه من تصفية الروح حتى يبقى مخلقا بأخلاق الحق .

و أما آدابها فأربعة : الأول : إعطاء الحكمة أهلها و منعها من غير أهلها . الثاني : التزام الأدب في كل شيء مع الله تعالى ، و أعظم الأدب معه ، حفظ أسرار الحق صيانة عن الخلـــق ، فهو مع الخلق برسمه و مع الله بالله . الثالث : ملازمة الهيبة و الصعود إلى غايتها ، فإنّ الهيبة من أمارات المعرفة كلّما ازدادت معرفته ازدادت هيبته ، و قد يعبر عن الهيبة بالخـــشية . الرابـــع : الصّعود أبدا إلى الغايات فلا يقنع من الله بحال وقته ،كما لا يقف عن السير إليه فهو يرقى أبـــدا من حال إلى حال . وذكر هذا المترل إنّما هو الذكر المفرد الذي ختم به مترل المـــشاهدة .قـــال السنوسي : " فالله هو اسمٌ عَلَمٌ على الإله الواجبِ الوُجُودِ المَعْبُودِ بحَقٍّ . و حظُّ العَبْدِ منه دوامُ التعلُّقِ به في الظاهر و الباطن ، و الفناء به عن كل ما سواه تَبَارَكَ و تَعَالَى ؛ لأنّه لمّا كان اسْمًـــا جامعًا للذات و الصفات و الأفعال امتحَى من القلب ، عند استحضارِ كمال هذه الثلاثة العديمة

[1] – الساحلي – بغية السالك في أشرف المسالك :ج2ص 422 - 425

[2] – المصدر نفسه :ج 2 ص 439 -445

المثال في حقه تعالى، كلُّ ما عداه ـــ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـــ من الذوات والصفات والأفعال "[1]. و قال "الغزالي ": " ينبغي أن يكون حظ العبد من هذا الاسم - الله - التأله ، أي أن يكون العبد مستغرق القلب و الهمة بالله تعالى ، لا يرى غيره ولا يلتفت إلى سواه ولا يرجو ولا يخاف إلا إياه[2] " .

هذه أهمّ مقامات الطاعة و منازل القرب من الله تعالى و السير في الطريق الصوفي عند السنوسي ، و مع على المريد طالب الحق إلا أن يسلكها جميعا بعد إتقانه لعقائد الإيمان ، حتى يصل إلى أعلى درجات الإحسان الثلاثة وهي المراقبة ، والمشاهدة و المعرفة ، باعتبارها علامة على القرب والوصول و يجمع جميعها قوله صلى الله عليه وسلم في تفسير الإحسان : " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك "[3]. و لكل تلك المقامات شروط وآداب ، وعلامات ، وكرمات ، و علل ، و توصيات [4] .

[1] - السنوسي – شرح مختصر أسماء الله الحسنى ، مخطوط ، المكتبة الوطنية ، الجزائر رقم 2910 ، لوحة 1ص1

[2] - الغزالي – المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، ط3 ، مكتبة القاهرة ، مصر ، 1425هـ/ 2004م : ص 36

[3] - رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب :بيان الإيمان و الإسلام والإحسان : ص29

[4] - السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 486

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصـــــل الرابع :

النّفــس الإنســانية عيوبها و مجاهداتـــها

المبــحث الأوّل : طبيعة النّفس الإنسانية عيوبها وآفــاتها .

المبــحث الثانــي : بواعث آفــات النّــفس الإنســانية .

المبــحث الثالث : مجاهدات النّفس و طرق التخلص من عيوبها .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهـــــــيد :

إنّ سعادة المؤمن في الدنيا و الآخرة موقوف على مدى تأديب نفسه ، و تزكيتها ، وتطهيرها ، كما أنّ شقائه منوط بفسادها ، و خبثها ، لأنّها بفطرتها مستعدة للفجور الذي يدنسها و يدسيها ، استعدادها للتقوى التي تطهرها و تزكيها ، و على الإنسان بعقله و إرادته أن يختار أي الطريقين : طريق التزكية أو طريق التدسية ، و لا ريب أنّه إذا اختار طريق التزكية فقد اختار طريق الفلاح قال تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى }[1]. و رسالات الأنبياء جميعا كانت دعوة إلى التزكية ، و لهذا رأينا موسى عليه السلام يقول لفرعون حين أرسل إليه من ربه :{فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى }[2]. وكان من الشّعب الأساسية لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم التزكية كما جاء ذلك في آيات أربع[3] من كتاب الله منها ما جاء في دعوة إبراهيم و إسماعيل عليهما السّلام للأمة المسلمة الموعودة:{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يتلو عليهم آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}[4].

من أجل هذا يعيش السّالك عاملا دائما على تأديب نفسه و تزكيتها و تطهيرها ، ولا يتحقق هذا إلا إذا عرف المسلم ، طالب طريق الحق ، طبيعة النّفس البشرية ، و عيوبها ، وبواعث آفاتها ، حتى يتمكّن من تخليص نفسه من شرورها ، و يكون أوانه قد حان للدخول في خوض غمار التجربة الذّوقية و ممارستها لينفرد بنفسه مع ربه تعالى ، و مهما تكن صحة حال السّالك من حيث البداية ، إلاّ أنّ وصوله بالسلوك إلى الغاية و النّهاية لا يتسنى له ، و هو بعد مثقل ببقية آثار النفس . و من هنا وجدنا الإمام السنوسي ينبه السّالك إلى ضرورة معرفة حقيقة النّفس الإنسانية ، و أمراضها ، حتى يسهل عليه علاجها و تطهيرها من أرجاسها ، و هو ما سنتناوله في هذا الفصل من هذه الدراسة تحت المباحث التالية :

المبحث الأوّل : طبيعة النّفس الإنسانية عيوبها و آفاتها .

المبحث الثاني : بواعث آفات النّفس الإنسانية .

المبحث الثالث : مجاهدات النّفس و طرق التخلص من عيوبها .

1- الأعلى الآية 14

2- النازعات الآية 18-19

3- منها : البقرة الآية 151 ، ومنها آل عمران الآية 164 ، ومنها الجمعة الآية 02 .

4- البقرة الآية 129

المبحث الأوّل :
طبيعة النّفس الإنسانية عيوبها و آفاتها .

أولا: حقيقة النّفس الإنسانية .

للصوفية مفهوم خاص للنّفس الإنسانية ، لا يستند إلى المعاني اللغوية و الفلسفية المتعددة للكلمة ، و إنّما يستمد من جملة أصول شرعية وردت في الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية [1]. مثل قوله تعالى :{ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً }[2] وقوله تعالى :{ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ }[3].وقوله :{ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ }[4]. و قوله : { قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي}[5].

كما استشهد القوم بالعديد من الآثار النبوية ، القريبة المعنى ممّا أشارت إليه آيات القرآن ، مثل قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي : " الكيّس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت ، و العاجز من اتّبع نفسه هواها ، و تمنى على الله الأماني " 6 ، لينتهوا من ذلك إلى القول أنّ مطلق كلمة النّفس إنّما يراد بها الطبيعة السّيئة للنّفس الآمارة بالسّوء . و يفرق الصوفية بين النّفس و الروح ، فإن كانت النّفس هي محل الأوصاف المذمومة فالروح هي نبع الأخلاق المحمودة[7].

---

[1]- يوسف محمد طه زيدان – الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر ، ط1 ، دار الجيل ، بيروت، لبنان ، 1991م : ص61

[2] – النساء الآية 79

[3]- يوسف الآية 53

[4]- الرعد الآية 11

[5]- طه الآية 96

[6]- رواه الترمذي في سننه وحسنه، باب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله رقم (2383) . و أحمد ، كتاب مسند الشاميين ، باب حديث شداد بن أوس . و ابن ماجة، كتاب الزهد، باب ذكر الموت و الاستعداد له رقم 4350

[7]- القشيري – الرسالة القشيرية في علم التصوف : ص 160-162

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و قد ضبط " الغزالي" مفهوم النّفس عند المتصوفة فهي المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان ، و هذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف لأنّهم يريدون بالنّفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان [1] ، و لكنّ لهذا التفريق تأثير جوهري كذلك فكأنّ المتصوفة وضعوا النّفس و الروح في صراع دائم تنتصر النّفس أحيانا و ينتصر الروح أحيانا أخرى، فالروح هي التي تقربه من المعرفة .

أمّا " ابن القيم " فيرى أنّها : "جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس ، و هي جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك ، و ينفذ في جوهر الأعضاء و يسّري فيه سريان الماء وسريان الدّهن في الزيوت ، و النّار في الفحم ، فمادامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقي هذا الجسم اللطيف مشابكا لهذه الأعضاء و أفادها من الآثار للحس ..و هذا القول هو الصّواب في المسألة ، و هذا الذي لا يصحّ غيره ، و كل الأقوال سواه باطلة و عليه دلّ الكتاب و السنّة و الإجماع و العقل " [2] . و هذا الترجيح الذي انتهى إليه الإمام يشتمّ فيه رائحة الفلسفة و قد رجحه لموافقته القرآن و السنة ، فـــ" ابن القيم " يميل إلى رأي " أرسطو" الذي يقول أنّ النّفس مخالف للجسم بالماهية ، و كأنّ " ابن القيم " أراد إخضاع الفلسفة للدين في هذه المسألة .

لا شك أنّ السنوسي متأثر إلى حدّ ما فيما ذهب إليه بشأن النفس الإنسانية و بيان مراتبها و عيوبها بمن سبقه من الصوفية الذين بينوا كيفية معرفتها و مجاهداتها و إدراك أماراتها ، و يلحّ السنوسي على ذمّ النّفس و اعتبارها مصدر الشرور و العيوب مستندا إلى بعض الآيات القرآنية و أقوال رموز الصوفية ، و إذا كان بعض الصوفية يرون أنّ النفس و الروح و القلب هي جميعا موطن الشرور و العيوب ، فإنّ الإمام السنوسي لم يخرج بمفهوم النّفس عن الإطار الذي رسمه الصوفية ، و هي النّفس الأمارة بالسوء التي هي أعدى على صاحبها من إبليس فهي جاهلة

[1]- الغزالي أبو حامد – إحياء علوم الدين : ج3 ص4

[2]- ابن القيم الجوزية– الروح ، دط ، دار المدني ، جدة ، السعودية ، دت : ص 239

بربها طبعها الركون إلى الرّياء و النّفاق و الكبر ، و حب الدنيا و الرياسة و العجب وسائر الصفات المذمومة .

ثانيا : عيوب النفس العامة عند السنوسي .

من الأصول التي يعتمد عليها الصوفية في المعرفة ، معرفة النفس ، و معرفة النّفس تتصل بالشريعة من جملة مدارك المعرفة ، و ذلك لأنّ الشريعة تتصل بالنّفس اتصالا مباشرا ، من حيث مناطها كما أنّ الوجود الخارجي يتصل بالحقيقة من حيث مناطها كذلك ، و لعلنا الآن ندرك أنّ معرفة النفس ذات صلة وثيقة بمعرفة الله تعالى [1] .

إنّ فائدة التدقيق في عيوب النّفس ، و تعرّفها ، و تعرّف دقائق أحوالها ، هي معرفة المرء بنفسه و تواضعه لربه ، و رؤية قصوره و تقصيره ، و إلا " فليس في قوة البشر التبري من عيب بإزالته ، إذ لو أنّ العبد لا يصل إلى الله إلا بعد فناء مساويه و محو دعاويه لم يصل إليه أبدا " [2] ، ولأنّ معرفة النّفس سلّم إلى معرفة الحق [3]. و صفات النفس باعتبار خلقها : أي الصفات المجبولة عليها و المذمومة عند القوم و هي المتوجه عليها بالمجاهدة و أصل هذه الصفات المذمومة كثيرة منها الطيش و الشره [4]. و ذلك أنّ كل عضو خلق منها لفعل خاص ، فعلامة مرضه أن يتعذر منه ذلك الفعل ، أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب .

و إذا اعتنى المتصوفة بهذا الجانب من النّفس المتعلقة بمعنى المجاهدة و الرّياضة ، فلا شك أنّ جانبا كبيرا من المجاهدة الصوفية تتوجه نحو إفناء هذه الصفات ، وهو ربما شكل منتقدا لهم ، على اعتبار اهتمامهم بهذا الجانب بدل الاهتمام بالأمر و النهي الشرّعي و إلزام النفس به .

[1] - عبد القادر أحمد عطا — التصوف الإسلامي بين الأصالة و الاقتباس في عصر النابلسي ، ط1 ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان، 1407 هـ/1987م : ص 297- 302

[2] - أحمد زروق البرنسي — قواعد التصوف : ص 122

[3] - الأمير عبد القادر الجزائري- المواقف في التصوف و الوعظ و الإرشاد ، ط2 ، دار اليقظة العربية للتأليف و الترجمة و النشر ، دمشق ، سوريا ، 1967م : ج2 ص 1232

[4] - شهاب الدين السهروردي – عوارف المعارف : ص 45

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذا وعيوب النّفس عند السنوسي كثيرة ولكن على كثرتها فإنّها ترجع عنده إلى ثلاثة أنواع من العيوب العامة [1] وهي :

- الأول : أنّها تحول بين العبد وبين العمل بما كلّف به ، إمّا تشاغلا بالأضداد من المعاصي والشهوات ، و إمّا عجزا أو تكاسلا و نفورا عما اشتملت عليه التكاليف من المشقات ، و ميلا إلى جانب الدّعة و ركوب متون الراحات .

- الثاني : أنّه إذا غلب العبد النّفس و دخل بها العمل المكلّف به طوعا أو كرها مزجت له ذلك العمل الطّيب من سمومها القاتلة ، ما يمنع ذلك العمل الصّالح من الصّحة أو القبول ، و ربّما يهلك به العبد دنيا و أخرى ، و ينعكس عليه بسبب عيب نفسه ما كان وثق به من الظفر بالمأمول .

- الثالث : إذا غلبها العبد حتى أتمّ العمل الصالح على الوجه الذي طلب منه سالما من العيوب ، حاولت عليه بعد ذلك بتعظيم ذلك العمل في عينه حتى يعجب به أو ينسبه إلى حوله وقوته ، أو يتكبر لسببه على من لم يتصف به ، أو تنسيه رؤية نفسه فيه ما يجب عليه من شكر الله تعالى عليه ، أو يستطيل بسببه ، لسانه أو قلبه على غيره بإذاية له ، بغيبة أو نميمة أو سوء ظن ، أو حضور لذلك من غير نكير منه ، بحيث ينتقل بمظلمة واحدة منها جميع أعماله في عمره إن قدر قبولها إلى ميزان حسنات غيره ، فكيف بالكثير من تلك الإذايات و المظالم مع قلة العمل المقبول منه ، أو عدمه أصلا ، أو يحب أن يعظمه النّاس و يخدموه على ذلك العمل ، ويرى لنفسه حقا عليهم بسببه ، أو يدلي به على الله تبارك و تعالى فيطلب منه خوارق العادات التي يمنّ بها على خاصّة أوليائه ، و يظنّ لحمقه أنّه دخل بسبب عمله في وسطهم و أنّ له سبب ذلك ، استحقاقا على الله تعالى في إنالة ما يتمناه عليه ، إلى غير ذلك من عظائم الخبائث ، وكبائر أمراض القلوب ، و الجوارح ، التي لا تبقى ولا تذر .

[1] - السنوسي - المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 473- 474

وكل واحد من هذه الأنواع الثلاثة عند السنوسي قد اشتمل على جزئيات لا يمكن استيفاؤها عنده لأنّ العبد مغمور من جميع جهاته بهذه المعائب و الآفات التي خرجت عن الحصر في الكثرة و يخفى أكثرها على العقل إلاّ بإرشاد من الله تعالى ، كما أنّ حال البشر واحد في مطلق عدم السلامة من معايبها وشرورها .

وخطر النّفس على الإنسان عند الإمام يتزايد و يتعاظم ، و ذلك بتحالفها مع جملة أعدائه، فللإنسان أعداء يتربصون به ليجرّوه إلى مواطن الهلاك و الخسران ، من إحاطة شياطين الجنّ والإنّس به ، المزينين له كل قبيح و منكر حتى يستخفّ شأنه الشاغلين له عن جميع مراشده وأموره ، و حتى تتعذر عليه أو تثقل في نفسها أو يجعلها أصلا ، فأنّى للعبد الضعيف الحقير الجاهل العاجز بالنّجاة من هذه المضائق إلاّ بعون عزيز من المولى العظيم ، الملك القاهر لجميع الخلائق ، إذ منه جل و علا مبدؤها و إليه وحده مرجعها ، لا شريك له تبارك و تعالى ، فلا حيلة إذا للعبد الضعيف إلا بترك الحيلة و إلقاء النفس و جميع الأعراض تضرّعا و ابتهالا ، بين يدي خالقها و مدبّر أمرها ، رب العالمين تبارك وتعالى [1].

وتجدر الإشارة هنا أنّ عيوب النفس عند السنوسي ليست منحصرة و لا محددة ، و ذلك أنّ كل عارف و مربي نجده يستخرج و يتنبّه من معايبها ما لا يستخرجه غيره ، و يتفطن ما لا يتفطن له سواه ، كل على قدر معرفته و تجربته و اجتهاده و بحثه [2]، و لهذا على العامل و السّالك في طريق المجاهدة ، أن لا يهتم بالعيوب المشهورة و ينسى و يغفل عن غيرها ، كما أنّ هذه الأمراض و العيوب من جهة أخرى ، لا تفارق الإنسان و لا تنفك عنه لحظة بلحظة ، سواء في الحضر أو السفر ، في الصحّة أو في المرض .

---

[1]- المصدر السابق : ص474

[2]- يقول " السلمي " من عيوب النفس أنّه يتوهم أنه على باب نجاته يقرع الباب بفنون الأذكار و الطاعات ، و الباب مفتوح و لكنه أغلق باب الرجوع على نفسه بكثرة المخالفات . و من عيوبها استكشافه الضر ممن لا يملكه، و رجاؤه في النفع ممن لا يقدر عليه ، و اهتمامه بالرزق و قد تكفل له، و من عيوبها الفتور في الطاعة ، و من عيوبها : أن تألف الخواطر الرديئة فستحكم عليها المخالفات ..و من عيوبها : الاشتغال بعيوب الناس عما بها من عيبها . و من عيوبها طلب العوض ، و طلب الرئاسة بالعلم و التكبر ، و من عيوب النفس الطمع و مداواتها أن طمعه يدخله في الرياء. و ينسيه حلاوة العبادة و يصير عبد العبيد بعد أن جعله الله حرا . انظر ، أبو عبد الرحمان السلّمي – عيوب النفس ، دط ، شركة الشهاب ، الجزائر ، دت : ص 17-31

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثالثا : آفات النفس و عيوبها الخاصة .

كنا قد انتهينا في الفقرات السّابقة ، إلى ذكر عيوب النّفس و آفاتها على العموم ، وكان القصد من ذلك ذكر أمهات عيوب النّفس و عظائم آفاتها المهلكة ، إلاّ أنّ هناك عيوب أخرى للنفس الإنسانية هي بمثابة فروع عن تلك العيوب الكبرى و أهمها و أخطرها عند السنوسي :

1 – الكـــــبر :

أ/ حقيـــــقة الكبر :

الكبر من الصفات المذمومة في النّفس ، و طريق تطهير القلب من رذائلها طويلة ، و سبيل العلاج منها دائم ، فالكبر أول معصية وقعت من إبليس[1]. و هو عند " العز بن عبد السلام" : " أن يتعظم على غيره أنفة منه و احتقارا له ، و له أسباب من جملتها العجب ، و هو أكبرها و كذلك يطلق الكبر على العجب لأنّه سبب عنه ، و لا يتكبر إلا من جهل قدرة و عظمة ربه ، و الكبر عنده أقسام أحدها الكبر عن بعض طاعة الله تعالى ، و الثاني : الكبر عن متابعة رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و الثالث : الكبر على العباد أن يرى أنّه خير منهم "[2]. و هو عند "الغزالي" :" أن يرى نفسه فوق غيره في صفات الكمال ، فيحصل فيه نفخة و هزّة من هذه الرذيلة "[3] .

و حقيقة الكبر عند السنوسي : " رؤية شفوف للنّفس على شيء من مخلوقات الله تعالى ..، فمن لم يقبل الحق من الغير أو رأى في الناس من هو شرا منه ، فهو متكبر قطعا ، و من سمع

---

[1] – أحمد النحاس الدمشقي– تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلية و تحذير السالكين ، ط1، نشر مكتبة عباد الرحمان، مصر، 1413هـ/2002م : ص 155

[2] – العز بن عبد السلام – مقاصد الرعاية : ص 140-141

[3] – الغزالي أبو حامد – الأربعين في أصول الدين : ص 115

كلمة لا توافق هواه فقد ردّ على الله عز و جل ، و من تواضع و رأى من نفسه أنّه قد تواضع فهو متكبر إذ رؤية التواضع دليل على رؤية الشفوف للنفس "[1].

فكل من رأى نفسه بعين العزّ و الاستعظام ، و إلى غيره بعين الاحتقار و الذلّ ، فهو متكبر، و نتيجته على اللسان أن يقول : أنا ، و أنا كما قال إبليس اللعين :{**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**}[2] ، وثمرته في المجالس الترفّع و التقدم و طلب التصدر فيها، و في المحاورة الاستنكاف من أن يردّ كلامه عليه ، و المتكبر هو الذي إن وعظ أنِف أو وعِظ عنّف ، فكل من رأى نفسه خيرا من أحد من خلق الله تعالى فهو متكبر .

فاعتقادك في نفسك أنّك خير من غيرك جهل محض ، بل ينبغي ألا تنظر إلى أحد إلا وترى أنّه خير منك ، و أنّ الفضل له على نفسك ، فإن رأيت صغيرا قلت : هذا لم يعص الله وأنا عصيته فلا شك أنّه خير مني ، و إن رأيت كبيرا قلت هذا قد عبد الله قبلي فلا شك أنّه خير مني ، و إن كان عالما قلت : هذا قد أعطي ما لم أعط ، و بلغ ما لم أبلغ و علم ما جهلت فكيف أكون مثله ، و إن كان جاهلا قلت : هذا قد عصى الله بجهل و أنا عصيته بعلم فحجة الله عليّ آكد و ما أدري بم يختم لي و بم يختم له ؟ و إن كان كافرا قلت : لا أدري عسى أن يسلم ويختم له بخير العمل و ينسلّ بإسلامه من الذنوب كما تنسلّ الشعرة من العجين و أما أنا ـــ و العياذ بالله ـــ فعسى أن يضلّني الله فأكفر فيختم لي بشرّ العمل فيكون غدا هو من المقربين و أنا أكون من المبّعدين . فلا يخرج الكبر من قلبك إلا بأن تعرف أنّ الكبير ، من هو كبير عند الله تعالى ، وذلك موقوف على الخاتمة و هي مشكوك فيها ، فيشغلك خوف الخاتمة عن أن تتكبر مع الشّك فيها على عباد الله تعالى ، فيقينك و إيمانك في الحال لا يناقض تجويزك التغير في الاستقبال ، فإن الله مقلب القلوب يهدي من يشاء و يضل من يشاء[3].

[1]- السنوسي - المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 491

[2]- ص الآية 76

[3]- الغزالي – بداية الهداية ، دط ، دار الدعوة الإسلامية ، مصر ، دت : ص12

و حكم التكبر في الإسلام أنّه من أعظم معاصي القلوب و لهذا نهى عنه القرآن و السنة ، فمن القرآن قوله تعالى : { وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ }[1] . و في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال : " لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرّة من كِبر ، و لا يدخل النّار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، فقال رجل يا رسول الله : إنّ الرجل يحبّ أن يكون ثوبه حسنا و نعله حسنة ، فقال : إنّ الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق و غمط الناس "[2].

هذا و قد تناول السنوسي هذا الحديث بالشرح والتعليق و خلاصته أنّه مما قاله :" و قوله عليه الصلاة و السلام : " لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرّة من كِبر" ، يحتمل أن يكون أراد الكِبر عن الإيمان بدليل آخر الحديث ، و يحتمل أن يكون أراد أنّه لا يدخلها مع السابقين ، بل حتى يذلّه الله تعالى بأهوال الموقف ، و كونه فيه كالذرّ و ينفذ الوعيد ، و يكون آخر الحديث أشار إلى أنّه و إن نفذ فيه الوعيد ، فلا بدّ له من الجنّة إن مات و معه أصل الإيمان ، فيكون أول الحديث يردّ على " المرجئة "و آخر الحديث يرد على " الخوارج و المعتزلة ". و يحتمل أن يكون المراد ، التحذير من الكبر و أنّه يخاف على صاحبه من سوء الخاتمة ، و سلب أصل الإيمان عند الموت ، فلا يدخل الجنّة أصلا ، إذ لا يدخلها إلا من معه أصل الإيمان كما أشار إليه آخر الحديث "[3] .

هذا و للكبر أضرار و نتائج خطيرة كونه أصل خبيث في النّفس تنشأ عنه خبائث كثيرة تتلخص عند السنوسي في الصفات التالية : الغضب و نتائجه سفك الدماء و إراقتها ، و الغصب و السلب و نحوهما ، و منها الحسد ، و الغيبة ، و الرياء ، و السّمعة ، و حب الجاه ، و المنزلة ،

[1]- لقمان الآية 18

[2]- رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه : ص 54 و أحمد ، كتاب مسند المكثرين من الصحابة، باب مسند عبد الله بن مسعود رقم 3718 . و ابن ماجة ، كتاب المقدمة باب الإيمان رقم 58 ، و أبو داود ، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر رقم :3568 . و الترمذي ، كتاب البر و الصلة عن رسول الله ، باب : ما جاء في الكبر رقم الحديث : 1922

[3]- السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 492 . و مكمل إكمال إكمال المعلم على شرح صحيح مسلم : ج7 ص 61

و التعنيف عند الموعظة ، و إظهار الشماتة و الفضيحة في قالب النّصيحة ، و عدم الإنصاف من نفسه ، و ثقل المؤونة على كل من لقيه أو جالسه أو احتاج إليه في أمر من الأمور ، لأنّه يطلب لكبره كلاما خاصا ، و سلاما خاصا ، و مجلسا خاصا ، و طعاما خاصا ، و فراشا خاصا ، فلا أثقل من المتكبّر على النفوس ، ولا أمّقت منه و لا أحقر منه ، ولا أذل في قلوب الخلق ، كما أنّ المتواضع على الضد منه في جميع ذلك [1] .

و من الآثار و الأدلة الشرعية التي تؤيد ما سبق – عند السنوسي – : ما روى عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه– أنّ النبي صلى الله عليه وسلم : كان يعلف البعير ، و يقمّ البيت ويخصف النعل ، و يرقع الثوب و يحلب الشاة ، و يأكل مع الخادم ، و يطحن معه إذا أعيّ ، وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله ، و كان يصافح الغني و الفقير ، ويسلم مبتدئا ، و لا يحقر ما دعي إليه و لو إلى حشف التمر ، و كان هين المؤنة ، لين الخلّق كريم الطبيعة ، جميل المعاشرة ، طلق الوجه بسّاما من غير ضحك ، محزونا من غير عبوسة متواضعا من غير مذلة ، جواد من غير سرف ، رقيق القلب ، رحيما بكل مسلم ، لم يتجشئ قط من شبع و لم يمدّ يده إلى الطمع . و عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : يعود المريض ، ويشيع الجنائز ، و يجيب دعوة المملوك ، و يركب الحمار .." [2] .

ب/ آفات الكبر : لما كان الكبر من أعظم معاصي القلوب ، وجب التنبيه إلى آفاته ، ومنها كما نقل السنوسي عن أئمة التربية أنّ للكبر أربع آفات :

إحداها : حرمان الحق ، و عمى القلب عن معرفة آيات الله تعالى و فهم أحكام الله سبحانه و تعالى قال تعالى : { **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ** } [3]،و قال

[1]– السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 492

[2]– رواه ابن ماجة ، كتاب الزهد ، رقم (4168) ، دار إحياء التراث العربي ، 1975م . و رواه أحمد مسند الإمام أحمد، كتاب: باقي مسند الأنصار ، باب حديث السيدة عائشة، رقم 2306

[3]– الأعراف الآية 146

تعالى : { الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ } [1].

الثانية : المقت و البغض من الله تعالى ، قال تعالى : {إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ} [2]. و روي أنّ موسى عليه السلام قال : يا رب من أبغض خلقك إليك ؟ قال : من تكبر قلبه و غلظ لسانه ، و صفق عينه ، و بخلت يده ، و ساء خلقه .

الثالثة : الخزي و النّكال في الدنيا و الآخرة . قال "حاتم الأصم" : أحببت الموت على ثلاثة: على الكبر و الحرص و الخيلاء ، فإنّ المتكبر لا يخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يريه الهوان من أرذل أهله و خدمه ، و الحرص لا يخرجه الله من الدنيا حتى يحوجه إلى كسرة أو شربة ، ولا يجد لها مساغا ، و المختال لا يخرجه الله عز وجل من الدنيا حتى يمرغه ببوله و قذره . و قيل من تكبر بغير حق أورثه الله ذلا بحق .

الرابعة : النّار و العذاب في العقبى ، على ما روي أنّ الله تعالى يقول : " الكبرياء ردائي والعظمة إزاري ، فمن نازعني في واحد منها أدخلته نار جهنم " [3] . و المعنى أنّ العظمة والكبرياء من الصفات التي تختص بي فلا تنبغي لأحد غيري ، كما أنّ رداء الإنسان و إزاره يختص به ، لا يشارك فيه ، و إنّ خصلة تفوّتك معرفة الحق ، و فهم آيات الله تعالى و أحكامه الذي هو أصل الأمر كله ، ثمّ تثمر لك المقت من الله عزّ وجل ، و الخزي في الدنيا و النّار في الآخرة ، لا يسع لعاقل أن يغفل عن نفسه ، فلا يصلحها بإزالتها بالحذر و التحرز والاستعادة بالله عز وجل من ذلك [4].

[1]- غافر الآية 35

[2]- النحل الآية 23

[3]- رواه مسلم عن أبي هريرة ، كتاب البر والصلة والأدب ، باب تحريم الكبر :رقم : 994 . و أحمد ، كتاب باقي مسند المكثرين ، باب مسند أبي هريرة رقم : 7078 . و أبو داود ، كتاب اللباس ، باب ما جاء في الكبر رقم: 3567 . و ابن ماجة ، كتاب الزهد ، باب البراءة من الكبر و التواضع رقم : 4164

[4]- السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 491

ج / علاج الكبر و دواؤه :

يعد الكبر من المهلكات ، و مداواته فرض عين على المسلم سالك طريق الحق ، و في معالجته عدة سبل منها : العلم ، و ذلك بأن يعرف الإنسان نفسه و يعرف ربّه ، فإنّه إذا عرف نفسه حق المعرفة ، علم أنّه أذلّ من كل ذليل ، و يكفيه أن ينظر في أصل وجوده بعد العدم من تراب ، ثم من نطفة خرجت من مخرج البول ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، فقد صار شيئاً مذكوراً ، بعد أن كان جماداً لا يسمع و لا يبصر ، و لا يحسّ و لا يتحرك ، فقد ابتدأ بموته قبل حياته ، و بضعفه قبل قوته ، و بفقره قبل غناه . و قد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله :{مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ}[1]. ثم امتن عليه بقوله :{ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ }[2]. و أحسن تصويره ، و أخرجه إلى الدنيا ، فأشبعه و كساه و هداه و قواه ، فمن هذا بدايته ، فأي وجه لكبره و فخره هذا أوسط حاله ، و ذاك أول أمره ، و أمّا آخر أمره ، فالموت الذي يعده جماداً كما كان ، ثم يلقى في التراب فيصير جيفة منتنه ، كيف يتكبر ؟ فهذا هو العلاج لأصل الكبر . ومن العلاج العملي التواضع بالفعل لله تعالى و لعباده ، و ذلك بالمواظبة على استعمال خلق المتواضعين ، و قد تقدمت الإشارة إلى طريقة رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم ، و ما كان عليه من التواضع و الأخلاق الجميلة [3] .

السبيل الثاني : فيما يعرض من التكبر بالأنساب ، فمن اعتراه الكبر من جهة النّسب ، فليعلم أنّ هذا تعزز بكمال غيره ، فإنّ أباه القريب نطفة قذرة ، و أباه البعيد تراب ، و من اعتراه الكبر بالجمال ، فلينظر إلى باطنه نظر العقلاء ، و لا ينظر إلى ظاهره نظر البهائم ، و من اعتراه من جهة القوة ، فليعلم أنّه لو آلمه عرق ، عاد أعجز من كل عاجز ، و أنّه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله تعالى بغيضاً عنده . و قد أحب الله منه أن يتواضع ، و كذلك كل سبب يعالجه بنقيضه و يستعمل التواضع [4] .

---

1 - عبس الآية 18- 19

2 - عبس الآية20

3 - الغزالي – الأربعين في أصول الدين : ص 117- 118

4 - المصدر نفسه :ص 119- 120

و الدواء العادي الصحيح لعلة الكبر عند السنوسي يتمثل في ذكر عقوبة الله تعالى لصاحب الكبر و مقته له ، و حرمانه من كل خير دنيا و أخرى و هذا هو الدواء الشرّعي لهذه الآفة ، و أمّا الدواء العقلي فهو أن يعلم المتكبر بأنّ الممكنات كلها على حد السّواء ما يقبله أدناها من الأعراض يقبله أعلاها ، لا فضل لشيء منها على غيره بحسب ذاتة ، و إنّما مولانا جل و علا يفضل ما شاء بما شاء من غير استحقاق شيء لما منّ عليه من الفضل ، ثم هو سبحانه قادر على أن ينقل الأدنى إلى مترلة الأعلى ، و الأعلى مترلة إلى مترله الأدنى كما هو واقع كثير بالمشاهدة ، فكم مؤمن أصبح كافرا ، و كم كافرا أصبح مؤمنا ، و كم عزيز أصبح ذليلا ، وكم ذليل أصبح عزيزا ، و كم غني أصبح فقيرا ، و كم فقير أصبح غنيا ، و كم كاس أصبح عاريا ، وكم عار أصبح كاسيا ، و كم جميل أصبح ذميما ، لمرض أو نحوه ، و كم ذميم أصبح جميلا وكم مضيء أصبح مظلما كالآفاق و الجوّ بالليل ، و كم مظلم أصبح مضيئا إلى غير ذلك ممّا لا ينحصر ، فالكبر إذا رداءة في العقل يشهد بها العقل المستقيم ، و الشرع و العادة [1]. فترك الكبر و لزوم العمل واجب على المؤمن سالك طريق الحق وكما قال "مجاهد ": من لم يستح من الحلال خفت مؤنته و أراح نفسه و قلّ كبره [2].

د / الفرق بين الكبر وكفران النعم :

كما بحث السنوسي مسألة القائلين أنّ حصول مقام التواضع ، و الخلاص من آفة الكبر بهذا الشكل ، يوقع في كفران النعم ، و ذلك بعدم رؤيتها ، و يمكن صياغة هذه المسألة في التساؤل الآتي : هل من الواجب أن لا يرى العبد شفوفا لنفسه و لو على الكافر و الحيوان ونحوها ؟ و إذا حصّل مقام التواضع و الخلاص من آفة الكبر كما سبق ، أفلا يكون قد وقع بسببه في آفة عظيمة هي من أكبر الآفات و أرذلها و هي كفران النعم بعدم رؤيتها ، و التنكر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]- السنوسي – المنهج السديد : ص 495

[2]- المروذي أبو بكر أحمد الحجاج – الورع ، تحقيق سمير بن آمين الزهيري ،ط1 ، دار الصيميعي للنشر و التوزيع ، المملكة السعودية ، 1418هـ/1997م : ص 28

عليها و قد قال الله تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}[1] ؟

الأمر كما يصرّح السنوسي أنّه على خلاف الظاهر ، ذلك أنّه لا يخفى على عاقل بعد التأمل أنّ مقام الكبر هو المنافي للشكر ، و أنّ مقام التواضع هو السابق له المستلزم له للاتصاف به، و أنّه على قدر ما يحلّ بالقلب من الكبر ينتقص من الشكر ، و على قدر ما يحلّ فيه من التواضع يتّسم به من الشكر ، و وجه ذلك أنّ المتكبر لمّا كان يتوهم في نفسه كمالا ، و يرى لها شفوفا ، فهو إذا رأى نعمة نسبها لذلك الكمال الذي توهمه في نفسه ، و جعلها مستحقة بسببه ، كأن يرى مثلا زيادة فطنة في فهم علم ، فينسبها لما توهم في نفسه من ذكاء أو تعب في درس ، أو سهر لمطالعة ، و سفر للقاء المشائخ ، و نحو ذلك مما هو كثير مشاهد في أهل الدعوى و الحمق، ممنّ يتعاطى العلم و غيره ، و من كان على هذه الصفة – عند السنوسي- كيف يقع منه شكر أنعم الله تعالى على الحقيقة ، بل هو في عدم شكرها كما حكى الله تعالى عن الكافر في قوله تعالى : { وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي }[2] ، أي بحسب الأهلية والاستحقاق [3].

أمّا المتواضع الذي لا يرى لنفسه من حيث ذاته شفوفا على شيء ، و لو على الجمادات ونحوها ، لاستواء جميع الممكنات عنده بالنسبة إلى عموم قدرة الله تعالى و إرادته ، فهو إذا رأى أدنى نعمة يفضّله الله تعالى بها على بعض الممكنات ، كحياة أو سمع أو بصر أو علم أو إيمان ونحوها ، عرف أنّها بمحض خلق الله تعالى و جميل كرمه و فضله لا أهلية فيه لشيء منها البتة ، وأنّ قبوله لأن يكون محلاً لها ، و لأضدادها مثل قبول سائر الممكنات لها من كفرة و جمادات وحيوانات بهيمية و غيرها ، و أنّه ليس في الممكنات ما هو شرّ منه ، بأن يستحق هو من الكمال ما لا يستحقه ذلك الممكن ، و هذا المعنى الذي أحضره هذا المتواضع هو شكر في نفسه بل هو أعلاه ، و قد فات هذا النوع من الشكر المتكبر ، إمّا اعتقادا فيكون كافرا أو إحضارا فيكون

1- البقرة الآية 47
2- فصلت الآية 50
3- السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد :ص 496

فاسقا ضالا ، ثم يثمر للمتواضع تمكن ذاك المعنى من قلبه ثمرات شريفة ، فات جميعها المتكبر ، كالحياء من الله تعالى ، و الخوف منه ، و الإذعان لامتثال أوامره و نواهيه [1].

و يضرب السنوسي مثلا لذلك ، بإبليس اللعين لما رأى لنفسه شفوفا وكمالا ذاتيا على آدم كفر نعم الله عليه التي لا تنحصر بتركه امتثال أمر تعالى به بالسجود لأدم عليه السلام : { و إِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ }[2] ، أمّا الملائكة الكرام عليهم الصلاة و السلام لما اتصفوا بكمال المعرفة و التواضع ، ورأوا أن لا كمال لهم من حيث ذواتهم على أحد من المخلوفات كآدم أو غيره ، و كل ما هم فيه من النعم فهو مجتلب من جهة الله تعالى ، و بمحض فضله ، لا يستحقون منه على الله تعالى شيئا ، و هو القادر سبحانه أن يرّد ذواتهم المضيئة مظلمة بل يعدمها البتّة ، و يردّ الذوات المظلمة مضيئة كل ذلك هين على قدرته ، لا معارض له و لا حكم عليه ، و لا حق لأحد قبله ، و لا يسأل عما يفعل تبارك و تعالى ، انتهزوا صلوات الله و سلامهم عليهم فرصة التقرب إلى مولاهم المنعم عليهم تبارك و تعالى ، فوقعوا كلهم أجمعون سجّدا لآدم ، بنفس ما سمعوا شريف أمره جل وعلا و عليّ خطابه لهم بذلك ، و لهذا قال تعالى لبني إسرائيل : {اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ }[3] ، فأضاف النعمة إليه تعالى في الموضعين ، إشارة إلى مقام التواضع و أنّه يجب أن لا يروا لتلك النعمة نسبة إلى أنفسهم ، و لا استحقاقا منهم لها البتة ، بل هي مملوكة لله تعالى وحده ، أنعم تعالى بها عليهم بمحض فضله تبارك و تعالى ، فكأنّه تعالى أمرهم أن يذكروا تلك النعمة بتلك النسبة التي ذكرها الله سبحانه ، و هي نسبتها إليه تعالى وحده لا لأنفسهم ، و لهذا قال جلّ من قائل أيضا : ﴿ وأنّي فضلتكم ﴾[4] ، و لم يقل و إنكم فضّلتم ، و قال أيضا على العالمين ، إشارة إلى أنّكم لا تستحقون شيئا من هذه النّعم كسائر العوالم إذ أنتم من جملتها و على حد السواء معها ، و لهذا لما تكبرت اليهود و النصارى بآبائهم من أنبياء الله تعالى ، و توهموا أنّ لهم لذلك شفوفا على غيرهم ، ردّ سبحانه ذلك عليهم وساواهم بغيرهم فقال تعالى:{وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ

[1]- المصدر السابق :ص 496-497

[2] - البقرة الآية 34

[3]- البقرة الآية 47

[4]- البقرة الآية 47

يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}[1] "[2].

2 – العــجب :

إنّ العجب من عظيم الآفات ، عنه تتشعب أكثر البليات يستوجب به العبد من الله عز وجل سرعة العقوبة ، و الغضب ، و لأنّ الكبر – كما رأينا – لا يحق إلا لله عز وجل ، فهو يتشعب من العجب و الحقد ، و الحسد و الرّياء و غيرها ، و أصل ذلك جهل من معرفة القدر ، فإذا جهل العبد قدره تكبر[3]. و المسلم يحذر من العجب ، و يجتهد أن لا يكون وصفا له في حالة من الحالات ، إذ هو من أكبر العوائق عن الكمال[4]. ولأنّ التصوف في النهاية والبداية تدلل و افتخار و تذلل و افتقار إليه سبحانه[5].

العجب هو أيضا من عيوب النّفس و آفاتها المهلكة عند السنوسي لأنّ هذه الصفة تدعو إلى الكبر ، و لأنّها كذلك أحد أسبابه ، فيتولد من العجب الكبر ، و من الكبر الآفات الكثيرة ، وهذا مع الخلق ، فأمّا مع الخالق ، فإنّ العجب بالطاعات نتيجة استعظامها ، فكأنّ المعجب بنفسه يمنّ على الله تعالى بفعلها ، و ينسى نعمته عليه بتوفيقه لها ، و يعمى عن آفاتها المفسدة لها . والعجب إنّما يكون بوصف كمال من علم أو عمل ، فإن انضاف إلى ذلك أن يرى حقاً له عند الله فهو إدلالاً[6].

---

[1]– المائدة الآية 18

[2]– السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 497

[3]– المحاسبي – الرعاية لحقوق الله : ص 446 -451

[4]– أبو بكر جابر الجزائري– منهاج المسلم ، دط ، دار الفيحاء ، دمشق ، سوريا ، دت : ص 205

[5]– الأصبهاني أبو نعيم أحمد – حلية الأولياء و طبقات الأصفياء ص 3، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1400هـ/1980م :ج2 ص 357

[6]– الغزالي أبو حامد – الأربعين في أصول الدين : ص121

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أ / حقيقة العجب :

و حقيقة العجب عند السنوسي : " رؤية العبادة و استعظامها من العبد ، و هو حرام غير مفسد للطاعة ، لأنّه يقع بعدها ، بخلاف الرّياء فإنّه يقع معها فيفسدها " [1]. و " الغزالي " يعرف العجب على أنّه استعظام النّفس و خصالها التي هي من النعم و الركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم و الأمن من زوالها " [2] .

و الفرق بين تعريف الإمامين للعجب ، أنّ الأول حصره و قصره على العبادة ، و الثاني جعله شاملا لكل ما هو من النعم سواء كان عبادة أو طاعة أو أمنا أو غيرها ، وسرّ تحريم العجب أنّه سوء أدب على الله تعالى ، فإنّ العبد لا ينبغي له أن يستعظم ما يتقرب به لسيده ، بل يستصغره و يحتقره بالنسبة إلى عظمة سيده و مولاه ، لا سيما عظمة الله تعالى الخالق لكل شيء ، قال سبحانه و تعالى:{ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ }[3]. أي ما عظموه حق تعظيمه ، فمن أعجب بنفسه و عبادته هلك مع ربّه و هو مطلع عليه ، و عرّض نفسه لمقت الله و سخطه .

و الفرق بين العجب و الكبر ، أنّ الكبر راجع للحق و العباد ، و العجب راجع للعبادة، والفرق بينه و بين التسميع ، أنّ العجب بالقلب ، و التسميع باللسان ، وكلاهما بعد العبادة [4] . وقد نقل الإمام أنّ بعض علماء التربية و السلوك ذكر أنّ العجب هو أن ينسب ما يبدو منه من علم ، أو عمل أو نية ، أو صدق ، أو إخلاص إلى نفسه ، و يتفرع على هذا الأصل المذموم ثلاث علل و هي : فقد الحزن ، و الإعراض بالنّعمة عن المنّعم بنسبتها إلى النّفس ، و السرور بالمدحة ، فإنّ السرور بالمدحة معجب لا محالة ، و من نسب إلى نفسه هذه النّعم فقد أعرض بها عن المنّعم ، لأنّه نسب النّعمة و أضافها لغير أهلها ، إذ هي نعم من الله تعالى منّ بها على العبد في الأزل لا يضيفها لنفسه إلا محجوب عن الله تعالى [5].

[1]- السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 499
[2]- الغزالي – الأربعين في أصول الدين : ص121
[3]- الأنعام الآية 91
[4]- السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 499 - 500
[5]- المصدر نفسه : ص 500

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و من أسباب العجب عند السنوسي : البطر ، و المدح ، و المراد بالبطر شدة المرح ، والمرح شدّة الفرح لأنّ الإنسان إذا اشتدّ فرحه بشيء من غير أن يتأمل في عاقبة الأمر ، و لا ما على ذلك الشيء من وظائف الشكر- و لعلّه لا يفي بأدناها - نشأ عن ذلك العجب [1].

ب / علاج العجب :

علاج العجب يكون بأن يعلم العبد أنّ الله سبحانه هو المنعم عليه بإيجاده و إيجاد أعماله، فلا معنى لعجب عامل بعمله ، و لا عالم بعلمه ، و لا جميل بجماله ، و لا غنى بغناه ، إذ كل ذلك من فضل الله تعالى ، و إنّما الآدمي محل لفيض النعم الله عليه .

و من العلاج أن يعلم العبد السّالك على طريق الحق أنّ الله تعالى مطلع على ضميره ، ومشرف على ظاهره و باطنه و محيط بجميع لحظاته و خطراته وخطواته ، وسائر سكناته وحركاته ، وأنّه في مخالطته و خلواته متردد بين يديه فلا يسكن ، و لا يتحرك ، إلّا وجبار السّماوات والأرض مطلع عليه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، ويعلم السر وأخفى [2]. فالواجب على السالك أن يتأدب ظاهرا وباطنا بين يدي الله تعالى تأدب العبد الذليل المذنب في حضرة الملك الجبار القهار ، و يجتهد ألاّ يراه مولاه حيث نهاه و لا يفقده حيث أمره ، ولن يقدر على ذلك إلا بأن يصغ إلى ما يلقى إليه من أوامر الله تعالى ونواهي .

إن أشرف ما في الإنسان قلبه ، فإنّه العالم بالله ، العامل له ، الساعي إليه ، المقرب المكاشف ، بما عنده ، و إنّما الجوارح أتباع وخدام له يستخدمها القلب استخدام الملوك للعبيد ، ومن عرف قلبه عرف ربه ، وأكثر الناس جاهلون بقلوبهم ونفوسهم ، والله يحول بين المرء وقلبه ، وحيلولته أن يمنعه من معرفته ومراقبته ، فمعرفة القلب وصفاته أصل الدين ، وأساس طريق السالكين ، وأخطر ما يفسد القلب والنفس العجب ، وعلاجه هذا أشد من علاج الكبر ، فإن هذا متى كان معجباً برأيه لم يصغ إلى نصح ناصح ، وكيف يترك ما يعتقده نجاة ؟! وإنّما علاجه

[1]- المصدر السابق : ص 501

[2]- الغزالي - الأربعين في أصول الدين : ص122

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

في الجملة أن يكون متهماً لرأيه أبداً ، لا يغتر به ، إلا أن يشهد له قاطع من كتاب ، أو سنة ، أو دليل عقلي جامع لشروط الأدلة ، و لن يعرف ذلك إلا بمجالسة أهل العلم وممارسة الكتاب والسنة ، كما يلزم المؤمن السالك طريق الحق اجتناب العجب عند السنوسي لأمرين هما :

- أنّ العجب يحجب التوفيق و التأييد من الله سبحانه و تعالى ، فإنّ المعجب مخذول ، منقطع عنه الخير كله .

- كما أنّ العجب يفسد العمل الصالح ، و لذلك قال عيسى عليه السلام : " يا معشر الحواريين كم من سراج قد أطفأته الريح ، وكم من عابد قد أفسده العجب ". و ذلك أنّ العبد قد يعمل ما يعمل و لكنه لا يتقبل منه ، و ذلك أنّ المقصود من العمل إنّما هو قبول المولى جل وعلا له ، و رضاه عن صاحبه ، و ذلك أمر مجهول لا يطلع عليه أصلا في هذه الدار ، فلو فرضنا العبد عمل من الأعمال الصالحة قدر تراب الأرض و عدد أجزائها و لم يعص الله تعالى قط فيما يظهر لأمكن أن يوافي الآخرة و لا يقبل منه شيء من ذلك ، بل يحتمل أن يموت كافرا مخلّدا في النار أبد الآباد لحكم أزلي مضى فيه بذلك [1].

و من هنا فإنّه وجب على العبد أن يتقرب إلى سيده بطاعة فيها ذل و انكسار و مسكنة مع كمال العجز والافتقار إلى الله ، وأما التقرب إليه بشيء من العزة فهو ادعاء مشاركة فيما اختص به سبحانه وهو محبط للعمل . و إذا أراد الله بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه ، فمن كانت له بصيرة ، لم تخف عليه عيوبه ، وإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ، ولكن أكثر الناس جاهلون بعيوبهم ، يرى أحدهم القذى في عين أخيه و لا يرى الجذع في عينه . و مما ينفي العجب أن يعرف العبد قدره و معرفته ببدايته وحياته وعاقبته ، أما بدايته فقد مضت الدهور و لم يكن شيئا، فبالعجب هلك أئمة الضلالة ، و به هلاك آخر هذه الأمة ، و مما ينفي العجب بالدين ، أن يذكر العبد النعمة التي هو فيها و أن ذلك بمنة الله عز وجل وفضله وليس من نفسه . و من عرف نفسه زال عنه العجب ، و عظم شكر الرب عز وجل و اشتد حذره منها [2].

[1]- السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 501

[2]- المحاسبي – الرعاية لحقوق الله : ص 398- وص 416-472

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

3 – الغش و الحسد :

من أمهات عيوب النفس وعظائم آفاتها المهلكة الأخرى عند السنوسي الغش والحسد وما يتقدمهما من الحقد ، و ذلك أنّ الحقد ثمرة الغضب ، و الحسد نتيجة من نتائج الحقد . إنّ الله تعالى إذا أنعم على العبد نعمة ، فلغيره فيها حالتان : إحداها ، أن يكره تلك النعمة ويحب زوالها ، فهذا هو الحسد ، و الحالة الثانية ، أن لا يكره وجودها و لا يحب زوالها ، و لكنه يشتهي لنفسه مثلها ، فهذا يسمى غبطة وهي ليست بحرام .

أ / حقيقة الغش و الحسد :

حقيقة الغش عند السنوسي : " إخفاء عيب أو ضرر ديني أو دينوي ، مع العلم به عمن جهله من المسلمين ، أو من في معناهم من أهل الذمة المعاهدين ، وضده النصيحة "[1].

أما الحسد فهو عند "المحاسبي" أن " يكون العبد إذا رأى بعبد مسلم نعمة في دين و دنيا أو بلغه ، أن يكرهها و ساءته ، و أحب زوالها عنه "[2]. وهو عند " العز بن عبد السلام " ضربان: شرهما أن يتمنى زوال النعمة عن المحسود و إن لم تصل إليه ، و الثاني : أن يتمنى زوالها عن المحسود إليه[3] . و عند " أحمد زروق " الحسد يرجع للمضايقة ، و مقصد الحاسد إتلاف عين المحسود عليه على من حسده [4]. وأما عند السنوسي فحقيقته " تمني زوال النعمة عن الغير" [5]. وحكمهما في الشرع الحرمة . و من أدلة تحريم الحسد قوله سبحانه و تعالى:{ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ }[6] .و قوله : { أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ}[7]. و قوله :

1– السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد: ص 506

2– المحاسبي – الرعاية لحقوق الله : ص 566

3– العز بن عبد السلام – مقاصد الرعاية : ص 151

4– أحمد زروق البرنسي – قواعد التصوف : ص 117

5– السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد :ص 506

6– الفلق الآية 05

7– النساء الآية 54

{ وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ }[1]. فأمّا إن أحب العبد أن يسبق أقرانه، و يطّلع على ما لم يدركوه ، فإنّه لا يأثم بذلك ، فإنّه لم يؤثر زوال ما عندهم عنهم ، بل أحب الارتفاع عنهم ليزيد حظه عند ربه ، كما لو استبق عبدان إلى خدمة مولاهما ، فأحب أحدهما أن يستبق فهو تنافس .[2] و التنافس غير الحسد ، لأنّ التنافس عبارة عن طلب الأنفس و هو مأمور به في الدين بخلاف الحسد ، و قد قال الله تعالى :{ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ }[3] "[4].

وذلك أنّ النّفس قد جبلت على حب الرفعة ، فهي لا تحب أن يعلوها جنسها ، فإذا علا عليها ، شقّ عليها و كرهته ، و أحبت زوال ذلك ليقع التساوي ، و هذا أمر مركوز في الطباع. وقد قال " ابن سيرين " : " ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا ، لأنّه إن كان من أهل الجنة، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا ، و هو يصير إلى الجنّة ، وإن كان من أهل النار ، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا ، و هو يصير إلى النار "[5] . و لهذا قيل الحاسد جاحد لا يرضى بقضاء الله الواحد[6].

ب / أسباب الحسد :

أسباب الحسد كثيرة منها : العداوة ، والتكبر ، و العجب ، و حب الرياسة ، وخبث النفس ، وبخلها ، و أشدها : العداوة و البغضاء ، فإن من آذاه إنسان بسبب من الأسباب ، وخالفه في غرضه ، أبغضه قلبه ، و رسخ في نفسه الحقد . و الحقد يقتضي التشفّي و الانتقام ، فمهما أصاب عدوه من البلاء فرح بذلك ، وظنه مكافأة من الله تعالى له ، ومهما أصابته نقمة ساءه ذلك ، فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما ، و إنما غاية التقي أن لا يبغي ، وأن

1- النساء الآية 32

2- ابن قدامة – منهاج القاصدين ، دط ، دار الدعوة الإسلامية ، دت :ص 175

3- المطففين الآية 26

4- العز بن عبد السلام – مقاصد الرعاية :ص151

5- ابن قدامة – منهاج القاصدين : ص 175

6- شمس الدين الرازي – حدائق الحقائق : ص25

يكره ذلك من نفسه ، فأما أن يبغض إنساناً فيستوي عنده مسرته ومساءته ، فهذا غير ممكن [1].
و يتفق السنوسي مع "العز بن عبد السلام" في أسباب الحسد وكون أسبابه الكبر و العجب وحب الرياسة [2]. و أما الكبر ، فهو أن يصيب بعض نظرائه مالاً أو ولاية ، فيخاف أن يتكبر عليه ولا يطيق تكبره ، و أن يكون من أصاب ذلك دونه ، فلا يحتمل ترفعه عليه أو مساواته . وكان حسد الكفار لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قريباً من ذلك : قوله الله تعالى :{ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}[3]. و قال في حق المؤمنين : { أَهَـؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا}[4]. و قال في آية أخرى:{ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا}[5]و قال :{وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ }[6]. فعجبوا وأنفوا من أن يفوز برتبة الرسالة بشر مثلهم فحسدوهم [7].

ج / علاج الحسد :

الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب و لا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم و العمل .
و العلم النافع لمرض الحسد هو أن يعرف العبد أنّ الحسد ضرر عليه في الدنيا و الدين ، و أنّه ينال سخط الله ، و أمّا العمل فهو أن يكلف الحاسد نفسه نقيضه فإن حمله الحسد على الذمّ في محسوده كلف لسانه المدح له و الثناء عليه و هكذا [8] . و الحسد يقع كثيرا عند " ابن تيمية " بين المشاركين في رئاسة أو مال و علاجه أنه "من وجد في نفسه حسدا لغيره فعليه أن يستعمل معه التقوى و الصبر ، فيكره ذلك من نفسه [9].

[1]- الغزالي — الأربعين في أصول الدين : 94- 95
[2]- العز بن عبد السلام - مقاصد الرعاية :ص 152
[3]- الزخرف الآية31
[4]- الأنعام الآية 53
[5]- يس الآية 15
[6]- المومنون الآية 34
[7]- ابن قدامة -- منهاج القاصدين : ص187
[8]- الغزالي أبو حامد - إحياء علوم الدين :ج 3 ص175
[9]- ابن تيمية- التحفة العراقية في الأعمال القلبية ، تحقيق حماد سلامة ، دط ، شركة الشهاب ، الجزائر : ص 147

فعلاج الحسد يكون تارة بالرضا بقضاء الله ، و تارة بالزهد في الدنيا ، و تارة بالنظر فيما يتعلق بتلك النّعم من هموم الدنيا و حساب الآخرة ، فيتسلى بذلك و لا يعمل بمقتضى ما في النفس أصلاً ، و لا ينطق ، فإذا فعل ذلك لم يضره ما وضع في جبلته .

و من هنا وجب على العبد أن يستعيذ بالله من الغشّ و الحسد إذ هما متلازمان . ودواء هذه الأمراض سلامة الصدر، ذلك أنّ الحسد أول معصية عصى بها الله ، فقد حسد إبليس آدم فلم يسجد له وقد قيل قوله تعالى : { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ }[1]. أنه الحسد[2]. فسلامة الصدر هي الدواء لمرض الغش والحسد .

[1]- الأعراف الآية 33

[2]- السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد :ص 507

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني

بواعث آفات النفس الإنسانية

بعد أن رأينا ما ذكره الإمام السنوسي من آفات النفس المهلكة التي لا تبقى و لا تذر ، ننتقل لنستعرض ما يدفع تلك الآفات و يبعث عليها ، و هي عنده ترجع إلى أمرين هما :

أولا : حب الرياسة والدخول في طريقها .

تعد حب الرياسة و الدخول في طرقها رأس الآفات النفسية و أخطرها و الوقوع فيها طريق إلى الاتصاف بالمنهيات السابقة و ذلك للأسباب التالية :

الأول : أنّ حب الرياسة ملائم للنفس و طبيعتها أكثر من ملاءمة المال ، و بقية الشهوات لها، بدليل أنّ النّفس تسمح بالصبر على الشهوات ، و بذل المال لنيل الجاه و الرياسة ، بخلاف استغلال الرياسة لكسب المال ، و لهذا اعتبر السنوسي أنّ الكثير من المتعبدين- و خاصة أدعياء التصوف - يظهرون على غير حقيقتهم ، تجد الواحد منهم يصبر على القيام بنوافل الطاعات الشّاقة كالصوم و السّهر للقيام ، و لبس الثياب الرثة ، و العزوف عن المخالطة و النكاح حرصا منهم على الرئاسة و تقبيل اليد و الرجل ، و نفوذ كلمتهم عند العامة و الخاصة ، و لهذا كان المتعلق بالرياسة و طرقها ، قد سعى في حتفه بظلفه ، لأنّه قد أنعش نفسه و قواها على إهلاكه كل التقوية ، فما مثله إلا كمثل من معه تنين ضعيف أو أسد هزيل ، خاف منهما الهلاك ، ثم أخذ – لحمقه – يسوق لهما من المأكول ما ينتعشان به كل الانتعاش ، و يقويان به كل القوة ولهذا قيل لا شيء أضر لقلوب المريدين من حصول الجاه قبل خمود بشريتهم [1] .

---

[1]- السنوسي – المنهج السديد شرح كفاية المريد : ص 510

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الثاني : أنّ الرئاسة تشغل العقل و تصرفه عن الاهتمام بما ينفع النفس دنيا و أخرى ، وما ينفع جوارحه الظاهرة و الباطنية إلى أن تستقيم ، و تلزم طرق النجاة لأنّ حب الرئاسة كما يعمي القلب ، يعمي العقل .

الثالث : أنّ حب الرياسة تدفع الرئيس إلى مخالطة أبناء الدنيا ، و العزوف عن رؤية و مشاركة أهل الخير و الصلاح ، إذ الرئاسة لأبناء الدنيا كالعسل للنحل ، أو الذباب مهما شمّوها على إنسان لازمه الليل و النّهار ، من الهمج ما لا ينحصر ، و هي بالنسبة لأبناء الآخرة كالحيّة أو الأسد فمهما شمّوها في موضع هربوا منه كل الهروب ، فصار الرئيس بهذا المعنى في محنة عظيمة ، الهمج و أبناء الدنيا إليه يهرعون ، و عليه يكثرون و يجتمعون ، فيشيرون عليه بآرائهم المحجوبة عن الحق ، و يسرق طبعه من طباعهم المختلفة الرديئة ما جلّ و ما دقّ . وإذا كان أبناء الدنيا يظلم القلب و يضرب عليه الحجاب بمجرد مشاهدتهم ، فكيف الحال فيمن ابتلى بمصافاتهم و معاشرتهم [1] . و قد روي عن أبي الدرداء : –رضي الله عنه– أنهّ قال : " لأن أخرّ من فوق قصر فانحطم أحبّ إليّ من مجالسة الغني ، لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إياكم ومجالسة الموتى، قيل ومن الموتى يا رسول الله ؟ قال : الأغنياء " [2].

و لعلّ الأغنياء الذين يعنيهم الحديث هم الذين لا يحرّمون حراما و لا يحلّون حلالا ، أمّا المستقيمون و الطائعون الزاهدون فيما يملكون فهؤلاء لا يقصدهم حديث رسول الله .

الرابع : يكثر مزاحموه على طلب ما هو فيه من الرئاسة لكثرة أبناء الدنيا الباحثين عليها ، و هو قد ذاق منها ما ذاق ، و يتألّم أشدّ التألم بالعزل ، فيكثر بينه و بينهم الهرج و الغش والحسد والغيبة و النميمة ، و أنواع الفتن حتى ربّما يؤول الأمر إلى سعي بعضهم في سفك دم بعض إمّا سرّا أو علانية [3] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] – المصدر السابق : ص 510-511

[2] – رواه الترمذي في سننه ، كتاب اللباس عن رسول الله رقم (1702)

[3] – السنوسي – المنهج السديد شرح كفاية المريد: ص 511- 512

غير أنّ السؤال الذي يطرح هنا ، كيف يكون التحذير من الرئاسة و هي ضرورية لا بد للنّاس منها شرعا و عرفا ، و قد كان للنّاس رؤساء من الصحابة و التابعين ؟ وكيف يكون التحذير منها ، و نصب الأئمة يعد واجبا شرعا ؟

و قد أجاب الإمام السنوسي على هذا السؤال على النحو التالي :

الأول : أنّ الرئاسة التي يجب الحذر منها و الهروب عنها ، هي تلك الرئاسة التي تطلب شهوة و سمعة ، و هي تلك التي يطلب بها مجرد الترأس ، و التقدم على أبناء الجنس ، و الاستعلاء بالكلمة عليهم ، لا تلك الرئاسة التي يطلب بها إغاثة الملهوف و نصرة المظلوم ، و إحياء السنّن ، وإخماد البدع ، و لا شك أنّ رئاسة الصحابة و من تبعهم بإحسان ، إنّما كانت لهذا الغرض الثاني لا للأول ، و لهذا كان الرئيس منهم أتقى الله و أعلم به ، وأزهد في الدنيا و أخشى لربه ، وأرحم بالمساكين و أشدّ تواضعا لهم ، و أكثر عبادة لله تعالى من غيره ، و أين مثل هؤلاء السادة الكرام الأقوياء ، فقد كان النّاس عيال لهم طرحوا على ظهورهم أحمال دينهم و دنياهم ، وبقوا مستريحين ، و نهضوا بها -رضي الله عنهم- لمحض طلب مرضاته تعالى ، بمكايدة تلك الهموم كلها زيادة إلى ما قاموا به من وظائف العبادات التي فيها بينهم و بين مولاهم تبارك و تعالى [1].

الثاني : التحذير من الرئاسة ليس معناه تحريم أصلها ، و إنّما هذا التحذير واقع على سبيل النصيحة و الاحتياط لقلّة النّاجين فيها ، كما قال عليه الصلاة و السلام : " لا بدّ للنّاس من عرفاء و العرفاء في النار " [2]. يعني أكثرهم في النّار ، و التحذير يكون أوكد خاصة في الأزمنة الفاسدة – و خاصة في زمن الإمام السنوسي كما سبق و أن رأيناه في الحالة السياسية التي كان عليها عصره – و أحيانا تكون نيّة الرئيس صالحة وحسنة إلاّ أنّها لا تثبت ، و لا يجد معينا عليها، فينتكس على وجهه في أول يوم من أيام ولايته ، فالأحمق من سوّلت له النّفس الأمّارة ، و أوهمته

---

[1]- المصدر السابق : ص 512

[2]- رواه أبو داود في سننه ، كتاب الخراج والإمارة و الفيئ رقم : (2545) .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أنّ له مصلحة دينية في شيء من ضروب الرياسات ، و قد ذهب زمان ذلك و انقضى بسبيله فلا مطمع فيه الآن ، إلاّ في زمن نزول المسيح عيسى عليه السلام ! [1].

و قد يتسرّع البعض فيحكم على الإمام السنوسي على أنّه كان متشائما ، و يائسا من صلاح الزمان في عصره أو في ما يليه من العصور ، لكن كما سبق و أن أشرنا سلفا ، أنّ ما عاشه الإمام و شهده من صراع و اقتتال الإخوة الأقارب على الملْك و الحكم في تلمسان الزيانية، هو الذي دفعه إلى أن يصدر مثل هكذا أحكام ، و قد عرف عنه أنّه كان يكثر اعتزال حكام زمانه لفسادهم و فساد حكمهم و سياستهم في إدارة شؤون المسلمين .

إنّ الإمام السنوسي و بالرغم من أهمية الحكم في تسير شؤون الرعية دائم التأكيد على ضرورة الحذر من الرياسة ، وخاصة إذا كان الإنسان لازال في بداية الطلب ، و لم تخمد بشريته وطبعه بعد ، و لم يفرغ من إصلاح نفسه و تربيتها ، و لم يفرغ من قطع منازل السلوك و التزكية ، اللهمّ إلا أن يبتلى بها على وجه لم يجد معه عنها مهربا ، لا شرعا و لا عادة ، فليصبر حينئذ ، و ليستعن بالله تعالى على القيام بحقه فيها ، و على أن يكفيه شرّها و ضررها ، دنيا وأخرى ، و يبذل جهده في الصبر على امتثال ما أمر به في ذلك [2] .

و بالجملة فالرياسة ليست حراما و لا مكروهة عند السنوسي لكنّ الحذر منها واجب خاصة إذا وجد الإنسان من نفسه ضعفا و عدم القدرة على تحمل أعباءها و تكاليفها ، حتى إذ ابتلى بها ، وجب أن يتلقاها بالصبر و الاستعانة بالله سبحانه تعالى على أداء حقوقها ، و الأمن من شرورها .

---

[1] – السنوسي – المنهج السديد شرح كفاية المريد : ص 512

[2] – المصدر نفسه : ص 513

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثـــانيا : الطّـــمع .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفقر عند الصوفية محمود ، و لكن ينبغي للفقير أن يكون قانعاً ، منقطع الطمع عن الخلق ، غير ملتفت إلى ما في أيديهم ، و لا حريص على اكتساب المال كيف كان ، و لا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم و الملبس . و الطّمع عند السنوسي هو أيضا من بواعث آفات النفس ، و هو من الآفات المهلكة للإنسان دينا و دنيا ، الموجبة له الذلّ و الهوان في هذه الدّار و في الآخرة . و قد جاء في الحكم الشائعة : لو قيل للطمع : من أبوك ؟ لقال : الشّك في المقدور ، و لو قيل له : ما حرفتك ؟ لقال : اكتساب الذلّ ، و لو قيل له :ما غايتك ؟ لقال : الحرمان . فالطّمع يذل الأمير ، و اليأس يعزّ الفقير .

أ / حقيقة الطمع و أسبابه :

حقيقة الطمع كما نقله الإمام السنوسي على لسان غيره : " هو إرادة الشيء المخاطرة بالحكم "[1]. يعني إرادة ما فيه خطر بأن يكون أو لا يكون ، و على تقدير أن يكون ، فيحتمل أن يكون فيه صلاح للعبد أو لا فيريده هو هذا الطامع بأن يحكم فيه– مع هذه المخاطرة– فإنّ له فيه صلاحا ومنفعة ، أو له فيه فسادا و مضرّة كالأسفار غير الواجبة ، و التجارات ، و الصنائع ، ونوافل الطاعات ، فيستغرق في طلب هذه المخاطر لما جزم فيه بالمصلحة لنفسه فيعطل بسبب ذلك واجبات عليه ، و يهلك في دينه و دنياه ، أو يترك ما لــه فيه مصلحة دينية أو دنيوية ، مباحة فيهلك في دينه أو دنياه ، و ضد الطمع التفويض و هو ترك الاختيار ما فيه مخاطرة إلى المختار المدبر العالم بمصالح الخلق .

ولهذا فإنّ الطمع يقود صاحبه أبدا إلى التملق و الذل وقد جاء عن "ابن عطاء الله" في حكمه: " ما بسقت أغصان ذل إلا عن بذر طمع "[2]. ثم قال إثره " أنت حرّ ممّا أنت عليه آيس ،

[1]- المصدر السابق : ص 514

[2]- ابن عطاء الله السكندري — الحكم العطائية رقم : 60 :ص 16

وعبد لما أنت له طامع" [1]. و سبب ذلك عند السنوسي أنّ الطمع يحمل صاحبه على الاستغراق في طلب مطموعه و خدمته ، و تحمل المؤن و التعب بتحصيله و مدّ الرقبة ذلا للسبب الذي رجا حصول ذلك من قبله ، و هذا غاية ما يفعل العبيد البارّون بساداتهم [2] .

و السبب الآخر الذي يتولد منه الطمع عند الشيخ هو استغراق النّفس في إسناد الآثار للأسباب العادية ، لما شهدت ارتباطها بها كثيرا ، أو عميت عن إدراك وجودها بدونها كثيرا ، وإسنادها تلك الآثار للأسباب العادية إن كان عن اعتقاد تأثيرها فيها فهو بدعة وشرك ، وإن كان لتوهم ارتباطها وتوقفها عليها فهو جهل لما سبق أنها توجد معها وبدونها [3].

كما أنّ من أسباب الطمع الأخرى عند السنوسي ، الجهل بالمقدور و عدم الثقة بضمان الله تعالى وكفايته لمن فوض و توكل عليه ، و من أسبابه أيضا ، جهل العبد بقدر مالكه و ربّه ، وبقدر النّعم التي منحها الله تعالى من غير سؤال ، فإذا أهان نفسه بأن أخرجها عن الانتساب والعبودية لمولاها ملك الملوك تبارك و تعالى ، و صار عبدا لما هو حادث عاجز مثله .

و قد يثار هنا تساؤل هام – بعد استعراضنا لأسباب الطمع عند الإمام السنوسي مفاده : لماذا نجد الطامع– أحيانا– يظفر بغرضه من الأسباب التي تعلق بها ، و استغرق في خدمتها ؟

و تفسير ذلك عنده ، أنّه لئن ظفر الطامع بغرضه اليسير الدنيوي منها ، فقد أتعب ظاهره و باطنه و فوتته من منازل الدّين و درجات الآخرة و العزّ في الدارين ، مالا نسبة لذلك الحظ اليسير الدنيوي المشوب بالهموم و الأحزان ، و الذلّة و المهانة إلى أدناه ، و من قدر أن يكون عبدا للملك يخلع عليه الخلع النفيسة ، و يركبه المراكب البهية ، و يخدمه الخيل والرجال ،

[1]- ابن عطاء الله السكندري – الحكم العطائية ، حكمة رقم (62)

[2]- السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 516

[3]- المصدر نفسه : ص 517

فعدل عنه ، و رضي أن يكون عبدا لسراب يذلّه بخدمه الأزبال و العذرات ، ثم يسدّ جوعته بكسرة و يستر عورته بخرقة ، أفلا يكون محروما غاية الحرمان ![1]

و الأمر الآخر عند الإمام أنّ هذا الطامع قد فوّت بعبوديته للأسباب من مال و جاه وملك و تجارة و صناعة و جمال امرأة و خدمة ظلمه و نحو ذلك ، عبودية من انفرد بالملك والعزة وحده ، و بيده من خزائن النعم و المكارم في الدارين ما لانهاية له . و هو تعالى المدّخر في فراديس الجنان لعباده المقبلين على طاعته و تعظيم جلاله مالا عين رأت ، و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر ، و لملك الدنيا بحذافرها مع فرض الأمن ، و السلامة و العافية أبد الآباد ، لا قدر له ولا قيمة بالنسبة إلى تسبيحة واحدة يعرف العبد معناها ، و يذكر مولاه العظيم بها ، مع حضور قلب و فراغ سرّ ، فكيف نسبة ما حصل للطامع خادم الأسباب مع الغرض اليسير الحقير ، إلى ما فاته من علوم نافعة ، و فكر في جلال المولى العظيم جائلة ، و حضور قلب في أداء فرائضه ، وأوراد فيما ندب إليه من ذكره ، و أنواع قربه ، و كثرة الصلاة و التسليم على مصطفاه من خلقه سيدنا و مولانا محمد صلوات الله وسلامه عليه [2] .

ب / علاج الطمع والدواء الذي تكتسب به صفة القناعة : علاج الطمع ودواؤه مركب من مجموعة أركان منها :

الأول : الاقتصاد في المعيشة ، و الرّفق في الإنفاق ، فمن أراد القناعة فينبغي أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه ، و يرد نفسه إلى ما لابد منه ، فيقنع بأي طعام كان ، و قليل منه و ثوب واحد ، و يوطن نفسه على ذلك ، و إن كان له عيال ، فيرد كل واحد إلى هذا القدر .

الثاني : إذا تيسر له في الحال ما يكفيه ، فلا يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ويعينه على ذلك قصر الأمل ، و اليقين بأن رزقه لا بد أن يأتيه ، و ليعلم أنّ الشيطان يعده الفقر فعن ابن مسعود رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : " إن روح

[1]- المصدر السابق : ص 517-518

[2]- المصدر السابق : ص 518

القدس نفث في روعي ، أنّه ليس من نفس تموت حتى تستكمل رزقها و أجلها ، فاتّقوا الله وأجملوا في الطلب ، و لا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله عز وجل ، فإنّه لا يدرك عند الله إلا بطاعته ". و إذا انسد عنه باب كان ينتظر الرزق منه ، فلا ينبغي أن يضطرب قلبه ، فإن في الحديث : " أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب " [1].

الثالث : أن يعرف ما في القناعة من عزّ الاستغناء ، و ما في الطمع و الحرص من الذل ، وليس في القناعة إلا الصبر عن المشتبهات و الفضول ، مع ما يحصل له من ثواب الآخرة ، ومن لم يؤثر عزَّ نفسه عن شهوته ، فهو ركيك العقل ، ناقص الإيمان .

الرابع : أن يكثر تفكره في تنعم اليهود و النصارى و أراذل الناس و الحمقى منهم ، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء و الأولياء و الصالحين ، و يسمع أحاديثهم ، و يطالع أحوالهم ، و يخير عقله بين مشابهة أراذل العالمين ، أو صفوة الخلق عند الله تعالى ، حتى يهون عليه الصبر على القليل و القناعة باليسير .

الخامس : أن يفهم ما في جمع المال من الخطر ، و ينظر إلى ثواب الفقر ، ويتم ذلك بأن ينظر أبداً من دونه في الدنيا ، و إلى من فوقه في الدين ، و عماد الأمر : الصبر و قصر الأمل ، وأن يعلم أنّ غاية صبره في الدنيا أيام قلائل لتمتع دائم ، فيكون كالمريض الذي يصبر على مرارة الدواء لما يرجو من الشفاء . و ينبغي لمن فقد المال أن يستعمل القناعة كما ذكر ، و لمن وجده أن يستعمل السخاء و الإيثار و اصطناع المعروف ، فإن السخاء أخلاق الأنبياء ، وهو أصل من أصول النجاة [2] .

[1]- ابن ماجة- سنن ابن ماجة ، كتاب التجارات باب : الاقتصاد في طلب المعيشة رقم : 2135

[2]- السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص518-519

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثالث

طرق التخلص من عيوب النفس

لما كانت النفس الإنسانية على هذا النحو ، فقد وجب على صاحبها العمل على التخلص من صفاقا المذمومة لكي تترقى عن مرتبة الأمر بالسوء . و يكون بذلك قد قام بأمر الله الوارد في قوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى }1 . و ذلك أنّ الله عند المتصوفة خلق الإنسان من صفاء صفوة النّور ، و أحلها مكانا مكينا لحكمة آدمية قدّرها و قضاها ، و ليبلونا أينا أحسن عملا ، فيفوز بالفلاح من زكاها . و يخسر بالخيبة من دسّاها ، كما أنّ طهارة النفس ثمرة العمل ، كما أنّ العمل ثمرة العلم ، فالنّفس إذا تحلّت بالأخلاق الحميدة ، و تزكّت عن الأخلاق الذميمة ، فإنّ حجاب الغفلة يرتفع عنها أو يرتفع عنها منه بقدر ما نالته من تحلية و تزكية [2] . كما أنّ قطع الشهوة يقوي القلب ، و عدم الميل إلى الرخصة [3] . و أهم طرق التخلص من عيوب النفس عند السنوسي هي :

أولا – المجــــاهدة :

أ/ حقيقة مجاهدة النفس :

إنّ أصل المجاهدة و ملاكها فطم النفس عن المألوفات و حملها على خلاف هواها في عموم الأوقات ، وذلك أنّ للنّفس صفتان ما نعتان لها من الخير ، انهماك في الشهوات و امتناع عن الطاعات [4]. و قد اعتبر "عبد القادر الجيلاني" أنّ الجهاد نوعان : ظاهر و باطن ، فالباطن

[1]- النازعات الآية 40-41

[2]- الساحلي – بغية السالك إلى أشرف المسالك : ج 1ص120- 123

[3]- المحاسبي- الوصايا ، عقيق عبد القادر أحمد عطا ،ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1406هـ/1986 م : ص 291

[4]- القشيري – الرسالة القشيرية : ص 172- 173

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جهاد النّفس و الطبع و الشيطان ، و التوبة عن المعاصي و الزّلات و الثبات عليها و ترك الشهوات و المحرمات ، و ظاهر ، و يكون بجهاد الكفار المعاندين لله و لرسوله ، و الجهاد الباطن أصعب من الجهاد الظاهر ولهذا دعا إلى تذويب النفس بالمجاهدة ، فإنّها إذا ذابت و فنيت اطمأنت إلى القلب [1].

و حقيقة مجاهدة النفس عند السنوسي : " دوام مخالفتها فيما تهواه و تشتهيه ، من الحظوظ الظاهرية الجلية ، و الباطنة الخفية من الشهوات و الإرادات ، ودواعي النفس وأمانيها واختباراتها ، إلا ما لا بد منه من حقوقها طلبا للاستقامة ، واستبقاء وثباتا على المقامات " [2]. وليس المراد من مجاهدة النفس استئصال صفاتها ، بل المراد تصعيدها من سيئ إلى حسن ، وتسييرها على مراد الله تعالى وابتغاء مرضاته .

كما أنّ السّالك في طريق الله إن جاهد نفسه و سلك معها طريق الخلاف لكل ما تدعو إليه بجدّ عظيم ، و اجتهاد لا تواني فيه و لا تقصير ، امتثالا لأمر الله تعالى و طلبا لمرضاته ، فإنّه سبحانه سيعينه على نفسه و يذلّلها له ، و يكفيه مضرّتها و يكشف له عن طرق الهداية إلى مواضع الأمن من مكايدها قال تعالى : {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } [3]، و قد حضّ سبحانه في القرآن الكريم على إبلاغ الوسع في الجهاد لأجله فقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ } [4]. و لهذا قال الصّوفية : من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمّة ، و من ظن أنّه يفتح الله عليه بشيء من هذه الطريقة أو يكشف له عن شيء منها بغير لزوم المجاهدة فهو غلط [5].

[1]- عبد القادر الجيلاني – الفتح الرباني : 64- 134

[2]- السنوسي – المنهج السديد : ص 478

[3]- العنكبوت الآية 69

[4]- الحج الآية 77-78

[5]- القشيري – الرسالة القشيرية : ص 171

إنّ الموفّق عند الإمام السنوسي في أمر المجاهدة هو من وفقه الله تعالى إلى جهاد نفسه والاعتناء بشأن عيوبها ، إذ الأكثر من العباد و الزهاد – فضلا عن غيرهم– مبتلون بالرضا عن أنفسهم ، و المسالمة لها في عين ما هم فيه من العبادات و الزهد ، حتى أفسدت النفوس عليهم ما هم فيه مما ظنوه خيرا و عبادة ، و ذلك بإدخال أغراض لها ، و شهوات و معائب جلية و خفية ، إذ كلّ من كانت همته كثرة الأعمال و الدخول فيها قبل أن يعرف مكايد النفس ، و يتطهر من معايبها ، كان فساده في أعماله أكثر من صلاحه ، بل لا تزيده تلك الأعمال إلاّ فسادا واختلالا، أمّا من كانت همته – أولا– معرفة معايب نفسه و آفاتها ما دقّ منها و ما جلّ ، ثم لّما عرفها نهض مستعينا بالله تعالى ، و متمثلا لأمره جلّ وعلا إلى جهادها ، و محاولة محو صفاتها الذميمة ، واستبدالها بالصفات المرضية المستقيمة ، حتى يدخل العمل الصالح ، بنفس مهذبة ، طيبة يرجى خيرها ، و يؤمن شرها ، فهذا هو الحازم الذي أتى الأمر من بابه ، و تمسك في بلوغ رضوان الله تعالى دنيا و أخرى بأوثق عراه ، و أقوى أسبابه[1] .

و بعد ما أوضح الإمام ضرورة المجاهدة للسّالك باعتبارها سبيله لبلوغ المراد ، فإنّه بعد ذلك يدله على الطرق الآمنة لذلك .

ب/ طريقة المجـــاهدة :

لأن النّفس بطبيعتها خدّاعة شديدة المكّر ، فهناك عدة سبل لمجاهدتها و تصفيتها وأهم طريق لذلك يكون بقطع مألوفات العادات عنها و مخالفتها عن هواها و ترك جميع حظوظها ، لأنّ النّفس تألف بعض العادات و ترتاح إليها ، حتى يمسي صاحبها أسيرا للعادة ذليلا لها لا يملك الإفاقة من سيطرة ما ألفته النفس ، و من هنا كان باب المجاهدة لا يفتح ، إلاّ بقطع النّفس عما لازمته من عادات ، و إذا كان لهذه الأخيرة أثرها البالغ في ركون النفس إلى الدنيا ، فإنّ للهوى والأماني أثر أبلغ على النّفس و أخطر ، فقد طبعت النّفس على الهوى و الضلال ، و جبلت على التمني و حب الشهوات ، و لهذا حذرت الآيات القرآنية من متابعة الهوى ، قال تعالى: { وَلَمَّا

[1]– السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 479-480

تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}[1]. و قال أيضا : { إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ }[2]. وقال أيضا:{ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ}[3]. ومخالفة هوى النفس ، و فطامها عن المألوفات ، و حملها على خلاف هواها في عموم الأوقات أصل المجاهدة عند الإمام السنوسي ، فإذا جمحت النفس عند ركوب الهوى وجب كبحها بلجام التقوى ، و إذا حرنت عند القيام بالمأمورات ، وجب سوقها على خلاف الهوى ، و يجمع هذا عدم مساعدتها على أغراضها ، و ترك متابعتها على حظوظها [4]. و إلزام القلب على تأديب النفس و الإلحاح في معاتبتها [5].

هذا و لم يكتف الإمام السنوسي بهذا الوصف للنفس و كيفية مجاهدتها ، بل راح يشبه جهادها بجهاد الكافر الحربي الذي يريد أن تكون كلمة الكفر هي العليا و كلمة التوحيد هي السفلى ، و لكون النّفس تريد أن تكون كلمة باطلها من الدعاء للحظوظ العاجلة المشغلة عن إخلاص العبودية لله تعالى ، و القيام بوظائف تكاليفه على الوجه الذي أمر به هي العليا .

و من هنا وجب على كل مؤمن يعظّم حرمات الله تعالى أن ينهض كل النهوض بغاية قواه العلمية و العملية ، لجهادها و قتالها ، و في مثل هذا القتال الذي نزل العدوّ فيه بساحة الأبدان ، و هو فرض عين على كل مؤمن ، يسقط استئذان الأبوين و غيرهما ، و يجب على المؤمن أن ينوي في هذا الجهاد ما ينويه في جهاد الكفار ، فينوي فيه امتثال أمر الله تعالى ، بأن يجاهد النّفس حتى تكون كلمة الله تعالى من الأمر بإخلاص العبادة له في الظاهر و الباطن ، والسرّ والعلانية ، و على كل حال ، و رفض كل ما يشوش في ذلك ، هي العليا النافذة عملا ، وامتثالا، و تعظيما في جميع أجزاء البدن الظاهرة و الباطنة ، و ذلك لا يكون إلا بقتال النّفس حتى تطمئن و تنقاد للحق طوعا ، أو تغلب و تستسلم لأداء جزية الاستعانة بها على طاعة الله تعالى ، بشرط أن تنزل بموضع من الذلة و الهوان ، حيث تنالها أحكام الإيمان ، و تنفذ فيها طوعا

---

[1]- ص الآية 26

[2]- النجم الآية 23

[3]- الكهف الآية 28

[4]- السنوسي – المنهج السديد : ص 480

[5]- المحاسبي– الوصايا : ص 334

وكرها ، و يكون أداؤها لجزية الاستعانة بها على الطاعة من يد لا تؤخر ، و لا تقبل منها عذر ولا مماطلة ، و هي صاغرة لا تحمد على ما بذلت من الاستعانة بها و لا يعبأ بها ، و لا ينظر إلى جهتها في ذلك ، و لا تنال بذلك البذل عزا و لا قدرا عند المؤمن أصلا ، و إنّما يرى المنّة في ذلك للمولى الكريم وحده ، إذ هو الذي ذلّلها له و مكّنه من الاستعانة بها ، على طاعته طوعا أو كرها مع شدة شكيمتها و عظيم كفرها ، و معارضتها بهواها و شهواتها أحكام الله تعالى ، ولا يزال المؤمن ينظرها مع هذا نظر عداوة ، إذ يعلم أنّه لو وجدت سبيلا إلى خروجها عن هذا الأمر و الذّلة التي هي فيها ، و رجعت إلى وطن أخلاقها الذميمة لأهلكت الحرث والنسل ، وبهذا تعرف أنّه لا يتمكن المؤمن من الاستعانة بالنفس على ما يعنيه من طاعة الله إلا أن يغلبها و تكون عنده في الذّلة وعدم الإجابة إلى حظ من حظوظها بهذه المثابة [1] .

وأما من استعان بالنفس عند السنوسي على ما يعنيه و هي عزيزة عنده ، وحظوظها قائمة وأوامرها مطاعة ، و شهواتها حيّة ، فإنّها تملكه ، ولا ينتفع بشيء من أعماله في الغالب[2]. هذا وقد أورد السنوسي في سبيل التدليل على ما ذهب إليه جملة من أقوال الصوفية نقلها من الرسالة القشرية منها: ما نقل عن " ذي النون المصري " [3] قوله : ما أعزّ الله تعالى عبدا بعز هو أعزّ له من أن يدله على ذلّ نفسه ، و ما أذلّ الله تعالى عبدا بذلّ هو أذلّ له من أن يحجبه عن ذلّ نفسه . وقيل: إذا أراد الله تعالى أن ينقل العبد من ذلّ المعصية إلى عزّ الطاعة أنسه بالوحدة و أغناه بالقناعة و بصّره عيوب نفسه ، فمن أعطى ذلك فقد أعطى خير الدنيا و الآخرة [4].

وبعد.. فإذا كنا قد انتهينا من استعراض طرق المجاهدة و إصلاح حال النفس عند الإمام السنوسي ، فإنّه تبقى نقطة أخيرة ، غاية في الأهمية عند الإمام و هي ضرورة المداومة على المجاهدات ، و عدم الاغترار بما قد تظهره النفس من خضوع كاذب و طاعة ظاهرة . فإن من لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة ، كيف يطيق ألم العذاب في الآخرة ؟

[1]- السنوسي – المنهج السديد : 480-481

[2]- المصدر نفسه : ص 480-482

[3]- ذون النون المصري إبراهيم أبو الفيض أحد رجال الطريقة كان أوحد زمانه علما وورعا من جملة من روى الموطأ عن مالك توفي 245 هـ . انظر ، ابن خلكان – وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان : ج 1 315- 316

[4]- القشيري – الرسالة القشرية في علم التصوف : ص 174- 175

ثانيا : المـــراقبة .

أ/ حقيقة المراقبة :

تعد المراقبة ثاني طريق من طرق التخلص من عيوب النّفس . و هي عند "القشيري ": " علم العبد باطلاع الرب سبحانه و تعالى عليه و استدامته لهذا العلم مراقبة لربه و هذا أصل كل خير " [1] . و حقيقة المراقبة عند السنوسي : " دوام استحضار المؤمن اطلاع الله تبارك و تعالى على جميع أحواله ظاهرة كانت أو باطنة ودليل ذلك قوله سبحانه تعالى :{ و مَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ }[2] " [3] .

ب/ أهمية المراقبة وكيفيتها :

و أهمية المراقبة في سلوك طريق التصوف ترجع عند الإمام في كون أنّ لزومها يوجب خمود النفس بالكلية ، و حضور القلب ، و نفي الخواطر و الهواجس ، و تضبط معه الجوارح والأنفاس فلا تقع في المعاصي ، و تبتعد نفس الإنسان بها عن الغفلة في حركاتها و سكناتها شعورا باطلاع الله تعالى على ظاهرها و باطنها ، لأن العبد منكشف لمولانا تبارك و تعالى معلوم له و بمرأى منه و مسمع [4] .

و هذا و للمراقبة علامات منها : كما قال " ذو النون المصري" : إيثار ما أثر الله سبحانه، و تعظيم ما عظم الله تعالى ، و تصغير ما صغر الله تعالى ، و قال "النصر أباذي" : الرجاء يحركك إلى الطاعات و الخوف يبعدك من المعاصي ، و المراقبة تؤديك إلى طرق الحقائق .

1- القشيري – الرسالة القشيرية : ص 261

2- يونس الآية 61

3- السنوسي – المنهج السديد : ص 483

4- السنوسي – وصية لهبة الله ولد الشيخ الصالح علي الحوتي ، مخطوط ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ، مجموع رقم : 2396 :لوحة 296ص 592

و في مناقب "سهل بن عبد الله التستري"[1] قال : كنت ابن ثلاث سنين و كنت أقوم بالليل أنظر إلى صلاة خالي " محمد بن سوار " ، و كان يقوم الليل فربما كان يقول لي : يا سهل اذهب فنم فقد شغلت قلبي . و قال لي يوما : ألا تذكر الله الذي خلقك ؟ فقلت : كيف أذكره ؟ فقال قل بقلبك عند تقلبك على فراشك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك : الله حيّ ، الله ناظر إليّ، الله شاهدي . فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته . فقال : قلها في كل ليلة سبع مرات . فقلت ذلك، ثم أعلمته . فقال : قلها في كل ليلة إحدى عشرة مرة . فوقع في قلبي حلاوة . فلمّا كان بعد سنة قال لي : احفظ ما علمتك و دم عليه إلى أن تدخل القبر ، فإنّه ينفعك في الدنيا و الآخرة ، فلم أزل على ذلك سنين فوجدت حلاوة في سرّي ، ثم قال لي خالي يوما : يا سهل: من كان الله تعالى معه و ناظر إليه و شاهده أيعصيه ؟ إياك والمعصية "[2] .

فالسالك إذا أوصى نفسه ، و شرط عليها و حاسبها ، لم يبق لــه إلا مراقبتها وملاحظتها في أفعالها ، وفي الحديث الصحيح في تفسير الإحسان ، لما سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك "[3] ، أراد بذلك استحضار عظمة الله و مراقبته في حال العبادة ، كما ينبغي للسالك أن يراقب نفسه قبل العمل وفي العمل ، هل حركه هوى النّفس أو المحرك له هو الله تعالى ؟ فإن كان الله تعالى ، أمضاه و إلا تركه ، و هذا هو الإخلاص في أمر المراقبة .

فهذه مراقبة العبد في الطاعة و هو أن يكون مخلصاً فيها ، و مراقبته في المعصية تكون بالتوبة و الندم و الإقلاع ، و مراقبته في المباح تكون بمراعاة الأدب ، و الشكر على النّعم ، فإنّه لا يخلو من نعمة لابد له من الشكر عليها ، و لا يخلو من بلية لابد من الصبر عليها ، وكل ذلك من المراقبة . قال "وهب من منبه" في حكمة آل داود : "حقّ على العاقل أن لا يشغل عن أربع ساعات ، ساعة يناجي فيها ربه ، و ساعة يحاسب فيها نفسه ، و ساعة يفضي فيها إلى إخوانه

---

[1]- التستري ، سهل ابن عبد الله من أئمة القوم و علمائهم صحب ذو النون المصري توفي سنة 283 هـ على الأرجح : انظر، السلمي- طبقات الصوفية : ص 206

[2]- القشيري – الرسالة القشيرية في علم التصوف : ص 262- 263 .

[3]- رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان و الإسلام و الإحسان :ص 29- 30 .و البخاري- كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي عن الإيمان و الإسلام و الإحسان رقم 48 : ص 25

الذين يخبرونه بعيوبه ، و يصدقونه ل ولا
يحرم ، فإنّ هذه الساعة عون على الساعات و جمام للقوة "[1].

هذا و رأس مال المؤمن في دينه ، الفرائض ، و ربحه النوافل و الفضائل ، و خسرانه المعاصي، فليراقب نفسه أولاً على أداء الفرائض ، و إن ارتكب معصية اشتغل بعقابها و معاقبتها ليستوفى منها ما فرط ، و هكذا ينبغي للعبد أن يراقب و يحاسب نفسه على الأنفاس و على معصية القلب و الجوارح في كل ساعة ، إنّ المريد إذا حاسب نفسه فرأى منها تقصيراً ، أو فعلت شيئاً من المعاصي فلا ينبغي أن يمهلها ، فإنه يسهل عليه حينئذ مفارقة الذنوب و يعسر عليه فطامها ، بل ينبغي أن يعاقبها عقوبة مباحة كما يعاقب أهله و ولده [2].

و بالجملة فمن أراد أن يسهل عليه مشاق الطاعات و تسمح نفسه بترك ملاذ الشهوات وإن عظمت ، فليلزم مقام المراقبة الذي استفاد التصديق بعملها مما سبق في العقائد [3]. فالمراقبة في النهاية إذا تحققت بشكلها الصحيح عند السنوسي فإنّها ترقى بالسالك إلى أعلى مقامات الإحسان ويكون قد تهيأ للدخول إلى مترل المشاهدة الذي هو مقام وسط بين مترل المراقبة و مترل المعرفة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- ابن قدامة – منهاج القاصدين : ص373

2- المصدر نفسه : ص 374

3- السنوسي – المنهج السديد : ص 486

ثالثا: التزم مقام الحزن .

أ/ حقيقة مقام الحزن :

من الطرق العظيمة التي يستعين بها السّالك على غلبة النفس و ترك حظوظها عند السنوسي التزام مقام الحزن ، و هو لا يكون إلا بالخوف من الله تعالى الذي هو عبارة عن تألم القلب ، و احتراقه ، بسبب توقع مكروه في ما مضى و الحال و في ما يستقبل[1]. و مثال ذلك ، من جنى على ملك جناية ، ثم وقع في يده ، فهو يخاف القتل ، و يجوز العفو ، و لكن يكون تألم قلبه بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله ، و شناعة جنايته ، و تأثيرها عند الملك ، وبحسب ضعف الأسباب يضعف الخوف و الحزن . وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية ، بل عن صفة المخوف و عظمته و جلاله ، إذ قد علم أنّ الله سبحانه ، لو أهلك العالمين لم يبال ، و لم يمنعه مانع ، فبحسب معرفة الإنسان بعيوب نفسه ، و بجلال الله تعالى و استغنائه ، و أنّه لا يسأل عما يفعل ، يكون خوفه و حزنه ، و أخوف النّاس أعرفهم بنفسه و بربه ، قال تعالى :{ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ }[2]،[3].

إذا كملت المعرفة عند المتصوفة ، أثمرت الخوف و الحزن ، ففاض أثرهما على القلب ، ثم ظهر ذلك على الجوارح و الصفات بالنحول و الاصفرار والبكاء ، وأمّا ظهور أثره على الجوارح، فبكفها عن المعاصي ، و إلزامها الطاعات ، تلافياً لما فرط ، و استعداداً للمستقبل ، و الحزن عند الإمام " القشيري " : " حال يقبض القلب عن التفرقة في أدوية الغفلة و الحزن من أوصاف أهل السلوك "[4]. و أما حقيقة مقام الحزن عند السنوسي فهو : " تألّم النّفس لما فاتها أو تخشى فواته من حظها من المولى تبارك وتعالى ، إذ صاحب الحزن صاحب مصيبة أو مصائب على قدر ما

---

[1] - السنوسي – المنهج السديد : ص 486

[2] – فاطر الآية 28

[3] – ابن قدامة – منهاج القاصدين : ص302- 306

[4] – القشيري – الرسالة القشيرية : ص 211

يستحضر في حزنه من العظائم التي يحزن عليها ، و شأن النّفس أنّها تنغمر حظوظها و تموت شهواتها عند صدمات المصائب و آلامها إياه "[1] .

ب / أهمية الخوف و الحزن :

تتمثل أهمية الخوف و الحزن ، بالنسبة للسالك أنهما يقمعا الشهوات ، ويكدرا اللذات ، فتصير المعاصي المحبوبة عند السالك مكروهة ، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذ علم أن فيه سماً ، فتحترق الشهوات بالخوف و الحزن ، و تتأدب الجوارح ، و يذلّ القلب ويستكين ، ويفارقه الكبر و الحقد و الحسد و غيرها ، و يصير مستوعب الهم لخوفه و حزنه ، و النظر في خطر عاقبته ، فلا يتفرغ لغيره ، و لا يكون له شغل إلا المراقبة ، و المجاهدة ، و مؤاخذة النفس في الخطرات و الخطوات و الكلمات ، و يكون حاله كحال من وقع في مخالب سبع ضار لا يدرى أيغفل عنه فيفلت ، أو يهجم عليه فيهلكه ، و لا شغل له إلا ما وقع فيه ، فقوة المراقبة بحسب قوة الخوف و الحزن ، و قوة الخوف و الحزن بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى ، وصفاته، و بعيوب النفس ، و ما بين يديها من الأخطار و الأهوال [2].

كما أنّ الحزن و الخوف يقودان السّالك إلى عبادة الله و المواظبة على العلم و العمل ، لينال بهما رتبة القرب من الله تعالى ، و لهما عند الصوفية إفراط ، و اعتدال ، و قصور . والمحمود من ذلك الاعتدال ، و هو بمترلة السوط للبهيمة فإن الأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط ، وليس المبالغة في الضرب محمودة و لا التقاصر عن الخوف أيضاً محمود ، و هو كالذي يخطر بالبال عند سماع آية ، أو سبب هائل ، فيورث البكاء ، فإذا غاب ذلك السبب عن الحسّ ، رجع القلب إلى الغفلة ، فهو خوف قاصر قليل الجدوى ، ضعيف النفع ، و هو كالقضيب الضعيف الذي يضرب به دابة قوية فلا يؤلمها ألماً مبرحاً ، فلا يسوقها إلى المقصد ، و لا يصلح لرياضتها ، و هذا هو

[1] - السنوسي – المنهج السديد : ص 486
[2] - ابن قدامة – منهاج القاصدين : ص310

الغالب على النّاس كلهم ، إلاّ العارفين و العلماء ، أي العلماء بالله و بآياته ، و قد عزّ وجودهم. و أما المرتسمون برسوم العلم ، فإنّهم أبعد النّاس عن الخوف و الحزن [1] .

و فائدة الحزن و الخوف : الحذر ، و الورع ، و التقوى ، و المجاهدة و الفكر ، و الذكر، و التعبد و سائر الأسباب التي توصل إلى الله تعالى ، وكل ذلك يستدعى العمل ، مع صحة البدن و سلامة العقل ، فإذا قدح في ذلك شيء ، كان الأمر مذموماً .

ج / مقامات الخائفين المحزونين :

إنّ مقامات الخائفين المحزونين عند المتصوفة تختلف ، فمنهم من يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة ، و منهم من يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم ، أو خوف الميل عن الاستقامة ، و منهم من يغلب عليه خوف سوء الخاتمة . و أعلى من هذا خوف السابقة ، لأنّ الخاتمة فرع السابقة ، و الله تعالى يرفع من يشاء من غير وسيلة ، ويضع من يشاء من غير وسيلة ، لا يسأل عما يفعل .

ومن أقسام الخائفين المحزونين ، من يخاف سكرات الموت و شدته ، أو ســـــؤال منكر و نكير ، أو عذاب القبر ، و منهم من يخاف هيبة الوقوف بين يدي الله تعالى ، و الخوف من المناقشة و العبور على الصراط ، و الخوف من النّار وأهوالها ، أو حرمان الجنة ، أو الحجاب عن الله سبحانه و تعالى ، و كل هذه الأسباب مكروهة في أنفسها ، مخوفة ، فأعلاها رتبة خوف الحجاب عن الله تعالى ، و هو خوف العارفين ، و ما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدين ، و فضيلة كل شيء بقدر إعانته على طلب السعادة ، و هي لقاء الله تعالى ، و القرب منه ، فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة ، قال الله تعالى {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ }[2]، و إذا نظر إلى موضع الخوف و الرجاء فالرجاء أفضل لأنّ الرجاء يستقي من بحر الرحمة ، و الخوف يستقي من بحر الغضب ، و أمّا المتّقي ، فالأفضل عنده اعتدال الخوف و الرجاء ، و أمّا عند نزول

[1]- المصدر السابق : ص146 . و الغزالي أبوحامد – الأربعين في أصول الدين : ص150- 151

[2]- الرحمان الآية 46

الموت، فالأصلح للإنسان الرّجاء ، لأنّ الخوف كالسوط الباعث على العمل ، و ليس ثمة عمل ، فلا يستفيد الخائف حينئذ إلا تقطيع نياط قلبه ، و الرّجاء في هذه الحال يقوى قلبه ، و يحبب إليه ربه ، فلا ينبغي لأحد أن يفارق الدنيا إلا محباً لله تعالى ، محباً ، للقائه ، حسن الظن به [1] .

كما أنّ الخوف من الله تعالى عند علماء التربية و السلوك على مقامين : أحدهما الخوف من عذابه ، و هذا خوف عامة الخلق ، و هو حاصل بالإيمان بالجنة والنار ، وكونهما جزاءين على الطاعة و المعصية ، و يضعف هذا الخوف بسبب ضعف الإيمان ، أو قوة الغفلة ، و زوال الغفلة يحصل بالتذكر ، و التفكر في عذاب الآخرة ، و يزيد بالنظر إلى الخائفين و مجالستهم ، أو سماع أخبارهم ، و المقام الثاني : الخوف من الله تعالى ، و هو خوف العلماء العارفين بالله و صفاته سبحانه و تعالى [2].

د/ كيفية اكتساب مقام الحزن :

قبل الحديث عن كيفية اكتساب مقام الحزن عند الإمام السنوسي ، تجدر الإشارة أن من أشهر المفاهيم التي انفرد بها أهل الطريق الصوفي ، مفهوم المقام حتى أننا لا نجد واحدا من كتب المتون التي تعرّض فيها الأئمة للكلام عن الطريق إلاّ و فيه فصل منفرد عن المقامات ، باعتبارها علامة لا بد للسالك من اجتيازها [3].

هذا و يذكر أنّ الصوفية أخذوا لغة المقام من الآيات القرآنية ، حيث ورد بمعنى الموضع والمترلة ، و من الآيات القرآنية التي وردت فيها لفظة المقام قوله تعالى:{ **وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ** } [4]. و قوله تعالى :{ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ** } [5].وقوله تعالى: { **وَلِمَنْ خَافَ**

[1] - ابن قدامة – منهاج القاصدين :ص 312

[2]- المصدر نفسه : ص 313

[3]- يوسف محمد طه زيدان – الطريق الصوفي : ص 75

[4] - الصافات الآية 164

[5]- الدخان الآية 51

مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}[1].و في سورة الإسراء :{عَسَى أن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً}[2]. و في سورة مريم:{ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أيُّ الفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً و أَحْسَنُ نَدِيّاً }[3] .
فأشاروا به إلى المواضع و المنازل الروحية التي يتلبث عندها السّالك في رحلة طريقه إلى الله ، وما يتحقق به من آداب وأخلاق[4].

و المقامات عند الصوفية عديدة ، منها التوكّل و الصبر و الشكر و الرضا ، و غير ذلك مما يصل إليه السالك بصدق تخلصه من عيوب نفسه و تركه لحظوظ نفسه ، بل إنّهم اختلفوا في تعدادها ، ففي حين يذكر "الكلاباذي" ما يقرب من عشرين مقاما [5] في حين آخر يحدثنا "القشيري" عن إثنى عشر مقاما [6]، و لعل سبب اختلاف الصوفية في تحديد المقامات يعود إلى أمور منها :

- أنّ الواحد من أرباب السلوك والتصوف يتحدث عما عاينه هو من مقامات الطريق .
- و منها أنّ بعضهم يجمل الكلام في الحديث عن المقامات بينما الآخر بفصّل في الكلام عنها .
- و منها أنّ بعضهم من لا يفرق بين الّأحوال و المقامات فيذكرهما معا تحت باب المقامات [7] .

أمّا عن كيفية اكتساب مقام الحزن عند السنوسي فيكون بالتفكير في أسبابه ، و هي عنده كثيرة ، و متوفرة على العاقل ، لأنّ أحواله منحصرة في الماضي ، والحال ، و المستقبل ، و أين ما تقلبّ بنظره في هذه الثلاثة عظمت مصيبته و اشتد حزنه ، فحالة العاقل مع الماضي من زمانه أنّه

[1] - الرحمان الآية 46
[2]- الإسراء الآية 79
[3]- مريم الآية 73
[4]- يوسف زيدان – الطريق الصوفي : ص 75
[5]- الكلابذي – التعرف لمذهب أهل التصوف : ص 101
[6]- القشيري – الرسالة القشرية : ص 118
[7]- يوسف زيدان – الطريق الصوفي : ص 76

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إذا نظر إليه وجده قد ذهب بسببه بطائفة كبيرة من عمره لا تعود أبدا ، وقد احتوى على تفريط و مخالفات و خسارات و تباعات ، كل واحد منها يتقطع عليها القلب حسرات ، ويعضّ على يديه تلهفا على الرمي بجوهر الأوقات و اللحظات ، فيما لا قيمة له ، و لا بال له ، من اللعب ، و فيما لا يعني ، بل منه ما هو سمّ قاتل ذهبت عوارض لذاته ، و بقيت دواهي عقوباته من الأباطيل و الترهات .

و أمّا من جهة الحاضر فإنّ العاقل إذا نظر إلى الحال وجد أعضاءه ثقيلة غير مجيبة له ولا ناصرة ، و همّته رديئة فاترة ، كما يجد موانع و قواطع متصلة و منفصلة عائقة عن بلوغ الأمل ، بين يديه ماثلة و لا تبرح معه حاضرة ، و وجد بضاعات طاعاته فضلا عن معاصيه معيبة كلها مغشوشة لا تصلح للقبول بل هي كاسدة لغشها مطروحة بائرة .

و أمّا من حيث المستقبل فإنّ السنوسي يقرر أنّ العاقل و إن نظر إلى المستقبل قوي فيه الخوف من الداهية الدهياء و المصيبة العظمى ، و هي أن يسلب – جزاء على عمله الخبيث وتنفيذا لما جرى به الحكم الأزلّي – أصل المعرفة و الإيمان ، و يحق عليه كلمة العذاب باليأس من رحمة الله ، و الحلول مع أعدائه الكفرة أبد الآباد في دار الهوان ، و فيها ما لا يطاق من غضبه تعالى ، و التبعيد عن لطفه و الحجب عن التمتع بشريف رؤيته و جواره في جنته ، و ذلك غاية الحرمان ، ثم إذا تأمّل العاقل ما هو قادم عليه من قرب من عظائم الأهوال لا يستطاع سماعها ، فكيف كمباشرتها و الاتصال بها ، و قد روي أنّ في الآخرة أهوال ، الواحد منها أعظم من أهوال الدنيا أكثر من مائة ألف مرة ، هذا و السّير به إلى مباشرة تلك الأهوال سريع حثيث ، و لعلّه في الحال على شفى جرف منها ، و هو لا يشعر ، هذا مع جهل خاتمته ، و انطواء أمر عاقبته فأنى للعاقل السرور مع توفر هذه المصائب ، و كثرتها و عظمها من غير معرفة ، و لا اعتقاد و لا ظن للخلاص منها [1].

[1]- السنوسي – المنهج السديد : ص 486- 487.

ج / فوائد و ثمار التزام مقام الحزن و الخوف :

إذا التزم السالك إلى الله مقام الحزن و الخوف و تحقق بهما في نفسه فإن يجني من وراء ذلك فوائد عظيمة و ثمارا طيبة من أعظمها عند الإمام السنوسي انغمار حظوظ نفسه ، و تقوية عزيمته و إرادته و نهوض الأعضاء للعمل بعد أن كانت ثقيلة غير مجيبة لصاحبها و لا ناصرة له ، ومنها اجتماع الفكر و الهمّ لاحسان ما يتناوله من الأفعال و الأقوال [1]. و من ثمرات الخوف والحزن ، أنّهما يقمعا الشهوات ، و يكدرا اللذات ، فتصير المعاصي المحبوبة عند السّالك مكروهة، فقوة المراقبة بحسب قوة الخوف و الحزن ، و قوة الخوف والحزن بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى ، و صفاته ، و بعيوب النفس ، و ما بين يديها من الأخطار والأهوال [2].

و قد نقل السنوسي عن " القشيري " بعض أقوال المتصوفة التي تؤكد هذه المعاني ، منها : " صاحب الحزن يقطع من طريق الله في شهر ما لا يقطعه من فقد حزنه في سنين " و في الأخبار: " إنّ الله تعالى يحب كل قلب حزين" . و في التوراة إذا أحبّ الله تعالى عبدا نصب في قلبه نائحة، و إذا أبغض عبدا جعل في قلبه مزمارا . و قد كان سيدنا رسول صلى الله عليه و سلم كان متواصل الأحزان دائم الفكرة . و قيل : القلب إذا لم يكن فيه حزن يخرب كما أنّ الدّار إذا لم يكن فيها ساكن تخرب"[3] " [4].

و بالجملة ..فالتزام مقام الحزن و الخوف في الدنيا علامات و مظاهر على صدق السير في الطريق إلى الله تعالى يبلغ بهما السالك في النهاية الأمن في الآخرة و النجاة من مخاوف و أهوال يوم القيامة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

[1]- المصدر السابق : ص 488

[2]- ابن قدامة – منهاج القاصدين : ص 150

[3]- القشري – الرسالة القشرية : ص 211

[4]- السنوسي – المنهج السديد :ص 488- 489

رابعا: حفظ الجوارح الظاهرة .

إنّ السّالك في الطريق إلى الله تعالى – عند السنوسي – عليه من جهة الشرّع وظائف تتعلق بباطنه ، و عليه وظائف تتعلق بظاهره ، و لا يكون ممتثلا طيبا مستقيما حتى يقوم بحقوق الله تعالى في ظاهره و في باطنه ، إذ أنّه ليس أروح للمرء ، و لا أطرد لهمومه ، و لا أقر لعينه من أن يعيش سليم القلب و الجوارح مبرأ من وساوس الضغينة و الآفات الأخلاقية [1]. هذا و قد ذكر الشيخ فيما سبق بعض الوظائف المتعلقة بالباطن ، و أمّا ما يتعلق بالظاهر فيكون بحفظ الجوارح ، وهي الأعضاء الظاهرة من الإنسان و هي اللسان ، و العين ، و الأذن ، و الرجل ، و البطن ، و الفرج ، سميت جوارح لأنّها كواسب تكسب الخير والشر .و يكون حفظها على النحو الآتي :

أ / حفظ اللسان وآدابه :

اللسان هو أشدّ الأعضاء على الإنسان ، و أهلكها له و في الحديث : " و هل يكبّ النّاس على مناخرهم في النّار إلا حصائد ألسنتهم "[2] ، و اللسان عند السنوسي هو في الرتبة الثانية من القلب لانقسام الإيمان بينهما شطرين ، إذا لا بد فيه من اعتقاد بالجنان و إقرار باللسان ، وكذا الكفر و الردة يكون فيهما ، و حسب الإنسان أن فيه ربحه و غنيمته ، و ثمرة تعبه واجتهاده ، فكم يتلف عليه بلفظة واحدة ، ما يتعب فيه سنين متطاولة بل دهره [3]. و في الحديث : " إنّ الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى لها بالا يهوي بها في النّار سبعين خريفا "[4]. و حفظ اللسان يكون بالصمت ، لأنّه سلامة من غائلة اللسان ، و من لم يقدر على الصمت تعينت عليه العزلة و صارت في حقه فرض عين عند السنوسي لأنّها لا يتوصل للواجب الذي هو ترك المحرمات المتعلقة باللسان إلاّ به ، و ما لا يتوصل إلى الواجب إلاّ به فهو واجب [5].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1]- محمد الغزالي- خلق المسلم ، دط ، مكتبة رحاب ، الجزائر ، دت: ص 85

[2]- رواه الترمذي ، كتاب الإيمان عن رسول الله ، باب ماجاء في حرمة الصلاة ، رقم (2541)

[3]- السنوسي – المنهج السديد : ص 524- 525

[4]- رواه الترمذي ، كتاب الزهد عن رسول الله ، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس ، رقم (2236)

[5]- السنوسي – المنهج السديد : ص 528- 529

و اللسان إنّما خلق ليكثر به السالك ذكر الله تعالى و تلاوة كتابه ، و يرشد به خلق الله تعالى إلى طريقه ، و يظهر به ما في ضميره من حاجات دينه و دنياه ، فإذا استعمله في غير ما خلق له فقد كفر نعمة الله تعالى فيه ، و هو أغلب أعضائه عليه و على سائر الخلق ، وحفظ اللسان يكون من عدة أمور تتلخص فيما يلي[1] :

الأول : حفظ اللسان من الكذب في الجدّ و الهزل ، فلا يعوّد السالك لسانه الكذب هزلا فيتداعى إلى الجد ، و الكذب من أمهات الكبائر ، ثمّ إنّ السالك إذا عرِف بذلك سقطت عدالته والثقة بقوله ، و تزدريه الأعين و تحتقره ، و إذا أراد السّالك أن يعرف قبح الكذب من نفسه فلينظر إلى كذب غيره ، و كذلك فليفعل في جميع عيوب نفسه ، فإنّه لا يرى قبح عيوبه من نفسه بل من غيره ، فما يستقبّحه من غيره يستقبحه غيره منه لا محالة ، فلا يرض لنفسه ذلك .

الثاني : الخلّف في الوعد ، فليحذر السّالك أن يعِد بشيء و لا يفي به ، بل ينبغي أن يكون إحسانه إلى النّاس فعلا بلا قول ، فإن اضطرّ إلى الوعد فليحذر أن يخلف إلاّ لعجز أو ضرورة ، فإنّ ذلك من أمارات النفاق ، و خبائث الأخلاق .

الثالث : الغيّبة ، فليحفظ لسانه عن الغيبة ، و الغيبة أشدّ المنكرات . و معنى الغيّبة : أن يذكر إنسانا بما يكرهه لو سمعه ، فهذا مغتاب ظالم و إن كان صادقا ، و يمنع السّالك عن الغيّبة أمر، أنّه لو تفكر فيه ، و هو أن ينظر في نفسه هل فيه عيب ظاهر أو باطن ؟ و هل أنّه مقارف معصية سرا أو جهرا ؟ فإذا عرف ذلك من نفسه فليعلم أنّ عجزه عن التنزّه عما نسبه إلي غيره كعجزه ، و عذره كعذره ، وكما يكره أن يفتضح و يُذكر عيوبه فهو أيضا يكرهه ، فإن ستره ستر الله عليه عيوبه ، و إن فضحه سلّط الله عليه ألسنة حدادا يمزقون عرضه في الدنيا ، ثم يفضحه الله في الآخرة على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، و من أسباب الغيّبة الفراغ و لهذا ورد التنبيه عليه في كثير من الأحاديث منها – عن عبد الله بن المبارك و الفضل بن موسى قالا أخبرنا عبد الله بن

1- الغزالي – بداية الهداية :ص33 -34

سعيد بن أبي هند عن أبيه عن ابن عباس – رضي الله عنهما – : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس ، الصحّة و الفراغ "[1].

الرابع : ترك المراء و الجدال و مناقشة النّاس في الكلام ، فذلك فيه إيذاء للمخاطب وتجهيل له و طعن فيه ، و فيه ثناء على النّفس و تزكية لها بمزيد الفطنة و العلم ، ثم هو مشوش للعيّش فإنّه لا يماري سفيها إلاّ و يؤذيه و لا يماري حليما إلا و يقليه و يحقد عليه ، و لا ينبغي للسّالك أن يخدعه الشيطان و يقول له أظهر الحق و لا تداهن فيه ، فإنّ للشيطان أدبا يستجرّ الحمقى إلى الشرّ في معرض الخير ، فلا يكن ضُحكة للشيطان فيسخر منه . و للنصيحة صفة وهيئة ، و يُحتاج فيها إلى تلطف ، و إلاّ صارت فضيحة وكان فسادها أكثر من صلاحها ، ومن خالط متفقهة العصر غلب على طبعه المراء و الجدال ، و عسر عليه الصمت . إنّ خطر اللسان عظيم و لا نجاة من خطره إلا بالصمت فلذلك مدح الشرّع الصمت و حثّ عليه [2].

الخامس : تزكية النّفس ، فليحذر من أن يتعود السّالك ذلك ، و ليعلم أنّ ذلك ينقص من قدره عند النّاس و يوجب مقته عند الله تعالى ، فإذا أراد أن يعرف أن ثناءه على نفسه لا يزيد في قدره عند غيره ، فلينظر إلى أقرانه إذا أثنوا على أنفسهم بالفضل و الجاه و المال كيف يستنكره قلبه عليهم و يستثقله طبعه ! و كيف يذمّهم عليه إذا فارقهم! فليعلم أنّهم أيضا في حال تزكيته لنفسه يذمونه في قلوبهم ناجزا ، و سيظهرونه بألسنتهم إذا فارقهم .

السّادس : اللعن ، فليحذر السّالك من أن يلعن شيئا مما خلق الله تعالى من حيوان أو طعام أو إنسان بعينه ، و لا يقطع بشهادته على أحد من أهل القبلة بشرك أو كفر أو نفاق ، فإنّ المطلع على السّرائر هو الله تعالى ، فلا يدخل بين العباد و بين الله تعالى ، و ليعلم أنّه يوم القيامة لا يقال له : لِم لَم تلعن فلانا و لم سكتّ عنه ؟! بل لو لم يعلن إبليس طول عمره و لم يشغل لسانه بذكره لم يُسأل عنه و لم يطالب به يوم القيامة ، و إذا لعن أحدا من خلق الله تعالى طولب به ، ولا يذمّ

[1]– عبد الله بن المبارك – كتاب الزهد ، دط ، دار ابن خلدون ، الإسكندرية ، مصر ، دت : ص07

[2]– الغزالي أبو حامد – إحياء علوم الدين : ج3ص 98

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شيئا ممّا خلق الله تعالى ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يذم الطعام الرديء قط ، بل كان إذا اشتهى شيئا أكله و إلاّ تركه .

السّابع : الدعاء على الخلق ، فليحفظ سالك طريق الحق لسانه عن الدعاء على أحد من خلق الله تعالى ، و إن ظلمه فليكل أمره إلى الله تعالى .

الثامن : المزاح و السخرية و الاستهزاء بالنّاس ، كما على السّالك أن يحفظ لسانه منه في الجد و الهزل ، فإنّه يريق ماء الوجه ، و يسقط المهابة ، و يؤذي القلوب ، وهو مبدأ اللجاج و الغضب ، و يغرس الحقد في القلوب ، فلا يمازح أحدا ، فإن مازحوه فلا يجبهم و ليعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، وليكن من الذين إذا مروا باللغو مروا كراما .

فهذه مجامع آفات اللسان ، و لا يعين السّالك عليها إلا العزلة أو ملازمة الصمت إلّا بقدر الضرورة ، والعزلة هذه التي يراها السنوسي ليست لجميع الناس ، إنّما هي لازمة في حق من لم يحتاج إلى غيره في ضرورة علم نافع و نحوه ، و لم يحتاج إليه هو أيضا في ذلك ، أمّا إن وجد أحد الأمرين تعيّن على هذا الشخص الاحتياط فيمن يخالط لذلك بمقدار الضرورة ، وتحتمت العزلة عموما فيما فضل عن ذلك ، و لينو السّالك بعزلته سلامته هو خصوصا ، و سلامة النّاس عموما من شرّ نفسه لا الترفع عن مخالطتهم [1] .

ب /حفظ العين و آدابها :

العين سهم قاتل تجلب للقلب و الجوارح كل فتنة ، فيجب غضّها عن المحرمات وعن كل ما يخشى أن تجرّ إليها من المباحات ، و بالجملة فليغضها و ليحفظها عن كل ما لا يغنيه النظر إليه امتثالا لقوله تعالى : { **قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** } [2] فأدّب سبحانه و تعالى من هذه الآية بالأمر ،

[1]- السنوسي — المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 531- 532

[2]- النور الآية30

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ونبّه على المصلحة في ذلك بقوله : " ذلك أزكى لهم" أي أطهر لقلوبهم من الفتن و وساوس الشيطان ، أو أنمى لمصالحهم و أعمالهم وهدد بقوله " **إن الله خبير بما يصنعون**"[1]. لأن العين إنما خلقت للإنسان ليهتدي بها في الظلمات ، ويستعين بها في الحاجات وينظر بها إلى عجائب ملكوت الأرض و السموات ، ويعتبر بما فيها من الآيات [2].

وآداب العين حفظها عن أربع :

- أن ينظر بها إلى غير محرم .
- أو إلى صورة حسنة بشهوة نفس .
- أو ينظر بها إلى مسلم بعين الاحتقار والسخرية .
- أو يطلع بها على عيب مسلم.

ج / حفظ الأذن و آدابها :

يدعو الإمام السنوسي إلى وجوب صيانة الأذن عن سماع كل قبيح أو ما يؤول إلى القبيح، بل ينبغي أن تصان عن كل ما لا يعني الإنسان ، و إن لم يكن قبيحا لأنّ قوله عليه الصّلاة والسلام " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه "[3] عامّ في جميع أعضاء الإنسان الظاهرة والباطنة ، و أمّا صيانة الأذن عن المباحات فلأنّها تؤثر في القلب وساوس و خواطر مشغلة له عن الحضور في فرضه و نفله ، و لا يأمن أن تحمله على بلية يهلك بها في دينه أو دنياه ، و ينبغي أيضا أن يعزّ هذا السّمع و يعظمه و يصونه حتى لا يسمع به إلاّ أحسن القول[4].

و من آداب الأذن أن يحفظها السّالك عن أن يصغي بها إلى البدعة أو الغيبة أو الفحش أو الخوض في الباطل أو ذكر مساوئ الناس ، فإنّما خلقت للإنسان ليسمع بها كلام الله تعالى ،

1- النور الآية 30

2- السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 532

3- رواه الترمذي ،كتاب الزهد عن رسول الله ،باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس، رقم (2239) .

4- السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد: ص 533- 534

وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و حكمة أوليائه ، و يتوصل باستفادة العلم بها إلى الملك المقيم و النعيم الدائم في جوار رب العالمين ، فإذا أصغى بها إلى شيء من المكاره صار ما كان له عليه ، و انقلب ما كان سبب فوزه سبب هلاكه و هذا غاية الخسران ، و لا يظن أنّ الإثم يختص به القائل دون المستمع .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

د / حفظ اليد و الرجل و الفرج :

و أمّا اليد و الرجل و الفرج فالأمر فيها عند السنوسي ظاهر و معاصيها و مالا يعني فيها تابع لسائر الأعضاء التي ذكرت سلفا . و الفرج فيحفظه السّالك عن كل ما حرم الله تعالى وليكن كما قال الله :{ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ }[1].و لا يصل السّالك إلى حفظ الفرج إلا بحفظ العين عن النظر ، و حفظ القلب عن التفكر ، و حفظ البطن عن الشبهة و عن الشبع ، فإن هذه محركات للشهوة و مغارسها.

و أمّا اليدان فيلحفظهما السّالك عن أن يضرب بهما مسلما ، أو يتناول بهما مالا حراما ، أو يؤذي بهما أحدا من الخلق ، أو يخون بهما في أمانة أو وديعة ، أو يكتب بهما ما لا يجوز النطق به ، فإنّ القلم أحد اللسانين فليحفظ القلم عما يجب حفظ اللسان عنه .

و أمّا الرِجلان : فليحفظهما عن أن يمشي بهما إلى حرام ، أو يسعى بهما إلى باب سلطان ظالم ، فإن المشي إلى السلاطين الظلمة من غير ضرورة إرهاق و معصية كبيرة ، و تواضع وإكرام لهم على ظلمهم ، و قد أمر الله تعالى بالإعراض عنهم في قوله تعالى: (وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ)[2]، و هو تكثير لسوادهم ، و إنّ ذلك سبب لطلب ماهم فهو سعي إلى حرام ، و هذا في الغني الصالح فما ظنك بالغني الظالم ، و على الجملة فحركات السالك وسكناته بأعضائه نعمة من نعم الله تعالى عليه فلا يحرك شيئا منها في معصية الله تعالى أصلا ،

[1]- المومنون الآية 5-7

[2]- هود الآية 113

وليستعملها في طاعته .و ليعلم السالك أيضا أنّه إن قصّر وفرّط فعليه وباله ، وإن شمّر فإليه تعود ثمرته ، والله غني عنه وعن عمله ، وإنما كل نفس بما كسبت رهينة [1] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هـ / حفظ البطن :

لقد دلّ على أنّ شهوة البطن من أعظم المهلكات لابن آدم ، إذ أنّه بسببها أخرج آدم عليه السلام وحوّاء من دار القرار إلى دار الذلّ و الافتقار ؛ إذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما ، و من هنا أعتبر على أنّه ينبوع الشهوات و منبت الأدواء الآفات [2].

وحفظ البطن هو عند الإمام أشق الأعضاء إصلاحا على المجتهد ، و أكثرها مؤونة وشغلا، و أعظمها أثرا و ضررا لأنّه المعدن و المنبع ، و منه تهيج الأمور في الأعضاء ، من قوة وضعف ، و عفة ، و جماع ، و نحوه ، فتعين إذا على السّالك أن يصرف إليه وجه اعتنائه واجتهاده فيصونه عن الحرام و الشبهة أوّلا ، ثم فضول الحلال ثانيا ، إذ كانت له همة في عبادة الله تعالى [3].

أمّا الحرام و الشبهات فتحذر منها لآفات مهلكات ذكرها " الغزالي " ملخصها كالتالي : دخول النار ، ذلك أن أكل الحرام و الشبهة مطرود لا يوفق للعبادة إذ لا يصلح لخدمة الله تعالى على وجهها إلّا كل طاهر مطهّر ، كما أن آكل الحرام و الشبهة محروم ، و إن أنفق له فعل خير فهو مردود عليه غير مقبول ، فإذا لا يكون له من ذلك إلا العناء والكد وشغل الوقت [4] .

---

[1]- الغزالي أبو حامد – بدية الهداية : ص 75

[2]- الغزالي أبو حامد – إحياء علوم الدين :ج03 ص73

[3]- السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 534

[4]- الغزالي أبو حامد – إحياء علوم الدين : ج03 ص91

و أمّا فضول الحلال فإنّه آفة العباد و بلية أهل الاجتهاد -كما نقل السنوسي عن "الغزالي" و له فيها آفات منها : قسوة القلب و ذهاب نوره ، الثانية : فتنة الأعضاء و هيجانها وانبعاثها للفضول والفساد ، الثالثة : قلة الفهم و العلم فإنّ البطنة تذهب الفطنة ، الرابعة : قلة العبادة لثقل الأعضاء وكثرة النوم ، و لقد قيل أنّها إذا كنت بطنا فعدّ نفسك زمنا ، الخامسة : فقد حلاوة العبادة ، السادسة : خطر الوقوع في الحرام و الشّبهة ، لأنّ الحلال لا يأتيك إلا قوتا ، السّابعة : كثرة تشغل القلب و البدن ، بتحصيله أولا ، ثم بتهيئته ثانيا ، ثم بأكله ثالثا ، ثم بإفراغه و تخلص البطن منه رابعا ، ثم بالسلامة من آفاته و علله الدينية و الدنيوية خامسا ، و كل واحد من هذه يطلب زمانا طويلا ، و معاناة ، الثامنة : شدة سكرات الموت روى في الأخبار إن شدة سكرات الموت على قدر لذات الحياة ، التّاسعة : نقصان الثواب في القبر فإنّه بقدر ما يؤخذ من لذات الحياة الدنيا ينقص له من ثواب الآخرة ، العاشرة : الحبس و طول الموقف في عظائم تلك الأهوال والحساب قال تعالى: { ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ }[1] "[2].

فهذه مجمل ممّا ينبغي أن يحفظ السّالك عنها جوارحه الظاهرة ، و أعمال هذه الجوارح إنما تترشح من صفات القلب ، فإن أراد السّالك حفظ الجوارح فعليه بتطهير القلب فهو تقوى الباطن ، و القلب هو المضغة التي إذا صلحت صلح بها سائر الجسد ، و إذا فسدت فسد بها سائر الجسد ، فليشتغل بإصلاحه لتصلح به جوارحه ، و صلاحه يكون بملازمة المراقبة والمجاهدة و التزام مقام الحزن .

[1]- التكاثر الآية 08

[2]- السنوسي - المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 534-537

الفصـــل الـــخامس

الولاية و الكرامة و المكاشفة و الرؤى

المبحث الأول : مفهوم الولاية و شروط الولي عند السنوسي .

المبحث الثاني : الكرامة و أقسامها و حكمها باعتبار الجواز و الوقوع .

المبحث الثالث : المكاشفة و الرؤى و شروط اعتبارهما .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تـــمـــهـــيــد :

إن أعلى مرتبة يصل إليها الإنسان عند المتصوفة لتحقيق الكمال الروحـــي ، هـــي أن يصير الإنسان السّالك على طريق الحق وليا لله تعالى ليكون الحق تعالى وليا له ، فإذا وصل العبد إلى هذه الدرجة فحينئذ تنثال عليه العطايا الإلهية ، و يحظى بالمعارف القدسية و التجليات الربانية، ولا عجب في ذلك ، فالولاية هي العلامة الكبرى على القرب و الوصول ، و الثمرة الطيبة بعد السفر الطويل عبر مراحل الطريق الصوفي ، و لقد أطال الصوفية الكلام فيها و أسهبوا في ذكـــر حقائقها و دقائقها ، فكانت لهم تلك المباحث المبسوطة المفصلة ، و العبارات القصار الموحيـــة ، التي قلّما تخلو منها أمهات كتب حكماء الأمة .

و من هنا كان لازما علينا أن نتوقف في هذا المقام عند مسألة الولاية لنحددّ حقيقتـــها وما يتعلق بها من قضايا ، و مسائل ؛ كالكرامة و المكاشفة ، و الرؤى ، لارتباطها بالولاية عنـــد السنوسي ، و لأنّها أيضا من حظوظ الأولياء عنده ، لا سيّما و قد تناولها الإمام بـــشيء مـــن التحليل في أكثر من كتاب من كتبه .

و لذلك سنتناول هذا الفصل من خلال ثلاثة مباحث و هي :

الأوّل : مفهوم الولاية ، و شروط الولي عند السنوسي .

الثاني : الكرامة ، و أقسامها ، و حكمها باعتبار الجواز والوقوع و ما يتعلق بذلك .

الثالث : المكاشفة ، و الرؤى ، و شروط اعتبارهما .

و فيما يلي تفصيل القول في تلك المسائل .

المبحث الأول :

مفهوم الولاية و شروط الولي

إذا كانت الولاية هي العلامة الكبرى على القرب و الوصول ، والثمرة الطيبة بعد السفر الطويل عبر مراحل الطريق الصوفي ، فما هي حقيقتها عند السنوسي ؟ و من هو الولي ؟ وما هي شروطه ؟

أولا : مفهوم الولاية .

إنّ كلمات الصوفية تتفرد بمعانيها المستقلة التي يتعارف أهل الطريق عليها . بحيث يمكن القول بشكل عام ، أنّه لا يشترط وجود علاقة ضرورية حتمية بين اللفظ و مدلوله ، و إنّما توجد العديد من الحقول الدلالية التي – كما يقول فقهاء اللغة و علمائها – تتنوع المعاني وفقا لها بين التعريف المعجمي ، و المعنى الأسلوبي ، و الدلالة الاصطلاحية الموحية ، و هذا الحكم يصدق على معظم ألفاظ الصوفية ، و من بينها لفظ الولاية [1].

و للولاية في معاجم اللغة تعريفات عديدة منها : " الولاية : من الولي ، و هو القرب ، فهي قرابة حكّمية حاصلة من العتق ، أو من الموالاة . و هي قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه. و [هي أيضا]: تنفيذ القول على الغير ، شاء الغير أو أبى . و الولي : فعيل ، بمعنى : الفاعل ، و هو من توالت طاعته من غير أن يتخللها عصيان ، أو بمعنى : المفعول ، فهو من يتوالى عليه إحسان الله و أفضاله . و الولي ، هو العارف بالله و صفاته بحسب ما يمكن المواظب على الطاعات ، المجتنب عن المعاصي ، المعرض عن الانهماك في اللذات و الشهوات "[2].

---

[1]- يوسف زيدان – الطريق الصوفي : 119-120

[2]- الجرجاني – التعريفات : ص329

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و في سياق الآيات القرآنية وردت الولاية عشرات المرات ، لتعني ولاية أهل الحق فيما بينهم ، و فيما بينهم و بين الله . و لتعني أيضا الولاية بين الكافرين و المنافقين بعضهم لبعض و بينهم و بين الشيطان الذي تولاهم . و مما جاء في القرآن الكريم عن الولاية قوله سبحانه وتعالى :{ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [1]. وقوله تعالى :{ اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }[2] .

و من أوائل من تكلموا عن مفهوم الولاية و الأولياء عند الصوفية الإمام الحافظ الحكيم " الترمذي"[3] في كتابه " ختم الأولياء " فهو من كبار أهل التصوف الذين عنوا بتحديد هذا المفهوم بكل دقة ، و لعلّه أول من فرّق هذه التفرقة الذّوقية بين أولياء حق الله ، و أولياء الله فبرغم أنّ كلاهما داخل في دائرة الولاية لله ، إلّا أنّ ولي حق الله : هو القائم برعاية الحقوق وحفظ الجوارح و جهاد النفس فـ " هم أولياء الله يسيرون إلى الله تعالى في مراتبهم ، فيحلون بها و يتنسّمون روح القرب ، و يعيشون في فسحة التوحيد و الخروج عن رقّ النّفس ، قد ألزموا المراتب ، فلا يشتغلون بشيء إلّا بما أذن لهم فيه من الأعمال "[4]. أمّا ولي الله فهو الذي " فتح الطريق له الطريق إليه ، أشرق النّور في صدره ، فأصاب روح الطريق ، فوجد قوة ، فقوى على الرفض ، حتى مهر في الطريق ، وحذق بصرا بالسّير إلى الله تعالى "[5].

---

[1]- يونس الآية 62-64

[2]- البقرة الآية 257

[3]- الترمذي محمد بن علي بن الحسن أبو عبد الله ، صحب أبو تراب النخشبي ، ويحي الجلاء ، و هو من كبار مشايخ القوم مستقيم الطريقة توفى 320هـ . انظر ، الأصفهاني أبو نعيم - حلية الأولياء : ج 10 ص 218-219

[4]- الترمذي محمد بن علي – ختم الأولياء ، تحقيق أحمد عبد الرحيم السايح و توفيق علي وهبة ، ط 1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر ، 1426هـ/ 2005 م : ص 148

[5]- المصدر نفسه : ص 137- 138 . و عبد الفتاح عبد الله بركة - الحكيم الترمذي و نظريته في الولاية ، دط ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، لبنان ، دت : ج2ص 110

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كذلك فقد كان " الترمذي " من أوائل من وضع ذلك التقسيم الرباعي لطبقات الأولياء ، و هو التقسيم الذي ارتضاه الصوفية من بعده ، و تناوله كل منهم تناولا خاصا ، و هذه الطبقات الأربع للأولياء هي : طبقة الصّادقين ، و طبقة الصّدقين ، و طبقة المقربين ، وطبقة المنفردين ، و لهذه الطبقات علامات و دلائل ، راح الحكيم يفصلها في معظم مؤلفاته التي تقرب من الثلاثين كتابا و رسالة ليس من بينها مؤلف واحد يخلوا من التعرض للولاية و إنّ أشهر هذه المؤلفات جميعا هو كتابه ختم الأولياء [1]. كما أنّ الأولياء يتفاوتون في قربهم من الله تعالى ، وعلو منزلهم عند ربهم و في كراماتهم بحسب قوة إيمانهم و تقواهم ، و كمال موافقتهم لربهم و نبيهم فيما يحبان و يكرهان .

هذا و قد توقف الإمام السنوسي عند حقائق الولاية و أشار إليها مرارا في كتبه و شروحه و من خلال هذا المجموع من آثار الإمام يمكننا تحديد نظرته للولاية و الأولياء .

يذهب الإمام السنوسي مذهب المحققين في تعريفه لحقيقة الولي ، فهو عنده : " العارف بالله تعالى و صفاته المواظب على الطاعات المجتنب المعاصي ، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات " [2]. و هذا التعريف الذي اختاره السنوسي للولي كرره في أكثر من كتاب له ، و هو تعريف يصرح أنّه نقله عن "التفتازاني ". ممّا يفيد أنّ الولي عنده هو العارف بالله وصفاته .

إنّ الولاية الحقيقية عند الإمام لا تكون إلا بتفريغ القلب من حبّ الدنيا و شهواتها ، وامتلاؤه بحب الله و معرفته ، و على قدر تخلص القلب من تعلقاته بزخارف الدنيا و مشاغلها يزداد الولي لله حبا ، و له توجها و مراقبة و معرفة ، و لهذا اعتبر العارفون الزهد وسيلة الولي للوصول إلى الله تعالى ، و شرطا لنيل حبه و رضاه و قربه .

هذا وقد سمعه تلميذه " الملالي " يقول في شأن الولي :" إنّ الولي الحقيقي هو الذي لو كشف له عن الجنات و ما فيها من الحور العين و الولدان ، وغير ذلك ، ما التفت إلى شيء من

[1]- يوسف زيدان - الطريق الصوفي : ص120-121

[2]- السنوسي - شرح العقيدة الوسطى : ص289 . و المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص 375-376

ذلك ، و لا مال إليه بالكلية ، و مهما سكن إلى شيء من ذلك ، و ركن إليه فقد ركن إلى غير الله .. ثم قال له : " هذا هو العارف الحقيقي " [1].

فهذا هو زهد الولي عند السنوسي ، و هو زهد حقيقي ، زهد في الدارين الأولى والأخرى ، فإن وصل العبد إلى هذا المقام ، فقد وضع قدمه في أول درجة من زهد الأولياء العارفين ، و ثمرة هذا الزهد هو التمكن من إيقاع الواجبات على وجهها ، و التحصّن من الوقوع في شبكة المحرّمات بأسرها ، و ثمرة الزهد الأخرى ، هي استنارة القلب بالحِكم ، و تعاون الأعضاء على العبادة ، وكثرة قيمة العمل ، و مضاعفة ثوابه ، و عظم قدره ، و شرف محاله [2] . فأصل الولاية الإيمان و التقوى و شرطها الموافقة التّامة في الحب و البغض و الموالاة و المعادة و متابعة الرسول في كل ما جاء به ، و دعا إليه من أصول العقائد و العبادات و الآداب و الأخلاق [3].

و من علامات الولي أيضا ، عند الإمام ، " أنك إذا رأيته ذكرت الله ، لأنه لا تقع رؤيتك منه إلا على مذكّر بالله سايق بدلالة الحال و المقال إلى عظيم رضاه ، فهو [عالم] تتضمن صحبته هذه المصالح النفيسة و غيرها مما لا يقدر على حصره ، و لهذا وجب على المؤمن المحتاج للتعلّم [و سلوك طريق الحق] أن يبحث عليه غاية البحث ، و إذا وجده فقد اتصل بمناه فليشدّ بيده عليه ، و لا يتخطاه إلى غيره " [4].

كما أنّ بداية الأولياء العارفين عند الإمام السنوسي تكون بتنقية الباطن من العقائد الفاسدة ، و الذهن من الأفكار الباطلة و التصورات المنحرفة ، و أمّا حالهم المتوسطة فتكون بالتنّزه في جلال مولانا سبحانه و تعالى وكمالاته ، و الترقي فيها إلى أن يشرفوا على العجز من

1- الملالي – المواهب القدسية في المناقب السنوسية : لوحة102 ص 204
2- السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص547
3- أبو بكر جابر الجزائري – عقيدة المؤمن ، ط1 ، مكتبة العلوم و الحكم ، القاهرة ، مصر ، 1423هـ/2002م : ص 135
4- السنوسي – المنهج السديد : ص 465

كثرتها و عدم النهاية فيها ، و أمّا نهايتهم فهي العجز عن الإحاطة و الفناء في عظيم كبريائه جل و عز [1].

و أهمية المراقبة للولي أساسية ، ترجع في كون أنّ لزومها له توجب خمود النّفس بالكلية ، وحضور القلب و نفي الخواطر و الهواجس و تضبط معه الجوارح و الأنفاس فلا تقع في المعاصي، وتبتعد نفسه بها عن الغفلة في حركاته و سكناته شعورا باطلاع الله تعالى على ظاهره و باطنه . ولهذا " من راقب الله تعالى في كفه عن كل ما نهاه عنه ، و اقتصر في الأعمال على الفرائض ، وما تكمل به سننها و فضائلها ، فقد بلغ الغاية في الولاية و الاجتهاد في الطاعة ، و إن قلت صلاته ، و صيامه ، و ذكره اللساني ، و قيامه بالليل " [2] .

و بالجملة فإنّ الولي الحقيقي عند السنوسي صاحب معرفة ذوقية صحيحة ، قائمة على المعرفة الرسمية التي أنتجتها البراهين العقلية و الشرعية ، إذ علامة صحة الذوق[3] عند الإمام أن يجري على وفق ما شهد به العلم الرسمي[4]. و قد هلك بعدم مراعاتها خلق كثير ، ذلك أنّ بعض السالكين في طريق المعرفة الذّوقية إذا لاح لهم شيء من روائح هذه المعرفة اغتروا بذلك ، و تركوا الإقتداء بالرسول عليه الصلاة و السلام و تبدعوا أمورا لأنفسهم ، فهلكوا بسبب ذلك [5] ، و لذلك فإنّ أولياء الله معرفتهم أصعب من معرفة الله تعالى ، فإنّه تعالى معروف بكماله و جماله ، و متى تعرف مخلوقا مثلك ، يأكل كما تأكل ، و يشرب كما تشرب ، يقول " ابن عطاء الله " نقلا عن شيوخه : " إذا أراد الله أن يعرفك بولي طوى عنك وجود بشريته " [6] .

1- السنوسي – شرح حديث التسبيح ، مخطوط ملحق بالمواهب القدسية للملالي : لوحة 211ص 422

2- السنوسي – المنهج السديد : ص 471

3- يرى المتصوفة أنّ العلوم المكتسبة عن طريق النظر مشوبة بأحكام الوهم، وغير خالصة من التأثيرات الداخلية والخارجية" . عبد الوهاب فرحات – سيدي أبو الحسن الشاذلي ، حياته ، مدرسته في التصوف ، ط1 ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، مصر ، 2003 م : ص 143

4- السنوسي – شرح أبيات في التصوف لألبيري : لوحة 251ص 502

5- السنوسي – شرح أبيات التطهر بماء الغيب : لوحة 245ص490

6- زين الدين زكرياء بن محمد الأحمد – أضواء البهجة في أسرار الحدائق المنفرجة، مخطوط ، المكتبة الوطنية ضمن مجموع 2396 لوحة 12 ص 24

ثانيا : شــــروط الولي .

لمّا كان الولي هو العارف بالله تعالى و صفاته ، المواظب علـــى الطاعـــات المجتنـــب المعاصي ، المعرض عن الانهماك في اللذات و الشهوات . و حتى يمكن التفريق بينه و بين مـــدّعي الولاية لزم أن يكون لـــه شروطا عند السنوسي يعرف بها ، و هي أربعة [1] :

أولها : أن يكون عارفا بأصول الدين حتى يفرّق بين الخلق و الخـــالق و بـــين النبّـــي والمدّعي. و المقصود بأصول الدين علم العقيدة الإسلامية ، فهـــو قاعـــدة العلـــوم الـــشرعية ، وأساسها، و عليه بناؤها ، و منه اقتباسها ، فالمعرفة الشّاملة و الحقيقة المطلقة همـــا معرفـــة الله وأفعاله و مخلوقاته من حيث هي أفعاله و مخلوقاته ، و الذي يتفرّع عنها علم التّوحيد الذي قال عنه أنّ " من أراد الله به خيرا عرّفه مراشده و فتح له في معرفته هذا العلم الذي هـــو أفـــضل [العلوم] و أوجبها و أول ما يشغل به كلّ موفق " [2] .

الثاني : أن يكون عالما بأحكام الشريعة ، نقلا و فهما ليكتفي بنظره عـــن التقليـــد في الأحكام الشرعية ، كما اكتفى عن ذلك في أصول التوحيد . فلو أذهب الله تعالى علماء أهـــل الأرض لوجِد عنده ما كان عندهم ، و لأقام قواعد الإسلام من أولها إلى آخرها ، فإنّه لا يفهـــم من قولنا ولي الله إلّا النّاصر لدين الله ، و ذلك ممتنع في حق من لا يحيط علما بدين الله ، قواعده و أصوله و فروعه .

و يلاحظ أنّ الشرط الأول الذي ذكره السنوسي يتعلق بالتوحيد ، بينما الشرط الثاني يتعلق بأحكام الشريعة نقلا و فهما فمن أخذ هذين العلمين عن التقليد فلن يـــصل إلى درجـــة الولاية عند السنوسي .

1- السنوسي – شرح العقيدة الوسطى : ص 293-294 . و المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص377

2 – السنوسي – شرح العقيدة الوسطى : ص 42

أمّا الشرط الثالث : أن يتعلق الولي بالخلق المحمود الذي يدل عليه الشرّع و العقل . فأمّا ما يدل عليه الشرّع فالورع عن المحرمات ، و امتثال جميع المأمورات . و أمّا ما يدل عليه العقل فهو ما يثمره العلم بأصول الدين ، و هو أنّه إذا علِم حدوث العالم بأسره ، لم يتعلق قلبه بشيء منه خوفا و لا طمعا لعلمه أنّه في قبضة الله سبحانه ، و إذا علم الوحدانية أخلص لله تعالى في سائر أعماله ، إذ الربوبية لا تحتمل الشركة في شيء ، و إذا علم أنّ القدر سابق بكل ما هو كائن، لم يخف فوت شيء مما قدر و لم يرجع نيل شيء مما لم يقدر عليه ، و هذا هو المعبر عنه بالرضا ، و خرج من ذلك الرفق بالخلقِ ، و الصفح عنهم عند إذايتهم له ، لعلمه أنّهم لا يستطيعون لأنفسهم – فضلا عن غيرهم – دفع ضر و لا جلب نفع .

و يلاحظ في هذا الشرط ضرورة اتصاف الولي بالأخلاق الحسنة بحيث يجب على الولي العارف أن يتحلى بفضائل حميدة كالحياء ، و الصبر ، و التواضع ، و التعفّف ، و الرفق ، و اللطف ، و عدم الاحتقار و عدم العنف ، و يتأكد في حقه حسن الأدب بقدر الإمكان ، وجماع ذلك الورع عن المحرمات ، و امتثال جميع المأمورات .

و أمّا الرابع : أن يلازمه الخوف أبدا سرمدا ، و لا يجد لطمأنينة النّفس سبيلا ، فإنّه لا يحيط علما بأنّه من فريق السعادة في الأزل ، أو من فريق الشقاوة ، ثم ينظر في أسباب الشقاوة وآماراتها فيجدها منحصرة في المخالفات ، فهو يخاف الوقوع فيها و يجتنبها ، و هذا هو المعبر عنه بالورع ، و ما حصل له من المواقف فهو يخاف زوالها بأضدادها حتى يخاف أن يبدل علمه وفهمه إلى الشّك و الجهل ، و كذا يخاف أن يطالبه بارئه بالقيام بشكره فيما أنعم عليه فلا يطيق ذلك ، وكذا يخاف أن تخدعه نفسه ، فيحصل في عمله ما يفسده و يحبطه من الرّياء و السمعة والعجب ، وكذا يخاف من توجه حقوق عليه للآدميين تنقل له أعماله إلى صحائفهم ، وهذه أحوالهم و تفاوتهم على حسب الحضور مع الله في أبواب القربات ، وأعمال الخيرات ، والله يرزق من يشاء بغير حساب[1] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]– المصدر السابق : ص 378

فمن شروط الولي عند السنوسي الخوف الشديد من الله تعالى ، الذي يدفعه إلى التواضع لله تعالى و لعباده ، و ذلك بالمواظبة على استعمال خلق المتواضعين ذاكرا عقوبة الله تعالى لصاحب الكبر و مقته له ، وحرمانه من كل خير دنيا و أخرى ، لعلمه أنّ الله تعالى مطلع على ضميره ، و مشرف على ظاهره و باطنه و محيط بجميع لحظاته و خطراته و خطواته ، و سائر سكناته وحركاته ، و أنّه في مخالطته وخلواته متردد بين يديه فلا يسكن ، ولا يتحرك ، إلاّ وجبار السّماوات و الأرض مطلع عليه يعلم خائنة الأعين و ما تخفي الصدور ، و يعلم السّر و أخفى [1] .

هذه شروط أربعة واجبة في حق الولي عند السنوسي أكّد عليها ، و كرّر ذكرها في أكثر من كتاب له ، و الملاحظ عند الإمام أنّه بهذا قد جعل الولاية حقا بمقدور كل إنسان الوصول إليها ، لكنّها مرهونة بكمال مقدار عبادة الإنسان و طاعته لربه ، و من قبل بكمال معرفته و إيمانه و حينئذ يصبح أهلا لأن يكون ممن حقق أقصى درجات القرب في علاقته مع الله ، إضافة إلى أنّها من جهة أخرى منحة إلهية و ربانية من الله تعالى .

و قد اعتبر الإمام السنوسي بعد عرضه للشروط الواجبة في حق الولي أنّ هذا المقام إنّما تقوم بدايته و تتأسس على التوحيد الخالص لله قال : " و نحن إلى هذا المقام مقام أولياء الله تعالى، وخاص حضرته على ساحل التمني ، نغترف من بحر التوحيد و العرفان الذي خاضوا لجحه ، وغابوا فيه بقدر الإمكان ، و نعترف لهم بأنّ ما هم فيه من درجة العليان ، أو ما يقرب منها فوق ما الكثير عليه من درجة البرهان " [2].

و يرى تلميذه " الملّالي " أنّ الله تعالى قد خصّ شيخه السنوسي بهذه الشروط الأربعة ، وزاد عليها زيادة لا يمكن وصفها ، و منحه سبحانه و تعالى معارف ربانية و علوما لدينه ، وأنوارا إلهية ؛ فهو نجم العلم و قمر التوحيد يهتدي في ليله ، و شمس المعارف يستضيء في نهاره أولئك حزب الله ، ألّا إنّ حزب الله هم الغالبون [3].

---

[1]- الغزالي – الأربعين في أصول الدين : ص122

[2]- السنوسي – شرح العقيدة الوسطى : ص295

[3]- الملالي – المواهب القدسية في المناقب السنوسية : لوحة 59 ص 118

ثالثا: الولاية والوصول إلى درجة النبوة .

لو أردنا صياغة هذا العنوان على صورة الاستفهام فإنّنا نقول إذا كانت الولاية هي معرفة الله تعالى وصفاته ، فهل يمكن أن يصل الولي في ولايته إلى درجة النبوة أم لا ؟

إنّ هذه المسألة شغلت الفكر الصوفي منذ ظهور الصوفية ؛ حتى اعتبرت بعد ذلك من مباحث أصول الدين و العقيدة ، لأنّها تمثل أساسا من الأسس التي على ضوء الاختلاف عليها تعددت المذاهب و الاتجاهات . فـ" النبوة هي العلم بالله عز و جل على كشف الغطاء و على اطلاع أسرار الغيب ، و هي بصر نافذ في الأشياء المستورة بنور الله تعالى التام "[1] .

الحقيقة أنّه لما رأى الجهال تعظيم أهل الطريق للأولياء اتهموهم بأنّهم يرفعون الولي لمرتبة فوق النبّي ، و كانت هذه التهمة تلاحق العديد من أقطاب التصوف ، و قد كان موقف الإمام السنوسي من الرابطة بين الولاية و النبوة واضحا في جملته و تفصيلاته فهو يؤكد على أنّ الولاية هي ظل النبوة و أنّ الأولياء الكبار الخلص أصحاب الأسرار إنّما نالوا ما نالوه من كونهم قد أشرفوا على عتبة الأنبياء ، أمّا كون الأولياء قد اختصّوا ببعض الإشارات و حضوا ببعض الكرامات التي هي من جنس معجزات الأنبياء فذلك لأنّهم ورثة الأنبياء ، أمّا أن يصل الولي إلى درجة النبوة فمحال و هذا بإجماع المسلمين .

و لا يعتدّ – عند السنوسي – بقول بعض " الكرامية " المبتدعة أنّ الولي قد يبلغ درجة النبّي ! فأعلى مقام يناله التقي هو الولاية و لهذا قيل : " أول مقامات النبوة ، تحتها أعلى درجات مقامات الولاية ، و قالوا نسبة ما قسم بين الأولياء كلهم من المراتب و الكمالات إلى ما أعطي للأنبياء عليهم الصلاة و السلام كنسبة رشح من زِقّ مملوء عسلا إلى ما في داخل الزِقّ من العسل "[2].

---

[1]- الترمذي محمد بن علي- ختم الأولياء : ص 171

[2]- السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص381

و قد أجمع المسلمون أيضا على أنّ النبي أفضل من الولي قال : " لأنّ النبي جمع بين مرتبة الولاية و مرتبة النبوءة ، و لا يعتدّ بقول بعض " الباطنية " ، أنّ الولاية أفضل من النبوءة " [1]. إلّا أنّه يلاحظ أنّ الإمام السنوسي يتردد كما تردد غيره من العلماء في أن نبوءة النّبي أفضل من ولايته : " فمن قائل بالأول لما في النبوءة من معنى الوساطة بين الجانبين [أي بين الله تعالى و عباده] و القيام بمصالح الخلق في الدارين ، مع شرف مشاهدة الملك ، و من قائل إلى الثاني لما في الولاية من معنى القرب و الاختصاص الذي يكون في النّبي في غاية الكمال ، بخلاف ولاية غير النّبي " [2] .

و في فضل النبوة على الولاية يرى الإمام أنّ النبوة " اصطفاء الله تعالى عبدا من عباده بالوحي إليه " [3] . فمن يردّه فهو كافر ، أمّا الولي فهو العارف بالله تعالى و صفاته المواظب على الطاعات المجتنب المعاصي ، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات ، وكرامته ظهور أمر خارق للعادة من قبله غير مقارن لدعوة النبوة [4]. فمن رده لم يكفر و إنّما يخيب و يحرم من بركة أهل الله و أحبائه كذلك فالأنبياء هم مصادر الحق أمّا الأولياء فهم مظاهر الصّدق .

و ثمّة فارق مهم يفصل بين الولاية و النبوة ، يتعلق بالعصمة فقد تعرض الإمام لهذه النقطة مرارا ، فـ" النّبي مع ما حاز من شرف الولاية أنّه معصوم من المعاصي ، مأمون من سوء العاقبة بحكم النصوص القاطعة ، مشرف بالوحي و مشاهدة الملك ، مبعوث لإصلاح حال العالم و نظام أمر المعاش و المعاد ، إلى غير ذلك من الكمالات " [5] . فالعصمة للأنبياء وحدهم ، فهم المعصومون من الهوى و بقية الخلق لم يعصم منها ، غير أنّ الأولياء يحفظون عن الهوى .

و لم يتفرّد الإمام السنوسي بهذا الرأي القائل بعدم عصمة الولي بل اجتمع على هذا القول سائر الصوفية الكبار الذين أكدوا على أنّ الأولياء متنعمون بعناية مولاهم و لكنّهم مع

1- المصدر السابق : ص381
2- المصدر السابق : ص381- 382
3- المصدر السابق :ص 314
4- السنوسي – شرح العقيدة الوسطى : ص 279
5- السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد :ص 381

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ذلك غير معصومين . يقول " القشيري " في المسألة : " فإن قيل فهل يكون الولي معصوما ، قيل إمّا وجوبا كما يقال في الأنبياء فلا ، و إمّا أن يكون محفوظا حتى لا يصرّ على الذنوب فلا يمتنع ذلك "[1] .

هذا و قد وصف أهل الولاية بصفتين ، الأولى حق خلعه الله عليهم تشريفا و تكريما تسمى الكرامة ، و الثانية باطل توهمه أعداء التصوف و وسموا به أهل الطريق ، و هو القول بإسقاط التّكاليف الشرعية بعد الوصول . و نبدأ هنا بالصفة الثانية على أن نتطرق للأولى لاحقا .

يجمع الصوفية – و من بينهم السنوسي – على أنّ الولاية و لو تناهت لا يسقط معها تكاليف الشرع [2]. غير أنّ " الباطنية " و أهل الإلحاد كما يذكر الإمام يذهبون " إلى أنّ الولي إذا بلغ الغاية في المحبة و صفاء القلب و كمال الإخلاص ، سقط عنه الأمر و النهي ، و لم يضرّه حينئذ الذنب ، و لا يدخل النّار بارتكاب الكبيرة ، و هذا كفر لا محالة ، إذ لا معنى للولي إلّا مظهر تصرف النّبي في الخلق بالحق " [3] .

فالقول بإسقاط التّكاليف الشرعية بعد الوصول بدعة لم يعرفها أهل الطريق الصوفي ، أجمع علماء الإسلام على بدعية القائلين بها لأنّ الشرّع لم يأتي بها من جهة ، و لأنّ أكمل النّاس في المحبة و الإخلاص ، هم الأنبياء عليهم السلام ، سيّما حبيب الله تعالى سيدنا و مولانا محمد صلى الله عليه و سلم – مع أنّ التكاليف في حقهم أتمّ و أكمل حتى أنّهم يعاتبون لأدنى زلة بل بترك الأفضل – ، لم تسقط في حقهم التكاليف فكيف بغيرهم من الناس[4]!

هذا و قد آثارت مسألة عصمة الولي أهل المغرب ، و انقسموا حولها إلى فريقين قول رأى أنّ الولي محال أن يعصي الله ، و رأي آخر يرى أنّ الولي يعصي الله ، فاجتمع النّاس و أتوا

[1]- القشيري – الرسالة القشيرية : ص 530
[2]- السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد :ص 382
[3]- السنوسي – شرح العقيدة الوسطى :ص 296
[4]- السنوسي – المنهج السديد :ص 382

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بها إلى " محمد بن خليل السكوني الإشبيلي " [1] ، و رضيا بحكمه في المسألة و قيل له : من أخطأ من هؤلاء ، و من أصاب ؟ فقال " كلاهما أخطأ الصواب ، و ذلك أنّ الخطيب قد ألحق الـولي بمنزلة الأنبياء في العصمة ، و الخصم الآخر قد حكم أنّ الولي ، يعصي في حالة الولاية و كلاهما على خطأ ، لأنّ الله تعالى لا يوالي الفاسقين ، فخرج من المسألة ، أنّ الولي يجوز أن يعـصي الله فإذا وقع منه هذا الجائز لم يطلق حينئذ عليه أنّه ولي ! " [2] .

و معنى هذا أنّ الخطأ في حق الأولياء جائز الوقوع ، و لا عصمة إلّا للأنبيـاء علـيهم السّلام ، فوقوعهم في الخطأ و المعصية يرفع عنهم صفة الولاية ، و لا يعود لهم هذا الوصف إلّـا بالتوبة و الرجوع إلى الحق ، و هذا بخلاف و صف النبوة فهو ملازم للأنبياء لا ينفك عنهم أبدا لأنّها من الله اصطفاء .

و مع هذا فقد ذكر – كما نقل السنوسي عن " التفتازاني "– أنّ هناك من الأولياء من سأل الله تعالى أن يسقط عنه التّكاليف الشرعية ، و سأله الإنعتاق عن ظواهر العبادات ، فأجابه إلى ذلك بأن سلبه العقل الذي هو مناط التكليف ، مع علو رتبته في الولايـة و ذلـك " بـأنّ العارف لا يسأم من العبادة ، و لا يفتّر في الطاعة و لا يسأل الهبوط من أوج الكمال إلى حضيض النقصان ، و الترول من معارج الملك إلى منازل الحيوان ، بل ربّما يحصل لـه كمال الإنجـذاب إلى عالم القدس و الاستغراق في ملاحظة جانب الحق ، فيذهل عن هذا العالم ، و يخلّ بالتكاليف من غير تأثم بذلك ، لكونه في حكم غير المكلف كالنائم ، وذلك لعجزه عن مراعـاة الأمـرين وملاحظة الجانبين ، فربّما يسأل دوام تلك الحالة ، و عدم العودة إلى عالم الظاهر ، و هذا الذهول هو الجنون الذي ربّما يرجح على بعض العقول ، و المتسمون به هم المتسِمون بالمجانين العقلاء .

[1]– أبو عبدالله محمد بن خليل السكوني الاشبيلي نزيل تونس ولد في القرن السابع الهجري من مؤلفاته منظومة الضرير في التوحيد ، وأربعون مسألة في أصول الدين . انظر ، مقدمة محقق كتاب : أربعون مسألة في أصول الدين ، للسكوني محمد بن خليل الإشبيلي ، تحقيق يوسف احنانا ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، لبنان، م1993 : ص 11

[2]– السكوني محمد بن خليل – أربعون مسألة في أصول الدين :ص 65-66

و بهذا يظهر فضل الأنبياء عليهم الصّلاة و السّلام علـــى الأوليـــاء ؛ فـــإنّهم مـــع أنّ استغراقهم أكمل ، و انجذابهم أشمل ، لا يخلون بأدنى طاعة و لا يذهلون عن هذا الجانب ساعة ؛ لأنّ قواهم القدسية من الكمال بحيث لا يشغلها شاغل عن ذلك الجانب ، و لهذا يعاتبون علـــى أدنى ذهول عن الأولى في مراتب الصواب "[1] .

و بالجملة فإنّ الولي الحقيقي عند السنوسي ، مهما بلغ وصوله في القرب من الله تعالى لا يمكن أن تسقط عنه التكاليف الشرعية التي لم يحدث أن أسقطت عن أقرب الخلق إلى الله تعالى و هم الأنبياء .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]- السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد :ص 382- 383

المبحث الثاني :

الكرامة و أقسامها و حكمها باعتبار الجواز والوقوع

من المعلوم في العقيدة الإسلامية أنّ المعجزات أمور ممكنة عقلا ، خارقة لمجرى العادات الكونية ، مرافقة لمعنى النبوة ، و مقرونة بالتحدّي المصرح به على لسان الرسول ، أو المفهوم من قرائن أحواله . و لكنّ هنالك أمورا من خوارق العادات غير مقرونة بالتحدي و لا بدعوى النّبوة؛ يجريها الله على يد بعض الصالحين من أتباع الرسول ، الملتزمين لأحكام شريعة الله ، من غير شذوذ و لا مخالفة ، إكراما من الله لهم ، و ذلك كشاهد مستمر على إمكان معجزات الأنبياء التي جرت في أزمانهم كما أنّها تأكيد و تأييد لرسالة الرسول ، باعتبار أنّ الله أجراها على يد صالح من صلحاء أمته ، و تابع من أتباعه ، و يسمي هذا النّوع من خوارق العادات بالكرامات و من المهم أن نتوقف عند مسألة الكرامة لارتباطها بالولاية عند السنوسي ، و لأنّها أيضا من حظوظ الأولياء .

أولا : مفهوم الكرامة .

حقيقة الكرامة عند الإمام السنوسي كما أورده في كتابه " الحقائق " هي : " أمر خارق للعادة غير مقرون بالتحدي مع المعارضة يدعيها الولي و توافق دعواه " [1] . و الفرق بينها وبين غيرها هو " أنّ الكرامة هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النّبوة ، فما لا يكون مقرونا بالإيمان و العمل الصالح يكون استدراجا ، و ما يكون مقرونا بدعوى النبوة يكون معجزة " [2].

[1]- السنوسي – الحقائق في علم الكلام ، مخطوط ، مكتبة الحرم النبوي ، المدينة المنورة : ص 11

[2]- الجرجاني – التعريفات : ص235- 236

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و بملاحظة واقع حال هذه الكرامات ، نرى أنّها في الغالب تكون بمستويات أقل من مستويات المعجزات كما أنّها في الغالب تكون بصورة ليس لها صفة الظهور للجماهير الكثيرة ، أو الانتشار العام بين عموم النّاس . و بهذه الفروق و القيود نعلم أنّ الكرامات لا تلتبس بالمعجزات و لا تشتبه بها ، لأنّه ليس كل أمر خارق للعادة يثبت نبوة أو رسالة لمن أجراه الله على يديه ، إلاّ أن يكون هذا الخارق للعادة مرافقا لدعوى النبوة و مقرونا بالتحدي .

إذا عرفنا ممّا سبق معنى الكرامة و حقيقتها ، فنقول على وجه التساؤل هل هناك ما يمنع من وقوع الكرامات للأولياء و الصالحين ؟ ثم إذا لم يكن هناك ما يمنع من وقوعها ، فهل هي واقعة أو لا ؟

و نجيب على هذا التساؤل من النّاحيتين [1] :

النّاحية الأولى : إذا عرفنا أنّ الكرامة من الأمور الممكنة عقلا [2]، و أنّ كل ما هو ممكن عقلا يجوز بالنظر إلى ذاته أن تتناوله قدرة الخالق العظيم بالخلق و الإيجاد ، لحكمة يعلمها هو ، نعلم يقينا أنّه لا حجر على الله تعالى و هو الفعّال لما يريد في أن يكرم من يشاء من خلقه بما يشاء من صور الإكرام .

و كما أنّ بعض النّاس يكرمهم الله في مجرى العادات بمنحة العلم ، أو القوة الجسمانية ، أو الرياسة أو السيادة ، أو المال و البنين ، فكذلك لا حجر عليه سبحانه في أن يكرم بعض عباده بأن يجري على أيديهم بعض خوارق العادات ، و قد تكون بعض المنح الربانية الأخرى أفضل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]ـ عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني– العقيدة الإسلامية وأسسها ، ط8، دار القلم ، دمشق ، سوريا ، 1418هـ/1997م : ص 347- 349

[2]ـ قال الكلاباذي : أجمع – أي العلماء من أهل السنة –على إثبات كرامة الأولياء . انظر ، الكلاباذي – التعرف لمذهب أهل التصوف : ص 90 . وقال السكوني :كرامات الأولياء عند أهل السنة جائزة لأنها مقدورات الله تعالى ، و من نظر بعين بصيرة فالكرامة إنما هي إجابة دعوة و إسعاف حاجة فما ينفيها إلا معتزلي أو جاهل . انظر ، السكوني- أربعون مسألة في أصول الدين : ص 67 . ويقول التادلي : اعلم أن كرامات الأولياء جائزة عقلا و معلومة قطعا . انظر ، ابن الزيات التادلي – التشوف إلى رجال التصوف : ص 54

و أجل من الإكرام ببعض الخوارق . ألا نرى أن الله سبحانه جعل من مكافأة المتقين مثلا : أن يفتح لهم آفاق العلم و يجعل لهم فرقانا و بصيرة يفرقون بها بين الحق و الباطل في قوله عز وجل : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }[1]. و أن يجعل لهم مخرجا و يرزقهم من حيث لا يحتسبون ، في قوله تعالى: { وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ }[2].

كما جعل من مكافأة الذين ينصرون دينه النصر والتأييد و السيادة في الأرض و ذلك بتهيئة الأسباب ، و دفع الموانع و إلقاء الرعب في قلب العدو ، و ذلك في مثل سورة محمد :{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ }[3]. و قوله تعالى في سورة القصص :{ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ،وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ }[4] . و أشباه ذلك كثيرة في إكرامات الله سبحانه . و بهذا الدليل نعلم أنّ الكرامات جائزة الوقوع ، و أنّه لا مانع من أن يجريها الله على يد بعض الصالحين من عباده إكراما لهم و تأييدا للرسول الذين هم من أتباعه .

النّاحية الثانية : و إذا ثبت لدينا أنّ الكرامات ممكنة عقلا ، و لا مانع من وقوعها حق لنا أن نتساءل عن ثبوت وقوعها بالفعل : هل ثبت وقوع الكرامات بطريق يقيني قاطع ، أو لم يثبت ؟

و نجيب على هذا التساؤل بما يلي : أولا إن صورا كثيرة من الكرامات قد أثبتها القرآن الكريم . و ثانيا إن أمثلة منها قد أثبتتها أحاديث الرسول الصحيحة التي تعطي بمجموعها تواترا بالمعنى مثبتا وقوع الكرامات للصالحين بوجه عام . و ثالثا إن أمثلة أخرى منها وردت في آثار كثيرة عن الصحابة و التابعين و غيرهم لا داعي لإنكارها بوجه عام على أنّه متى ظهرت أمارات

[1]- الأنفال الآية 29
[2]- الطلاق الآية 02- 03
[3]- محمد الآية 07
[4]- القصص الآية 05- 06

الصدق في طريق روايتها سلمنا بها ما لم يكن موضوع الكرامة المنسوبة لشخص ما يتضمن مخالفة لظاهر الشرع ، أو التغاضي عن المعاصي و المنكرات ، أو الرضا بتعطيل أحكام الله أو نحو ذلك فإن تضمنت شيئا من ذلك رفضناها رفضا باتا بل هي ليست بكرامة في حقيقتها و إنّما هي إن صحت ضلالة من ضلالات الشياطين [1].

كما أنّ كل كرامة تظهر على يد ولي فهي بعينها معجزة للنبي إن كان الولي في معاملاته تابعا لذلك النّبي فكل ما يظهر فيها فهو دليل على صدق صاحب الشريعة ، فلا تكون الكرامات قادحة في المعجزات ، بل هي مؤيدة لها دالة عليها راجعة عنها عائدة إليها [2] .

و أمّا الفرق بين الكرامة و السحر فإنّ السنوسي يفرق بينهما تفريقا واضحا فيقول : " أنّ الكرامة ظهور الخارق على يد عبد ظاهر الصلاح ، بخلاف السحر ؛ فإنّ الخارق فيه إنّما يظهر على أيد الكفرة و الفسّاق " [3].

ثانيا : أقسام الكرامات .

إذا عرفنا ممّا سبق معنى الكرامة و حقيقتها ، و أنّه ليس هناك ما يمنع من وقوع الكرامات للأولياء و الصالحين فإنّها عند المتصوفة أقسام و أنواع ، فهي تنقسم عندهم إلى قسمين:كرامات ظاهرة حسية كطيّ الأرض ، و المشي على الماء ، و الطيران في الهواء ، و الإطلاع على كوائن كانت ، و كوائن بعد لم تكن من غير طريق العادة ، و تكثير الطعام أو الشراب ، أو إتيان بثمرة في غير إبانها ، أو إنباع ماء من غير حفر ، أو تسخير لحيونات عادية ، و إجابة دعوة بإتيان مطر في غير وقته ، أو صبر على الغذاء مدة تخرج عن طور العادة ، أو إثمار شجرة يابسة ليس عادتها أن تكون مثمرة ، و هذه كلها كرامات ظاهرة حسية .

---

[1]- عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني– العقيدة الإسلامية وأسسها : ص 349

[2]- ابن الزيات التادلي – التشوف إلى رجال التصوف : ص 55

[3]- السنوسي – عمدة أهل التوفيق والتسديد : ص 358

و كرامات هي عند الله أفضل من الكرامة الحسية و أجل و هي : الكرامات المعنوية ؛ كالمعرفة بالله ، و الخشية منه ، و دوام المراقبة لـه ، و المسارعة لامتثال أمره ، أو نهيه ، و الرّسوخ في اليقين و القوة و التمكين ، و دوام المتابعة و الاستماع من الله تعالى ، و الفهم عنه، و دوام الثقة به ، و صرف التوكل عليه إلى غير ذلك [1] .

وقد جاء عن " أبي العباس المرسي " شيخ " ابن عطاء الله " أنّه قال : " الطيّ على قسمين : طيّ أصغر ، و طيّ أكبر ، فالطيّ الأصغر لعامة هذه الطائفة ؛ أن تطوى لهم الأرض من مشرقها إلى مغربها في نفس واحد ، و الطيّ الأكبر : طيّ النّفوس ، و صدق رضى الله عنه ، فإنّ طيّ الأرض لو أعجزك الله عنه و أفقدك إيّاه ما نقص ذلك من مرتبتك عنده إذا قمت لـه بأوصاف الوفاء في العبودية ، و طيّ أوصاف النّفوس لو لم تقدم عليه به لكنت من المعتوبين وحشرت في زمرة الغافلين " [2] .

و قال الشيخ " أبو الحسن الشاذلي " – رضي الله عنه – : " إنّما هي كرامتان جامعتان محيطتان ، كرامة الإيمان بمزيد الإتقان ، و شهود العيان ، و كرامة العمل على الإقتداء والمتابعة ، و مجانبة الدعاوي و المخادعة ، فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مفتر الكذب ، أو ذو خطأ في العمل و العمل بالصواب ، كمن أكرمه بشهود الملك على نعت ، فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب ، و خلع الرضا ، و كل كرامة لا يصاحبها الرّضا عن الله و من الله فصاحبها مستدرج مغرور و ناقص ، أو هالك مبتور" [3] .

و يقرب من هذا الكلام كلام " أبي عبد الله الشهرستاني " ، فإنّه لما ذكر أنّ كرامات الأولياء جائزة عقلا و واردة سمعا قال : "و من أعظم كرامات الله تعالى تيسير أسباب الخير وإجراؤها على أيديهم ، و تعسير أسباب الشرّ عليهم ، و حيث ما كان التيسير أكثر كانت

[1]– ابن عطاء الله السكندري – لطائف المنن : ص 39

[2]– المصدر نفسه : ص40

[3]– الملالي – المواهب القدسية في المناقب السنوسية : لوحة60ص120

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الكرامات أوفر" [1]. ثم قال إثر هذا : " قال الله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم } [2] ولاية ، وليت شعري ، أيّ كرامة تزيد على نيل الفرقان بين الحق و الباطل ، و سبيل النجاة والهداية " [3].
و الكرامة عند " عبد القادر الجيلاني " تكون : " بإجابة دعوة ، و تمام حال ، و قوة فعل ، و كفاية مؤنة يقوم لهم الحق بها ، و هي مما تخرج عن العادات " [4]. و يقول أيضا : " الكرامة في تقوى الله و المهابة في معصيته" [5] . و يقول " القيشري" : " و اعلم أنّ أجلّ الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعات و العصمة من المخالفات " [6] .

إذن فالمتصوفة مجمعون على أنّ أجلّ الكرامات و أرفعها مترلة ما أدت و وفقت العبد إلى الإقتداء و المتابعة ، و مجانبة الدعاوي و المخادعة ،كما أنّ الولي الحقيقي صاحب الكرامة لا يستأنس بالكرامات الحسّية الظاهرة ، بل يتضاعف خوفه و خشيته من الله، فيزداد تذللا ، و خضوعا ، و طاعة ، و شكرا له ، مخافة أن تكون من قبيل الاستدراج .

وقد تابع السنوسي هؤلاء المتصوفة في تقسيمهم للكرمات ، و علل قول من أنكر الكرامة من أهل السنة بأنّه لما كثر المدعون لها في أزمنتهم ممن ليس من أهل الولاية قال : " و لعلّه إنّما أنكرها من أنكرها منهم لما كثر المدّعون لها في أزمنتهم ممن ليس من أهل الولاية ، كثر أهل البدع و الدجاجلة الفتّانون للجهلة بالحيل و التمويهات ، أو ما هو قبيل الابتلاء أو الاستدرجات فأرادوا سدّ بدعتهم ، و فتنهم للعوام بحصر الكرامة في إتباع الكتاب والسنة ، و السلف الصالح ، لا غير ذلك ، و لا خفاء أنّه من الحسن أن تحدث للنّاس أقضية بقدر ما أحدثوا من البدع والفجور " [7] .

[1]- الشهرستاني – الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد الكيلاني ، طبعة دار المفردة ، بيروت ، لبنان ، 1404هـ : ج1 ص 93
[2]- الأنفال الآية 29
[3]- الشهرستاني – الملل والنحل: ج1 ص95
[4]- الجيلاني عبد القادر – الفتح الرباني والفيض الرحماني : ص 90
[5]- المصدر نفسه : ص 131
[6]- القيشري – الرسالة القشيرية : ص 160
[7]- السنوسي – المنهج السديد في شرح كفاية المريد : ص380

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثالثا : الكرامة و اطلاع أولياء الله تعالى على بعض الغيب .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من المسائل المتعلقة بكرامة الأولياء اطلاع الله تعالى لهم على بعض الغيوب ، و هي مسألة تناولها السنوسي بالدراسة كما تناولها غيره من الصوفية و مبنى هذا الأمر قائم في قوله تعالى: { عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً } [1]. فإذا عرفنا ممّا سبق معنى الكرامة و حقيقتها ، و أقسامها فنقول على وجه التساؤل هل هناك ما يمنع من اطلاع أولياء الله تعالى على بعض الغيوب ؟

تقرير هذه المسألة عند الإمام السنوسي أنّ اطلاع أولياء الله تعالى على بعض الغيوب لا يحيله العقل ، و قد ورد به النقل فقد ورد أنّ أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- قال لعائشة – رضي الله عنها – في مرض موته وزوجته حامل : " إنّما هما أخواك و بطن بنت خارجة أراها جارية " [2] ، فأخبرها أنّ ما في بطن امرأته جارية ، و كان كما قال رضي الله عنه . و قول عمر -رضي الله عنه -:" يا سارية الجبل "[3]، و سارية بأقصى العراق فسمع سارية صوته ، وكان قد أطلعه الله على سارية ، وقد أحاط به العدو ، فأمره الله بالانحياز على الجبل ، فانحاز هو و الجيشين الذين معه ، و انتصروا و ظهروا ، وكان ذلك و هو في أثناء خطبته على المنبر فترك الخطبة و قال :" يا سارية الجبل" و عاد إلى خطبته ، فجاء بعض الصحابة إلى عليّ -رضي الله عنه – فقال له : " بينما عمر يخطب إذ ترك الخطبة و قال يا سارية الجبل . ثم عاد إلى خطبته . فقال علي : " ويلكم دعو عمر فإنّه ما دخل في شيء إلاّ كان له مخرج عنه " فبعد ذلك قدم سارية ، و أخبر عن ذلك اليوم أنّه سمع نداء عمر في الوقت الذي نادى فيه . و قول عثمان – رضي الله عنه – لداخل دخل عليه ، و كان قد نظر إلى محاسن امرأة في الطريق : " يدخل أحدهم و آثار الزنا بادية عليه في وجهه " [4] .

---

[1]- الجن الآية 26-27

[2]- أخرجه مالك (2189) كتاب الأقضية ، باب : ما لا يجوز من النحل .

[3]- السنوسي – شرح العقيدة الوسطى : ص291

[4]- ابن القيم الجوزية - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين ، تحقيق محمد حامد الفقي ، ط2، طبعة دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان، 1393هـ /1973م :ج2 ص486

و حكاية الأولياء في كل زمن و قطر ، تتضمن ثبوت ذلك بما بلغ حد التواتر فلا يمكن جحده . قال " ابن عطاء الله " : " ثم أنا أدلك - رحمك الله - على أمر يسهل عليك التصديق بذلك و هو أنّ اطلاع العبد المخصوص على غيب من غيوب الله ليس بجسمانية و لا وجود صورة ، و إنّما هو نور الحق فيه . و دليل ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " اتّقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله تعالى "[1] . فكيف يستغرب أن يطلع مؤمن على غيب من غيوب الله تعالى بعد أن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه إنّما ينظر بنور ربه لا بوجود نفسه ..فإن قلت كيف نصنع بهذه الآية و هي قوله تعالى : { عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً }[2]. فلم يستثن أحدا إلاّ الرسول فاعلم أني سمعت شيخنا " أبا العباس " -رضي الله عنه - يقول :" وفي معناها : " صديق أو ولي "[3] .

فإن قلت هذه زيادة على ما تضمنه الكتاب العزيز ، فاعلم أنّه إذا قيل : " إنّ السلطان لم يأذن إلا للوزير وحده ، ربما دخل مماليك الوزير معه ، و كان الإذن لمتبوعهم إذنا لهم ؛ كذلك الولي إذا أطلعه الله على غيب من غيوبه ، فإنّما ذلك لانطوائه في جاه النبوة ، و قيامه بصدق المتابعة ، فما رأى ذلك بنفسه إنّما رآها بنور متبوعة ، و أيضا إنّ الآية تشير إلى نفسي اطلاع العباد على غيب الله إلّا من أطلعه الله ، و بيّن سبحانه و تعالى سبب اطلاعه على غيب من غيوبه ، و إنّما كان برضى الله سبحانه وتعالى : " إِلَّا مَنِ ارْتَضَى " و قوله : " مِن رَّسُولٍ " خصّ الرسول بالذكر و لم يذكر النّبي و لا الصّديق و لا الولي ، و إنّ كلا منهم ممن ارتضى لأنّ الرسول أولى بذلك مما سواه "[4].

أمّا السنوسي فقد أجاب عن الآية بأجوبة حسنة و كان له رأي آخر نحى فيه منحى كلامي عقدي أكثر منه صوفي ، و نصّه في " شرحه لعقيدته الوسطى " و في أنّ المراد بـ" الغيب

[1]- الحديث رواه الترمذي في سننه كتاب التفسير : باب من سورة الحجر .
[2]- الجن الآية 26-27
[3]- ابن عطاء السكندري – لطائف المنن : ص 39
[4]- المصدر نفسه : ص 39-41

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هنا عاما بل مطلقا أو معينا ، و هو وقت وقوع القيامة بقرينة السياق ، و ما يبعد أن يطلع عليه بعض الرسل من الملائكة و من البشر فيصحّ الاستثناء ، و إن جعل منقطعا فلا خفاء ، بل لامتناع حينئذ في جعل الغيب للعموم ، لكون اسم الجنس المضاف بمنزلة المعرف بـــ: " اللام " لا سيّما وقد كان في الأصل مصدرا ، أو يكون لسلب العموم ، أي لا يطلع على غيبه أحد ، و هـــو لا ينافي اطلاع البعض على البعض ، و كذا لا إشكال إن خصّ الاطلاع بطريق الوحي ، و بالجملة فالاستدلال مبنى على أنّ الكلام لعموم السّلب و هو ليس بلازم "[1] .

هذا و قد أورد " الملّالي" كلاما آخر للشيخ السنوسي رآه مكتوبا بخط الإمام في معنى ما تقدم من الاطلاع على بعض المغيبات أوضح مما سبق ، و نصه : " ممّا يدلّ على أنّ الصادر من بعض الأولياء من المبشرين بالجنّة ليس مخالفا للسنّة لصدور مثل ذلك من متبوعيهم الذين إنّمـــا شرفوا بالتزام الاقتداء بسيدنا و نبينا و مولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنّه عليـــه الـــصلاة والسلام قد بشر جماعة من الصحابة بدخول الجنة ، وكان ذلك من معجزاته صـــلى الله عليـــه وسلم، من جهة أنّ أولئك الذين أخبروا بدخولهم الجنة و فّقوا للإيمان و للزوم الأعمال الصالحات إلى الممات ، و قد ثبت من قول أهل السنّة أنّ كل ما صح معجزة لنبي جاز أن يكـــون كرامـــة لوليّ، و إذا جاز أن يطلع الوليّ على عاقبة أمره عند جماعة من المحققين ، جاز أن يطّلع على عاقبة غيره أحرى ، و إنّما كان أحرى لسلامته من مفسدة ، من مكر الله التي لأجلها منع بعضهم من اطلاع الولي على عاقبة نفسه ، و إن كان الذي علل به غير مسلم ، لأنّ الصحابة الذين أطلعهم النبي صلى الله عليه وسلم على عاقبة أمرهم ، من الفوز برضوان الله تعالى ، و دخول دار كرامته لم يوجب لهم ذلك أمنا ، بل كانوا مع ذلك أشّد الناس خوفا ، و أكثرهم اجتهادا في طاعة المولى تبارك و تعالى "[2] . و هذا من جهة أولى .

و من جهة ثانية : " لو كان في اطلاع الولي على عاقبة أمره مفسدة دينية ؛ لما أخـــبر النبي صلى الله عليه وسلم أحدا من الصحابة رضي الله عنهم بعاقبة أمره ، لأنّ ذلك عين ما منع منه القائل ، إذا عرفت أنّ التحقيق جواز اطلاع الولي على عاقبة أمره ، عرفت مـــن جـــواز

[1]- السنوسي – شرح العقيدة الوسطى :ص 292-293

[2]- الملالي – المواهب القدسية في المناقب السنوسية : لوحة 45 ص 89

اطلاعه على عاقبة أمر غيره أحرى ، إذ لا مفسدة تتوهم في هذا القسم أصلا ، فإن قلت المفسدة في هذا القسم واقعة ، من جهة الاطلاع الولي على غيره أنّه من أهل الجنة قد يوجب لـــه اتكاله على ذلك المقال ، و زهده في الأعمال و انشغاله بالبطالة في الأقوال و الأفعـــال لعـــدم أهليتـــه للاطلاع على هذه البشارة لمن ليس أهلا لها [بناء على]- لا توتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها- والظلم مناف للولاية التي تنتهي إلى هذا القدر من الكرامة "[1] .

وممّا سبق يتبيّن لنا أنّ الإمام السنوسي يجيز اطلاع أولياء الله تعالى على بعض الغيـــوب وهو أمر لا يمنعه العقل ، و قد ورد به النّقل . و قد أثار الإمام بعد هذا التقرير السؤال التـــالي ، ومضمونه : " فإن قلت أليس السماح في مثل هذا يؤدي إلى تجاسر المخرّفين المتشبهين بالأولياء ، وليسوا منهم ، و إنّما بدافع جلب قلوب العوام بمثل هذه المقالة حبا في الشهوات و الرياسات ؟

و خلاصة جوابه على السؤال السابق ، أنّ الكلام على جواز الكرامة بالمعنى المتقـــدم يصحّ في حق الولي الحقيقي في نفس الأمر ، و أمّا معرفة عينه و التمييز بينه و بين المتشبّه الكذاب، فيحصلان بعد معرفة السنّة ، و شروط الولاية ، و أحوالها بالمخالطة السّديدة و قرائن الأحـــوال المحصلة للقطع أو الظن ، و لا يخفى بعد ذلك الصادق و حال الكاذب إن شاء الله تعالى [2] . هذا وقد اعتبر السنوسي أنّ هذا الرأي هو المذهب الصحيح الذي قال به الأئمة السابقون لأنّ ذلـــك الحكم بالجنّة أو النّار في حق من لم يخبر بذلك عنه الصّادق المصّدوق صلى الله عليه وسلم هـــو السنة .

معناه أنّ السنّة ألا يجزم أحد فيلحق أحدا بالجنّة أو النّار باعتبار النظر إلى ظاهر عمله من الطاعة أو المعصية ، إذ ذاك لا يحصل به قطع لاحتمال أمور لا تفض ، و أمّا الجزم بـــذلك مـــن طريق الكرامة للأولياء لما أطلعهم الله تعالى عليه من غرائب ملكه و ملكوته ، فليس بمراد منهم ، وإنّما أطلقوا و لم يستثنوا هذا القسم نظرا منهم إلى الغالب ، و ندور من يصل من الأولياء إلى هذه الكرامة ، بل لندور من يتصف بأصل الولاية فضلا عن الاطلاع على هذه الكرامة ، و إنّ حفظ

[1]- المصدر السابق : لوحة 45 ص 90

[2]- المصدر السابق : لوحة 46ص 91

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إجماع العلماء يمنع هذا الحكم على العموم في غير الأنبياء ، و إنّه لا فرق عند السنوسي في ذلك المنع بين الولي و غيره ، فيجب حينئذ عند الإمام أن يتأول فيما يصدر من هذا الكلام ممن عرف بالولاية بأنّه صدر منه ذلك ، و هو مغلوب مقهور بالحال مضطر للإخبار بذلك و لا تكليف على مظهر و لا انتساب فيما صدر منه [1].

و في سبيل تأكيد هذه الحقيقة عند الإمام السنوسي فإنّه أورد بشأنها التعليل الآتي أنّه : " ثبت عن بعض الأولياء ، وكان مهموما من أجل تكرر مقام من الولاية عليه ، فرأى مغنيا بشبابة فأسرع ، و جلس إليه حتى فرغ ، فرجع و قد ردّ الله تعالى عليه المقام الذي تكدر عليه ، فلامه أصحابه على ما صدر منه ، و ذكروا له حديثا للنّبي صلى الله عليه وسلم المتضمّن وعيد من جلس يسمع شبابة و إنّه يصبّ في أذنيه الأنك يوم القيامة ، فصاح عليهم و قال لهم : إنّما قال ذلك عليه الصّلاة و السّلام في حق من جلس ، لا في حق من أجلس يعني : الأول مختار مكتسب فيتناوله الوعيد ، لأنّه مكلف ، و الثاني مقهور مضطر فلا تكليف عليه ، و لا وعيد يلحقه" [2].

و الملاحظ عند الإمام أنّه بهذا قد جعل الولاية حقا بمقدور كل إنسان الوصول إليها ، لكنها مرهونة بكمال مقدار عبادة الإنسان و طاعته لربه ، و من قبل بكمال معرفته و إيمانه وحينئذ يصبح أهلا لأنّ يكون ممن حقّق أقصى درجات القرب في علاقته مع لله ، إضافة إلى أنّها من جهة أخرى منحة إلهية و ربانية من الله تعالى .

1- المصدر السابق : لوحة 46 ص 92

2- المصدر السابق : لوحة 47 ص 93

رابعا : التحدث بالكرامات .

إذا تقرر أنّ الكرامات على قسمين : كرامة حسية ، وكرامة معنوية ، و أنّ الكرامة المعنوية أفضل و أجلّ من الكرامة الظاهرة الحسية كما تقدم من كلام الشيخ "ابن عطاء الله" – رضي الله تعالى عنه – فالسنوسي كما ذكر " الملالي " قد جمع الله تعالى له بين الكرامتين . فمن كراماته الظاهرة الحسية الخارقة للعادة ما وقع لــه مع شيخ – بتلمسان – المسمى " عبد الجبار"، و كان محبا لأهل الخير ، و هو من أهل الكرم فطلب الشيخ أن يذهب معه إلى منزله من جبل بني ورنيد [1] ، ففعل وخرج إلى الصحراء لينظر في فسيح ملك الله تعالى فحانت الصلاة ، فلم يجدوا ماء ، و ذلك أوان الصيف ، و اشتدّ عليهم العطش ، و استقبل الشيخ القبلة ، و دعا . فنزلت سحابة فيها مطر كثير ، حتى شربوا و توضئوا ، و رفع المطر [2]. كما نقل عنه أنّه كل أحد من العلماء يدّعي اليوم شيئا ، – و كان من أظهر لهم الحق لا يلتفتون إليه — و لكن لا يظهر الحق إلا عند الاختبار على الصراط ، فثمّ يظهر من يجوز كالبرق على مراتب الخلق ، و أمّا اليوم فكلّ مستور بستر الله سواء في ذلك الولي و غيره".

و من كرمات الإمام استجابة دعائه عندما أصاب " الملالي " رمد شديد في عينه حتى أنّه لم يقدر على التحرك إلاّ بشقّ النّفس فضلا عن المشي فبقي أياما بمرضهما ، و الأمر يتزايد، ويتضاعف عليه ، و كان يقرأ عليه كتابا في الصّالحين قبل المرض ، فلما مرض قطع القراءة ، فصار يمشي إلى الشيخ ، و يتردد إليه لحضور مجلسه ، فجاءه يوما فجعل يده اليمنى على عينيه ، ودعا ساعة ، فما فارقها حتى وجد راحة ، و صار إذا حبس الكتاب يقرأه بحضرته ، و إذا غاب عنه لا يقدر عن النظر في الكتاب فلم يكن إلا نحو أيام فبرء و ذلك ببركة دعائه رضي الله عنه [3].

و السؤال هنا ، هل يجوز للإنسان أن يحدث مما يظهر لغيره من الكرامات على الأولياء ؟

[1]– جبل مطل على مدينة تلمسان.

[2]– الملالي — المواهب القدسية في المناقب السنوسية: لوحة 55 ص 110

[3]– المصدر نفسه : لوحة 56ص 111

الأمر عند " أحمد زروق " في إظهار الكرامة و إخفاؤها على حسب النظر لأصلها و فرعها فمن عبر من بساط إحسانه أصمتته الإساءة مع ربّه ، و من عبر من بساط إحسان الله ، لم يصمت إذا أساء و قد صحّ إظهار الكرامة من قوم ، و ثبت العمل في إخفائها من قوم كـ"أبي العباس المرسي" في الإظهار و " ابن أبي جمرة " في الإخفاء ، فدلّ أنّ طريقهما مختلف ، فبلغ ذلك الشيخ " ابن أبي جمرة" ، فقال : " و الله ما اختلفت قط طريقنا لكنه بسطه العلم و أنا قبضني الورع "[1] .

و الأمر عند السنوسي أنّه لا يجوز التحدّث بالكرامات على الأولياء إلّا بعد موت أصحابها خشية الفتنة على النّاس ، إلّا أنّه يستثنى من ذلك رجل قد شغف بحب ولي من أولياء الله تعالى فيريد أن يحدث بكل ما يراه و يسمعه من محبوبه من الكرامات ، قاصدا بذلك توقيره و معرفة حرمته و ذكره . فـ : " إذا كان الرجل على هذه الصّفة فلا عليه أن يحدث بذلك إذا علم بصحته ، و إن كانت كرامة الولي عنده في إجابة دعائه لا في غيره [2] .

وبالجملة فلا يشكّ في صحة الكرامة إلا من طمس الله بصيرته ، و أعمى قلبه ، و لم يجعل في قلبه حبا لأوليائه ، و لا تصريفا لأصفيائه ، فيما جاءوا به ، و قد قالوا : " يخشى على المكذب لهم سوء الخاتمة ".

إنّ الولي الكبير المقدار عند الله تعالى – عند السنوسي – قد لا تظهر له كرامة في حال حياته ، و إنّما تظهر له بعد موته : فـ" أول كرامة يكرمه الله تعالى بها بعد موته ، أن يغفر الله لكل من حضر جنازته ..[لأنّه] من علامة قبول الميت عند الله ، و من علامة خيره أن يكثر الخلق لحضور جنازته "[3].

[1]- أحمد زروق البرنسي – قواعد التصوف :ص 108

[2]- الملالي – المواهب القدسية في المناقب السنوسية: لوحة 47 ص 93

[3]- المصدر نفسه : لوحة 47 ص 93

و قول السنوسي : " إن الولي الكبير قد لا تظهر لـه كرامة في حياته " أشار به إلى ما ذكره الشيخ " ابن عطاء الله " في فائدة الكرامة : من أنّها تثبيت لمن أظهرت لـه : و " ربّما وجدها أهل البدايات في بداياتهم ، و فقدها أهل النهايات في نهاياتهم ، إذ ما عليه أهل النهايات من الرسوخ في اليقين ، و القوة و التمكين لا يحتاجون معه إلى تثبيت . و هكذا كان السلف رضي الله تعالى عنهم لم يحوجهم الخالق سبحانه و تعالى إلى وجود الكرامات الحسية لما أعطاهم من المعارف الغيبية ، و العلوم الإشهادية ، و لا يحتاج جبل إلى مرساة ، فالكرامة دافعة لزلزلة الشكّ في المنّة ، و معرفة بفضل الله فيمن أظهرت عليه ، و شهادة له بالاستقامة مع الله سبحانه وتعالى " [1].

و ممّا سبق نرى أنّ الكرامة من الأمور الثابتة قطعا ، و التي لا يشك بها مسلم نظر في هذه الأدلة التي أوردناها ، و في نظائرها و من ينكرها فإنّما ينكر شيئا شهدت بامكانه الأدلة العقلية و تظاهرت على إثبات وقوعه الأدلة الشرعية المتواترة من قرآن و سنة بلغت في معناها مبلغ التواتر ، و لا داعي أيضا لإنكار مفردات الكرامات متى ثبتت الحادثة بطريق صحيح .

و إذا كانت الكرامات حوادث خاصة يكرم الله بها بعض المتقين في كل عصر ، فلا يصح أن تتخذ ذريعة لإثبات أحكام شرعية أو نفيها ، فالأحكام الشرعية لها مصادرها .كما لا يصح أن تتخذ ذريعة للتفاخر أو تحصيل الأموال ، فالله سبحانه قد يكرم بالمال ، و قد يكرم بالجاه ، و قد يكرم بالعلم ، و قد يكرم ببعض خوارق العادات .

و أيضا هذه الكرامات على اختلاف أنواعها قد تكون وسيلة لتثبيت إيمان من جرت لـه ، و قد تكون امتحانا له و ابتلاء ، و قد تكون استدراجا له من الله ، فإذا استمر على معصيته بعدها ، كانت وبالا عليه و نكالا به ، و حجة عليه من الله تعالى . و لهذا لا يصحّ بحال من الأحوال الاغترار بأصحاب الكرامات إذا لم يكونوا ملتزمين بأحكام الشريعة ، متقيدين بأوامرها و نواهيها .

[1]- ابن عطاء الله السكندري – لطائف المنن : ص45

المبحث الثالث :

المكاشفة والمرائي عند السنوسي

المطلب الأول : المكــــاشفة .

المكاشفة ثمرة من ثمار الاستقامة عند الصوفية ، و ذلك أنّ للتقوى و المجاهـدة أثـر في الهداية و الإلهام ، كما أنّ للإيمان و العبادة و التقوى و مجاهدة النفس ، أثرها في تنوير العقـل، وهداية القلب ، و التوفيق إلى إصابة الحق في الأقوال ، و السداد في الأعمال ، و الخـروج مـن مضايق الاشتباه إلى باحات الوضوح ، و من اضطراب الشكّ إلى ثبات اليقين ، و لا خـلاف كذلك في أنّ يكشف الله لبعض المتقين من عباده من حقائق العلم ، و أنوار المعرفـة ، في فهـم كتابه أو سنّة نبيه ، بمحض الفيض الإلهي و الفتح الرباني ـــ ما يلهث كثيرون ليحـصلوا عليـه بالمذاكرة و التحصيل ، فلا يظفرون بما يدانيه ، بشرط أن يحصلوا الأدوات الـضرورية لفهـم العلم[1]. و لقد تقرر عند الصوفية أنّ الطريق الصوفي وسيلة للمعرفة ، لأنّه قائم على أساسا علـى مجاهدة النفس و تصفيتها من الأكدار التي هي أعظم حجاب يحول دون الكشف [2].

و لا خلاف كذلك في أن يوهب بعض النّاس من صدق الفراسة و قوتها ما يستطيع به أن يكتشف شخصية المرء يلقاه بنظرة إليه ، أو كلمة يسمعها منه ، أو يقرأ أفكاره ، أو يعـرف بعض ما يجول بنفسه . و هي موهبة فطرية لدى بعض الناس تقويها الرياضة و المجاهدة ، و تنميها تقوى الله تعالى ، و يصقلها الإيمان و اليقين بالله تعالى و بالدار الآخرة ، حتى إنّ المؤمن لتصدق فراسته ، كأنّما ينظر بنور الله ، و نطق بلسان القدر ، و بصر الغيب من وراء ستر رقيق و هذا ما يعبّر عنه كله بالكشف و المكاشفة .

---

[1]– يوسف القرضاوي – موقف الإسلام (من الإلهام و الكشف و الرؤى و التمائم و الكهانة و الرقى) ، ط1 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ،1417هـ/1996م : ص 30

[2]– ناجي حسين جودة – المعرفة الصوفية (دراسة فلسفية في مشكلات المعرفة) ، ط1 ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان، 1412هـ/1992م : ص 156

فما هي حقيقة هذا الكشف و المكاشفة ؟ وما هو موقف السنوسي من ذلك ؟

أولا : مفهوم المكاشفة :

الكشف في اللفظ و اللغة رفع الحجاب ، و هو أيضا الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية ، و الأمور الحقيقية وجودا و شهودا [1]. و المكاشفة : حضور لا ينعت بالبيان[2]. و هي قريبة المعنى من الإلهام الذي هو : " ما يلقى في الروع بطريق الفيض ". و قيل الإلهام ما وقع في القلب من علم ، و هو يدعو إلى العمل من غير استدلال بآية ، و لا نظر في حجة . و الفرق بينه و بين الإعلام أنّ الإلهام أخصّ من الإعلام لأنّه قد يكون بطريق الكسب ، و قد يكون بطريق التنبيه " [3] .

و يسبق الكشف المحاضرة لأنّها ابتداء كما أورد ذلك " القشيري " : " فالمحاضرة ابتداء ثمّ المكاشفة ، ثمّ المشاهدة ، فالمحاضرة حضور القلب و قد يكون بتواتر البرهان ، و هو بعد وراء الستر ، و إن كان حاضرا باستيلاء سلطان الذكر ثم بعده المكاشفة و هو: حضور بنعت البيان غير مفتقر في هذه الحالة إلى تأمل الدليل و تطلب السبيل و لا مستجير من دواعي الريب " [4] .

و الكشف نور ينكشف معه الحجاب المادي و الحسي ، و تتولى القلوب و الأفئدة هذا الكشف ، و تنعكس الأبصار بالبصائر ، فتمحى الأزمنة و الأمكنة ، و المسافات و لا يكون إلّا للمتقين الذين غضوا الأبصار عن المحرمات ، و كفّوا أنفسهم عن الشهوات و عمروا باطنهم بمراقبة الله ، و أكلوا الحلال فزكت أنفسهم و استنارت قلوبهم[5]. و كما قال " الغزالي " في الإحياء : " إن جلاء القلب و إبصاره يحصل بالذكر ، و الذكر باب الكشف ، و الكشف باب

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]- الجرجاني – التعريفات : ص 237

[2]- المصدر نفسه : ص 292

[3]- المصدر نفسه : ص 51- 52

[4]- القشيري – الرسالة القشيرية : ص 147

[5]- محمد رضا القهوجي – نظرات في التصوف الإسلامي ، ط1 ، دار الكلم الطيب ، دمشق ، سوريا ، 2004م : ص 178

الفوز بلقاء الله تعالى "[1]. كما أنّ الدليل القاطع على الكشف الذي لا يقدر على إنكاره أحد أمور منها عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنّه ينكشف بها الغيب ، و إذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل في اليقظة [2] .

و يقول " ابن خلدون " في هذا الأمر : " ثمّ إنّ هذه المجاهدة و الخلوة و الذكر يتبعها غالبا كشف حجاب الحس ، و الاطلاع على عوالم من أمر الله ، ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها ، و الرّوح من تلك العوالم ، و سبب هذا الكشف ، أنّ الرّوح إذا رجع عن الحسّ الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحسّ ، و قربت أحوال الرّوح ، و غلب سلطانه و تجدّد نشوؤه، و أعان على ذلك الذكر ، فإنّه كالغذاء لتنمية الرّوح ، و لا يزال في نمو و تزيد ، إلى أن يصير شهودا بعد أن كان علما . و يكشف حجاب الحسّ ، و يتّم وجود النّفس الذي لها من ذاتها ، و هو عين الإدراك ، فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية و العلوم اللدنية و الفتح الإلهي ..ثم إنّ هذا الكشف لا يكون صحيحا كاملا عندهم (أي المتصوفة) إلاّ إذا كان ناشئا عن الاستقامة " [3].

فالاستقامة على طريق الحق هو أساس الكشف ، لأنّه إذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، و أشرق النّور في القلب و انشرح الصدر ، و انكشف له سر الملكوت ، و تلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية ، فليس على العبد إلاّ الاستعداد بالتصفية المجردة و إحضار الهمّة مع الإدارة الصادقة و التعطش التام و الترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة [4] .

كما أنّ " ابن تيمية " لا يجحد كل أثر للإيمان و التقوى و المجاهدة الروحية في نفس الإنسان المسلم ، إذ تفيده نورا يبصر به في الظلمات ، و فرقانا يميّز به بين المتشابهات ، و هداية تنحل بها العقد و المشكلات ، و أنّه ليس شأن المؤمن العابد التقي المحاسب لنفسه ، المراقب لربه ،

---

[1]- الغزالي أبو حامد- إحياء علوم الدين : ج3 ص01

[2]-محمد هاشم سلطان- العقيدة و الفكر الإسلامي ، دط ، دار رحاب ، الجزائر ، 1988م : ص 146

[3]- ابن خلدون - المقدمة : ص 502-503

[4]- عبد الحليم محمود – قضية التصوف ، المدرسة الشاذلية : ص 432

المخلص في عمله و نيته ، كشأن العاصي المسرف على نفسه ، أو الغافل عن ذكر ربه ، الناسي لأمر آخرته ، إذا استويا في الذكاء و التحصيل [1].

فـ" ابن تيمية " يبيّن أنّ في قلب كل مؤمن واعظ يأمره و ينهاه بالترغيب و الترهيب مطابقا لأمر القرآن و نهيه و يقوي أحدهما الآخر ، و الإلهام في القلب يشمل الاعتقاد و العلم و الظن ، كما يشمل أيضا العمل ، و الحب ، و الإرادة ، و الطلب ، فإذا ما وقع في القلب ماهو أرجح و أصوب ، مال القلب إلى أحدهما ، دون الآخر فهذا الإلهام و الكشف ، و هو غالبا ما يكون عنده بدليل [2].

و ليس أدلّ على منهج " ابن تيمية " و موقفه في هذه القضية من نقل كلامه نفسه بنصه إذ يقول فيما نقل في مجموع فتاواه : " القلب المعمور بالتقوى إذا رجح بمجرد رأيه فهو ترجيح شرعي! فمتى ما وقع عنده و حصل في قلبه ما يظن معه أنّ هذا الأمر أو هذا الكلام أرضى لله ورسوله ، كان هذا ترجيحا بدليل شرعي ، و الذين أنكروا كون الإلهام ليس طريقا إلى الحقائق مطلقا أخطأوا ، فإذا اجتهد العبد في طاعة الله و تقواه كان ترجيحه لما رجح أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة و الموهومة ، و الظواهر و الاستصحابات الكثيرة ، التي يحتجّ بها كثير من الخائضين في المذاهب و الخلاف و أصول الفقه . وقد قال " عمر بن الخطاب " : اقربوا من أفواه المطيعين ، و اسمعوا منهم ما يقولون ، فإنّهم تنجلي لهم أمور صادقة . و قال " أبو سليمان الداراني " : إنّ القلوب إذا اجتمعت على التقوى جالت في الملكوت ، و رجعت إلى أصحابها بطرف الفوائد ، من غير أن يؤدي إليها عالم علما . و قد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " الصلاة نور ، و الصدقة برهان ، و الصبر ضياء " [3] . و من معه نور و برهان و ضياء كيف لا يعرف حقائق الأشياء من فحوى كلام أصحابها ؟ و لا سيّما الأحاديث النبوية ، فإنّه يعرف ذلك معرفة تامة ، لأنّه قاصد العمل بها ، فتتساعد في حقه هذه الأشياء مع الامتثال و محبة الله و

[1]- يوسف القرضاوي — في الطريق إلى الله (الحياة الربانية والعلم) : ص 158- 162

[2]- مصطفى حلمي — معرفة الله عز وجل وطريق الوصول إليه عند ابن تيمية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1424هـ/2004م : ص 88

[3]- رواه مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعري .كتاب الطهارة ، باب فضل الوضوء رقم 328 . و أصحاب السنن .

رسوله، حتى إنّ المحب يعرف من فحوى كلام محبوبه مراده منه تلويحا لا تصريحا ، و العين تعرف من عيني محدثها إن كان من حزبها أو من أعاديها إنارة العقل مكسوف بطوع هوى و عقل عاصي الهوى يزداد تنويرا . و في الحديث الصحيح : " لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، و بصره الذي يبصر به، و يده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها "[1] .[2]

و من كان توفيق الله له كذلك فكيف لا يكون ذا بصيرة نافذة و نفس فعالة ؟ و إذا كان الإثم و البر في صدور الخلق له تردد و جولان ، فكيف حال من الله سمعه و بصره و هو في قلبه ؟ و قد قال "ابن مسعود " : " الإثم حواز القلوب ". و قد قدمنا أنّ الكذب ريبة والصدق طمأنينة ، فالحديث الصدق تطمئن إليه النفس ، و يطمئن إليه القلب . و أيضا فإنّ الله فطر عباده على الحق ، فإذا لم تستحل الفطرة ، شاهدت الأشياء على ما هي عليه ، فأنكرت منكرها ، وعرفت معروفها ، قال عمر : الحق أبلج ، لا يخفى على فطن . فإذا كانت الفطرة مستقيمة على الحقيقة منورة بنور القرآن ، تجلّت لها الأشياء على ما هي عليه في تلك المزايا ، و انتفت عنها ظلمات الجهالات ، فرأت الأمور عيانا مع غيبها عن غيرها [3] .

و لهذا كان عمل القلب أشرف من عمل الجارحة لأنّه محل الهداية ، فإنّ غفلته عند "ابن تيمية " تمنع العبد من الدخول في حضرة الله ، أي : دائرة ولايته ، و التمتع بجمال ذاته و صفاته ، و لا مطمع للعبد في هذه الحضرة المقدسة إلاّ بالتطهر من هذه الجفاية و الإعراض عن المعاصي والشهوات " ، فإذا كان القلب معمورا بالتقوى انجلت له الأمور و انكشفت ، بخلاف القلب الخراب المظلم ، قال : "حذيفة بن اليمان ": إنّ في قلب المؤمن سراجا يزهر، و في الحديث الصحيح : " إنّ الدجال مكتوب بين عينيه كافر ، يقرأه كل مؤمن ، قارئ و غير قارئ " [4]، فدلّ على أنّ المؤمن يتبيّن له ما لا يتبيّن لغيره ، و لا سيّما في الفتن . و كلّما قوى الإيمان في

[1]- رواه البخاري في صحيحه .

[2]- ابن تيمية – مجموع الفتاوي ، جمع و ترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصي النجدي الحنبلي و ابنه محمد ، ط1 ، مطبعة الحكومة – مكة المكرّمة ، 1382 هـ : ج2 ص 42

[3]- المصدر نفسه : ج2 ص42- 43

[4]- متفق عليه من حديث حذيفة وأبي مسعود معا .

القلب قوى انكشاف الأمور لــه ، و عرف حقائقها من بواطلها ، وكلّما ضعف الإيمان ضعف الكشف ، و ذلك مثل السراج القوي و السراج الضعيف في البيت المظلم ، و لهذا قال بعض السلف في قوله : (**نور على نور**)[1] قال : هو المؤمن ينطق الحكمة المطابقة للحق و إن لم يسمع فيها بالأثر ، فإذا سمع بها بالأثر كان نورا على نور . فالإيمان الذي في قلب المؤمن يطابق نور القرآن ، فالإلهام القلبي تارة يكون من جنس القول و العلم ، و الظّن أنّ هذا القول كذب ، وأنّ هذا العمل باطل ، و هذا أرجح من هذا ، أو هذا أصوب . و في الصحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : " قد كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر"[2]..، وما قال عمر لشيء : إني لأظنه كذا وكذا إلاّ كان كما ظنّ ، وكانوا يرون أنّ السكينة تنطق على قلبه و لسانه[3]. و ذلك أنّ ولاية الصالح تدل عليه مقامه و أفعاله و أقواله و شواهد أحواله[4] .

و يزيد " ابن تيمية " الأمر إيضاحا و تفصيلا فيقول : " و أيضا فإذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن لقوة إيمانه يقينا وظنا ، فالأمور الدينية كشفها له أيّسر بطريق الأولى ، فإنّه إلى كشفها أحوج ، فالمؤمن تقع في قلبه أدلة على الأشياء لا يمكنه التعبير عنها في الغالب ، فإنّ كل أحد لا يمكنه إبانة المعاني القائمة بقلبه ، فإذا تكلم الكاذب بين يدي الصادق عرف كذبه من فحوى كلامه ، فتدخل عليه نخوة الحياء الإيماني فتمنعه البيان ، و لكن هو في نفسه قد أخذ حذره منه ، و ربّما لوّح أو صرّح به خوفا من الله ، و شفقة على خلق الله ، ليحذروا من روايته أو العمل به[5] .

و يتبيّن لنا من هذا كله أنّ موقف "ابن تيمية" من قضية الكشف و الإلهام ، هو موقف العلماء الربانين الذين جمعوا بين النورين : نور العقل و نور القلب فهو لا يجحد كل أثر للإيمان

[1]- النور الآية 35

[2]- رواه البخاري ، صحيح البخاري ، كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر : ج2ص 401 ، و مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عمر ، و الترمذي في سننه تحت رقم 3626 . و احمد في المسند تحت رقم : 8114

[3]- ابن تيمية – مجموع الفتاوي : ج2 ص 43- 45

[4]- أحمد زروق البرنسي – قواعد التصوف : ص 104-105

[5]- ابن تيمية – مجموع الفتاوي : ج2 ص45- 46

والتقوى و المجاهدة الروحية في نفس الإنسان المسلم و في الكشف و ذلك أنّه كثيرا ما ظلم شيخ الإسلام و أصحابه ، و نسب إليهم من الأفكار و المفاهيم و الاتجاهات ما لم يقولوا به و من أهم هذه المسائل قضية الكشف و الإلهام [1] .

و يختم " ابن تيمية " المسألة بقوله : أنّ " كثير من أهل الإيمان و الكشف يلقي الله في قلبه أنّ هذا الطعام حرام ، و أنّ هذا الرجل كافر ، أو فاسق ، أو ديوث ، أو لوطي ، أو خمار ، أو مغن ، أو كاذب ، من غير دليل ظاهر ، بل بما يلقي الله في قلبه . و كذلك بالعكس ، يلقي في قلبه محبة لشخص ، و أنّه من أولياء الله ، و أنّ هذا الرجل صالح ، و هذا الطعام حلال ، و هذا القول صدق ، فهذا و أمثاله لا يجوز أن يستبعد في حق أو أولياء الله المؤمنين المستقين . و قصة الخضر مع موسى هي من هذا الباب ، و أنّ الخضر علم هذه الأحوال المعينة بما أطلعه الله عليه ، وهذا باب واسع يطول بسطه ، قد نبهنا فيه على نكت شريفة تطلعك على ما وراءها " [2] .

هذا و قد كان حظ الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أوفر في المكشافات لكنّهم لم يقع لهم بها عناية و اهتمام ، و في فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم كثير منها، وهذا بسبب صدقهم و تصديقهم و صفاء سريرتهم و حبهم للرسول الله صلى الله عليه وسلم و للدين الذي جاء به .

و قبل أن نذكر شيئا عن هؤلاء الموريثين من الصحابة و من بعدهم نذكر نوعا من كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي منحه الله إياه ، على أنّ الكشف له عليه الصلاة والسّلام معجزة ، و للصحابة و الأولياء من بعده كرامة . فعن أنس رضي الله عنه قال : " أقيمت الصلاة ، فأقبل علينا رسول لله صلى الله عليه سلم بوجهه فقال : " أقيموا صفوفكم وترصوا ، فإنّي أراكم من وراء ظهري [3] . و لما كان الكشف بعيدا عن عالم ، و ينمحي أمامه

[1]- يوسف القرضاوي – في الطريق إلى الله (الحياة الربانية والعلم) : 157-158

[2]- ابن تيمية – مجموع الفتاوي : ج2 ص- 47

[3]- رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الآذان ، باب تسوية الصفوف عند الإقامة ونحوها رقم 717 : ج1ص 15 ، و النسائي ، كتاب الإقامة ، باب حث الإمام على رص الصفوف والمقاربة بينهما ، رقم 805

المقياس الزماني و المكاني لذلك كان صلى الله عليه و سلم يستوي عنده في الرؤية القرب و البعد. يقول أنس رضي الله عنه: بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم زيدا و جعفر و ابن رواحة ورفع الراية إلى زيد ، فأصيبوا جميعا ، فنعاهم رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى النّاس قبل أن يجيء الخبر ، فقال : " أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها عبد الله بن راحة فأصيب ، و إن عيني رسول الله صلى الله عليه و سلم تذرفان ، ثم أخذها خالد بن الوليد من غير إمرة ، ففتح له "[1]. قاله صلى الله عليه وسلم يوم غزوة مؤتة .

و لقد أورد " الغزالي" أمثلة من كشف العارفين و ممّا ذكر في شأنهم : أنّ صالحا قال : دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيرا عليه خرقتان ، فقلت في نفسي ، هذا و أشباهه كلّ على النّاس! فناداني و قال : " واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه "[2]. فاستغفرت الله في سرّي فناداني و قال : " وهو يقبل التوبة عن عباده "[3] . ثم غاب عني و لم أره . ثم قال عقب ذكره لبعض مكاشفات العارفين ، و ما حكي من تفرس المشايخ و إخبارهم عن اعتقادات النّاس و ضمائرهم يخرج عن الحصر ..و لا تنفع الجاحد ما لم يشاهد ذلك في نفسه و من أنكر الأصل أنكر التفصيل "[4]. و ذلك أنّ أول الطريقة عنده تبتدئ بالمكاشفات و المشاهدات[5].

أمّا الشيخ السنوسي فمكاشفاته أكثر من أن تحصى منها ما أورده " الملالي " أنّ الشيخ حدّثه في ليلة من الليالي في أواخر عمره عن تشويش الخلق قال له : " رجع ذلك الجامع- يعني المسجد – مثل المصيدة كل من جاء يحضرنا فيه ، و يشغلنا عن الأمور الضرورية ، فنرجع إن شاء الله لا نقرئ أحدا بذلك المسجد ، و لا نصلي فيه أبدا ، فقلت له يا مولاي يبقى الجامع خاليا لا

---

[1]– رواه البخاري في صحيحه في كتاب الجنائز ، باب الرجل ينعي إلى أهل الميت بنفسه رقم 1245 : ج1ص 270 ، وأحمد، المسند ، كتاب باقي مسند المكثرين ، باب مسند أنس بن مالك رقم 11671

[2]– البقرة الآية 235

[3]– الشورى الآية 25

[4]– الغزالي أبو حامد – إحياء علوم الدين : ج3 ص23- 24

[5]– الغزالي أبو حامد – المنقذ من الضلال ، ضمن قضية التصوف و المنقذ من الضلال ، عبد الحليم محمود، ط3 ، دار المعارف، مصر، دت : ص 378

يجيئون النّاس إليه إلا إذا كنت فيه [1]، و لا يجتمعون إلا عليك ، فقال لي كذا إن شاء الله أو كما قال . و أخبرني بهذا الكلام من قبل المرض الذي مرض فيه بيومين أو ثلاثة ، فوقفت على صحة قوله بعد موته ، و تعجبت من عظم مكاشفته رضي الله عنه [2].

و العجيب أنّ ما قاله الشيخ الإمام قد تحقق ، ذلك أنّ هذا المسجد بعدما كان عامرا يقصده الناس للتعلم و الصلاة ، أصبح اليوم فارغا لا يقصده النّاس لا للصلاة و لا للتعلم ، اللهمّ إلا من نفر لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة ، و بعض التلاميذ الصغار لحفظ القرآن الكريم، إذ أن المارّ بهذا الدرب – أي بدرب مسوفة بتلمسان – لا يكاد يشعر أنّه يمرّ بمسجد للصلاة ، كما أن ساحته أصبحت عامرة بالباعة .

و بالجملة فمكاشفات الشيخ كثيرة ، وكان رضي الله تعالى عنه إذا ظهر له من هذه الخوارق شيء أخفاه ، و لا يكاد يظهر منها شيء ، لأنّه كثيرا ما كان يحب الخمول في هذه المسائل و يؤثره على الظهور .

ثانيا : حقيقة المكاشفة عند السنوسي

وحقيقة المكاشفة عند الإمام السنوسي ليست بأن يقول الولي المكاشف لغيره فعلت كذا و كذا من الأعمال و يطلع على ما عنده من المواهب لأنّ هذا عنده اشتغال بغير الله تعالى ، وليس لها كبير فائدة و أهمية ، و إنّما المكاشفة الحقيقية عنده هي : " أن يكاشف عن الله و رسوله؛ بأن يفهم كلام الله تعالى ، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، و يفهم ما تضمن كل منهما من الأسرار العقلية ، و الأنوار التوحيدية ، و يفتح له في علوم غامضة ، و أفهام دقيقة ، وحقائق ربانية ، وكلما كرّر كلام الله تعالى ، وكلام رسوله صلى الله عليه و سلم ، تجددت له أفهام و أسرار ، و حكم و إشارات غير ما فهم أولا ، و هكذا لو بقي يتلو أبد الأبد ، فهذه

[1]– يقصد المسجد الذي كان يدرس فيه ، وهذا الجامع لازال قائما اليوم بمدينة تلمسان ويحمل اسمه يقع بوسط المدينة بدرب مسوفة ، ويكاد يكون خاليا من المصلين إلا من عدد قليل جدا منهم !!

[2]– الملالي – المواهب القدوسية في المناقب السنوسية : لوحة 62 ص 123

هي المكاشفة الحقيقية التي يزداد الإنسان بها معرفة ، و محبة و قربا من الله سبحانه ، هذه المكاشفة لا يعطيها الله تعالى إلاّ لخاصة أوليائه وأصفيائه " [1].

إنّ المكاشفة الحقيقية عند السنوسي ليست بأن يطلع الولي غيره بما فعله أو يراه ، لأنّ هذا السلوك عنده ضربا من البطالة ، و اشتغال بغير ما أمر به الله تعالى من التكاليف و الواجبات، و مجانبة لما دعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم من السنن ، لأنّ هذا النوع من المكاشفة يسهل أن يدعيها ممن هو ليس من أهل الولاية و الاستقامة ، فيظلّ بها كثير من خلق الله .

إنّ المكاشفة الحقيقية ارتباط بكتاب الله تعالى و سنّة نبيه صلى الله عليه وسلم ، و تكون بأن يفتح الله تعالى على العبد السالك طريق الحق ما يفهم كلام الله ، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم . و بأن يتجدد له هذا الفهم دائما و باستمرار ، فيزداد السالك بذلك معرفة بالله وحبا لرسول الله صلى الله عليه و سلم ، و هذا النوع من المكاشفة لا يتيسر لكل النّاس ، إلاّ للأولياء فقط أهل الصفاء .

و الواقع أنّ هذا النوع من المكاشفة قد خصّ به المولى تبارك و تعالى الإمام السنوسي و لم يشاركه فيها غيره في زمنه -كما نقل عن الملالي - فتجده إذا شرع في تفسير آية من كتاب الله تعالى ، أو تفسير حديث من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يبدي فيهما من بديع التأويلات ، و كثرة الاحتمالات ما لا يمكن التعبير عنه ، و لا يوجد في كثير من المطولات ، وتجد الوجه الثاني أبدع من الأول ، و هكذا على الترقي فيتعجب الحاضرون من ما يبديه من المعاني و الأسرار و الفهوم ..فحينئذ يعلم العاقل علم يقين أنّ ذلك الكلام إنّما خرج من قلب ملئ بالحكمة كما قال " ابن عطاء الله" في حكمه :" كل كلام يبرز و عليه كسوة القلب الذي منه برز " [2].

---

[1]- المصدر السابق : لوحة 62 ص124

[2]- ابن عطاء الله السكندري – الحكم العطائية ، الحكمة رقم- 183- : ص 39

و بالجملة فكلام الشيخ السنوسي فيما يرجع إلى طريقة التصوف و الممارسة الصوفية، لا يقوم بمعناه إلا من تمكنت معرفته ، و اتسعت في علوم اللسان مادته ، و علت في درجة الولاية رتبته ، و خاف من الشوق ما بهرت به ولايته [1] .

فالمكاشفة على ما سبق هي في حقيقة الأمر ، أمر جائز الوقوع ، و هي منحة إلهية يكرم الله تعالى بها عباده الصالحين الذين تمسكوا بدينهم ، و استقاموا في حياتهم ، و حفظوا جوارحهم، وصقلوا قلوبهم ، و هذبوا نفوسهم ، فكانوا لله وكان الله لهم ، لأنّ المكاشفة فراسة الشرعية ، ونور إيماني ينبسط على القلب ، و لكل مؤمن منها نصيب ، لكن لا يهتدي لحقيقتها إلا من صفا قلبه من الشواغل و الشواغب .

[1]- الملالي - المواهب القدسية في المناقب السنوسية : لوحة 70 ص 140

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثاني : الولاية و المرائي

يعتبر الحديث عن المرائي عند السنوسي أمر ضروري لكون المسألة ذات أهمية في حياة الرجل ، والرؤيا كلمة إذا أطلقت انصرفت تلقائيا إلى المعنى الديني لأنّها في حد ذاتها مصطلح نابع من وحي الدين ، يعبر عن طهارة النفس و نقاؤها و بالتالي عن استعدادها لتلقي أسرار و تجليات روحانية إلهية في النوم ، و بهذا المعنى يتبيّن أنّ الرؤيا أصدق تعبيرا و أكثر تنبأ بالغيب من الحلم [1] .

و الرؤيا و التعبير لها ، أمر كان موجودا في السلف كما هو في الخلف ، فقد كان يوسف الصديق صلوات الله عليه يعبر الرؤيا ، كما أنّه وقعت له رؤيا عظيمة تكلم عليها القرآن في سورة يوسف ، و كذلك ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال : " الرؤيا الصالحة جزء من ستة و أربعين جزءا من النبوة " [2] . و قال :" لم يبق من المبشرات إلاّ الرؤيا الصالحة ، يرها الرجل الصالح ، أو ترى له "[3].

و أول ما بدئ به النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا ، فكان لا يرى رؤيا إلّا وجاءت مثل فلق الصبح ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا انتقل من الصلاة الغداة يقول لأصحابه : " هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا " [4]. يسألهم عن ذلك ليستبشر بما وقع من ذلك ، ممّا فيه ظهور الدين و إعزازه .

يقول " ابن خلدون " في مقدمته : " للرؤيا الصادقة علامات تؤذن بصدقها وتشهد بصحتها ، فيستشعر الرائي البشارة من الله بما ألقي إليه في نومه منها : سرعة انتباه الرائي عندما يدرك الرؤيا .. و منها ثبوت الإدراك و دوامه بانطباع تلك الرؤيا بتفاصيلها في حفظه " [5]

---

[1]- عبد الرزاق قسوم – عبد الرحمان الثعالبي والتصوف ، دط ، الشركة الوطنية للنشر ، الجزائر ، دت : ص100

[2]- رواه البخاري (7017) و مسلم (5905) من حديث أبي هريرة

[3]- رواه البخاري (6960) من حديث أبي هريرة ، و مسلم (1074) من حديث ابن عباس

[4]- صلاة الغداة : صلاة الصبح والحديث أخرجه البخاري (7047) ومسلم (5937 من حديث سمرة بن جندب

[5]- ابن خلدون : المقدمة : ص513

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و ممّا يشهد بصحة الرؤيا أيضا ما جاء عن " الحسن البصري " أنّه قـال : " دخلت مسجد البصرة ، فإذا رهط من أصحابنا جلوس ، فجلست إليهم ، فإذا هم يـذكرون رجلا يغتابونه ، فنهيتهم عن ذكره ، و حدثتهم بأحاديث في الغيبة بلغتني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و عن عيسى بن مريم عليه السلام ، فأمسك القوم و أخذوا في حديث آخر ، ثم عرض ذكر الرجل ، فتناولوه و تناولته معهم ، فانصرفوا إلى رحالهم و انصرفت إلى رحلي ، فنمت ، فآتاني آت في منامي أسود في يده طبق من خلاف[1]، و عليه قطعة لحم خنزير ، فقال لي : " كل قلت : لا آكل ، هذا لحم خنزير . قال : كل . قلت : لا آكل هذا لحم خنزير ، هذا حرام . قال: لتأكلنه ، فأبيت عليه ففك لحيي و وضعها في فمي ، فجعلت ألوكها ، و هو قائم بين يدي، فجعلت أخاف أن ألقيها و أخاف أن أسترطها ، فاستيقظت على تلك الحال ، فو الله لقد لبثت ثلاثين يوما و ثلاثين ليلة ما ينفعني طعام أطعمه و لا شراب أشربه إلّا وجدت طعمها في فمي وريحها في منخري " [2] .

و قال " الغزالي" في معناها : " المشاهدة في النوم من أنوار النّبوة ..و قلما يخلو الإنسان من منامات دلت على أمور فوجدها صحيحة و الرؤيا و معرفة الغيب في المنام من عجائب صنع الله ، و بدائع فطرة الآدمي و هو من أوضح الأدلة على عالم الملكوت " [3].

و قد سقنا هذا كله لنصل إلى مرائي الشيخ السنوسي أو التي رئيت لـه لنستعرض بعضها و نحللها . ذلك أنّ الناظر في كتاب " المواهب القدسية في المناقب السنوسية " للملالي" ، يجد أنّ الكتاب عامر بالمرائي العجيبة و الغريبة التي رئيت للسنوسي فمنها أنّ والده " يوسف بن عمر السنوسي " رأى – في الليلة التي ولد فيها ابنه محمد السنوسي – النّبي صلى الله عليه وسلم فقال له :" يا يوسف ، يتزايد لك ولد ذكر في هذه الليلة ، فيه العلم و الدين " [4].

[1]– الخلاف : شجر الصفصاف

[2]– الكلاباذي – التعرف لمذهب أهل التصوف : ص172

[3]– الغزالي أبو حامد– إحياء علوم الدين : ج4 ص439

[3]– الملالي – المواهب القدسية في المناقب السنوسية : لوحة 75ص 150

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و منها رؤيا التي رآها في أيام مرضه من أنّ الملائكة قد صعدت به إلى السّماء الدنيا ، فسمع قائلا يقول له : " اترك ما أنت عليه فقد قرب أجلك " ، ليلازم بعدها فراشه إلى أن توفي ومدة مرضه عشرة أيام [1] .

إنّ الرؤيا الأولى ، و الثانية التي ساقهما لنا " الملّالي " تؤكد مدى حب التلميذ لأستاذه – فبقطع النظر عن صحة هذه الرؤيا – فإنّ " الملالي " فيما نعرف هو التلميذ الوحيد الذي كتب في حياة الشيخ السنوسي ، و قد دوّن هذا الكتاب و أتمّه بعد سنتين من وفاة شيخه ، كما أنّ سرّ اهتمامه بالرؤيا ؛ إنّما يرجع إلى اقتناعه و اقتناع إمامه بصدقها ، و أيضا لذيوع المرائي عند الناس واهتمامهم بها ، فالعصر الذي عاش فيه السنوسي و تلميذه " الملّالي " كان يعجّ بالأفكار الصوفية وكانت المرائي الصالحة أن يراها الإنسان ، أو ترى له ، علامة من علامات استقامة العبد على الدين و أنّه من الصالحين .

[1]– المصدر السابق : لوحة 280 ص560

المطلب الثالث : شرط الاعتبار بالكشف و الإلهام والرؤيا :

إذا كان الكشف و الإلهام و الرؤيا الصالحة من باب الكرامات و الخوارق التي يكرم الله بها بعض أوليائه المتقين ، فيقرب لهم البعيد ، أو يكثر على أيديهم القليل ، أو يكشف لهم بعض المستور من غيوب المستقبل ، أو مكنونات الصدور ، أو خفايا الأمور ، أو يذللّ لهم بعض الصعاب ، بغير الطريق المعتاد ، إلى غير ذلك مما كثرت فيه الأقوال ، و تناقلته الروايات ، ممّا لا يخلو بعضه من صحة و ثبوت ، و ممّا لا يسلم بعضه أيضا من مبالغة أو اختلاق . فهل معنى هذا أنّها حجة في إثبات الأحكام الشرعية ؟

المبدأ المسلم به و بنتائجه و شرطه ، و هو ألّا يخرم قاعدة دينية ثابتة ، و لا حكما شرعيا متفقا عليه . و هو ما بيّنه و فصله بأدلته و أمثلته الإمام " الشاطبي " في كتاب المقاصد من "الموافقات" . فقد بيّن أنّ ما يخرم قاعدة شرعية [1] ، أو حكما شرعيا ليس بحق في نفسه ، بل هو إما خيال ، أو وهم ، و إمّا من إلقاء الشيطان ، و قد يخالطه ما هو حق و قد لا يخالطه ، و جميع ذلك لا يصلح اعتباره ، من جهة معارضته لما هو ثابت مشروع ، فإنّ التشريع الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم عام لا خاص ، لا ينخرم أصله ، و لا ينكسر له اطراد ، و لا يستثنى من الدخول تحت حكمه مكلف . و إذا كان كذلك فكل ما جاء من هذا القبيل الذي نحن بصدده مضادا لما تمهد في الشريعة ، فهو فاسد باطل" [2].

[1]- وهذه من المسائل التي أسيئ فهم رأي الصوفية فيها في مجال الإلهام أن الصوفية أو بعضهم يذهب إلى أن إلهامهم غير مقيد يشرع بعينه . بل يوافق ما جاء به أي نبي ..و الحقيقة أن الكثرة الكاثرة من الصوفية ترى وجوب التمسك بالكتاب و السنة و العمل بهما ، ولقد التزمت بذلك فعلا و عاشته حياة و دعت إليه طريق و عقيدة ، و رأت أن الولي لا يكون و ليا إلا بقيامه بالشريعة و ترتفع بمقدار طاعته و عبادته، و لا عبرة بولي لم يلتزم بذلك ، و لو ظهرت على يديه جميع أنواع الخوارق و لهم في ذلك أقوال و أفعال و مواقف . انظر ، أبو عبد الرحمان السلمي- أصول الملامتية و غلطات الصوفية ، تحقيق عبد الفتاح أحمد الفاوي محمود ، دط ، مطبعة الإرشاد ، مصر ، 1995م/1405هـ : ص 114- 119

[2]- الشاطبي أبو إسحاق — الموافقات في أصول الشريعة ، شرح وتعليق عبد الله دراز ، دط ،المكتبة التوفيقية ، مـصر ، دت : ج2 ص227

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قال " الشاطبي" : "و من أمثلة ذلك مسألة سئل عنها " ابن رشد" في حاكم شهد عنده عدلان مشهوران بالعدالة في أمر ، فرأى الحاكم في منامه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لـه: "لا تحكم بهذه الشهادة فإنّها باطل "، فمثل هذا من الرؤيا لا معتبر بها في أمر و لا نهي ، ولا بشارة ، و لا نذارة ، لأنّها تخرم قاعدة من قواعد الشريعة ، وكذلك سائر ما يأتي من هذا النوع، وما روي : " أنّ أبا بكر – رضي الله عنه – أنفذ وصية رجل بعد موته برؤيا رؤيت "، فهي قضية عين لا تقدح في القواعد الكلية لاحتمالها ، فلعلّ الورثة رضوا بذلك ، فلا يلزم منها خرم أصل [1] .

و يضيف الإمام على ذلك : " و على هذا لو حصلت له مكاشفة بأنّ هذا الماء المعين مغصوب أو نجس ، أو أنّ هذا الشاهد كاذب ، أو أنّ المال لزيد و قد تحصّل بالحجة لعمرو ، أو ما أشبه ذلك ، فلا يصح لـه العمل على وفق ذلك ما لم يتعين سبب ظاهر ، فلا يجوز لـه الانتقال إلى التيمم ، و لا ترك قبول الشاهد ، و لا الشهادة بالمال لزيد على حال . فإنّ الظواهر قد تعين فيها بحكم الشريعة أمر آخر ، فلا يتركها اعتمادا على مجرد المكاشفة أو الفراسة ، كما لا يعتمد فيها على الرؤيا النومية ، و لو جاز ذلك لجاز نقض الأحكام بها ، و إن ترتبت في الظاهر موجباتها ، و هذا غير صحيح بحال ، فكذا ما نحن فيه . و قد جاء في الصحيح : " إنّكم تختصمون إليّ ، و لعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأحكم لـه على نحو ما أسمع منه" [2] ، فقيّد الحكم بمقتضى ما يسمع و يترك ما وراء ذلك ، و قد كان كثير من الأحكام التي تجري على يديه يطلع على أصلها و ما فيها من حق و باطل ، و لكنّه عليه الصلاة و السلام لم يحكم إلاّ على وفق ما سمع ، لا على وفق ما علم ، و هو أصل في منع الحاكم أن يحكم بعلمه "[3].

هذا و قد كان ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ يعلم من دخائل المنافقين و بواطن كفرهم ما يعلم ، و لكنّه لم يعاملهم وفقا لما كشف الله لـه من بواطنهم ، بل عاملهم حسب ظواهرهم ،

[1]- المصدر السابق : ج2 ص227- 228

[2]- رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الشهادات ، باب من أقام البينة بعد اليمين رقم 2680: ج2ص 157 ، ومسلم ، كتاب الأقضية ، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة ، و الترمذي ، كتاب الأحكام عن رسول الله ، باب ما جاء في التشديد على من يقضي له شيء ليس له رقم 1259

[3]- الشاطبي أبو إسحاق – الموافقات في أصول الشريعة: ج2 ص 228

وأجرى عليهم أحكام الإسلام ، و منحهم حقوق المسلمين في الحياة و بعد الممات . و بهذا ردّ على من أراد من الصحابة أن يعاملهم معاملة الكفار المجاهرين فقال : " أخشى أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه " ! و هكذا أمرنا أن نحكم بالظاهر ، و الله يتولى السرائر ، و لم نؤمر أن نشقّ عن قلوب الناس [1] .

و الخلاف إنّما هو مع الغلاة من الصوفية الذين اعتبروا كشفهم و إلهامهم مصدرا للأحكام الشرعية ، فيحلّون على أساسه وحده و يحرمون ! و يأخذون من قصة موسى والخضر: أنّ العلم اللدنّي مقدم على العلم الشرعي ، و أنّ هناك علما يعلمه الفقهاء ، و "معرفة " يعرفها الأولياء ، و أنّ الحقيقة مقدمة على الشريعة ، فالشريعة للعوام و الحقيقة للخواص ، و يستدلون على هذه التفرقة بهذه القصة ، التي ذكرها الله في سورة الكهف . فموسى — في نظرهم — كان ينظر بعين الشريعة فأنكر خرق السفينة ، و قتل الغلام بغير جناية ، و إقامة الجدار لقوم لا يستحقون إكراما و لا معونة .

و أمّا الخضر فكان ينظر بعين الحقيقة ، و لهذا بينّ لموسى ما وراء كل أمر من هذه الأمور الثلاثة من أسرار و غيوب ، فسلّم موسى للخضر ، لأنّ موسى لم يكن معه إلا علم الظاهر ، علم الشريعة ، و الخضر كان معه علم الباطن ، و هو علم الحقيقة ! و العلم الذي عند الخضر لم يأت نتيجة تعلم و لا اكتساب ، إنّما هو علم وهبي من لدن الله مباشرة و بلا واسطة ، ويسمونه " العلم اللدنّي " أخذا من قوله تعالى: ﴿ وعلمناه من لدنا علما ﴾ [2] .

و من هنا جاء عن بعض المتصوفة احتقارهم لعلم الشرّع ، الذي يعرف النصوص ، ويعلم بالشواهد والأدلة ، و يطلب من العلماء ، و يروى بالأسانيد ، و يسمونه "علم الورق". وإنّما يعنيهم علم " الباطن " أو " الحقيقة " أو " العلم اللدنّي " كما يسمونه، علم الخضر لا علم موسى ، علم " أصحاب الأذواق "، لا علم " أصحاب الأوراق "، علم الصوفية لا علم المحدثين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]- يوسف القرضاوي – موقف الإسلام (من الإلهام و الكشف و الرؤى و التمائم و الكهانة و الرقى) : ص 38- 39

[2]- الكهف الآية 64

والفقهاء .بل قال بعضهم في جراءة عجيبة : إنّ العلم هو حجاب بين صاحبه و بين الله جل جلاله!! [1].

و لا ريب أنّ هذا من الجهل و العجب ، و الغرور ، و الشرود عن سواء الصراط ، الذي سار عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم و أصحابه الغر الميامين . و التابعون لهم بإحسان، بل هو شرود عن الذي سار عليه شيوخ الصوفية الأوائل أنفسهم ، و ربّوا عليه مريديهم ، وشدّدوا في ذلك ، و لم يتهاونوا فيه .

و قد بيّن الإمام " الشاطبي " في " الموافقات " أنّ من خصائص الشريعة عمومها لكل المكلفين في كل الأوضاع و الأحوال ، فلا يخرج عنها ولي و لا غيره بدعوى الكشف أو غيره ، وأنّ العوائد الجارية ضرورية الاعتبار شرعا ، فليس الاطلاع على المغيبات ، و لا الكشف الصحيح بالذي يمنع جريانها على مقتضى الأحكام العادية ، و القدوة في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ما جرى عليه السلف الصالح رضي الله عنهم . ثم تعرض لقصة "الخضر" التي يحتجّ بها قوم على جواز الخروج عن ظاهر الشريعة للأولياء ، أو أهل الكشف ، قال فيها : "وأما قصة الخضر ـــ عليه السلام ـــ و قوله: { وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي } [2]، فيظهر به أنّه نبّي ، وذهب إليه جماعة من العلماء استدلالا بهذا القول . و يجوز للنبّي أن يحكم بمقتضى الوحي من غير إشكال ، و إن سلم فهي قضية عين ، و لأمر ما ، و ليست جارية على شرعنا . و الدليل على ذلك أنّه لا يجوز في هذه الملة لولي ، و لا لغيره ممن ليس بنبّي أن يقتل صبيا لم يبلغ الحلم ، وإن علم أنّه طبع كافرا ، و أنّه لا يؤمن أبدا ، و أنّه إن عاش أرهق أبويه طغيانا وكفرا ، و إن أذن له من عالم الغيب في ذلك ، لأنّ الشريعة قد قررت الأمر و النهي ، و إنّما الظاهر في تلك القصة أنّها وقعت على مقتضى شريعة أخرى ، و على مقتضى عتاب موسى عليه السلام ، وإعلامه أنّ ثم علما آخر ، و قضايا أخر لا يعلمها هو " [3].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- يوسف القرضاوي – الحياة الربانية والعلم : ص165- 166

2- الكهف الآية 82

3- الشاطبي أبو إسحاق – الموافقات في أصول الشريعة : ج2 ص253

كما بين الإمام " الشاطبي " أنّه " ليس كل ما اطلع عليه الولي من الغيوب يسوغ لـه شرعا أن يعمل عليه ، بل هو على ضربين : أحدهما : ما خالف العمل به ظواهر الشريعة من غير أن يصحّ ردّه إليه ، فهذا لا يصحّ العلم عليه البتة .

و الثانـي : ما لم يخالف العمل به شيئا من الظواهر ، أو إن ظهر منه خلاف فيرجـع بالنظر الصحيح إليها ، فهذا يسوغ العمل عليه . و قد تقدم بيانه . فإذا تقرر هذا الطريق فهـو الصواب ، و عليه يربي المربّي ، و به يعلق همم السالكين ، تأسيا بسيد المتبوعين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و هو أقرب إلى الخروج عن مقتضى الحظوظ ، وأولى برسوخ القدم ، و أحرى بأن يتابع عليه صاحبه ، و يقتدى به فيه ، و الله أعلم " [1] .

و قبل " الشاطبي " بين شيخ الإسلام " ابن تيمية " بالأدلة : الغلط الذي وقع لأولئـك القوم في الاحتجاج بقصة موسى و الخضر على مخالفة الشريعة ، مجتهدا أن يرد ما فعله الخضر إلى الشريعة . و مما ذكره : أنّ موسى عليه السلام لم يكن مبعوثا إلى الخضر ، و لا أوجب الله على الخضر متابعته و طاعته ، بل قد ثبت في الصحيحين : " أنّ الخضر قال له : يا موسى ، إنّي على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه ، و أنت على علم من علم الله علمكـه الله لا أعلمـه"[2]، وذلك أنّ دعوة موسى كانت خاصة . و قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي صـلى الله عليه وسلم أنّه قال فيما فضله الله به على الأنبياء ، قال : " كان النّبي يبعث إلى قومه خاصـة ، وبعثت إلى النّاس عامة " [3] . فدعوة محمد صلى الله عليه وسلم شاملة لجميع العباد ، ليس لأحد الخروج عن متابعته و طاعته ، و الاستغناء عن رسالته ، كما ساغ للخضر الخروج عن متابعـة موسى و طاعته ، مستغنيا عنه بما علمه الله . و ليس لأحد ممن أدركه الإسلام أن يقول لمحمـد : إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه . و من سوغ هذا ، أو اعتقد أن أحدا من الخلق ــ

[1]- المصدر السابق : ج2 ص253

[2]- رواه البخاري في صحيحه ، كتاب تفسير القرآن ، باب فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا . و مسلم في صحيحه .

[3]- رواه البخاري في صحيحه ، كتاب التيمم ، باب و قول الله تعالى : فلم تجدوا ماء فتيمموا صـعيدا طيبـا .و مـسلم في صحيحه ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة . والنسائي في سننه ، كتاب الغسل و التيمم ، باب التيمم بالصعيد رقم : 429

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- الزهاد و العباد أو غيرهم ــ لــه الخروج عن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم و متابعته ، فهو كافر باتفاق المسلمين ، و دلائل هذا من الكتاب و السنّة أكثر من أن تذكر هنا [1] .

و قصة الخضر ليس فيها خروج عن الشريعة ، و لهذا لما بيّن الخضر لموسى الأسباب التي فعل لأجلها ما فعل ، وافقه موسى ، و لم يختلفا حينئذ . ولو كان ما فعله الخضر مخالفا لــشريعة موسى لما وافقه . و مثل هذا و أمثاله يقع للمؤمنين بأن يختص أحد الشخصين بالعلم بسبب يبيح لــه الفعل في الشريعة ، و الآخر لا يعلم ذلك السبب ، و إن كان قد يكون أفضل من الأول ، مثل شخصين دخلا إلى بيت شخص ، وكان أحدهما يعلم طيب نفسه بالتصرف في مترله ، إمّــا بإذن لفظي أو غيره ، فيتصرف ، و ذلك مباح في الشريعة ، و الآخر الذي لم يعلم هذا السبب لا يتصرف . و خرق السفينة كان من هذا الباب ، فإنّ الخضر كان يعلم أن أمامهم ملكا يأخذ كل سفينة غصبا ، و كان من المصلحة ، التي يختارها أصحاب الــسفينة إذا علمــوا ذلــك ، لــئلا يأخذها.. خير من انتزاعها ... " [2].

و أمّا رأي السنوسي في المسألة فقد ضمّنه في كتابه " مكمل إكمال إكمال المعلــم " متبنيا في ذلك موقف الإمام " القرطبي" الذي نقل عنه تنبيها وكلمة قيمة و تعليقا علــى قــصة موسى و الخضر و ما يستفاد منها من أحكام و عبر ، قال فيها : " و لننبه هنا على مغلطتين :

الأولى : ظنّ بعض الجهال أنّ الخضر أفضل من موسى لما اشتملت عليه هذه القــصة ، وهذا نظر من قصر نظره على هذه القصة ، و لم ينظر فيما خصّ به موسى عليــه الــسلام مــن الرسالة، و سماع الكلام ، و إنزال التوراة عليه ، و أنّ أنبياء بني إسرائيل متعبدون بها كلهم ، حتى عيسى عليه السلام ، و الإنجيل و إن كان هدى فليس فيه من الأحكام إلاّ اليسير ، و إنّه من أولي العزم من الرسل ، و إنّه ليس في المحشر بعد أمة النبي صلى الله عليه و سلم أكثــر مــن أمتــه ، ... و الخضر و إن قيل أنّه نبي و أرسل فرسالة موسى أعظم [3].

[1]- ابن تيمية – مجموع فتاوى الشيخ أحمد بن تيمية : ج11 ص 425
[2]- المصدر نفسه : ج11 ص 425
[3]- السنوسي – مكمل إكمال إكمال المعلم على شرح صحيح مسلم : ج 6 ص 184- 186

الثانية : ذهب بعض زنادقة الباطنية أنّ هذه الأحكام الشرعية العامة إنّما يحكم بها العامة و الأغبياء ، و أمّا الأولياء و أهل الخصوص ، فلصفاء قلوبهم من الأكدار ، و خلوها عن الأغيار ، تنجلي لهم العلوم الإلهية ، و الحقائق الربانية ، فيقفون على أسرار الكائنات ، و يعلمون أحكام الجزئيات ، فيستغنون بها عن أحكام الشرع الكليات ، كما اتّفق للخضر عله السلام ، فإنّه استغنى بما تجلى له من تلك العلوم عمّا عند موسى عليه السلام ، و هذه زندقة و كفر ، يقتل قائلها و لا يستتاب ، فإنّه إنكار لما علم من الشرائع فإنّ الله تعالى أجرى سنته و أنفذ حكمته فإن أحكامه تعالى لا تعلم إلا بواسطة الرسل عليهم السلام وهم السفرة بينه و بين خلقه .." [1].

و على الجملة فقد حصل القطع و إجماع العلماء الربانيين — ومن جملتهم الإمام السنوسي – على أنّه لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى ، الراجعة إلى أمره و نهيه ، و لا يعرف شيء منها إلاّ من جهة الرسل ، فمن قال أن هناك طريقا آخر يعرف به أمره تعالى و نهيه غير الرسل فهو كافر يقتل و لا يستتاب ، ثم هو قول بإثبات نبي بعده صلى الله عليه و سلم . و بيان ذلك أنّ من قال أنّه يأخذ عن قلبه ، و أنّ ما وقع فيه حكم الله تعالى ، و أنّه يعمل بمقتضاه ، و أنّه لا يحتاج في ذلك إلى كتاب و سنة ، فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة و هو مثل قوله صلى الله عليه و سلم : أنّ روح القدس نفث في روعه .

---

[1]- المصدر السابق : ج 6 ص 184-186

الفـــصل السادس :

تـــجربة السنــوسي الذوقيـــــة

المبـــحث الأول : مفهوم الذوق و علامة صحته .

المبـــحث الثاني : شروط و مراحل التجربة الذوقية و الفوائد المتربة عليها .

المبحث الثالث : خصائص التـــجربة الذوقية السنوسية .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيد :

التجربة الذّوقية فريضة لازمة من فرائض الطريق الصوفي ، يتلاقى عندها المنهج ومبادئه، وهي لبّ لباب الحقيقة التي ينشدها الأولياء العارفون ، فما من متصوف ظهر في تاريخ المسلمين إلا و تراه يخوض عباب التجربة الصوفية و يعيش منازلات الحال لتتميز تجربته بالعقيدة التي يعتقدها و يدين لها بالولاء .

و الصوفية يتفقون على أنّ غايات الطريق و نهاياته لا تصحّ إلاّ بصحة البداية ، وأكّدوا على أنّ أكثر موانع الطريق و عوائقه إنّما تكون من فساد الابتداء ، و من هنا اهتم أقطاب التصوف الذين تصدروا لتربية المريدين بتصحيح بدايات السالكين ، و توضيح الأسس و المبادئ التي يقوم عليها الطريق لأنّ البداية كلما كانت أحكم ؛ كانت النهاية أتمّ ، و من نهايات الكلام عن طبيعة الطريق الصوفي ممارسة التجربة الصوفية الذوقية .

و عليه فوجود السنوسي في عالم الذوق هذا ، إنّما هو النهاية الطبيعية التي كان لابد أن يصل إليها كل مؤمن حقيقي يزاوج بين مطالب النظر و مطالب المجاهدة النفسية . و المعلوم أيضا أنّ علماء الصوفية لا يكتفون بأن يوضحوا للسالكين كيفية الممارسة الصوفية بمجرد الكلام النظري ، و لكنّهم بالإضافة إلى ذلك ، يأخذون بيد مريديهم و يسيرون بهم في مدارج الترقي بكيفية عملية ، و يرافقونهم في جميع مراحل سيرهم إلى الله تعالى حتى النّهاية ، و هكذا يرسمون لهم المنهج العملي الذي يمكنهم به أن يتحققوا بأركان الدين الثلاثة ؛ الإيمان و الإسلام والإحسان . و هذا ما فعله الإمام السنوسي في تجربته العملية الذوقية و التي ستكون ختام هذه الدراسة ، و سنتناولها من خلال ثلاث مباحث هي :

المبحث الأول : مفهوم الذوق و علامة صحته .

المبحث الثاني : شروط ومراحل التجربة الذوقية عند السنوسي والفوائد المترتبة عليها.

المبحث الثالث : خصائص التجربة الذوقية السنوسية .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبـــحث الأول :

مفهوم الذّوق و علامة صحته

إنّ الممارسة الذّوقية نتيجة من نتائج تحصيل عقائد الإيمان بالنظر ، و لا قيمة للتصوف عند الإمام – محمد بن يوسف السنوسي – إذا لم يكن قائما على الذّوق . فما هي حقيقته عند الإمام ؟ و ما هي علامات صحته ؟

إنّ السنوسي كتب ما كتب من بحوث في التصوف تحت تأثير التجارب الشخصية التي عاناها و الرياضات ، و المجاهدات التي بذلها ، و الأذّواق و المواجد التي نالها ، لأنّ التصوف عنده ليس علما كسائر العلوم ، التي يمكن أن يشتغل بها المرء ، دون أن يكون لحياته ، أو لمسلكه ، أو لخلقه دخل فيها ، لأنّ التصوف علم ، و عمل ، و معرفة ، و سلوك ، و بدون العمل لا يتحقق العلم ، و بدون السلوك لا تتحقق المعرفة ، و لهذا فالتصوف يعتمد على الذّوق أكثر مما يعتمد على المنطق [1] .

أولا : مفهوم الذّوق .

جاء في التعريفات " للجرجاني" ، في تعريف الذّوق على أنّه " قوة منبثة في العصب المفروش على جرم اللسان تدرك بها الطعوم بمخالطة الرطوبة اللعابية في الضم بالمطعوم و وصولها إلى العصب [و هذا بالمعنى الحسي]. و الذّوق في معرفة الله سبحانه تعالى : عبارة عن نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه ، يفرقون به بين الحق و الباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره "[2].

---

[1]ـ أحمد آمين – ظهر الإسلام ، د ط ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، دت : ص 152

[2]ـ الجرجاني – التعريفات : ص 144

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و الذّوق عند المتصوفة كالشرّب ، لكن الشرّب لا يستعمل إلاّ في الراحات ، و الذّوق يلائم الراحات و المتاعب . و أول التجلّيات الذّوق ، ثم الشرّب ، فإذا بلغ الغاية يسمى ريا . وفي الأمثال يقولون : ذقت البلاء ، و ذقت الراحة ، فهذا جائز أنّ تذوق الاثنين و في القرآن الكريم عن الذّوق والشرّب : { كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }[1]، فالشرّب للهناءة ؛ وكذلك الذّوق : { ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ }[2]، فالذّوق هنا للبلاء ، وفي سورة الروم :{ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا }[3]، وفي سورة هود :{ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ }[4]، و الذّوق أيضا للهناء .

غير أنّ وسيلة الذّوق قد تستعمل خطأ في التصوف ، لأنّ ما تراه بعقلك خطأ قد لا يكون كذلك بذوقك ، و العقل في عرف البعض لا يعتمد عليه ، و هو طاغوت أخرق ، وقد يسمى الذّوق " بالوحي" فيقال : علمه بالذّوق ، أي بالوحي ، و قد يوصف الذّوق بأنّه "قدسي"، يعني " إلهي" ، أي من الله . و من الاصطلاحات الصوفية المشهورة " من ذاق عرف "، يعني من يجعل الذّوق وسيلة المعرفة كان من العارفين[5].

و العلوم الذّوقية ، هي علوم الصوفية عن المعارف و الأسرار المتعلقة بالأحوال كالشرّب، والرّي ، و المشاهدة ، و المكاشفة ، و المحاضرة ، و هي علوم ليس لها منطق ، مدارها القلب ، وتحصيلها بالرياضة و المجاهدة و المكابدة و الإخلاص لله تعالى[6].

و أهل الذّوق هم : " من يكون حكم تجلياته نازلا من مقام روحه و قلبه إلى مقام نفسه وقواه ،كأنّ يجد ذلك حسا ، و يدركه ذوقا بل يلوح ذلك من وجوههم "[7].

1- الطور الآ 19
2- القمر الآية 48
3- الروم الآية 36
4- هود الآية 10
5- عبد المنعم الحنفي – الموسوعة الصوفية : 979- 980
6- المرجع نفسه :ص 980
7- الجرجاني – التعريفات: ص 58

هذا و قد تعرض الإمام السنوسي لمفهوم الذّوق في كتابه " مكمل إكمال إكمال المعلم على شرح صحيح مسلم " و قبل أنّ يسوق تعريفه و مفهومه للذّوق تعرض لمفاهيم غيره ، و نحن هنا سنوردها لنرى هل تفرّد عنهم السنوسي في تعريفهم له أم أنّه سايرهم في ذلك ؟

ذكر السنوسي أنّ القاضي " عياض " عرّف الذّوق : على أنّه " يقصد به المعرفة ، فالذوق هو معرفة الله سبحانه و تعالى و استحلاء الإيمان ، و يكون بالرضا بالله الذي هو دليل على هذه المعرفة "[1].

و يضيف الإمام " الأبّي " على التعريف السابق و " في كونه دليلا – أي المعرفة – عليها ، لأنّه مسبب عنها و وجود المسبّب يدل على وجود المسبّب ، ثم الرضا بالشيء يكون بمعنى القناعة به و بمعنى الإيثار له ، و من لم يقنع بالله سبحانه فليس من الإسلام في شيء ، ومعرفة الله سبحانه و استحلاء الإيمان به من صفة الخواص فلا يدلّ عليها إلاّ ما هو من صفتهم ، فإنّ قلت معرفة الله سبحانه و استحلاء الإيمان به هما الغاية فلو أريد في الحديث الشريف : " ذاق طعم الإيمان .. " [2] لم يعبر عنها بالذوق إذ لا يعبر عن غاية الشيء بمبدئه لأن الذوق مبدأ الفعل [3] .

فالذوق هو معرفة بالله سبحانه و تعالى ، و استحلاء بالإيمان به ، و لا يكون إلا عن رضى بالله تعالى ، الذي هو دليل هذه المعرفة . و لا يتحقق هذا الذّوق و لا يكون إلّا بالقناعة التامة به ، و بوجوده ، و كمال وحدانيته في ذاته و صفاته ، و إيثار ما يحبه و يرضاه ، واجتناب ما يبغضه و يسخطه .

[1]- السنوسي – مكمل إكمال إكمال المعلم على شرح صحيح مسلم : ج 01 ص129

[2]- حديث "ذاق طعم الإيمان " رواه مسلم في صحيحه .

[3]- السنوسي – مكمل إكمال إكمال المعلم على شرح صحيح مسلم : ج 01ص 129

أمّا السنوسي فيعرف الذوق على أنّه : " هو مبدأ الفعل[1] إذا استعمل في المحسوسات كذوق الطعام ، أمّا إذا أستعمل في المعاني فإنّما هو " كناية عن كمال الإدراك و أنت تعرف أن الرضا بالله سبحانه و تعالى يستلزم الرضا عنه " [2] .

و في حقيقة الرضا عن الله تعالى قال " الجنيد" : هو رفع الاختيار . و قال "المحاسبي" : "هو سكون النفس تحت مجاري الأقدار " و قال "النوري"[3] : " هو السرور بمرّ القضاء " . و قال "الداراني" : " أرجو أنّي عرفت طرفا من الرضا ، لو أدخلني النّار كنت به راضيا ". و قال "القرطبي" : " فالأولان تعريف لمبدئه ، و الثالث تعريف لمنتهاه و في الرابع نظر "[4]. و حقيقة الرضا عن الله تعالى كما في التعريفات :" سرور القلب بمر القضاء "[5].

و قد علّق السنوسي على ما سبق من الأقوال بقوله :" وجه كون الذّوق كناية عن كمال الإدراك ، إذا أستعمل في المعاني ، إبرازه في صورة ما برز للعيان حتى تعلق به الحس الظاهر، و التذّت به النّفس و الجوارح ، و في التعبير عن الذّوق دون الشبع مثلا ، التنبيه إلى أنّ هذا القدر من الإستحلاء و إن اقتضى ما اقتضى فليس هو غاية المقصود الذي يجب أن يقف العبد عنده بل هو مبدأ للترقي في المقامات و شدّة الشوق إلى نيل ذروة الكمالات و الحرص على الشبع ممّا دلّ على عظيم شرف أعاليه ذوق البدايات " [6] .

1- و لهذا قال القشيري : و من جملة ما يجري في كلام المتصوفة ، الذوق و الشرب ، و يعبرون بذلك عما يجدونه من ثمرات التجلي ، و نتائج الكشوف ، و بوادر الواردات ، و أول ذلك الذوق ، ثم الشرب ثم الري ، فصفاء معاملاتهم يوجب لهم ذوق المعاني ووفاء منازلتهم يوجب لهم الشرب ، و دوام مواصلاتهم يقتضي لهم الري ، فصاحب الذوق متساكر و صاحب الشرب سكران و صاحب الري صاح ، و من قوي حبه تسرمد شربه ، فإذا دامت تلك الصفة لم يورثه الشرب سكراً ، فكان صاحيا بالحق فانيا عن كل حظ ، لم يتأثر بما يرد عليه، و لا يتغير عما هو به ، و من صفا سره لم يتكدر عليه شرب و من صار الشراب له غذاء لم يصبر عنه و لم يبق بدونه " . القشيري : الرسالة القشيرية : ص 146

2- السنوسي – مكمل إكمال إكمال المعلم على شرح صحيح مسلم : ج 01ص 129

3- أبو الحسن أحمد بن أحمد النوري ، ولد ببغداد كان من أجلّ المشايخ و العلماء صحب السرى السقطي ، توفي سنة 295هـ . انظر ، السلمي – طبقات الصوفية : ص 164- 165

4- السنوسي – مكمل إكمال إكمال المعلم على شرح صحيح مسلم : ج 01ص 129

5- الجرجاني – التعريفات : 148

6- السنوسي – مكمل إكمال إكمال المعلم على شرح صحيح مسلم : ج 01ص 129

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و يبدو هنا أنّ الشيخ السنوسي متأثر في هذا المعنى بما ورد عن " الساحلي" الذي اعتبر أنّ الذّوق هو : " استطعام مبادي الاتصال في بستان الجمع على موائد القرب ، لكن ليس من ذاق كمن تملى بالذوق ، لأنّ الذّوق نهاية المراقبة و بداية المشاهدة و ذلك يرقى بالروح عن الصوم عن مذاق الأسرار و الإمساك عن تلمح بواده الأنوار ، و الاتسام بسيما الانقطاع و الإخلاد عن الارتفاع و هو نتيجة و ثمرة من ثمار المراقبة "[1].

و مهما يكن من أمر فإن الإجماع منعقد بين الإمام السنوسي و غيره من العلماء الذين تقدم ذكرهم في أنّ الذّوق يقوم على جملة من المعاني و هي :

الأول : أنّ الذّوق هو معرفة بالله سبحانه و تعالى ، و استحلاء بالإيمان به ، و لا يكون إلا عن رضا ، الذي هو دليل هذه المعرفة .

الثاني : أنّ الرضا - أي الرضا عن الله تعالى سبحانه - لا يتحقق و لا يكون إلاّ بالقناعة التامة به ، و بوجوده ، و كمال وحدانيته في ذاته وصفاته ، و إيثار ما يحبه و يرضاه ، واجتناب ما يبغضه و يسخطه .

الثالث : أنّ الذّوق بالمعنى المتقدم لا يستطيعه كل النّاس ، و لا يقدر عليه جميعهم لأنّه صفة من صفات الخواص العارفين ، و ذلك لما يقتضيه من الجهد و المجاهدة سواء في طلب العلم ، أو مجاهدة النّفس لتخليصها من عيوبها وآفاتها حتى تمتثل أوامره و تجتنب نواهيه و هي راضية .

الرابع : أنّ الذّوق في المحسوسات يختلف عن الذّوق في المعاني فهو في الأولى إنّما هو مبدأ الفعل ، أما في الثانية فهو كناية عن كمال الإدراك و تمامه .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]- الساحلي : بغية السالك في أشرف المسالك : ج2ص 402

هذا و السنوسي و إن كان يتفق مع غيره في أنّ الذوق كناية عن كمال الإدراك ، فليس هو غاية المقصود بالنسبة لـــه ، أي أنّه لا ينبغي للعبد أن يقف عنده ، بل هو بدايـــة الـــدخول و الترقي في مقامات الطاعة و الإحسان وصولا إلى نيل الكمال الإنساني .

ثانيا : علامة صحة الذوق .

إنّ بداية العارفين عند الإمام السنوسي تكون بتنقية الباطن من العقائـــد الفاســـدة والذهن من الأفكار الباطلة و التصورات المنحرفة ، و أما حالهم المتوسطة فتكون بالتنزه في جلال مولانا سبحانه و تعالى و كمالاته ، و الترقي فيها إلى أن يشرفوا على العجز من كثرتها و عـــدم النهاية فيها ، و أمّا نهايتهم فهي العجز عن الإحاطة و الفناء في عظيم كبريائه جل و عز [1].

لقد نبّه السنوسي إلى هذه المعاني في شرحه لحديث التسبيح الذي رواه أبـــو هريـــرة –رضي الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال : "من سبّح الله دبر كل صـــلاة ثلاثـــا وثلاثين و حمد الله ثلاثا و ثلاثين ، وكبّر ثلاثا و ثلاثين ، فتلك تسع وتسعين ، ثم قال تمام المائة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك و له الحمد ، و هو على كل شيء قدير ، غفرت خطاياه، و لو كانت مثل زبد البحر " [2].

إنّ الذاكر في مذهب الإمام ينبغي عليه في هذه الأذكار أن يتقيد بالسنّة فيأتي بها بعـــد الصلوات و يرتبها في ذكره على حسب ترتيبها على هذا الحديث فيبدأ أولا بـــ" سبحان الله " ثم بعده بـــ" الحمد لله "[3] . ثم بعده بـــ" الله أكبر " ، ثم يختم بـــ" لا إلـــه إلا الله..إلى آخـــره " و وجه المناسبة في هذا الترتيب عند السنوسي : أنّ التسبيح معناه : التبعيد و التنزيه ، فيكون معنى " سبحان الله " : أن الله تعالى قد بعد وصفه عن كل مالا يليق بألوهيته جل و عز ، كالوصـــف

[1]– السنوسي– شرح حديث التسبيح : لوحة 129ص 258

[2]– رواه مسلم في صحيحه، ص: 301. كتاب: المساجد و مواضع الصلاة. باب: استحباب الذكر بعد الصلاة، وبيان صفته.

[3]– الحمد لله معناه: المدح كله لله وحده، لأن كل كما قديم فهو صفه و كل كمال حادث فهو فعله . انظر ، السنوسي – تفسير مختصر لسورة الفاتحة ، مخطوط المكتبة الوطنية ضمن مجموع 652/2 : لوحة 27 ص 53

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بالحدوث ، و لحوق العدم ، و المماثلة للحودث ، وكونه غير قائم بنفسه بأن يكون صفة أو يحتاج إلى مخصص ، إلى غيره مما يستحيل عليه جل و عز .

كما أنّ القلب عند الإمام لا يتهيأ و لا يكون مستعدا لتحليته بزينة أحضار المسألات التي يتصف بها مولانا سبحانه و تعالى ما لم يتطهر العقل و الذهن من كل عقيدة فاسدة في حق ذات الله سبحانه و تعالى . ذلك أنّ العبد الذاكر إذا أثنى على الله تعالى بعد هذا صحّ منه واستقام، و لا يكون إلا بالحمد الذي هو ثناء حسن على كل كمال يليق به جلّ و علا كوجوب القدم لـه تعالى و البقاء و المخالفة للحوادث و التتره عن مماثلتها ، و عن الاتصاف بلازم من لوازمها إلى غير ذلك مما يجب اتصافه تعالى به من الأوصاف العلية [1] .

إنّ العقل عند السنوسي هو البداية للوصول إلى المعرفة الذوقية يليه في الرتبة القلب ، ولهذا فسر الإمام " رؤية الرب بعين القلب "على أنّها المعرفة بوجود الله تعالى ، و ما يَجِبُ لـه ، وما يَسْتَحِيلُ ، و لا تكون إلا ببصيرة القلب التي هي عينه ، و هو الجُزْءُ الذي يَقُومُ بـه العِلمُ [2].

بمعنى أنّ رؤية الله بالقلب ، لا تتحقق إلا لمن عرف ربّه بالبرهان القاطع و الدليل الواضح ، وتميّز لـه ربّه عن كل ما سواه فتزهه عن الشريك و الشبيه و المثيل ، و ذلك تنبيها منه على أنّ حصول الإيمان لا يكون إلا عند حصول المعرفة ، لأنّ الإيمان عنده هو حديث النفس التابع للمعرفة لا نفس المعرفة .

المسألة الثانية المتعلقة بالعقل في رحاب المعرفة الذوقية عند الإمام ، هي الخوف عليه من العجب بنفسه من هذه المعرفة ، و هي صفة لا ينفك عنها العقل ، و سبب هذا العجب هو ابتهاج القلب بما تحلى به من يواقيت العلوم بهذه الكمالات ، و اهتزازه طربا مما غمره من محاسن تلك الصفات التي يستحيل أن يتصف بها غير مولانا جل و عز من جميع الكائنات ، و تتره العقل

[1]- السنوسي- شرح حديث التسبيح: لوحة 129 ص 258

[2]- السنوسي- شرح أبيات في التصوف لألبيري : لوحة 150ص 299

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

في محاسن هذه الروضة العديمة المثال ، و شرب من ماء سلسبيلها المطرد تحت باسقات الأنظار السديدة التي منّ بها مولانا العلي ذو الجلال ، و خيف عليه من شدة الفرح بذلك أن يستكن ، و تستولي عليه القوة الوهمية فيعربد ، و يسيء الأدب بلفظه في حضرة جلال مولانا جل و عز [1].

و سبب ذلك عند الإمام السنوسي أنّ العقل " يعتقد أنّه قد أحاط بكمالات مولانا جل و عز فناداه صاحبه عند ذلك : " الزم كنك ، و اعرف قدرك ، فالله أكبر " أي أجل قدرا ، وأرفع جلالا أن تحيط بكمالاته نهاية العقول : " اللهم لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك " [2] ، فرجع العقل عند هذا بعد سكره الذي كاد أن يخامر قلبه إلى صحوة و نكص على عقبه سالكا ما هو الأليق به من سبيل الإقرار بالعجز عن الإحاطة بجلال مولانا جل و عز و أطرق رأسه حياء مما كاد أن يخامره أولا فقال : " الله أكبر "[3].

إنّ غفلة القلب عند السنوسي تمنع المريد من الدخول في حضرة الله ، أي : دائرة ولايته، و التمتع بجمال ذاته و صفاته ، و لا مطمع للمريد في هذه الحضرة المقدسة إلا بالتطهر من هذه الجفاية والإعراض عن المعاصي و الشهوات[4].

و قد أشار الشيخ "ابن عطاء الله" إلى هذا المعنى في قوله : " كيف يشرق قلب ، صور الكائنات منطبقة في مرآته ؟! أم كيف يرحل إلى الله ، و هو مكبل بشهواته ؟! أم كيف يطمع أن يدخل في حضرة الله ، و هو لم يتطهر من جنابة غفلاته ؟!" [5].

إنّ المشكلة هي غفلة القلب عن الله ، و العلاج يكمن في أن يسعى الإنسان سعيه الجاد للتخلص منها ، فإذا تخلص من الغفلة اتجه منه القلب إلى مولاه ، و سار ثابتا مستقيما في طريق

1- المصدر السابق : لوحة150 ص 300

2- رواه أبو داود (64/2) كتاب : الصلاة. باب : القنوت في الوتر . و الترمذي في سننه :ص: 560 . كتاب : الدعوات. باب : الدعاء في الوتر. (في الصلاة) .

3- السنوسي – شرح حديث التسبيح :لوحة 129ص 258

4- السنوسي – شرح أبيات التطهر بماء الغيب : لوحة 148ص295

5- ابن عطاء الله السكندري – الحكم العطائية الحكمة الثالثة عشر

الطاعات و صحا شعوره و ضميره إلى مراقبة الله عز وجل و ذكره ، و لا يتحقق هذا إلا إذا أقبل العقل يستأذن القلب ليغرس فيه هذه المعاني المتقدمة ، و هذه هي طهارة العارفين عند السنوسي وأول مقاماتهم [1].

و بالأساس إنّ المعرفة الذوقية عند السنوسي لا تكون صحيحة إلا بحسب المعرفة الرسمية التي أنتجتها البراهين العقلية ، إذ علامة صحة الذوق عند الإمام أن يجري على وفق ما شهد به العلم الرسمي [2].

فالسلامة في المعرفة الذوقية تكون بالإتباع و الهلاك كل الهلاك بعدم مراعاة هذه المسألة، وهو ما أشار إليه الإمام بقوله : " أنّ بعض السالكين في طريق المعرفة الذوقية إذا لاح لهم شيء من روائح هذه المعرفة اغتروا بذلك ، و تركوا الإقتداء بالرسول عليه الصلاة والسلام و تبدعوا أمورا لأنفسهم فهلكوا بسبب ذلك " [3].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]- المصدر السابق : لوحة 148ص 295 ومابعدها

[2]- السنوسي- شرح أبيات في التصوف لألبيري :لوحة 150 ص 299

[3]- السنوسي - شرح أبيات التطهر بماء الغيب : لوحة 148ص295

المبـــحث الثاني :

شروط ومراحل الممارسة الذوقية و الفوائد المترتبة عليها

المطلب الأول : شروط الممارسة الذوقية و مراحلها .

إعلاء للذّوق و الممارسة الذوقية ، و تقديرا لمترلتها الشريفة ، فقد وضع لـــها الإمـــام محمد بن يوسف السنوسي شروطا لممارستها و المواظبة عليها ، و مجموعة من المراحل والخطوات المتدرجة على السالك احترامها و السير فيها حتى تكون مثمرة . و فيما يلي بيان ذلك :

أولا : شروط الممارسة الذوقية .

يشترط الإمام السنوسي قبل ممارسة التجربة الذّوقية و الذكر الالتزام بالشروط الأساسية التالية ، و التي يمكن تلخيصها فيما يلي حسبما جاءت في " شرح أم البراهين "[1] :

– الشرط الأول : اعتزال النّاس ، و العزلة انفراد القلب بالله و تفرغه له[2] . فإلى جانب العلم الضروري الذي يشكل القاعدة العقلية للعلم الباطني ، و إلي جانب حضور الاستعداد النفسي و الإرادة لخضوع التجربة الذّوقية ، لا بد – في مذهب السنوسي– من تجنب معاشرة الناس ، حيث يبقى المريد رهين بيته ، أو المسجد ، أو مكان خال من الضجيج ، و يهيئ لنفسه أسلم الظروف التي تمكنه من ملازمة الذكر تقربا إلى الله سبحانه و تعالى ، و كسبا لرضاه و محبته ، و الوصول إلى المعرفة الكاملة بملكوت الله تعالى . و الغاية من اعتزال النّاس ، التحصّن من المفاسد و أسبابها ، و إيجاد جو و مناخ ملائم للدخول في عالم الذّوق[3] . و الشكل الوحيد

[1]– السنوسي – شرح أم البراهين : ص87

[2]– أحمد بن عجيبة الحسني – إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، دط ، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع ، دت : ج1 ص30

[3]– جمال الدين بوقلي حسن– ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية وفي الواقع : ص 562

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

للعزلة التي يمكن ، بل و يجب أن يعتبر نافعا و مرغوبا فيه بالنسبة إلى كل النّاس ، لأنّه يخلق القيم الإيجابية الأساسية ، هو الابتعاد الجزئي عن الضجيج الدنيوي بقدر ما يلزم للاستجماع و التأمل الخصب ، و لا أحد يماري في فضل هذا النّوع من الانطواء ، فهو وسيلة الوحيدة القادرة على إضاءة أفكارنا ، و إعلاء مشاعرنا ، و شحذ عزائمنا ، و دعم صلاتنا بالقيمة المطلقة ، بيد أنّه ليس بلازم أن يتم هذا الاعتزال خارج المدينة ، و على حساب واجباتنا الأسرية و الاجتماعية فبدلا من أن يعتبر انقطاعا ، ينبغي أن يكون بالأحرى اهتماما باسترداد أنفسنا خلال ساعات فراغنا و بخاصة أثناء الليل ، و هو ما يقصد إليه القرآن ، في سورة المزمل { **إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءاً وَأَقْوَمُ قِيلاً** }[1] "[2].

– الشرط الثاني : الطهارة ، و هي عامة ، تشمل طهارة البدن ، و الثوب ، و المكان ،كمن يتأهب للأداء الصلاة و يستعد لها . و " ينبغي أن يكون الذّاكر على أكمل الصفات ، فإن كان جالسا في موضع ..، جلس متذللا متخشعا بسكينة و وقار مطرقا رأسه ، و لو ذكر على غير هذه الأحوال جاز و لا كراهة في حقه ، لكن إن كان بغير عذر كان تاركا للأفضل و الدليل على عدم الكراهة قوله تعالى :{ **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** }[3] "[4].

[1]– المزمل الآية 06

[2]– عبد الله دراز– دستور الأخلاق في القرآن الكريم ، ط10، تعريب عبد الصبور شاهين ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، لبنان ، 1418هـ/1998م :ص 651

[3]– آل عمران الآية 190– 191

[4]– النووي – حلية الأبرار و شعار الأخيار – تحقيق علاء الشربجي و قاسم النوري ، ط1 ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، لبنان ، 1412هـ /1992م : ص32

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- الـــشرط الثالث : تحري الخلوة [1] ، و هي " أخصّ من العزلة لأنّها بوجهها و صورتها نوع من الاعتكاف ، لكن لا في المسجد و ربما كانت فيه ، و أكثرها عند القوم لا حد لـــه ، لكنّ السنّة تشير للأربعين لمواعدة موسى عليه السلام ، و القصد في الحقيقة ثلاثون ، إذ هي أصل المواعدة ، و جاور صلى الله عليه و سلم بحراء شهر ، كما في مسلم [2]. و كذا اعتزل نساءه ، و شهر الصوم واحد ، و زيادة القصد و نقصانه كالمريد في سلوكه ، و أقلها عشرا لاعتكافه عليه السلام العشر ، و هي للكامل زيادة في حاله و لغيره ترقية ، و لا بد من أصل يرجع إليه ، و القصد بها تطهير القلب من أدناس الملابسة ، و إفراد القلب لذكر واحد ، و حقيقة واحدة ، و لكنّها بلا شيخ مخطرة ، و له فتوح عظيمة ، و قد لا تصلح لأقوام فليعتبر كل أحد بها حاله " [3] .

فالخلوة بناء على ما تقدم انقطاع عن البشر لفترة محدودة ، و ترك للأعمال الدنيوية لمدة يسيرة ، لغاية نبيلة يخلو فيها المريد مع ربه سبحانه و تعالى .

- الشرط الرابع : اختيار الزمان . و يكون بأن يختار الذاكر الأوقات و الأزمنة المشرفة طمعا في موافقة ساعات الاستجابة ، و أفضل الأوقات عند السنوسي بعد الفجـــر إلى طلـــوع الشمس ، و بعد العصر إلى غروبها ، أو بين صلاة المغرب و العشاء ، و السحر [4].

الشرط الخامس : استقبال القبلة . و هو شرط أخير الذي يشترط على مـــن يريـــد ممارسة الذكر أن يقوم به يحترمه .

[1]- قال القشيري : " الخلوة صفة أهل الصفوة ، و العزلة من أمارات الوصلة و لابد للمريد في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه ثم في نهايته من الخلوة لتحقيقه بأنسه و من حق البعد إذا آثر العزلة أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره و لا يقصد سلامته من شرّ الخلق فإن الأول من القسمين نتيجة استصغار نفسه و الثاني: شهود مزيته على الخلق و من استصغر نفسه فهو متواضع و من رأى لنفسه مزية على أحد فهو متكبر " . انظر ، القشري – الرسالة القشيرية : ص 176

[2]- أخرج مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان عن جابر ابن عبد الله –رضي الله عنه قال – قال رسول الله صلى الله عليه و سلم "جاورت بحراء شهرا، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت بطن الوادي".

[3]- أحمد زروق البرنسي – قواعد التصوف : ص 77

[4]- السنوسي – شرح أم البراهين : ص87

أما آدابها فخمسة : وهي الأول خلو الباطن من الطعام ، و الثاني جلوس الذاكر على هيئة تقتضي الخشوع ، و الانكسار ، و الثالث تغميض العينين عند التوجه للذكر ، و الرابع اتخاذ سبحة ليحصي بها عدد التزامه لأنّ الحصر بالأصابع مشغل للفكر سيّما أهل البداية ، والخامس ألّا يقطع ورده بشيء من كلام أو غيره فإنّه قادم على الله تعالى يناجيه و يخاطبه فلا يقطع إلا لعارض[1] واجب أو كالواجب [2] .

ثانيا : مراحل الممارسة الذّوقية .

للممارسة الذّوقية عند السنوسي ثلاثة مراحل و خطوات متدرجة ، على السّالك احترامها و السّير فيها و هي على النحو الآتي :

أ / الدخول في التخلية : و يقصد بالتخلية ، تصفية القلب و تخليصه من كل الخواطر الوهمية ، و كل الأسباب التي من شأنها ، أن تستعبده أو تصرفه عن الامتثال للواحد الأحد ، كالجاه و المال و النساء و الذرية و المدح و الذم [3] .

و لتحقيق هذه الغاية يجب على الذاكر أن يفتتح ورده أولا بالاستغفار و لو مائة مرة ليغسل باطنه من أدران المعاصي ، و يتهيأ للمرحلة الثانية من مراحل الممارسة الذوقية و هي التحلية [4]. لأنّ شأنها أن تأتي بعد التخلية .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] – الأحوال تعرض للذاكر و يستحب له قطع الذكر بسببها ، ثم يعود إليه بعد زوالها ، منها : إذا سلم عليه رد السلام ، ثم عاد إلى الذكر و كذا إذا عطس عنده عاطس شمته ، ثم عاد إلى الذكر ، و كذا إذا سمع الخطيب ، و كذا إذا سمع المؤذن أجابه في كلمات الآذان و الإقامة ثم عاد إلى الذكر ، و كذا إذا رأى منكر أزاله ، أو معروفا أرشد إليه ، أو مسترشدا أجابه ، ثم عاد إلى الذكر و كذا إذا غلبه النعاس أو نحوه ، و ما أشبه هذا كله". انظر ، النووي – حلية الأبرار و شعار الأخيار : ص 71- 72

[2] – السنوسي – مختصر بغية السالك في أشرف المسالك ، مخ :لوحة 01ص01

[3] – جمال الدين بوقلي حسن – ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية والواقع : ص 563

[4] – السنوسي– شرح أم البراهين : ص 87

ب / الدخول في التحلية .

و يقصد السنوسي بالتحلية ، تحلية القلب و اللسان بالأنوار الإلهية الزاكية من شدة ذكر الله و معرفته ، و حتى يتحقّق ذلك يجب على الذاكر أن يتبع ذكره السابق ، الصّلاة على النبيّ صلى الله عليه و سلم ، و لو خمسمائة مرة ، ليستنير بها الباطن و يتهيأ لما يرد عليه من سرّ التهليل، و لا ينسى الذاكر ، و هو في هذه الحالة الإيمانية أن يقصد بنيته – من وراء هذا الذكر – امتثال أمر الله تعالى ، و طلب رضاه ، و الذي يساعد الذاكر و يعينه على إحضار نيته لله ، هو قلبه . و قصد القربة في هذه الأذكار ، أن يذكر على قلبه أمر مولانا جل و علا ، ليستشعر هيبة الأمر بمعرفة من صدر منه [1].

و أمّا في كيفية ذكر ذلك على القلب فيؤكد السنوسي أنّ على الذاكر أن يحرص أولا على التعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم ليتل بعد هذا التعوذ ، قوله تعالى : { وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ }[2] ، فإذا فرغ الذاكر من تلاوة هذه الآية الكريمة من القرآن العظيم استشعر القلب خطاب المولى الكريم جلّ جلاله ، و طلبه بفضله من العبد الضعيف الفقير الحقير الاستغفار والتجأ إلى مولاه الرحمان الرحيم العزيز الغفار فذاب عند ذلك من شدة الحياء من المولى الكريم ، و احتقر نفسه إذ لم يرها أهلا لخطاب من أوجد الكائنات كلها ، و افتقر جميعها إليه و هو الغني بإطلاق ، ذو الفضل العظيم ، فعند ذلك يبادر بلسانه ، و هو يرتعد من شدة الهيبة و الخجل و التعظيم قائلا : لبيك مولاي و سعديك و الخير كله في يديك و هذا عبدك الذليل الحقير الضعيف ، عليك معوله في طهارة باطنه و ظاهره [3].

و مسار التحلية عند السنوسي لا يتوقف هنا ، بل يمضي بعيدا في الاستغراق في الاستغفار حيث يقول الذاكر : "بتوفيقك امتثالا لأمرك مستعينا بك : " اللهمّ إني أستغفرك يا

[1]– السنوسي – شرح حديث التسبيح : ص 258 ، و شرح أم البراهين : ص 87

[2]– البقرة الآية 110

[3]– السنوسي– شرح أم البراهين : ص 87 : ص 87– 88

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مولاي و أتوب إليك من جميع الكبائر و الصغائر و هفوات الخواطر " ، أو نحو ذلك من عبارات و أدعية الاستغفار ، و ليختر منها ما يراه قوي التأثير في نفسه و باطنه [1].

و الظاهر أنّ الإمام بهذا المعنى يميل و يحبّ أن يدعو الذاكر و يستغفر بالصيغ المذكورة الواردة في القرآن الكريم ، و المأثورة في السنة النبوية ، فهي أفصح بيانا ، و أرجح ميزانا ، و أجمع في المعاني و أرفع في المباني ، و أعظم تأثيرا في القلوب ، بخلاف ما يصنعه النّاس من صيغ يختاروها لأنفسهم ، و أوراد يؤلفونها من ذواتهم ، فلن يكن لها حلاوة الكلمات القرآنية ، و طلاوة العبارات النبوية .

على أنّ الاستغفار و الذكر و الدعاء بالمأثور له أجرين : أجر الدعاء و الاستغفار والذكر ، و أجر الاتباع و الاقتداء [2].

و من الصيغ و الأدعية القرآنية : الأدعية التي ذكرها القرآن الكريم عن آدم و نوح وإبراهيم وغيرهم من الرسل و الأنبياء الصالحين مثل قوله تعالى : { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [3]. و قوله تعالى:{رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ، رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [4] . " {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } [5]...

و من الحديث ، جاءت صيغ كثيرة و متنوعة ، منها : سيد الاستغفار...و غيره [6] ثم يتمادى حتى يتم ورده من الاستغفار ، فإذا أتمّه حمد الله تعالى ثلاثا ، أو سبعا ، أو نحو ذلك ،

1- المصدر السابق : ص 88

2- يوسف القرضاوي – في الطريق إلى الله (التوبة إلى الله) : ص75

3- الأعراف الآية 23

4- الممتحنة الآية 04- 05

5- آل عمران الآية 147

6- انظر ، الفصل الثاني : ص 117

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مستحضرا قدر النعمة التي وفقه المولى الكريم لبدئها و تمامها حتى غسل من القلب أدرانه ، و كشف عنه دخان الذنب .

ثم يمضي السنوسي في استعراض بقية الأذكار التي ينبغي للذاكر أن يلتزمها و يتدرّج في تلاوتها ، و أهم ما يجب استحضاره دائما هو صحة النية ، و الإخلاص لله تعالى ، فإنّ الله سبحانه لا يقبل من العمل إلاّ ما كان خالصا لوجهه كما قال تعالى : { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء }[1]..لأنّ المراد من الذكر تعظيم المذكور و لا يكون ذلك إلاّ بحضور القلب في حالة الذكر و تعقل معناه . فينبغي أن يكون هو مقصود الذاكر فيحرص على تحصيله و يتدبر ما يذكر ، و يتعقل معناه فالتدبر في الذكر مطلوب ، كما هو مطلوب في القراءة لاشتراكها في المعنى المقصود : { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا }[2] "[3] . و بعد هذا الاستحضار يقول الذاكر في هيئة ذلك: "الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة الإيمان ، و هدانا بسيدنا و مولانا محمد عليه من الله تعالى أفضل الصلاة و أزكى السلام" [4] . ثم ليقل :{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ }[5] .

بعد ذلك ينبه السنوسي ، المريدين في أن يشرعوا ، إثر ذلك في التعوذ مرة أخرى ، بقصد التلاوة على ما سبق ، و ليتل الذاكر على قلبه : { إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا }[6] . فعند ذلك يستحضر القلب عظيم شرف سيدنا و مولانا محمد صلى الله عليه و سلم عند الله تعالى ، و أنه كان عنده منزلة لا يمكن أن تلحق ، إذ مولانا جلّ و عز على ما هو عليه من الجلال -كما يذكر السنوسي – يخبر أنّه يصليّ بنفسه على سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم ، و كذلك ملائكته الكرام عليهم الصلاة

[1]- البينة الآية 5
[2]- النساء الآية 82
[3]- النووي – حلية الأبرار و شعار الأخيار :ص40-41
[4]- السنوسي– شرح أم البراهين : ص 88
[5]- الأعراف الآية 43
[6]- الأحزاب الآية 56

و السّلام على ما هم عليه من الكثرة و الشرف يتوسلون إلى الله تعالى بالصلاة على حبيبه و مصطفاه من جميع خلقه صلى الله عليه و سلم . فالصّلاة على النبي صلى الله عليه و سلم هي وسيلة لرضا الله على العبد لأنه أفضل الخلق عنده ، مع العلم كما يذكر السنوسي أنّ إجابة أدعيتنا موقوفة على صلاتنا على نبينا و مولانا محمد صلى الله عليه و سلم [1] .

و لقد رأى الشيخ السنوسي لهذه الصلاة سرا عظيما يستعصي إفشاؤه ، لا يكيّف ، و لا يحدّ ، لا يحجب عنها من سبقت له العناية و السعادة ، كما أنّه لا يوفق إليها من سبقت له الشقاوة و العياذ بالله [2] ، لأنّ الصلاة على رسول الله صلى الله عليه و سلم فيما يقول : " تترلت في حقنا مترلة السجود لآدم عليه الصّلاة و السلام ، فمن قام بها ، كان شبيها بالملائكة ، و من أنف و استخفّ بها كان شبيها بإبليس اللعين ، و من نهى عنها و أهملها ، فقد أخطأ طريق الحق " [3].

و من تكرم عليه ربّه من عباد الله تعالى - عند الإمام - بالصلاة على حبيبه ، و مصطفاه ، " فليفرح لأنّه عبد فقير ضعيف حقير ، تفضل عليه مولاه الكريم و سيده ربّ العالمين بأن أدخله بهذا الخطاب الجسيم السابق ، و ما احتوى عليه من الأمر العظيم في روضة التقرب إلى حبيبه صلى الله عليه وسلم ، و أفضل خلقه عليه من مولانا جل و علا أفضل الصلاة و أزكى التسليم " [4] .

و الملاحظ عند السنوسي أن مسار الذّوق عنده مسار واعي صاحبه عالم بما يقول و بما يذكر و يتكلم ، فإنّ الصّلاة على النّبي صلى الله عليه و سلم يسبقها العلم بهذا النبيّ الأمي ، والعلم برسالته عليه السلام ، و لأنّها الصلة بين السماء و الأرض ، فهي الوسيلة التي عرفت

[1]- السنوسي - شرح صغرى الصغرى : ص 10

[2]- السنوسي - نصرة الفقير : ص 439

[3]- المصدر نفسه : ص 441 . يشارك الإمام " أحمد زروق البرنسي الإمام السنوسي هذا الوصف في أهمية ومترلة الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم . انظر ، أحمد زروق البرنسي - عدة المريد الصادق : ص48

[4]- السنوسي - شرح أم البراهين : ص 88

البشرية من خلالها ، ما يتعلق بعالم الغيب و ما يجب على الخلق أن يفعلوه نحو خالقهم و هذا يتمم إلى المنهج الحق الذي تقوم به حياتهم .

و من جهة أخرى لا يكون المؤمن مؤمنا عند الإمام ، و لا صحيحا بدون الإيمان برسالته صلى الله عليه و سلم ، فإذا استحضر الذاكر هذه المعاني كلها فحينئذ عليه أن يبادر بلسانه - و هو مبتهج فرح مسرور بفضل الله عليه ، إذ أنّه فتح له الباب إلى التوصل منه إلى أعظم الوسائل عنده سيدنا و مولانا محمد صلى الله عليه و سلم - فيقول مجيبا لهذا الأمر الجليل : " لبيك مولاي و سعديك ، و الخير كله في يديك و هاهو العبد الفقير الحقير راكن لمنبع حنانك متوسل إليك بأفضل أحبابك ، صلى الله عليه و سلم ". ثم يقول : بتوفيقك ممتثلا لأمرك و مستعينا بك في جميع أموري : " اللهّم صلي على سيدنا محمد رسولك و دليلك ، صلاة أرقى بها مراقي الإخلاص ، و أنال بها غاية الإخلاص ، و سلم تسليما عدد ما أحاط به علمك ، و أحصاه كتابك " ، و غير ذلك من كيفيات التصليات التي تليق بحاله .

ثم يتمادى الذاكرعلى ذلك مستحضرا لصورته صلى الله عليه و سلم التي ليس ثمّ في المخلوقات مثلها في الجمال مستشعرا عظيم حرمته عند العلي ذي الجلال ذاكرا عظيم شفقته و رأفته بالمؤمنين و شدة اهتباله بهم في حياته و بعد مماته ، و السعي في مراشدهم و إنقاذهم من كل هول الدنيا و الأخرى صلى الله عليه و سلم و على سائر رسله و أنبيائه أجمعين [1].

و الهدف من ذلك عند السنوسي أن يتربى المؤمن بذلك على عظيم محبته عليه السلام في قلبه ، و تتشعشع أنوار حسن الإتباع في ظاهره ولبّه ، فإذا فرغ من ورده في الصّلاة عليه - صلى الله عليه وسلم- حمد الله تعالى أيضا على التوفيق لبدء ذلك و تمامه ، ليقيد بالشكر هذه النعمة العظمى خشية السلب ، و أقل ذلك ثلاث ، أو سبع [2].

[1]- المصدر السابق : ص 88- 89

[2]- المصدر السابق : ص - 89

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ج / **الجمع بين التخلية و التحلية** . و هي تقوم على جملة من الخطوات المتدرجة وخلاصتها كالآتي : أن يتعوذ الذّاكر من الشيطان الرجيم و يتلو بعض الآيات القرآنية ، و يقف عند قوله تعالى :{ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ } [1].. ثم يستجيب لأمر الله تعالى بالتهليل و استحضار النّية ثم الصّلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم .

و لنترك الإمام السنوسي يعرض لنا مراحل هذه الخطوة بتفاصيلها ، يقول الإمام أنّه بعد الانتهاء من الدخول في مرحلة التحلية " فليشرع الذاكر إثر ذلك أيضا ، في التعوذ قاصدا التلاوة ، ثم ليتّل إثره قوله تعالى: { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ } ثم ليجب أمر مولانا العزيز بقوله:" لبيك مولاي و سعديك ، و الخير كله بيدك ، و ها هو العبد الفقير الحقير يوحدك بالتهليل، منخلعا من كل شريك ، و من كل تغيير و تبديل ، يقول مخلصا من قلبه ، ذاكرا لربه: " لا إله إلا الله محمد رسول الله ، صلى الله عليه و سلم " إلى آخر مرحلة من التسبيح و التهليل، و ليعد الذّاكر التعوّذ و التلاوة في أول كل دور منها ، و إن اكتفى بالمرة الأولى فلا بأس عليه " و ليحافظ على إحضار قلبه لمعنى التهليل ليفوز بثمراته ، و ليستضيء قلبه بعظيم أنواره ، و تحصل له الحرية العظمى من رقه لشيء من الكائنات ، و يتحلى بالرتبة العظمى و الأشرف الأبهى ، باستناده علما و حالا ظاهرا و باطنا إلى مولاه المنفرد بالملك و التدبير ، الذي لا نافع و لا ضار سواه على العموم ، تبارك و تعالى ، و نعم المولى و نعم النصير " [2].

و ممّا ينبغي للذاكر في كل ذكر – من أذكار الله تعالى – أن لا يغفل المؤمن عن " ذكر سيدنا و مولانا محمد صلى الله عليه و سلم ، إمّا بأن يصلي عليه إثره ، أو يقرّ برسالته مع الصلاة عليه صلى الله عليه و سلم أو نحو ذلك ممّا يوجب تعظيمه و التمسك بأذياله ، إذ هو صلى الله عليه و سلم باب الله الأعظم الذي لا ينال كل خير دنيا و أخرى إلاّ بالتعلق بأذياله ، فمن غفل عن ذكره صلى الله عليه و سلم ، لم ينل مقصده ، و كان مرميا به في سجن القطيعة ، محروما من خير الدنيا و الآخرة ، و سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم هو دليل الخلق إلى الله تعالى فكيف

[1]- محمد الآية 19

[2]- السنوسي – شرح أم البراهين: ص 89

يصل إلى الله من غفل عن ذكر دليله "[1]. و علما أنّ الغافلين عن ذكر النبي صلى الله عليه و سلم أكثر من الذاكرين له[2].

المطلب الثاني : الفوائد المترتبة على الممارسة الذوقية .

إنّ المواظبة على الذكر ، و الالتزام بالشروط الأساسية التي أشار إليها الإمام السنوسي، و احترامها في الممارسة الذوقية ، و احترام خطواتها و مراحلها ، تكسب الذاكر جملة من الفوائد منها ما يرجع إلى محاسن الأخلاق الدينية ، و منها ما يرجع إلى الكرامات و خوارق العادة .

أولا : ما يرجع إلى المحاسن الدينية .

فممّا يتصف به الملازم للذكر ، يسجل السنوسي ثمان محاسن أساسية[3]، و إن كانت هي في الأصل كثيرة عنده ، و من أرادها فليجتهد في أسبابها . و أهم هذه الفوائد و المحاسن هي:

أولا – اتصافه بالزهد : و هو خلو الباطن من الميل إلى فان ، و فراغ القلب من الثقة بزائل ، و إن كانت اليد معمورة بمتاع حلال ، فعلى سبيل العارية المحضة ، و تصرفه فيه بالإذن الشرعي تصرف الوكالة الخاصة ينتظر العزل عن ذلك التصرف بالموت أو غيره مع كل نفس ، و ذلك ينفي عن النفس التعلق بما لا بد من زواله .

ثانيا – التوكل : و هو ثقة القلب بالوكيل الحق بحيث يسكن عن الاضطراب عند تغير الأسباب ثقة بمسبب الأسباب ، و لا يقدح في توكله تلبس ظاهره إذا كان قلبه فارغا منها ، يستوي عنده وجودها و عدمها ، فالتوكل عند السنوسي لا يتعارض مع السعي و الإكساب ،

---

[1]– المصدر السابق : ص 90

[2] – محمد الدسوقي– حاشية على أم البراهين ، د ط ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، دت : ص 255

[3]– السنوسي – شرح أم البراهين : ص 96-94

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فالكسب و التوكل لا يستغني أحدهما عن الآخر ، ففي البداية يكون الكسب و السعي ، ثم يكون الجمع بينهما بالسعي ، و الكسب بالحركة الظاهرة ، مع التوكل بالقلب ، و ذلك لتحقيق الإيمان ، فالجوارح متحركة في الأسباب و الباطن ساكن لوعد الله .

ثالثا – الحياء : و هو تعظيم الله عزّ و جل بدوام ذكره ، و التزام امتثال نهيه و أمره و الإمساك عن الشكوى به إلى العجزة و الفقراء غيره .

رابعا – الغنى : وهو غنى القلب بسلامته من فتن الأسباب ، فلا يعترض على الأحكام بلوم و لا بلعلّ ، لعلمه بمن صدرت منه ، جلّ المنفرد بالخلق و التدبير الملك الوهاب .

خامسا – الفقر: و هو نفض يد القلب من الدينار حرصا و إيثارا ، لقطعه بأنّ حاجته ليست عند شيء منها ، و سكوت اللسان عنها بالكلية مدحا و ذما .

سادسا– الإيثار : وهو إيثار عن النفس بما لا يذمه الشرع .

سابعا – الفتوة : و هي التجافي عن مطالبة الخلق بالإحسان إليه و لو أحسن إليهم ، لعلمه بأنّ إحسانه و إساءتهم إليه ،كل ذلك مخلوق له سبحانه وتعالى:{**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** }[1]، فلم ير لنفسه إحسانا يتطلب عليه جزاء ، و لم ير لهم إساءة حتى يذمهم عليها ، اللهمّ إلاّ أن يكون الشرع هو الذي أمر بذمهم أو معاقبتهم ، فيفعل حينئذ ما أمر به الشرع ليقوم بوظيفة التعبد ، و هذه الفتوة هي فوق المسالمة .

ثامنا – الشكر : و هو إفراد القلب بالثناء على الله ، و رؤية النعم في طي النقم .

---

[1]- الصافات الآية 96

و لعل السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو : لماذا ركّز الإمام السنوسي على هذه الفوائد دون غيرها رغم اعترافه أن هناك غيرها لا تتحقق إلا بالاجتهاد في أسبابها ، و أنّها لا تعرف إلا بالذّوق ؟

في تقديرنا أنّ هذه المحاسن و الفوائد إنما هي خاصة بالتجربة الذّوقية السنوسية ، و ما عاينه الإمام من أحوال نفسه ، و الناظر في كتاب الملالي" المواهب القدسية في المناقب السنوسية " يدرك تماما أن أهم صفات الشيخ الأخلاقية و الصوفية هي ما ذكره الإمام عن تجربته هذه .

الأمر الآخر الذي يجب ملاحظته في هذا الإطار ، أنّ هذه المحاسن و الفوائد الدينيـة المترتبة عن ممارسة التجربة الذوقية السنوسية ، أنها مرتبة عنده ترتيبا تصاعديا ، لا يرتقي السالك إلى رتبة حتى يستوف أحكام الرتبة السابقة عنها .

ثانيا : ما يرجع إلى الكرامات و خوارق العادة .

من الفوائد الأخرى ، التي تحصل للذاكر على الطريقة السنوسية أن يجود الله سبحانه و تعالى و يفتح على عبده الكثير من الكرامات و المواهب ، فمنها وضع البركة في الطعام و نحوه، حتى يكثر القليل و يكفي اليسير و هذا مشاهد لأولياء الله كثيرا [1].

هذا وقد سبق وأن رأينا السنوسي ، يذهب مذهب المحققين ، في جواز وقوع الخوارق، كلها على يد الولي ، باختياره و بغير اختياره . و الولي إنّما يظهر على يده ما يظهر من الكرامات ، بسبب استقامته و امتثاله لأمر الله و نهيه ، و توحيده و ذكره ، و ببركة متابعته للرسول صلى الله عليه و سلم و الإقتداء به .

ومن كرامات الشيخ السنوسي الخارقة للعادة التي ذكرها الملالي عن شيخه "ما وقع لـه مع بعض أصحابه الملازمين له ، وكان كثيرا ما يطلبه أن يطلعه على الأسرار ، ويقترح عليه

1- السنوسي – شرح أم البراهين :ص 94

ذلك فاختطف له يوما حفنة من ذهب من الهواء [1] ، و هو ذاهب معه في بعض فحص البلد ، وهو ينظر إلى ذلك . و أعطاه لبعض الأشراف ، و قال الشيخ لصاحبه : " اكتم الأسرار " فلم يظهر ذلك حتى توفي الشيخ رحمه الله " [2]. و منها ما حدث به أخوه " علي التالوتي "قال : " كانت عندنا مملوكة اسمها سعيدة ، وكانت تحفظ من سورة الرحمن إلى من الجنّة والنّاس ، وكانت صالحة وكانت ترى النّبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، وتصفه لنا على الصفات المذكورة في الكتب . قال : ومهما نزل بها أمر من الأمور ، رأته صلى الله عليه وسلم . قال : فرأته ليلة من الليالي على عادتها ، فقال لها صلى الله عليه وسلم : قولي لمحمد بن يوسف السنوسي – لا أدري هل زاد لفظة السنوسي أم لا ؟- كنت تصلي عليَّ كذا وكذا فرجعت تنقص منها " أو كما قال صلى الله عليه وسلم. قال : فلما أصبحت . قالت لي يا سيدي هل عندك أخ اسمه محمد ؟ قال لها : نعم . قالت لي : قال لي النبي صلى الله عليه و سلم كذا و كذا . قال : فبعثت لأخي سيدي محمد فجاءني ، فأخبرته بما رأت الأمة . فقال لي أخي سيدي محمد : قالت الحق . لا شكّ أنّي كنت أصلي على النبي صلى الله عليه وسلم في كل يوم ألف مرة ، ثم نقصت منها نصفها خمسمائة ، و ما سبب النقص إلا كثرة الاشتغال بحوائج النّاس شوشوني ، و لم أجد لهم راحة الانفكاك ، فهذا سبب النقص . قال لي سيدي علي : فمن ذلك اليوم رجع إلى ما كان عليه أول مرة من تكميل ما نقص "[3].

---

[1]– قد يتعجل البعض فينكر مثل هذا الأمر ، على أساس أن مثل هذه الكرامات قد نسبها الملالي لشيخه ، ليزداد الناس له حبا كعادة بعض التلاميذ مع شيوخهم ، وأن مثل هذا الأمر ينكره السنوسي نفسه وهو المعروف بشيخ العقل والتوحيد في زمنه ! ونجيب على هذا بقول الشيخ نفسه الذي يثبت فيه مثل هذه الكرامات يقول :" وأما النوع الثاني من الفوائد ، وهو ما يرجع إلى الكرامات فمنها وضع البركة في الطعام ونحوه ..ومنها تيسير دنانير أو دراهم أو كليهما أو غير ذلك مما تدعو إلي الحاجة ، وقد كان بعض المشايخ في أول أمره حدادا ، فتعذر عليه شغل الحرارة تعذرا شرعيا ، فكان إذا قضى ذكره رفع رأسه فيجد في حجره درهما يشتري قوت ذلك اليوم ..ومنها أن يكشف له على حقيقة ما يريد استعماله من الطعام ، فيعرف حرامه من حلاله من متشابهه بأمارات يجدها إما من باطنه أو ظاهره أو غيره. و كرامات هذا الباب كثيرة لا تنحصر إلا أن المؤمن لا ينبغي أن يقصدها بشيء من طاعته ، وإلا دخل عليه الشرك الخفي ومكر به " انظر ، السنوسي — شرح أم البراهين : ص 94

[2]– الملالي — المواهب القدسية : لوحة 42ص 84

[3]–المصدر نفسه :لوحة 43ص 86 . و منها ما حدث به الشيخ رضي الله تعالى عنه عن ليلة من الليالي في أواخر عمره عن تشويش الخلق له. قال لي رضي الله عنه:«رجع ذلك الجامع يعني المسجد مثل المصيدة كل من جاء يحضرنا فيه، ويشغلنا عن الأمور الضرورية، فنرجع إن شاء الله لا نقري أحدا بذلك المسجد، ولا نصلي فيه أبدا. فقلت له: يا مولاي يبقى الجامع خاليا الناس لا يجيئون إليه إلا إذا كنت فيه، ولا يجتمعون إلا عليك. فقال لي كذا إن شاء الله أوكما قال رضي الله عنه. وأخبرني بهذا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذا والإمام ينبه المؤمن الذاكر ، أن لا يكون قصده من وراء طاعته ، و ذكره حصول هذه الكرامات ، و إلاّ دخل عليه الشرك الخفي و مكر به ، – و العياذ بالله – إنّ هذه من جملة ما يجب أن يصفى منها قلبه عند الذكر " فليقطع التفاته إليها بالكلية [1]، و ليكن مقصده رضا مولاه الذي لا خلق له منه ، ولا غنى لمخلوق عنه ، و كشف الحجاب من عين قلبه ، حتى يتنزه في ذلك الجلال ، العديم المثال ، و يواجهه مولاه بعجائب و أسرار لا يمكن أن يعبر عنها المقال " [2].

و على الجملة فإن الكرمات عند الإمام السنوسي لا ينالها من طلبها ، ولا من حدث نفسه بها ، واستعمل نفسه و هواه في طلبها ، إنّما ينالها عبد لا يرى نفسه و هواه ، و لا عمله ، بل هو مشغول بطاعة و محبة الله تعالى ، ناظر لفضل الله ، آيس من نفسه وعمله .

الكلام من قبل الذي مرض فيه بيومين أو ثلاثة، فوقفت على صحة قوله بعد موته. وتعجبت من عظيم مكاشفته رضي الله تعالى عنه . انظر ، المصدر السابق : لوحة 45ص 90

[1] – قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه:« عند بسط الكرامة أربعة: حب يشغلك عن حب غيره، ورضى يصل به حبك بحبه، وزهد يحقق بزهد رسوله، وتوكل يكشف لك به عن حقيقة قدرته.» وقال أيضا:«مدار الأعمال على أربعة أشياء: المحبة و الإخلاص والحياء والإيمان؛ فالمحبة بالخوف والإخلاص بالعلم، والحياء بالتعظيم، والإيمان بالصدق.»وقال أيضا رضي الله تعالى عنه:« كرامات الصوفية خمسة: أولها: دوام الفكر والطاعة بشرط الاستقامة. الثانية: الزهد في الدنيا بإيثار القلة.الثالثة: تجديد اليقين مع المعارضة.الرابعة: وجود الوحشة مع أهل المنفعة ولاأنس مع أهل المضرة. الخامسة: ما يظهر على الأبدان من طي الأرض، والمشي على الماء، وغير ذلك مما لا يجري على حكم العادة. ولهذا الفصل أوقات ، وأشخاص ، وأماكن فمن طلبها في غير وقتها قل ما يعثر عليها" . انظر ، المصدر السابق : لوحة 40ص 80

[2]–السنوسي – شرح أم البراهين : ص 94- 95

المبحث الثالث :

خصائص الممارسة الذوقية و بعض أورادها

المطلب الأول : خصائص الممارسة الذوقية .

تتميز التجربة و الممارسة الذوقية السنوسية بجملة من الخصائص وتقوم على عدة مقومات من أهمها :

أولا : أساسها التوحيد .

التوحيد هو أول خصائص الممارسة الذوقية السنوسية ، و هو أيضا أول مقوماتها ، فلا وجود و لا معنى لهذه الممارسة بغير التوحيد ، و لا أثر لها بغيره ، فإن الذاكر في الطريقة السنوسية يكون بالضرورة و قبل كل شيء على دراية بالتوحيد[1] ، و التوحيد كما هو الأساس في الفكر العقدي عند السنوسي ، هو أيضا أول مقوم من مقومات الفكر الصوفي عند الإمام ، كما أنّ حقيقة التوحيد هي الأساس في حركته الإصلاحية ، و تجرد الشيخ لهذا الأمر يعود لجملة من الأسباب ترجع كلها إلى :

قيمة التوحيد في العقيدة الإسلامية ، فهي أساس الدين الإسلامي ، و الركن الركين الذي تتمحور حوله سائر حقائقه ، و منه تستمد قوامها ، و إليها ترجع كلها بوجه أو بآخر ، ولقد بيّن القرآن الكريم بأنّ الأنبياء جميعا بعثوا إلى أقوامهم برسالة التوحيد عنوانها " اعبدوا الله ما لكم من إله غيره " مثل قوله تعالى :{ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** } ، و قوله تعالى :{**وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ** }، وقوله تعالى:{**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ**

[1]– **جمال الدين بوقلي حسن – ابن يوسف السنوسي بين الذاكرة الشعبية والواقع : ص 546**

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} ، و قوله تعالى :{وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }[1] ، و تحريرهم من رجس وعبادة الطاغوت أيّا كان اسمه وعنوانه، و أيّا كان شكله و صورته :{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}[2]. و كانت دعوة النبي صلى الله عليه و سلم إلى ملوك النصارى و أمراء أهل الكتاب لهذه الآية الكريمة" { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ}[3] .

الأمر الثاني ، تدهور الحالة الروحية و الوضع السياسي للإنسان في زمان الإمام السنوسي إذ أنّ اعتقاد الناس في هذه الفترة و لسكان أهل المغرب خاصة ، لم يكن يستجيب لحقيقة التوحيد الصحيح ، سواء منهم العامة أو العلماء فأما " العامة فأكثرهم ممن لا يعتني بحضور مجالس العلماء ، و مخالطة أهل الخير ، يتحقق منهم اعتقاد التجسيم ، و الجهة ، و تأثير الطبيعة ، وكون أفعال الله معللة لغرض ، وكون كلامه جلّ وعلا حرف وصوتا ، مرة يتكلم ومرة يسكت، كسائر البشر ، ونحو ذلك من اعتقادات أهل الباطل ، و اعتقاداتهم أجمع العلماء على كفر معتقدها ، و أما العلماء فكان بعضهم يصرح بنفي المعاد البدني" [4] .

لذلك كان الحجم الذي تبوأه التوحيد في تفكير السنوسي و حركته متناسبا لتلك المكانة التي احتلها التوحيد من الدين ، ومن هنا انّطلق في دعوته الإصلاحية لشرح معاني التوحيد خاصة ، و العقيدة و التصوف بصفة عامة ، و قد ألف في شرح هذه المعاني عدة كتب و ألحق بعضها شروحا و مختصرات بحسب ما تدعو إليه الحاجة في الفهم و حسب جميع المستويات .

1- الأعراف الآيات : 59، 65 ، 73، 85

2- النحل الآية 36

3- آل عمران الآية 64

4- السنوسي- عمدة أهل التوفيق و التسديد : ص 58

ثانيا : الانضباط بأحكام الشرّع الإلهي .

إنّ جوهر الممارسة الذّوقية عند السنوسي هو حسن الصلة بالله تعالى ، و بذكره و شكره ، و استغفاره و الصّلاة على نبيه ، و حسن عبادة الله جل شأنه ، و حتى تكون هذه الصلة صحيحة يجب أن تكون مضبوطة عند الإمام بأصلين أساسين :

أن تكون هذه الممارسة و العبادة لله وحده ، فلا يشرك به أحد ، و لا يشرك به شيء، و لهذا حرص الإمام أن يكون الذاكر دائما مستحضرا وجود الإخلاص لله ، لأنّه قد تدخل على السالك آفات كثيرة تشوب إخلاصه ، و ما هذه الآفات إلا حجب تعرقل سيره إلى الله تعالى ، لذا كان من الضروري الإشارة إليها ، و تحذير السّالكين الذاكرين من مخاطرها ، ثم بيان طريق الخلاص منها حتى تكون جميع أعمال السالك خالصة لوجه الله تعالى لقوله سبحانه " {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء } [1] . و قوله تعالى : { فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً } [2].

يقول الإمام في هذا الشأن : " و ليقصد [السّالك الذاكر] بذلك كله امتثال أمر الله سبحانه ، و طلب رضاه ، و الذي يعينه على إحضار قلبه ، و قصد القربة في هذه الأذكار ، أن يذكر على قلبه أمر مولانا ، جل و علا ، بكل واحد منها ليستشعر قلبه هيبة الأمر بمعرفة من صدر عنه " [3] .

و أهم حجب الإخلاص عند الإمام ، رؤيته لعمله و إعجابه به ، و حجابه عن المعمول له و بالعبادة عن المعبود ، و تخلص العبد من رؤية أعماله و إعجابه بها يكون بمعرفة نفسه ، و معرفة دخائلها ، فليجتهد الإنسان في تحصيل هذه المعرفة .

[1]- البينة الآية 05

[2]- الكهف الآية 110

[3]- السنوسي - شرح أم البراهين : ص 87

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والحجاب الثاني : طلبه العوض لعمله ، و العوض إما يكون أسر الدنيا و متاعها من مال و نحوه ، أو أسر المقامات و الكرامات ، فلا ينبغي على المؤمن أن يقصد شيء من طاعته ، و إلا دخل عليه الشرك الخفي و مكر به [1].

ثالثا : أنها قائمة على الإتباع لا الابتداع .

لأنها عبادة ، و الأصل - كما نجده عند السنوسي - أنّ المؤمن لا يعبد الله إلاّ بما شرعه سبحانه في كتابه ، و على لسان رسوله صلى الله عليه و سلم ، ذلك لأنّ الأصل في الإسلام في شأن العبادات التوقيف و المنع ،حتى يأتي نص من الشارع ينشئها ، على خلاف الأصل في العادات و المعاملات و شؤون الحياة ، فالأصل فيها الإذن و الإباحة ، ما لم يأت نهي محرم من الشارع [2].

و من هنا فإنّ الذكر الذي يتعبد به المؤمن ربّه ذكر مشروع ، سواء ما كان منه متعلقا بالآيات القرآنية أو الاستغفار أو الصّلاة على نبيه صلى الله عليه و سلم ، و سواء ما تعلق بالشروط اللازمة قبل ممارسة الذكر ، فالسنوسي يدعو المؤمن أن يتهيأ له كما يتهيأ للصلاة ، فيتوضأ ، و يلبس ثيابا طاهرة ، و يستقبل القبلة [3].

فالذين يحكمون أذواقهم ومواجيدهم في إنشاء صور و ابتداع أشكال وأساليب للعبادة، استحسنتها عقولهم ، وزيّنتها لهم أهواؤهم ، مخطئون خطئا فاحشا ، وإن كانوا يقصدون التقرب إلى الله تعالى : فإنّ شرعية العبادة لا تستمد من تحسين العقل ، ولا من تزيين الهوى ، بل من الوحي وحده [4].

[1]- المصدر السابق : ص 94

[2]- يوسف القرضاوي – الحياة الربانية والعلم : ص 36

[3]- السنوسي – شرح أم البراهين : ص87

[4]- يوسف القرضاوي – الحياة الربانية والعلم : ص 36

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فالمبدأ الذي دعا إليه الإسلام أن يتبع المسلم في عباداته الحدود المرسومة له ، فليس يكفي أن يقصد بالعبادة وجه الله وحده ، ولا يتوجه به إلى أحد أو شيء غيره ، بل لا بد أن تكون عبادة الله بالصورة التي شرعها الله ، و بالكيفية التي ارتضاها ، و لا تكون عبادته بما يخترع النّاس من أهواء وظنون .

فمن أسلم وجهه لله و لم يشرك بعبادة ربه أحدا فقد أخلص الدين لله وحده ، ولكن ذلك لا يكفي ما لم يفعل ذلك وهو محسن و ما لم يعمل عملا صالحا ، و الإحسان و العمل الصالح أن يتقرب لله بما شرعه الله لا بما وضعه الناس .

رابعا : البساطة و السهولة .

ومن جملة ما تمتاز به أيضا الممارسة الذّوقية السنوسية أنّها ممارسة سهلة ميسّرة ، لا تكلف الإنسان شططا و ترهقه عسرا ، و لا تحمله من الآصار و الأغلال ما يقصم ظهره ، لأنّ هذا من الدين ، فالمؤمن في الإسلام لا يكلّف إلا بما يطيق ، و ما هو في وسعه ، و ليس مطالب إلا بما يستطيعه ، و يقدر عليه دون مشقة شديدة و قد جاء في القرآن الكريم قوله سبحانه و تعالى : { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ }[1].

و لعلّ الغاية الأخرى التي يهدف إليها السنوسي من وراء هذا التيسير ، أن تتسع هذه الممارسة لكل مراتب الناس و درجاتهم ، الدنيا و الوسطى و العليل ،كما تتسع للعامة و الخاصة .

إنّ مذهب السنوسي في الممارسة الصوفية و في الذكر ، يسير بالعوام و الخواص على حد سواء ، من العقيدة إلى الذوق ، فهو يسع جميع النّاس انطلاقا من جوهر التوحيد ، مع اختلاف في درجة الإجمال و التفصيل، و في درجة الاجتهاد في الزهد و الذكر ، كما أنّ هذه

[1]- سورة الحج الآية 78

التجربة تتسع للجميع بقدر ما هي شخصية أيضا ، يقتنع بها العقل و يطمئن إليها القلب ، و هي تتيسر لأي موحِد يجد في نفسه الحاجة إلى تعميق توحيده في بعده التعبدي [1] .

و هذا المبدأ رعاه الإسلام في أمر العبادة و الذكر ، هو اليسر ورفع الحرج ، وإزالة العنت، ووضع الآصار والأغلال عن أعناق المكلفين ، الآصار التي عرفت في بعض الديانات السالفة كاليهودية وغيرها ، وقد علم الله المؤمنين أن يدعوه في جميع الأوقات و الحالات .

خامسا : إنّها اعتدال بين العقل و القلب و العمل الاجتماعي [2] :

و يمكن التماس ذلك ، من خلال حب الشيخ السنوسي للعقل ، و تعاطفه مع أهل القلوب ، و استمرار تواصله مع النّاس إلاّ في حالة إدراكه للولاية ، لقد أثبت في مذهبه الصوفي ، أنّ المعرفة الحقة في نهاية الأمر ، لا تستوعبها بكاملها ، علوم الظاهر ، و لا تدركها على أسسها الصحيحة علوم الباطن و دعا إلى العمل على رفع هذا التقابل العدائي الذي استقر بين هذه العلوم و الذي رسخ في نفوس كثير من النّاس .

هذا و إلى جانب العلاقة التكاملية التي أبرزها بين مطالب العقل و مطالب القلب . فإنّ الشيخ السنوسي لم يقطع علاقته اليومية بالحياة الاجتماعية : إنّه رب أسرة ، له زوجة و له ذرية ، يمارس التعليم طواعية و يؤم النّاس في الصّلاة . فهو رجل اجتماعي ، لكنّه أيضا ، رجل مترو يحب الخلوات ، و تجربته الشخصية علمته الالتزام بنظام صارم في حياته ، فكان مثلا ، بعد الذكر و الخلو بالنفس ساعات ، يعود إلى ضجة الحياة الاجتماعية ، و يبقى متمسكا بأدلته الكلامية يؤيد بها عقائد التوحيد . فكان يشتغل بصفة منتظمة ، بالإمامة و القراءات ، و المطالعة ، و يتفرغ للذكر في الخلوة ، و كان يصنع ذلك يوميا بحيث يمكننا –ببعض الاجتهاد- تقدير نشاطه الاجتماعي العام بثماني ساعات و تقدير انقطاعه للذكر بما يزيد عنها قليلا أو كثيرا ،

[1]- جمال الدين بوقلي حسن – ابن يوسف السنوسي بين الذاكرة الشعبية والواقع : ص582

[2]- نقلا عن المرجع نفسه : ص 582 - 583

و إذا أضفنا وقت نومه ، و هو على ساعة أو ما يزيد عنها ، إلى الوقت الذي يستغرقه خروجه و دخوله و طعامه...، وجدنا ما يقارب الثماني ساعات أيضا .

و يفصل " ابن مريم " الكلام عن نشاط السنوسي اليومي ، و يحدده زمانيا ، بأوقات الصلاة ، و حركة الشمس و المألوف الاجتماعي في تناول الناس لوجباتهم [1] .

على أنّه ، لما استقرت أحواله في مقام الولاية - وكان يشرف على خمسين سنة تقريبا- اعتزل الناس ، وصار يدعو العاقل إلى ملازمة البيوت ، خصوصا في زمن عمّ فيه الجهل و المنكر، "و هو آخر القرن التاسع الذي صار المعروف فيه منكرا ، و المنكر معروفا ، و تعذر فيه معرفة الحق لنذور أهله ، و اتّسع الخرق فيه جدا ، على الراقع ، فلم يبق فيه للعاقل إلاّ التحصن بالسكوت ، و ملازمة البيوت ، و الحرص في معاشه بأدنى القوت "[2].

[1]- ابن مريم - البستان : ص 244-247

[2]- السنوسي - شرح العقيدة الوسطى : ص08- 09

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثاني : بعض أوراد وأذكار التجربة الذوقية عند السنوسي

لقد وضع الإمام السنوسي للممارسات الذوقية جملة من الأوراد وقد ألف لهذا الغرض كتاب "الأوراد" نقله عنه تلميذه الملالي وضمّنه مؤلفه " المواهب القدسية في المناقب السنية " قال فيه [1] :

" أنّه كثيرا ما كان يكتب لأصحابه هذه الأوراد : " الحمد لله و الصلاة و السلام على سيدنا و مولانا محمد ، و على آله ، من الأوراد التي ينبغي للإنسان أن يلازمها ، أنّه إذا ركع ركعتي الفجر يقول و هو على حالته ثلاث مرات : " اللهّم إني أسألك بوجهك الكريم ، وعافيتك ، و تمام نعمتك "، ثم يقول أيضا ثلاث مرات: " اللهم رب جبريل ، و ميكائيل ، و إسرافيل ، و سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم أعوذ بك من حر النّار ، و من عذاب القبر " .

و من أوراده : " اللهّم يا حي ، يا قيوم ، و يا بديع السماوات و الأرض ، يا ذا الجلال و الإكرام ، يا الله ، يا الله ، يا الله ، لا إله إلا أنت ، أسألك أن تحيي قلبي بنور معرفتك أبدا سرمدا ، يا الله ، يا الله ، يا الله ، و صلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله " . و ذكر أنّ الدوام على هذا سبب في حسن الخاتمة فضل الله تبارك و تعالى . ثم يقول بعد ذلك مائة مرة : " سبحان الله و بحمده سبحان الله العظيم . استغفر الله " .

فإذا صلى الصبح ، و فرغ من توابعه قال مائة مرة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [2]. اللهّم صل عليه وعلى آله ثم يقول مائة مرة : " السلام عليك أيّها النبي و رحمة الله تعالى و بركاته ". ثم يقول مائة مرة : " لا إله إلا الله ، وحده لا شريك ، لـه الملك و له الحمد ، و هو على كل شيء قدير " . ثم يقول مائة مرة : " سبحان الله ، و الحمد لله ، و لا إله إلا الله ، و الله أكبر ، و استغفر الله ، ولا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم ، عدد خلقه ، و رضى نفسه ، وزنة عرشه ، و مداد كلماته

1- الملالي – المواهب القدسية : لوحة 301ص602 ومابعدها .

2- الأحزاب الآية56

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثم يصلي على النبي صلى الله عليه و سلم ألف مرة . ثم يقول إن شاء : " اللهّم صلّ و سلم على سيدنا محمد نبي الرحمة ، و على آله ، و صحبه عدد ما أحاط به علمك " ، ثم يصلي بعد ذلك الضحى ثمان ركعات ، و إن شغله أمر عن تمام ورده غدوة ، فليكمله في بقية نهاره ، و لو من الليل ، و ليدم على ذلك . يرى بركة عظيمة ، و الله الموفق لا رب غيره ، و صلى الله على سيدنا محمد و على آله عدد خلقه ، و رضى نفسه ، ومداد كلماته " .

و ما روي عن بعض الأولياء أنّه من داوم على هاتين الركعتين أمن من سوء الخاتمة ؛ يصلي بعد صلاة المغرب ركعتين . يقرأ في كل ركعة بأم القرآن : ﴿ وإنّا أنزلناه في ليلة القدر﴾ [1]. مرة ، و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [2] سبع مرات ، أو المعوذتين مرة واحدة ، و يقول في سجوده ثلاث مرات : " اللهم إنّي أستودعك ديني و إيماني ، فاحفظهما عليّ في حياتي ، و عند وفاتي ، و بعد مماتي " . و افعل في الركعة الثانية ما تقدم في الأولى [3].

وكان رضي الله تعالى عنه كثيرا ما يكتب لأصحابه هذه الكلمات ، و نصه : " مما يستحسن في جواب الملكين في القبر نسأل الله أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا ، و في الآخرة أن يقول العبد في جوابهما : " الله ربنا ، وحده لا شريك له ، و سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبينا و رسولنا . بعثه الله سبحانه بالآيات البينات ، والبراهين الواضحات إلى الثقلين كافة ، فأظهره الله تعالى على الدّين كله و لو كره المشركون ، و رضينا بالله ربا ، و بالإسلام

---

[1]- القدر الآية :01

[2]- الإخلاص الآية :01

[3]- قال الملالي : قد أشار ابن عبد الغالب في كتاب "**الوجيز**." لتالي هذا إلا أنه نقص من الأول، و نصه: « ثم صل ركعتين يعني بعد المغرب، و هما استيداع الإيمان؛ تقرأ في الأولى بعد الفاتحة بسورة: ﴿ وإنّا أنزلناه في ليلة القدر﴾ مرة، و الإخلاص سبع مرات، و الثانية كذلك ثم تخر ساجدا بعد السلام، و تقول في سجودك : " اللهم إني أستودعك إيماني فاحفظه علي في حياتي، و عند وفاتي، و بعد مماتي . نسأله سبحانه أن يمن علينا بحسن الخاتمة ، و الوفاة على أعلى درجات الإيمان ، و يجعلنا مع الآباء و الأمهات، و الأحبة و الأشياخ في دار النعيم، بلا محنة و لا عتاب، و لا عقوبة و لا هوان ، بجاه سيدنا و مولانا محمد صلى الله عليه و سلم، صلاة و سلاما دائمين بدوام المولى الكريم المنان ذي الجود و الإحسان " انظر ، الملالي – المواهب القدسية : لوحة 303ص 606

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

دينا ، و بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبيا و رسولا . لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه الشهادة حييّت ، وعليها مت ، و عليها أبعث بفضل مولانا جل و علا ، بغير حول منّي و لا قوة و لا استحقاق ، و الحمد لله رب العالمين ، و الشكر لله رب العالمين ". فليكرر العبد هذه الكلمات حتى تجري منه مجرى الدم و اللحم ، لعلّ الله تعالى يطلق لسانه بها في جواب الملكين في القبر ، و الله سبحانه المستعان ، و به التوفيق و عليه التكلان ، و صلى الله على سيدنا و مولانا محمد ، و على آله عدد ما خلق ، و عدد ما هو خالق ".

و من الدعوات التي كتبها الشيخ رضي الله تعالى عنه إلى بعض السّلاطين بعد أن بعث إلى الشيخ رضي الله تعالى عنه ثانيا ، و طلبه أن يكتب له دعوات يتحصن بها من كل سوء . فكتب له الشيخ رضي الله تعالى عنه بما نصه : " الحمد لله ، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد، و على آله ، و صحبه وسلم تسليما . هذه دعوات و أمور من لازمها حفظ من شر الدنيا و الآخرة بفضل الله تعالى ، و أحوج النّاس إلى ملازمتها من نصبه الله تعالى لكافة الناس ، و فيهم الطيب و الخبيث ، و المحب و المبغض ، فلا سلامة لمن يكن على هذه الصفة إلا باللجوء إلى المولى العظيم تبارك و تعالى على الدوام ، و لزوم طاعته و تقواه بقدر الاستطاعة ، فمن ذلك أن يدعو صبيحة كل يوم ، و مسائه بهذا الدعاء ثلاث مرات : " اللهّم أحرسني بعينك التي لا تنام ، و اكنفني بكنفك الذي لا يرام ، و ارحمنا يا مولانا بقدرتك ، و لا تهلكنا و أنت رجاؤنا ، اللهّم إني أستودعك ديني ، و نفسي و أهلي ، و ولدي و مالي . إنّه لا يخيب داعيك يا أرحم الراحمين، و صلى الله على سيدنا و مولانا محمد ، و على آله و صحبه ، و سلم تسليما " .

ومن أدعيته " اللهّم لا مانع لما أعطيت ، و لا معطي لما منعت ، و لا ينفع ذا الجد منك الجد اللهم لا مضل لمن هديته ، و لا هادي لمن أضللته ، و لا مسعد لمن شقيته ، و لا معزّ لمن أذللته ، و لا مذل لمن أعززته ، و لا رافع لمن خفضته ، و لا خافض لمن رفعته . اللهّم أهدنا لما أمرتنا ، و سق لنا يا مولانا بما ضمنت لنا من خير الدنيا و الآخرة ، و قوي يقيننا فيما رجيتنا ، و انصرنا على أعدائنا في الظاهر و الباطن ، و أسألك اللهّم ما سألك به خليلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام من النور و اليقين ، و ما سألك به سيدنا و مولانا محمد صلى الله عليه وسلم من النصر و التوفيق إنّك على كل شيء قدير ، و صلى الله على سيدنا و مولانا محمد ، و على آله

و صحبه و سلم تسليما ، و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم ، و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين " .

ومن مجرباته مع سهولته التزام قراءة الفجر في الركعة الأولى بالفاتحة ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[1]. و في الثانية الفاتحة و ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾[2] ، فإن من لازم ذلك لم تصل إليه يد عدو ، و قال الغزالي : " هذا صحيح مجرب لا شك فيه "[3].

ومن مجربات السنوسي : التزام أن يقول الإنسان ثلاث مرات بعد صلاة العشاء ، و بعد صلاة الصبح هذا الكلام : " اللهم إني أستودعك ديني و نفسي ، و أهلي و ولدي ، و مالي في خزانة من خزائن بسم الله الرحمن الرحيم ، بابها لا إله إلا الله محمد رسول الله ، مفتاحها لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، و إن كتبها مع ذلك ، و جعلها في جيبه كان أكمل و أحسن و بالله التوفيق " .

و من الغريب المجرب لكل إذاية ، و قمع كل عدو ، وكفاية كل هول ، و شر كل ذي شر حتى ينفع من لازمه مطيعا كان ، أو عاصيا ، و هو أن يقول صبيحة كل يوم و مسائه : " أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم " سبع مرات ، ثم إثر ذلك قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[4] "[5] . ثم يكرر قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾[6] سبع مرات أيضا ، فمن قال هذا في صبيحة يومه

---

[1]- الشرح الآية : 1

[2]- الفيل الآية : 1

[3]- السنوسي – مجربات السنوسي ، طبع بهامش مجربات الإمام أحمد الديربي الشافعي ، دط ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، لبنان ، دت :ص 19

[4]- التوبة الآية :128

[5]- السنوسي- المجربات : ص 14-15

[6]- التوبة الآية :129

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

حفظه من كل سوء في يومه ، و من قالهما في مسائه حفظه في ليلته ، فلا شك أنه من الـذخائر النفيسة جدا .

و ممّا ينبغي أن يقول الإنسان عند خروجه من بيته عند السنوسي : " بسم الله . آمنت بالله . توكلت على الله . اعتصمت بالله ، و فوضت أمري إلى الله ، و لا حـول و لا قـوة إلا بالله." فإن الله تعالى يعصمه ، و يحفظه إلى أن يرجع إلى بيته ثبت ذلك في الأحاديث الصحاح ، و ينبغي أن يكون ذلك عند خروجه ثلاثا ، و من الأكمل أن يقول بعد ذلك : " اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل ، أو أذل أو أذل ، أو أظلم أو أظلم ، أو أجهل أو يجهل عليّ . و صلى الله على سيدنا و مولانا محمد ، و على آله و صحبه ، وسلم تسليما . عدد ما خلق ، و ما هو خالق إلى يوم الدين ، و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم " .

كما وجد "الملالي " بخط السنوسي دعاء كتبه لبعض أصحابه و نصه : " اللهم اكفنـا شر أنفسنا ، و شر كل ذي شر ، و حسد كل ذي حسد ، و سحر كل ذي سحر ، و عين كل ذي عين و ارزقنا يا مولانا الاستقامة حتى لا يضرّنا أعداؤنا في الظاهر ، و لا في الباطن ، و ارزقنا إتباع سنة نبيك سيدنا و مولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، و ملة أبينا إبراهيم خليلـك عليـه السلام ، و املأ قلوبنا بحبّك ، و الخوف منك حتى لا نخاف غـيرك ، و لا نرجـو سـواك ، و احجبنا بمنيع حفظك و سترك من ضر كل ضر من إنس و جنّ برحمتك يا أرحم الراحمين يـا رب العالمين ، و صلى الله على سيدنا محمد ، و على آله و صحبه أجمعين صلاة و سلاما نـأمن بهما من كل مخوف في الدنيا ، ويوم الدين " .

و ممّا وجد من أدعيته دعاء كتبه لبعض أصحابه : " اللهم إني أسألك إيمانـا يـصلح للعرض عليك ، و يقينا نقف به يوم القيامة بين يديك ، و عصمة تنقذنا بها من ورطات الذنوب، و رحمة تطهرنا من دنس العيوب ، و علما نقف به على أوامرك و نواهيك ، و فهما نعرف بـه كيف نناجيك ، اللهمّ اجعلنا في الدنيا و الآخرة من أهل ولايتك ، و املأ قلوبنا يا مولانـا إلى الممات بأنوار معرفتك ، و محبتك و الأنس و الشوق إلى لقائك حتى لا يكون في قلوبنا متـسع لغيرك ، وكحل عيون عقولنا بإثمد هدايتك و احرس أقدام أفكارنا من مزالق الشهوات ، و امنع

طيور نفوسنا من السقوط في مشكات الشهوات ، و امح سطور سيئاتنا من جرائر أعمالنا بأيدي الحسنات ، و أعنّا على إقامة الصلوات بترك الشهوات ، وكن لنا يا أرحم الراحمين يا ذا الجلال و الإكرام في محيانا ، و عند وفاتنا ، و حيث ينقطع الرجاء منّا إذا أعرض أهل الوجود بوجوههم عنا حين نحط في ظلمات اللحود رهائن أعمالنا المشهودة "..و صلى اللهمّ على سيدنا محمد وسلم تسليما .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثالث :التجربته الذوقية السنوسية ماذا بقي منـــها ؟ و هـــل يمكـــن الاستفادة منها اليوم ؟

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كان محمد بن يوسف السنوسي رجلا عالما في العقيدة ، و الـــشّريعة ، و التـــصوف ، و صدق منه العزم على أن يجعل علمه هذا ، أساسا لحياة النّاس ، في مظاهرها المختلفـــة فكريـــا و اجتماعيا و أخلاقيا ، و في سبيل تحقيق ذلك نهض بدعوته الإصلاحية معتمدا في ذلك خـــط تعليمي تربوي . غير أنّ الحياة السياسية و الاجتماعية و الفكرية بالمغرب الأوسط كانت معقـــدة و لها أثرها على هذه التجربة .

لقد كان السنوسي يهدف إلى أن تكون آراؤه العقائدية و الصوفية واقعا تجري عليـــه حياة الناس الفكرية و السلوكية ، فتتصلح بها تصوراتهم العقدية و تتحول من تصورات قائمة على التقليد إلى تصورات تقوم على البرهان و النظر العقلي ، كما تنصلح مظاهر سلوكهم بالعمل .

و لا يخفى أنّ تهيئة الفكرة في سياق التبشير بها لتصبح واقعا في حياة الناس تـــصورا أو سلوكا يحتاج إلى مراعاة قبولها من قبل النّاس و تلاؤمها مع واقعهم الفكري و السّلوكي ، و هو عنصر أساسي في تحديد ما تؤول إليه الأفكار و الآراء من البقاء و الديمومة ، أو الاندثار و الفناء ، ذلك لأنّ لواقع الحياة و ما يكتنفها من الظروف و الملابسات منطق آخر يغاير منطـــق الـــذهن المجرد ، و إهمال هذا المنطق و التغافل عنه كثيرا ما يكون سبب الفشل للآراء الإصلاحية كما أنّ مراعات الأخذ به يكون سببا لنجاحه .

إنّ حياة النّاس المتقلبة في تلمسان الزيانية ، أوحت للسنوسي بتحديد مواقفه إزاء قضايا فكرية كالتقليد و عواقبه في تقويم الإيمان ، و التوحيد و علاقته بالعقل ، و الذكر و التـــصوف و التحذير من إنزلاقاتهما ، ففي ما يتعلق بالتقليد فإنّه صرّح بمحاربته نظرا إلى عواقبه الوخيمـــة على النّاس و الدين ، و لهذا طالب باستعمال العقل في كل شيء ، و في أصول العقيـــدة بوجـــه خاص حيث ألحّ على تأسيس الإيمان على البرهان باعتباره أمر دعا إليه القرآن والسنة ، و أبسط سور البرهان الأدلة الإجمالية .

إلاّ أنّنا نؤكد أنّ واقع وحدة المسلمين الناتج عن إبعاد العقل و الشريعة ، كان لهما خطرهما و تأثيرهما على تجربة السنوسي الذّوقية إلى حدّ ما .

و هما يكن من أمر فإنّ التجربة الذّوقية السنوسية مهمة للغاية ، و لازال له وجود و بقاء رغم عامل الزمن و الظروف التي أحاطت بها ، وهذا برغم أنّ المذهب السنوسي لم تكن له شهرة واسعة كشهرة غيره .

و لعلّ من أهم أسباب ذلك أنّ شهرة السنوسي في العقائد طغت على شهرته في التصوف ، رغم أنّه اشتهر بين علماء زمانه بالصّلاح و الزهد ، لكون الكتب و المصنفات التي خلّفها كانت تظهره على أنّه متكلم بالدرجة الأولى أكثر منه أنّه صوفي .

الأمر الأخر أنّ الآثار التي خلفها في التصوف قليلة جدا إذا ما قورنت بما ألفه في التصوف من جهة ، ومن جهة أخرى أنّ تلاميذته لم يذكروا تفاصيل عن طريقته العملية في ذلك .

و مّما أثّر أيضا على تجربة السنوسي الذّوقية تصنيف الإمام من قبل كثير من النّاس — على جهل – على أنّه من المتصوفة الدّراويش الذين عطّلوا مسيرة الأمة و تقدمها فكريا و سياسيا بما أنتجوه من كتب و بما وجهوا الأمة إليه من علم ، لا لشيء سوى أنّه عاش في القرن التاسع الهجري عصر التصوف السلبي و الكرامات المزعومة .

لقد عاش السنوسي في عصر كثر فيه أدعياء التصوف و أتباعهم ، كثر فيه المخدّرون للعقول المفقدين للأمة و عيها بذاتها ، و لّما كان السنوسي عالما متصوفا و مصلحا . فقد استطاع في النهاية – في رأينا – أن تتحرر تجربته إلى حدّ ما من قيد مجتمعه الفكري – التصوف السلبي — و يشذّ عن ما كان في زمنه ، فعاد للتصوف مفهومه الصحيح ، و ربطه بالكتاب و السنة ، و لم يسير في نطاق متصوفة عصره المنحرفين كثيرهم .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فرغم أنّ السنوسي من العلماء الذين تصوفوا و أخذوا الطريقة عن علمـــاء متـــصوفة بارزين كـــ" إبراهيم التازي "، و لكنّه مع هذا كله لم يتقيد بها بل تقيد بالقرآن و السنّة ، و قد أثّر كثيرا في العلماء الذين أتوا بعده بواسطة تلامذته و مؤلفاته ، و هذه خاصية تكاد تكون فريدة سوى عند بعض العلماء الكبار كـــ " أبي حامد الغزالي" ، و أستاذ السنوسي " الإمام الثعالبي " .

و التجربة السنوسية الذّوقية لازالت -- في رأينا - نابضة بالحياة ، و يمكن الاســتفادة منها اليوم ، خاصة بعودة ظاهرة التصوف و الممارسات الصوفية إلى المجتمع الجزائري في العقدين الأخيرين من القرن الماضي بقوة ممّا يحتّم الاتجاه إلى دراسة التصوف من جديد من خلال علمـــاء الجزائر أبرزهم إمامنا السنوسي الذين كان لهم تأثير كبير تجاوز حدود الوطن و لكنّهم لم يأخذوا حظهم من العناية و البحث . و تعدّ دراستنا و اختيارنا و تركيزنا على هذا الموضـــوع وهـــذه التجربة خدمة لهذا الجانب .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخاتمــــــــــــــــــة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إنّ القضيّة التي لازمتنا طوال هذا البحث هي محاولة الكشف عن مبحث الفكر الصوفي عند محمد بن يوسف السنوسي التلمساني و نظريته في الجمع بين التوحيد و التصوف ، و قد توصّلت في هذا الصّدد إلى النتائج التالية :

1 — إنّ مفهوم التصوف عند السنوسي لا يختلف في معناه عمّا قال به متصوفة الإسلام الخلّص الملتزمين بالكتاب و السنّة .

2 — التصوف عند السنوسي سلّم و طريق إلى ثمرات الإيمان لأنّه تنبيه على بعض ما تثمره معرفة الله تعالى و توحيده ، و معرفة صدق رسله عليهم الصلاة و السلام لمن تأمّل و استبصر ، و من ثمّ وجب أن يحمد ما يذكر فيه ، فالمسلم إذا لم يكن قد تشرّب حقيقة التصوف ، فقد حبس نفسه في معاني الإسلام ، و لم يرق صعدا إلى حقيقة الإيمان ، فالكلام في هذا الباب تنصيص على روح ثمرات عقائد الإيمان الذي ينتظم به المؤمن في سلك المستقين ذوي اليقظة و العرفان ، و هو التطهّر من عيوب النّفس المانعة من كل خير ، و على تقدير أن يقع معها خير ، فهو مكسوف الأنوار ، مملوء بالظلمات التي تمنعه من الصعود إلى منازل الأبرار ، فهذا النوع من أنواع الفقه المتعلق بأهواء النفوس يجتني المؤمن من خلاله ثمرات عقائد الإيمان ، و يرتقي بفضل الله تعالى إلى ذروة درجات أولياء الله تعالى الفائزين بأعلى مقامات الإسلام ، و الإيمان ، والإحسان .

3 — اهتمّ السنوسي بطريق و سبيل التصوف و هو العلم و المعرفة و يتجلّى ذلك في بيان قيمة العلم و في إظهار شرفه و فضل العلماء على غيرهم ، كما أنّ السنوسي لم يحصر العلم في التوحيد فحسب بل امتدت دعوته لشمل جميع العلوم و المعارف التي توصل الإنسان إلى الغاية و هي معرفة الله و طاعته .

5 — لم يكف الإمام السنوسي أن يكون صوفيا و أن يكتب في قضايا التصوف ، بل إنّه نصب نفسه مدافعا و منافحا عن الصوفية الخلّص ، و خاصة ضد أولئك الذين اكتفوا بعلم الظاهر ، و لم يتقنوا علم الباطن و راحوا ينكرون على هؤلاء المتصوفة و يسمون من انتسب

إليهم مبتدعة و مخالفين للسنّة المطهرة ، كون التصوف والممارسات الصوفية في اعتقادهم شـــيء طارئ على الإسلام فهو من البدع التي حذرنا منها الرسول صلى الله عليه و سلم و هذا كلـــه وهم توهمه قليلي العلم .

6 – إنّ للتصوف و الذكر عند الشيخ السنوسي ، وظيفتان أساسيتان همـــا وظيفـــة نظرية، و وظيفة عملية سلوكية ، فالأولى و هي الأصل ، و هي علم التوحيد و أعلـــى مراتبـــها توحيد الله و نفي الشّريك عنه و إثبات رسالة نبيه محمد صلى الله عليه و سلّم ، و هذه تبحـــث بالعقل في نطاق ما يجب لله و ما يستحيل و ما يجوز ، و كذلك لرسله ، أمّا الوظيفة الثانيـــة ، فهوي الدخول في ممارسة الذكر و التصوف سعيا وراء بلوغ الثمرة ، و الفوز بالنتيجة ، علما أنّ الاستفادة من الثمرة لا تتحقق إلّا من شرف الأصل و هو التوحيد و استقامة النتيجة تـــأتي مـــن ثبات المقدمات و هي أحكام العقل .

7 – لقد مدح السنوسي الصوفية المتشبثين بثوابت الشرّع و أثنى عليهم كثيرا و نـــافح عنهم ضد ذوي الجهل الذين لا يزنون الأمور بميزان الحق ، لكنّه يتحول عن هذا المدح و الثنـــاء إلى النقد و الاعتراض على ما أحدثه بعض المتصوفة المتأخرون ممّا يخالف مقصود الشرّع .

8– لقد جعل السنوسي من الكتاب و السنّة الأصل الثابت و المصدر الأساس لمبادئـــه ونهجه الصوفي ينطق بذلك لسانه و قلمه و عمله ، و يشهد لـــه بذلك المؤرخون لحياتـــه مـــن كتاب السيّر و التراجم ، كما يشهد لـــه بذلك شيوخه و معاصروه من أكابر الـــصوفية ، لمـــا عرف عنه من إتباع لتعاليم الكتاب و السنّة ، و لكون السنوسي أنّه كان دائم التأكيد في أقوالـــه وأفعاله على أنّه لا سبيل إلى دخول ميدان التصوف ، إلاّ من باب الشرّع . فحـــدود الـــشريعة وعقيدة السلف عنده ، هي بعينها حدود التصوف ، فلا شيء لديه يخرج عن شريعة الإسلام و ما التصوف عنده إلاّ إسلام بذوق .

9– الشيخ السنوسي ليس صاحب طريقة في التصوف أو الزهد على ما نحو ما نعرفه من الطرق المنتشرة في زمانه . و وجوده في عالم الذّوق هذا ، إنّما هو النهاية الطبيعية التي كان لابـــد

أن يصل إليها كل مؤمن حقيقي يزاوج بين مطالب النظر و مطالب المجاهدة النفسية . إنّ المؤمن الحقيقي في نظره ، هو من يسعى إلى طلب الحقيقة بعقله و قلبه ، و يتخذ لأحواله سيرة خاصة تليق به ، فالممارسة الصوفية نتيجة من نتائج تحصيل عقائد الإيمان بالنظر و العقل .

10- إنّ أعلى مرتبة يصل إليها الإنسان عند السنوسي لتحقيق الكمال الروحي ، هي أن يصير الإنسان السّالك على طريق الحق وليا لله تعالى ليكون الحق تعالى وليا له ، و الولي الحقيقي هو صاحب المعرفة الذوقية الصحيحة ، القائمة على المعرفة الرسمية التي أنتجتها البراهين العقلية و الشرّعية ، إذ علامة صحة الذوق عند الإمام أن يجري على وفق ما شهد به العلم الرسمي لا غير .

11- إعلاء للذّوق و الممارسة الذوقية ، و تقديرا لمترلتها الشريفة ، فقد وضع لها الإمام محمد بن يوسف السنوسي شروطا و آدابا عملية لممارستها و المواظبة عليها حتى يتحقق منها المقصود ، و من ذلك موافقتها لما اقتنع به العقل قبلا من براهين .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفهـــــــــــــــارس

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرست الآيات :

الآيــــة	السورة / الآية –	الصفحة
وَإِذْ قُلنَا لِلمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ......................	البقرة 34	220
يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذكُرُوا نِعْمَتِيَ........................	البقرة 47	220-219
وَمَا تُقدِّمُوا لأنفسِكُم..	البقرة 110	325
رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتلُو....................	البقرة 129	206
الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ..............	البقرة 146-147	186
إِنَّ فِي خَلقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...........	البقرة 163	170
أَوَ لوكَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُون	البقرة 170	157-143
واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه..........................	البقرة 235	296
اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...البقرة 257		263
وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلمِ..............	آل عمران 7	145
شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هو وَالمَلائِكَةُ وَأُولُوا العِلمِ........	آل عمران 18	145
يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ..........................	آل عمران 64	337
رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا....................................	آل عمران 147	326
الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِم............	آل عمران 190-191	322
وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ............	النساء 32	226
أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ..............................	النساء 54	225
مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ................................	النساء 79	207
أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله	النساء 82	327
وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ القَوْمِ إِن تَكُونُوا تَألَمُون..............	النساء 104	96
رُسُلا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ....................	النساء 165	180
وَقَالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى..	المائدة 18	221
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ..........................	المائدة 104	157
أَهَؤُلاء مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا......................................	الأنعام 53	227
فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي..............	الأنعام 76	86
وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيم	الأنعام 83	86
وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ..	الأنعام 91	222
رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ....................................	الأعراف 23	326
قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ..	الأعراف 33	228

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحَمْدُ لِلهِ الَّذِي هَدَانَا..	الأعراف 43	327
لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ..	الأعراف 59	337
وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً...............	الأعراف 145	148
سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ............................	الأعراف 146	215
وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً	الأعراف 205	105
إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ	الأنفال 02	105
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَكُمْ فُرْقَانًا............	الأنفال 29	280-277
وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ	الأنفال 41	143
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً...............................	الأنفال 45	99
أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ	التوبة 104	123
فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ...............................	التوبة 122	148
لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ..	التوبة 128	346
فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ..	التوبة 129	346
أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ.............................	يونس 38	182
وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ..	يونس 61	242
أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ..	يونس 62-64	263
وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ..........	هود 10	113
أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ....................	هود 13	182
وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النار....................	هود 113	257
وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ....................	يوسف 53	207
لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ....................	الرعد 11	207
أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ	الرعد 28	105
إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ	الحجر 9	99
إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ..	النحل 23	216
وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً..	النحل 36	337
مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ	الإسراء 18-19	68-97
وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ..	الإسراء 29	184
عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً..	الإسراء 79	249
قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ..	الإسراء 88	182
وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ..	الكهف 28	240
لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا	الكهف 62	148
وعلمناه من لدنا علما..	الكهف 64	305

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي........................	الكهف 82	306
فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ........................	الكهف 110	338
يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ........................	مريم 12	148
قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا........................	مريم 73	249
تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ و السَّمَوَاتِ........................	طه 4	168
أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ........................	طه 35-36	168
قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى........................	طه 50	168
قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ........................	طه 96	207
وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي........................	الأنبياء 7	99
لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا للَّهُ لَفَسَدَتَا........................	الأنبياء 22	176
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا........................	الحج 77-	238
وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ........................	الحج 78	340
وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ........................	الحج 78	238
وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ........................	المؤمنون 5-7	257
وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ........................	المؤمنون 34	227
قُل لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ........................	النور 30	256-255
وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ........................	النور 31	116
نور على نور........................	النور 35	294
أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ........................	الفرقان 43-44	158
وإذا بطشتم بطشتم جبارين........................	الشعراء 130	132
وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا........................	القصص 5-6	277
فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ........................	القصص 50	158
تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ........................	القصص 83	97
وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ........................	العنكبوت 48	182
وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ........................	العنكبوت 69	238
وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا........................	الروم 36	313
وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي........................	لقمان 18	214
أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ........................	لقمان 21	143
إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ........................	الأحزاب 56	343-327
إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ........................	فاطر 28	245-145
قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا........................	يس 15	227
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا........................	يس 71	154

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ..................	الصافات 96	332
وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ..................	الصافات 164	248
وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ..................	ص 26	240
قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ..................	ص 76	213
الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ..................	غافر 35	216
وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِن بَعْدِ..................	فصلت 50	219
مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ	الشورى 20	97
وهو يقبل التوبة عن عباده..................	الشورى 25	296
وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ..................	الزخرف 31	227
إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ..................	الدخان 51	248
أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ..................	الجاثية 23	158
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ..................	محمد 7	277
وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ..................	محمد 16-17	143
فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ	محمد 19	330-142
وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ..................	الذاريات 21	165
كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ..................	الطور19	313
إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ..................	النجم 23	240
ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ..................	القمر 48	313
وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ..................	الرحمان 46	249-247
اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌوَزِينَةٌ	الحديد 21	142
رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا..................	الممتحنة 4-5	326
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ..................	الجمعة 9	99
إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ	التغابن 15	142
فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ	التغابن 16	142
وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا..................	الطلاق 2-3	277
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا..................	التحريم 8	116
وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ..................	القلم 4	183
فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا..................	نوح 10	122
عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا..................	الجن 26-27	282-281
وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا	المزمل 6	322
وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا..................	المزمل 8	99
وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، وَمِنَ اللَّيْلِ..................	الإنسان 26	105

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى......... ...النازعات 18-19 206

وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّه..النازعات 40-41 .237

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ...........................عبس 18-19-20 146

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُون...........................المطففين 14 118

وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ..المطففين 26 226

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى...........................الأعلى 1-2 168

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى..الأعلى 14 206

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ...الشرح 1 346

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقْ...العلق 1 167

وإِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ...القدر 1 344

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا..البينة 5 338- 327

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ ....البينة 7-8 146

ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ...التكاثر 8 259

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ...................................الفيل 1 346

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ..الإخلاص 1 344

وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ..الفلق 5 225

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأحاديث

الحديث	الراوي	الصفحة
- من سبح الله دبر كل صلاة ثلاثا و ثلاثين و حمد الله.......	- مسلم	69 -
- ذاق طعم الإيمان	- مسلم	69 -
- إياكم ومحدثات الأمور..................	- الترمذي و أبوداود	82 -
- لايزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه	- البخاري	82 -
- يا أيّها النّاس توبوا إلى الله ، فإنّي أتوب إليه.............	- البخاري و مسلم	117 -
- إنّ الله عزّ وجل يبسط يده بالليل ليتوب.............	- مسلم	117 -
- إنّ عبدا أصاب ذنبا، فقال : يارب إنّي أذنبت ذنبا فاغفره..	- البخاري و مسلم	117 -
- إنّ العبد إذا أخطأ خطيئة تنكت في قلبه نكتة فإن نزع	- الترمذي	118 -
- إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله	- البخاري	191 -
- سبق المفردون . قالوا : و ما المفردون يا رسول الله ؟	- الترمذي	202 -
- أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يرا ك..........	- مسلم	204 -
- الكيّس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت	- الترمذي و ابن ماجه و أحمد	207 -
- لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرّة من كِبر...........	- مسلم و أحمد و ابن ماجة و أبو داود و الترمذي	214 -
- كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : يعود المريض........	- ابن ماجة و أحمد	215 -
- روي أنّ الله تعالى يقول : " الكبرياء ردائي والعظمة إزاري.	- مسلم وأحمد	216 -

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

....	و أبو داود و ابن ماجة	
– إياكم ومجالسة الموتى، قيل ومن الموتى يا رسول الله ؟.....	– الترمذي	230 –
– لا بدّ للنّاس من عرفاء و العرفاء في النار.................	– أبو داود	231 –
– أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب	– ابن ماجة	236 –
– أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك..........	– البخاري و مسلم	243 –
– و هل يكبّ النّاس على مناخرهم في النّار.........	– الترمذي	252 –
– إنّ الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى..........	– الترمذي	252 –
– من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.................	– الترمذي	256 –
– اتّقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله تعالى..............	– الترمذي	282 –
– الصلاة نور ، و الصدقة برهان ، و الصبر ضياء..........	– مسلم و أصحاب السنن	292 –
– لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته..	– البخاري	293 –
– إنّ الدجال مكتوب بين عينيه كافر ، يقرأه كل مؤمن......	– متفق عليه	293 –
– قد كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في أمتي.......	– البخاري مسلم والترمذي و أحمد	294 –
– أقيموا صفوفكم وترصوا ، فإنّي أراكم من وراء ظهري....	– البخاري و النسائي	295 –
– أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب	– البخاري و أحمد	296 –
– الرؤيا الصالحة جزء من ستة و أربعين جزءا من النبوة......	– البخاري ومسلم	300 –
– لم يبق من المبشرات إلاّ الرؤيا الصالحة ، يرها الرجل الصالح	– البخاري ومسلم	300 –
– هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا.........	**– البخاري**	**300 –**

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

....	و مسلم	
- إنّكم تختصمون إليّ ، و لعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته.	- البخاري	304 -
....	ومسلم و الترمذي	
- أنّ الخضر قال له : يا موسى ، إنّي على علم من علم الله..	- البخاري	307 -
	ومسلم	
- كان النبّي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى النّاس عامة..	- البخاري	307 -
....	ومسلم والنسائي	
- من سبّح الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين و حمد الله	- مسلم	317 -
- اللهم لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك...	- أبو داود	319 -
	والترمذي	
- جاورت بحراء شهرا، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت	- مسلم	323 -

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأعلام

ابن أبي جمرة : 287

ابن الحاجب : 21

ابن خلدون : 134-291-300

ابن عرفة : 160

ا بن عربي محي الدين: 106

ابن عطاء الله :71-72-79-93-94-101-132-233-266-279-282-288-298-319-

ابن القاسم : 17

ابن مرزوق الحفيد : 37-43

ابن مريم :20-342

ابن مسعود : 293

ابن الميلي : 26

ابن القيم : 93-100-104-191-208

ابن تيمية : 89-104-114-227-291-292-294-295-307

ابن سيرين : 226

ابن سوار محمد 243

يابن سبعين : 39

ابن رشد : 304

اسعيد عليوان :55

أبو مالك عبد الواحد الزياني : 16

أبو مدين شعيب : 78-37-36

أبو عبد الملك المرواني : 22

أبو طالب المكي : 23

أبو زيد الغزازي : 27

أبو عمر الحباك : 35-50

أبو يعقوب : 31

أبوسعيد عثمان : 31

أبو الحسن النوري : 315

أبو الحسن الصغير : 83
أبو يعقوب يوسف السنوسي : 48-301
أبو العباس المرسي : 279-287
أبو عبد الله الشوذي الحلوي : 39
أبو الحسن الشاذلي :37-279
أبو محمد صالح بن ينصارن الماجري : 37
أبو عبد الله محمد بن عيسى : 38
أبو العيش محمد بن أبي زيد عبد الرحيم : 40
أبو الربيع عفيف الدين بن سليمان التلمساني : 40
أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن : 42
أبو سعيد عثمان بن يغمراسن : 42
أبو عبد الله محمد بن قاسم بن تونزت الصنهاجي : 49
أبو الحجاج يوسف بن أبي العباس : 50
أبو عبد الله محمد بنُ العباس العبادي : 50
أبو حفص عمر بن مسلمة الحداد : 113
الأبي : 314
الإيجي : 170
أرسطو : 150- 208
أحمد زروق البرنسي : 53-71-72-78-79-80-83
أحمد بن داود الأندلسي : 97
أفلاطون : 150
الآمدي : 68
الباقلاني : 24-61-64-149
بروسلار : 26
بوقلي حسن : 55-127
التنسي : 17-22
التازي : 52-73-351
التاونتي : 35
الترمذي : 263-264

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الثعالبي : 4-51-72-351
الجرجاني : 312
الجلاب : 37
الجويني : 51-61-64-68-149
الجشي : 27
الجنيد :89-113-315
الحسن أبركان : 51
الحرالي : 29
الحلوي :29
الحوضي : 53
الحسن البصري : 208
حاتم الأصم : 216
حذيفة ابن اليمان :293
خليل : 30
ذو النون المصري : 241-242
الرازي :63-166
الفارسي : 64
القرطبي : 101-315
القاضي عياض : 217
القشيري :70-93-113-115-119-120-196-242-245-249-251-272-280-290
الكومي : 35
السنوسي :2-3-4-5-13-14-16-18-19-22-25-27-43-44-45-46-47-48-49-
50-51-52-53-55-56-58-60-61-62-63-64-65-66-67-68-69-70-71-
72-73-75-76-77-78-79-80-81-82-83-84-85-86-87-88-90-91-92-
94-95-97-98-99-102-103-104-107-108-109-110-111-112-114-
115-118-119-121-122-123-124-125-126-128-129-130-131-132-
133-134-135-139-140-141-142-143-145-147-148-149-151-152-
154-155-156-157-159-161-162-163-164-165-166-167-171-172-
174-175-178-179-180-181-182-183-185-187-188-189-192-193-
194-197-198-199-204-208-210-211-212-214-215-218-219-220-

221-222-224-225-229-231-232-234-238-239-240-241-242-245-
248-250-251-252-259-261-265-266-267-269-270-271-272-273-
274-275-278-280281-282-283-284-285-287-288-296-297-298-
299-301-302-308-309-311-312-314-315-316-317-318-319-320-
321-324-325-328-329-330-331-333-334-335-337-338-339-340-
341-342-343-346-349-350-351-353-354-355

سليمان الدراني :114-315

سليمان الفارسي : 95

الساحلي : 72- 101-102-106-316

السلمي : 102

سقراط : 150

الشهرستاني : 279

الشاطبي : 303-304-306-307

الشبلي : 89

شهاب الدين بن حبش السهروردي :38

العقباني : 18-22

عمر بن عبد العزيز : 62

عبد المؤمن بن علي : 42

عبد القادر الجيلاني : 89-119-188-237-280

العبدوسي : 43

العز بن عبد السلام :119-227

عياض القاضي : 314

عبد السلام التونسي : 29-36

عبد المومن بن علي : 31

عبد المجيد النجار : 25

عبد الله التستري : 164

عمر بن عبد العزيز : 46

عثمان التلمساني : 34

**الغزالي : 4-30-36-37-71-90-91-96-97-115-120-123-160-190-208-212-
258-290-296-301-346-351**

الفازازي : 34
قنواتي : 25
الكنباشي :51-153
الكلاباذي : 249
لوسياتي : 26
اللخمي : 34
لويس غارديه : 25
المقري : 20
الملالي : 44-45-51-53-58-94-133-264-269-283-286-296-301-302-347
المحاسبي : 30-190-225-315
موسى علي السلام : 185
محمد المغراوي :147
محمد بن الحمراء : 16
موسى عليه السلام : 127
نصر الزواوي : 48
نصر الأباذي : 242
الهيدور : 28
الهمذاني : 28
الهروي : 119
الهواري : 36
وهب بن منبه : 27-243
يغمراسن : 14-42

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس المصـــادر و المـــراجع :

مؤلفات السنوسي :

أ / المطبوعة :

– مكمل إكمال إكمال المعلم على شرح صحيح مسلم ، دط ، مكتبة طبرية ، الرياض ، السعودية، دت : ج1-6-7

– شرح العقيدة الوسطى ، ط1 ، مطبعة التقدم الوطنية ، تونس 1327هـ

– مجربات السنوسي ، طبع بهامش مجربات الإمام أحمد الديربي الشافعي ، دط ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، لبنان ، دت

– عمدة أهل التوفيق والتسديد – تحقيق عبد الفتاح بركة ، ط1 ، دار القلم ، الكويت ، 1982م .

– شرح أم البراهين ، تحقيق مصطفى الغماري ، دط ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1989م

المنهج السديد في شرح كفاية المريد ، تحقيق مصطفى مرزوقي ، دط ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، دت .

– نصرة الفقيّر في الرد على أبي الحسن الصغيّر ، تحقيق جمال الدين بوكلي حسن (ملحق بدراسته : الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد) دط ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1985م

– شرح صغرى الصغرى ، ط1 ، مطبعة التقدم العلمية ، مصر ، 1322هـ .

– المقدمات ، عن أبي اسحاق ابراهيم الأندلسي البناني ، المواهب الربانية في شرح المقدمات السنوسية ، المطبعة الميمنية ، مصر ، 1324هـ .

– – شرح المقدّمات ، تحقيق ج.د. لوسياني ، دط ، الجزائر ، 1908م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- عقيدة صغرى صغرى الصغرى، تحقيق: يوسف احنانة ط2 ، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب ، 2007 م.

ب / المخـــطوطة :

- شرح مختصر أسماء الله الحسنى ، مخطوط ، المكتبة الوطنية ، الجزائر رقم 2910
- تفسير مختصر لسورة الفاتحة ، مخطوط المكتبة الوطنية ضمن مجموع 652/2
- شرح المختصر في المنطق .
- شرح على مختصر ابن عرفة في المنطق ، ميكروفيلم الرقم الطلبي 307
- شرح أبيات في التصوف للألبيري ، مخطوط ، المكتبة الوطنية بتونس . تحت رقم : 22668
- شرح صحيح البخاري ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ، رقم 2736
- مختصر بغية السالك في أشرف المسالك ، مخطوط ، مكتبة مسجد دار الحديث ، تلمسان ، دون ترقيم
- تفسير القرآن الكريم ، مخطوط ، مخطوط ، المكتبة الوطنية بتونس . تحت رقم : 22668
- فتوى في معلمي الأولاد ، مخطوط ، المكتبة الوطنية ضمن مجموع 3277/2
- فتوى في تدريس الأولاد ، مخطوط ، المكتبة الوطنية ضمن مجموع1/ 3277
- شرح إيساغوجي في المنطق ، مخطوط ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ، رقم 1382
- شرح حديث التسبيح ، مخطوط ، المكتبة الوطنية بتونس . تحت رقم : 22668
- شرح أبيات التطهر بماء الغيب ، مخطوط ، المكتبة الوطنية بتونس . تحت رقم : 22668
- شرح منظومة بغية الطلاب في علم الإسطرلاب لابن الحباك ، مخطوط ، المكتبة الوطنية، رقم 631 /8
- الحقائق في علم الكلام ، مخطوط ، مكتبة الحرم النبوي ، المدينة المنورة ، دون ترقيم
- رسالة في نفي تأثير الأسباب ، المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة ، ضمن مجموع تحت رقم 3277/03:

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- فتوى في قراءة القرآن في الصلاة ، المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة ، ضمن مجموع تحت رقم 613/15:

- نظم في أصحاب الفروض ، المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة ، ضمن مجموع تحت رقم 2855/02:

- حفيظة (01) ، المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة ، ضمن مجموع تحت رقم : 773/04

- حفيظة (02) ، المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة ، ضمن مجموع تحت رقم : 3231/13

- وصية لهبة الله بن علي الحوتي ، المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة ، ضمن مجموع تحت رقم 2396/20: .

- أجوبة على مسائل مشكلة ، مكتبة الحرم النبوي ، أجوبة على مسائل مشكلة ، مكتبة الحرم النبوي ، فيلم 31 ، رقم التصنيف 80/21

مؤلفات حول السنوسي :

أ /المطبوعة :

- أحمد بن عيسى الأنصاري – شرح أم البراهين ، دط ، طبع و نشر أحمد أحمد أبو السعود وعثمان الطيب ، كانو ، نيجريا ، دت .

- إبراهيم البيجوري – حاشية على متن السنوسية ، دط ، مطبعة التقدم العلمية ، مصر ، 1319هـ

- عبد الله الشرقاوي – حاشية على شرح الإمام الهدهدي على أم البراهين ، دط ، مطبعة شركة التمدن الصناعية ، مصر ، دت

- محمد الدسوقي– حاشية على أم البراهين ، د ط ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، دت

- جمال الدين بوكلي حسن – الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد ، دط ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985م .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- جمال الدين بوكلي حسن – ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية وفي الواقع ، دط ، المطبعة الحديثة للفنون المطبعية ، الجزائر 2003م

ب / المخطوطة :

- المّلالي – المواهب القدسية في المناقب السنوسية ، مخطوط ، المكتبة الوطنية بتونس . تحت رقم : 22668

- ابن يعقوب – لوامع النظر في تحقيق معاني المختصر مخطوط، مكتبة الأساتذة ، ثانوية المشور (حامد بن دداش) ، تلمسان ، الجزائر ، بدون ترقيم

- زين الدين زكرياء بن محمد الأحمد – أضواء البهجة في أسرار الحدائق المنفرجة، مخطوط ، المكتبة الوطنية ضمن مجموع 2396

- محمد بن ناصر البرعي – الكنوز الصفية، مخطوط ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ، مجموع رقم (1307)

- اسعيد عليوان – محمد بن يوسف السنوسي وشرحه لمختصره في المنطق(دراسة وتحقيق) ، رسالة مقدمة لنيل الدكتوراه الحلقة الثالثة في الفلسفة ، جامعة الجزائر ، معهد الفلسفة ، 1986م/1987م .

- خليفي الشيخ – النظر العقلي عند محمد بن يوسف السنوسي ، رسالة ماجستير ، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة 2002م

- المصري أحمد– الإمام محمد بن يوسف السنوسي ومنهجه في الاستدلال على العقيدة ، رسالة ماجستير ، كلية أصول الدين ، معهد الخروبة للعلوم الإسلامية ،الجزائر ، 2001م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مؤلفات عامة :

- أبو بكر جابر الجزائري :

- منهاج المسلم ، دط ، دار الفيحاء ، دمشق ، سوريا ، دت

- عقيدة المؤمن ، ط1 ، مكتبة العلوم و الحكم ، القاهرة ، مصر ، 1423هـ/2002م

- أبو داود – سنن أبو داود ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، دت

....

- أحمد زروق البرنسي :

- قواعد التصوف ، تحقيق عبد المجيد خيالي ،ط1، دار الكتب العلمية ،بيروت ، لبنان ، 1424هـ/2003 م

- عدة المريد الصادق، تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1428هـ / 2007م

....

- أحمد بن عجيبة الحسني – إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، دط ، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع ، دت : ج1

- أحمد النحاس الدمشقي- تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلية و تحذير السالكين ، ط1، نشر مكتبة عباد الرحمان، مصر، 1413هـ/2002م

- أحمد تقي الدين بن تيمية :

- مجموع الفتاوى ، جمع و ترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصي النجدي الحنبلي و ابنه محمد ، ط1 ، مطبعة الحكومة – مكة المكرّمة ، 1382 هـ : ج 16 .

- الاستقامة ، تحقيق محمد رشاد سالم ، ط1 ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ، 1420 هـ/2000م : ج 1

- التحفة العراقية في الأعمال القلبية ، تحقيق حماد سلامة ، دط ، شركة الشهاب ، الجزائر

....

- أحمد آمين – ظهر الإسلام ، د ط ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، دت

- أحمد بابا التنبكتي – نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، ط1 ، مطبعة السعادة ، مصر ، 1329 هـ .

- أحمد بن سحنون الرّاشدي – الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ، تحقيق المهدي البوعبدلي ، د ط وزارة الشؤون الدينية و التعليم الأصلي ، الجزائر ، 1973م .

- الأشعري أبو الحسن– مقالات الإسلاميين ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد د ط ، المكتبة العصرية صيدا ، بيروت ، لبنان ، 1990 م : ج 2 .

- الأصبهاني أبو نعيم أحمد – حلية الأولياء و طبقات الأصفياء ص 3، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1400هـ/1980م : ج2

- أنور الزعبي – مسألة المعرفة و منهج البحث عند الغزالي، ط 1، دار الفكر، دمشق، سوريا ، 1420 هـ/2000م

- أسين بلاثيوس – ابن عربي حياته مذهبه ، ترجمة عن الإسبانية ، عبد الرحمان بدوي ، د ط ، وكالة المطبوعات الكويت ، و دار القلم ، بيروت ، لبنان ، 1979 م

- إبراهيم مصطفى إبراهيم – مفهوم العقل في الفكر الفلسفي ، دط ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ، 1993م .

- إدريس غروزي– الشيخ أحمد زروق آراؤه الإصلاحية ، و تحقيق و دراسة لكتاب : عدة المريد الصادق دط ، مطبعة فضالة ، المحمدية ، المغرب ، 1419هـ/1998 م

- ابن خلكان – وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دط ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، دت : ج 1 .

- ابن رجب – الذيل على طبقات الحنابلة ، دط ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، دت : ج 3

- ابن الزيات التادلي – التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي ، تحقيق أحمد التوفيق ، ط2 ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1997م

....

- ابن عطاء الله السكندري :

– لطائف المنن ، ط3 ، مكتبة القاهرة ، مصر ، 2004م

– التنوير في إسقاط التدبير ، تحقيق محمد أحمد أحمد ، د ط ، المكتبة التوفيقية مصر ، د ت

– مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1421هـ / 2001م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

– الحكم العطائية الكبرى والصغرى ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1427هـ / 2006م

– ابن قدامة – منهاج القاصدين ، دط ، دار الدعوة الإسلامية ، دت

....

– ابن القيم الجوزية :

– مدارج السالكين ، تحقيق محمد حامد الفقي ، ط2،طبعة دار الكتاب العربي ، بيروت، لبنان، 1393هـ /1973م

– الوابل الصيب من الكلام الطيب ، تحقيق السيد الجميلي ، ط1 ، دار البحار ، بيروت ، لبنان ، 1986م

– إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، ط2 ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، 1429هـ/ 2001م : ج1

– الروح ، دط ، دار المدني ، جدة ، السعودية ، دت

– ابن كثير – البداية والنهاية ، ط3 ، مكتبة المعارف ، بيروت ، لبنان ، 1985م : ج 13

– ابن ماجة – سنن ابن ماجة ، دار إحياء التراث العربي ، 1975م

– ابن النّديم – الفهرست ، تعليق إبراهيم رمضان ، ط 1 ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، 1994م.

– بو داوود عبيد – ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط (ما بين القرن السابع و التاسع الهجريين (ق 13 ، 15 م) دراسة في التاريخ السياسي الثقافي ، دط ، دار الغرب للنشر و التوزيع ، الجزائر ، ، دت

– البخاري ، صحيح البخاري ، ط1 ، مؤسسة الكتب الثقافية ،بيروت ، لبنان ، 1427هـ/2006م : ج1

– البيهقي – الأسماء و الصّفات ، دط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، دت

– الترمذي – سنن الترمذي ، دار الفكر ، سوريا ، 1983م.ذ

– جمال الدين ابن منظور – لسان العرب ، تقديم عبد الله العلايلي ، إعداد وتصنيف يوسف خياط ونديم مرعشلي ، د ط ، دار لسان العرب ، بيروت ، لبنان ، دت : ج1 .

– جميل صليبا – المعجم الفلسفي ، د ط ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، 1979م : ج 2

– الجرجاني– شرح المواقف ، ط1 ، دار الكتب العلمية ،بيروت ، لبنان ،1419هـ/1998م : ج 1

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- الجويني إمام الحرمين :
– الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ، تحقيق زكرياء عميرات ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1995م .
– البرهان في أصول الفقه تحقيق عبد العظيم الديب ، ط3 ، دار الوفاء للطباعة و النشر والتوزيع ، المنصورة ، مصر ، 1992م .
–حسن محمد الشافعي – المدخل إلى دراسة علم الكلام ، ط2 ،مكتبة وهبة ،القاهرة ،مصر ، 1991م
– حمانة البخاري – التعلّم عند الغزالي ، دط ، المؤسّسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1987م .
– خير الدين الزركلي – الأعلام ، ط 5 ،دار العلم للملايين ،بيروت ،لبنان ، 1980 م:ج3
– دحلان الكديري – سراج الطالبين شرح على منهاج العابدين للغزالي ،دط،دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع ، دت
– الراغب الأصفهاني- المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، دط، بيروت، لبنان، دت
– رفيق العجم – موسوعة مصطلحات التصوف ، ط1 ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، لبنان ، 1999م
– زكي مبارك – التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ، دط ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، لبنان ، دت
– الساحلي أبو عبد الله المالقي – بغية السالك في أشرف المسالك ، تحقيق عبد الرحيم العلمي ، دط ، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، 1424هـ / 2003م
– السرّاج الطوسي– اللمع ، نشرة عبد الحليم محمود ، دار الكتب الحديثة ، 1960م
– سعد الله أبو القاسم – تاريخ الجزائر الثقافي ، دط ، الشركة الوطنية للنّشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981م :ج1
– السكوني محمد بن خليل الإشبيلي ، تحقيق يوسف احنانا ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، لبنان، 1993م
– السلمي أبو عبد الرحمان :
– طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شريبة، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر،1986
– عيوب النفس ، دط ، شركة الشهاب ، الجزائر ، دت

- أصول الملامتية و غلطات الصوفية ، تحقيق عبد الفتاح أحمد الغاوي محمود ، دط ، مطبعة الإرشاد، مصر ، 1995م/1405هـ

- سليمان دنيا – التفكير الفلسفي في الإسلام ، ط 1 ، مكتبة الخانجي ، مصر ، 1967م .
- السهروردي – عوارف المعارف (ذيل كتاب إحياء علوم الدين للغزالي) ط3 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،لبنان ، 1423هـ /2002م ج5
- سيد نور الدين سيد علي – التصوف الشرعي الذي يجهله كثير من مدعيه و منتقديه، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1421هـ/2000م،: ص83.

- شاخت وبوزورث – تراث الإسلام ، ترجمة حسين مؤنس و إحسان صدقي العمد ، مراجعة فؤاد زكرياء ، دط ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون.. ، الكويت ، نوفمبر 1978م : ج2
- الشاطبي أبو إسحاق – الموافقات في أصول الشريعة ، شرح وتعليق عبد الله دراز ، دط ، المكتبة التوفيقية ، مصر ، دت
- شمس الدين الرازي – حدائق الحقائق ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت،لبنان،1423هـ/ 2002م
- الشهرستاني – الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد الكيلاني، طبعة دار المفردة ، بيروت ، لبنان،1404هـ
- الطاهر بونابي – التصوف في الجزائر خلال القرن 6و7هـ / 12و13م (نشأته، تياراته ، دوره الاجتماعي و الثقافي و الفكر و السياسي) ، دط، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، دت
- الطاهر المعموري ، الغزالي و علماء المغرب ، دط ، الدار التونسي للنشر ، تونس ، و المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1990م
- عادل نويهض – معجم المؤلفين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر ، ط2 ، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، بيروت ، لبنان ، 1980م .
- عباس محمود العقاد – التفكير فريضة إسلامية ، دط ، مكتبة رحاب ، الجزائر ، دت .
- عبد الحليم محمود- قضية التصوف ، المدرسة الشاذلية ، ط2 ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر، د ت

- عبد الحميد حاجيات :
- تاريخ دولة الأدارسة ، د ط ،المؤسّسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984م .
- أبو حمو موسى الثاني حياته آثاره ،دط ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر،1982

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- عبد الحي بن العماد – شذرات الذّهب في أخبار من ذهب ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، دط ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، دت : ج3
- عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني – العقيدة الإسلامية وأسسها ، ط8، دار القلم ، دمشق ، سوريا ، 1418هـ/1997م

- عبد الرحمان بن خلدون :
– المقدمة ، إشراف مصطفى شيخ مصطفى مؤسسة الرسالة ناشرون ، دمشق سوريا ، ط1 ، 1426هـ/2005م.
– شفاء السائل لتهذيب المسائل ، نشر أغناطيوس عبده ، وخليفة اليسوعي ، دط ، المطبعة الكاثولوكية ، بيروت ، لبنان ، دت

عبد الرحمن بن الجوزي – المنتظم في تاريخ الملوك و الأمم ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، ومصطفى عبد القادر عطا ، مراجعة نعيم زرزور ، دط دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، دت .
- عبد الرحمن بدوي – موسوعة الفلسفة ، ط 1 ، المؤسّسة العربية للدّراسات و النّشر ، بيروت ، لبنان ، 1984 م :ج1
- عبد الرزاق قسوم – عبد الرحمان الثعالبي والتصوف ، دط ، الشركة الوطنية للنشر –الجزائر ، دت.
- عبد العزيز فيلالي – تلمسان في العهد الزياني ، دط ، موفم للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2002م: ج2
- عبد الفتاح عبد الله بركة – الحكيم الترمذي و نظريته في الولاية ، دط ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، لبنان ، دت : ج2
- عبد القادر أحمد عطا – التصوف الإسلامي بين الأصالة و الاقتباس في عصر النابلسي ، ط1 ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان، 1407 هـ/1987م
- عبد القادر الجزائري الأمير – المواقف في التصوف و الوعظ و الإرشاد ، ط2 ، دار اليقظة العربية للتأليف و الترجمة و النشر ، دمشق ، سوريا ، 1967م
- عبد القادر عيسى الحلبي – حقائق عن التصوف ، ط11 ، دار العرفان ، سوريا ، 1993م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- عبد القادر الجيلاني :

– الفتح الرباني والفيض الرحماني ، دط ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، دت

– الغنية لطالبي طريق الحق : تحقيق الشيخ يوسف بن محمود الحاج أحمد ، ط1، المطبعة العالمية ، دمشق ، سوريا ، 1421هـ/2001م

- عبد اللطيف عبادة – التفسير الصوفي للشيخ عبد الرحمان الثعالبي ، ط1 ، مؤسسة عالم الأفكار ، الجزائر ، دت

- عبد الله دراز :

– دستور الأخلاق في القرآن الكريم ، ط10، تعريب عبد الصبور شاهين ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، لبنان ، 1418هـ/1998م

– النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن) ، ط8 ، دار القلم ، الكويت ، 1996م

- عبد الله بن المبارك – كتاب الزهد ، دط ، دار ابن خلدون ، الإسكندرية ، مصر ، دت

- عبد المجيد النجار :

– فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب ،ط1 ،دار الغرب الإسلامي ،بيروت،لبنان،1992م

– المعتزلة بين الفكر و العمل ، دط ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، دت

– فقه الإصلاح بين التربية والسياسة (ابن العربي و ابن تومرت نموذجا) ، ط1 مطبعة التوفيق ، المغرب ، 1997م

– الإيمان و أثره في الحياة ،ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،لبنان ، 1997م

- عبد المنعم الحفني – الموسوعة الصوفية ، ط5 ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، مصر ، 2006م

- عبد الواحد المراكشي – المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تقديم : محمد سعيد العريان ، ومحمد العربي العلمي ، ط 1 ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، 1949م

- عبد الوهاب فرحات – سيدي أبو الحسن الشاذلي ، حياته ، مدرسته في التصوف ، ط1 ، مكتبة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مدبولي ، القاهرة ، مصر ، 2003 م

– العز بن عبد السلام – مقاصد الرعاية لحقوق الله عز وجل ، تحقيق إياد خالد الطباع ، ط1 ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا، 1995م

– علي بن محمد الجرجاني – التعريفات ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط3 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، 1996 .

– علي سامي النشار

– نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ط7، دار المعارف ، القاهرة ،مصر1977م:ج 1

– مناهج البحث عند مفكري الإسلام ، ط3 ، دار النهضة العربية،بيروت،لبنان،1984م

– علي أبو ريان – تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، دط ، دار المعرفة الجامعية ، مصر، 1986م

– الغزالي أبو حامد – إحياء علوم الدين ، ط3 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ،1423هـ/2002م :ج3- 4

– بداية الهداية ، دط ، دار الدعوة الإسلامية ، مصر ، دت

– مكاشفة القلوب المقرب إلى علام حضرة علام الغيوب في علم التصوف ، ط7، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1402 هـ/1982م

– كتاب الأربعين في أصول الدين ، دط ، شركة الشهاب ، الجزائر ، دت

– المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، ط3 ، مكتبة القاهرة ، مصر ، 1425هـ/2004م

– المنقذ من الضلال ، ضمن قضية التصوف و المنقذ من الضلال ، عبد الحليم محمود، ط3 ، دار المعارف، مصر، دت

– فاروق عبد المعطي – محي الدين بن عربي حياته مذهبه زهده ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، 1413 هـ / 1993م

– فاطمة إسماعيل – القرآن والنّظر العقلي ، ط1،المعهد العالمي للفكر الإسلامي،فرجينيا ،و،م،أ:1993م

- ألفرد بل- الفرق الإسلامية في الشّمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ط 3 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1987م .
- القرطبي - الجامع لأحكام القرآن، تصحيح احمد عبد الحليم البردوني، دط، دار الكتب المصرية، مصر، 1954م: ج2
-القشيري - الرسالة في علم التصوف للقشيري ، تحقيق هاني الحاج ، دط ، المكتبة التوفيقية،القاهرة ،دت
- الكلاباذي — التعرف لمذهب أهل التصوف ، ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان 1413هـ/1993م
- الكتاب المقدس —جمعيات الكتاب المقدس المتحدة ، 1966م .
- محمد منير سعد الدين - دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين ، ط2 ، دار بيروت المحروسة ، بيروت ، لبنان ، 1999م
- محمد الغزالي- الجانب العاطفي من الإسلام ، دط ، شركة الشهاب ، الجزائر ، دت
- محمد مرتضي الحسيني الزبيدي - تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق مصطفى حجازي ، من إصدارات المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب ، الكويت ، دط ،1419هـ-1998م :ج 3
- مصطفى الطحان — التربية و دورها في تشكيل السلوك دط ، دار الوفاء ، مصر ، دت
- المحاسبي — الرعاية لحقوق الله ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، ط3 ، دار الكتب الحديثة ، مصر ، 1390 هـ/1970 م

- المحاسبي الحارث :
- الوصايا ، عقيق عبد القادر أحمد عطا ،ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1406هـ/1986 م
— العقل و فهم القرآن ، تحقيق حسين القوتلي ، ط2 ، دار الكندي ، 1978 .

- المروذي أبو بكر أحمد الحجاج — الورع ، تحقيق سمير بن آمين الزهيري ،ط1 ، دار الصيمعي للنشر و التوزيع ، المملكة السعودية ، 1418هـ/1997م

- محمد العربي بوعزيزي — نظرية المعرفة عند الرازي من خلال تفسيره ، ط 1 ، دار الفكر العربي ، بيروت ، لبنان ، 1999م .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- مرزوقي - شرح ديوان الحماسة ، تحقيق أحمد أمين ، وعبد السلام هارون ، ط 2 ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، مصر ، دت

- محمد آكلي أوسليمان بن محمد - مسلك مريد الوصول في أصول التصوف ، د ط ، دار الخلدونية ، الجزائر ، د ت

- محمد بن أبي العز الحنفي - شرح العقيدة الطحاوية ، د ط،دار الشهاب ،باتنة ، الجزائر ، دت

- محمد بن أبي بكر الرازي - مختار الصحاح ، دط ، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1407هـ /1987م

- محمد بن عبد الله التنسي-نظم الدّر و العقيان في بيان شرف بني زيان ، تحقيق محمود بوعياد ، دط المؤسّسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985م

- محمد بن علي التهانوي - كشاف اصطلاحات الفنون ،د ط،خياط، بيروت ،لبنان ، دت : ج 1.

- محمد بن عمرو الطمار - تلمسان عبر العصور،دط،المؤسّسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984م

- محمد بن علي الترمذي - ختم الأولياء ، تحقيق أحمد عبد الرحيم السايح و توفيق علي وهبة ، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر ، 1426هـ/2005م

- محمد بن مريم - البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان ، د ط ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1986 م .

- محمد الحفناوي - تعريف الخلف برجال السّلف ، ط5 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، و المكتبة العتيقة ، تونس ، 1402هـ / 1982 م : ج 2.

- محمد العربي بوعزيزي- نظرية المعرفة عند الرّازي من خلال تفسيره ، ط1 ، دار الفكر العربي ، بيروت ، لبنان ، 1999م .

- محمد البهي - الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ، ط1 ، دار إحياء الكتب العربية ، 1945م .

- محمد سعيد رمضان البوطي :

- شرح الحكم العطائية (شرح و تحليل) ، ط1 ، دار الفكر ، دمشق سوريا ، 2001م : ج1 .

- باطن الإثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين ، دط ، دار البعث ، قسنطينة ، 1987م

- هذا والدي ، ط3 ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، 1416هـ/1995م

- التربية الإسلامية في ميزان البحث ، دط ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، دت

- محمد رضا القهوجي - نظرات في التصوف الإسلامي ، ط1 ، دار الكلم الطيب ، دمشق ، سوريا ، 2004م

- محمد عبد الستار نصار – العقيدة الإسلامية أصولها وتأويلاتها ، ط2 ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، مصر ، 1409هـ/1989م :ج1 .

- محمد جلال شرف- دراسات في التصوف الإسلامي (شخصيات و مذاهب) ، دط ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان، 1404 هـ /1984م

- محمد هاشم سلطان- العقيدة و الفكر الإسلامي ، دط ، دار رحاب ، الجزائر ، 1988م

- محمود زيدان – نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام ، ط 1 ، دار النهضة ، بيروت ، لبنان ، 1989م

- محي الدين بن عربي- الفتوحات المكية ، دط ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع دت

- المروذي أبو بكر أحمد الحجاج – الورع ، تحقيق سمير بن آمين الزهيري ،ط1 ، دار الصيمعي للنشر و التوزيع ، المملكة السعودية ، 1418هـ/1997م

- مسلم النيسابوري- صحيح مسلم ، دط ، دار إحياء التراث العربي ، 1982م

- مصطفى سعيد الخن و محي الدين ديب متو – العقيدة الإسلامية : أركانها – حقائقها – مفسداتها ، ط 3 ، دار الكلم الطيب ، دمشق ، سوريا ، 1999م .

- مصطفى حلمي – معرفة الله عز وجل وطريق الوصول إليه عند ابن تيمية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1424هـ/2004م

- منال عبد المنعم جاد الله – التصوف في مصر والمغرب ، دط ، منشأة المعارف ، الإسكندرية،مصر،دت

- ناجي حسين جودة – المعرفة الصوفية (دراسة فلسفية في مشكلات المعرفة) ، ط1 ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان، 1412هـ/1992م

- - النووي – حلية الأبرار و شعار الأخيار – تحقيق علاء الشريجي و قاسم النوري ، ط1 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان، 1412هـ /1992م

- وكيع بن الجراح - الزهد ، تحقيق عبد الرحمان عبد الجبار الفريوائي، ط 2 ، دار الصميعي للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية 1415هـ/1994: ج 1

- يحي بن خلدون – بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، دط ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ، 1980م :ج1

- **يوسف احنانة – تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي ، ط2 ، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر،**

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الرباط، المغرب ، 2007 م

- يوسف القرضاوي :

- في الطريق إلى الله (الحياة الربانية والعلم) ط1 ،مؤسسة الرسالة ، بيروت ،لبنان 1422هـ/2001م

- في الطريق إلى الله- (التوبة إلى الله) ، ط1 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، 1422هـ/2001م

- موقف الإسلام (من الإلهام و الكشف و الرؤى و التمائم و الكهانة و الرقى) ، ط1، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ،1417هـ/1996م

- يوسف محمد طه زيدان – الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر ، ط1 ، دار الجيل ، بيروت، لبنان ، 1991م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الدوريات :

- إدريس بو وانو – ملامح الفكر المقاصدي في الخطاب الصوفي عند الشيخ أحمد زروق، مجلة إسلامية المعرفة (عدد خاص بقضايا التصوف) ، العدد 36، السنة 09، ربيع 1425هـ/ 2004م

- توفيق الغلبزوري – مدرسة الفقه الظاهري بالأندلس قبل ابن حزم ، أعمال ندوة " ابن حزم الأندلسي " – المنهج والمعرفة – منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالمحمدية ، سلسلة الندوات رقم (18)، ط1 ، جامعة الحسن الثاني ، المحمدية ، المغرب 1426هـ/2005م

- عبد القادر أحمد عبد القادر ، السنوسي التلمساني الجامع بين علوم الباطن و الظاهر – مصنفاته المخطوطة و أماكن وجودها – مجلة آفاق الثقافة و التراث ، العددان : 22-23 ، السنة 06 ، جمادى الثانية 1419هـ/ أكتوبر 1998م

المراجع الأجنبية :

- djamchid (mortazavi) – le soufisme , poule balta , islame – civilisation et socitès ,edt . du rocher , paris , 1991.
- louis (rinn) – marabouts et khouan , ètude sur l,islam en algèrie , libraire de l,acadèmie , alger , 1884.
Dictionnaire, encyclopédique d'islam – bardas , paris , 1991 .
- Gérard le grand dictionnaire de philosophie ; France , 1972

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

sophiste ainsi que toutes les preuves citées par cheikh Senouci.

Chapitre 6 : le chapitre 6 intitulé « l'expérience de goût de Cheikh Senouci » que j'ai divisé en trois sous chapitres aussi. Dans le premier j'ai abordé le concept du goût selon Cheikh Senouci dans le second j'ai abordé les conditions et les étapes de l'expérience du goût et ses bienfaits. Dans le troisième j'ai abordé les caractéristiques de l'expérience du goût selon Cheikh Senouci.

Dans la conclusion j'ai abordé les différents résultats atteints dans cette thèse.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

Dans le premier j'ai abordé le concept du sophisme et dans le second ses principes fondamentaux.

Chapitre 3 : le chapitre 3 intitulé « la méthode sophiste selon cheikh Senouci » que j'ai divisé en trois sous chapitres. Dans le premier j'ai abordé l'appui de Senouci sur la science et la raison comme base du sophisme. Dans le second j'ai insisté sur la nécessité de fonder une croyance basée sur la preuve, et dans le troisième sous chapitre j'ai abordé la pratique sophiste comme résultat de ce qui a précédé.

Chapitre 4 : le chapitre 4 intitulé « l'essence humaine, ses défauts et comment les combattre » que j'ai divisé en trois sous chapitres aussi. Dans le premier j'ai abordé la nature de l'essence humaine et ses défauts. Dans le second j'ai abordé les défauts de l'essence humaine et dans le troisième j'ai suivi les différentes astuces suggérées par cheikh Senouci pour combattre ses défauts.

Chapitre 5 : le chapitre 5 intitulés « la gouvernance (wilaya) le miracle (el karama) le dévoilement (el moukachafa) et les visions » ; que j'ai divisé en trois sous chapitres. Dans le premier j'ai abordé la gouvernance (el wilaya). Dans le second j'ai abordé le miracle (el karama) et dans le troisième j'ai abordé le dévoilement (el moukachafa) considérée comme une pratique

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

la vérité afin de parvenir à être le (wali) de Allah. Selon lui c'est celui qui possède la vraie connaissance du goût basée sur la connaissance officielle produite par les preuves de la raison et celles de la religion, car la preuve de la validité du goût chez (l'imam) est que ça va avec les témoignages de la science.

Dans le but d'approfondir et de valoriser la pratique du goût, cheikh Senouci a instauré des conditions scientifiques pour ceux qui veulent la pratiquer pour arriver aux buts désirés.

La nature de cet exposé exige qu'on le traite sous six chapitres et une conclusion.

Chapitre 1 : le chapitre 1 intitulé « Sencoui, sa vie et ses contemporains » est divisé en deux sous- chapitres. Dans le premier, j'ai essayé d'étudier la vie politico- sociale et culturelle dans laquelle cheikh Senouci a vécue, ce qui va me permettre de découvrir les principaux facteurs qui ont contribué à l'élaboration de sa pensée. Dans le second j'ai étudié sa personnalité et les différentes étapes de sa vie, de la naissance jusqu'à son décès.

Chapitre 2 : le chapitre 2 intitulé : « le concept et les principes du sophisme selon Cheikh Senouci » que j'ai divisé en trois sous chapitres.

Résumé

Tous les travaux de Cheikh Senouci révèlent que le coran et la sunna étaient bel et bien à l'origine de ses principes ainsi qu'à sa méthode sophiste.

Ce témoignage est fait par les historiens qui ont suivi son parcours sophiste, c'est aussi celui de ses maîtres sophistes et plusieurs de ses contemporains.

Cheikh Senouci était convaincu qu'il n'y avait qu'une seule possibilité pour accéder au sophisme, c'est celle de la religion. Pour lui les frontières de la religion sont les même que celle du sophisme, et rien ne peut exister hors le cercle de l'islam ; ce qui implique que le sophisme n'est que l'islam avec un certain goût.

Cheikh Senouci n'est pas un fondateur d'une méthode sophiste ou ascétique, et s'il se trouve dans ce monde de goût, ce n'est que la fin naturelle à laquelle aboutisse un vrai croyant, celui qui cherche la vérité avec son esprit et son cœur, ensuite il s'adapte une voie spécifique car la pratique sophiste n'est que le résultat de la croyance.

Pour cheikh Senouci, le plut haut grade que l'être humain peut atteindre pour réaliser la perfection spirituelle c'est de suivre le chemin de